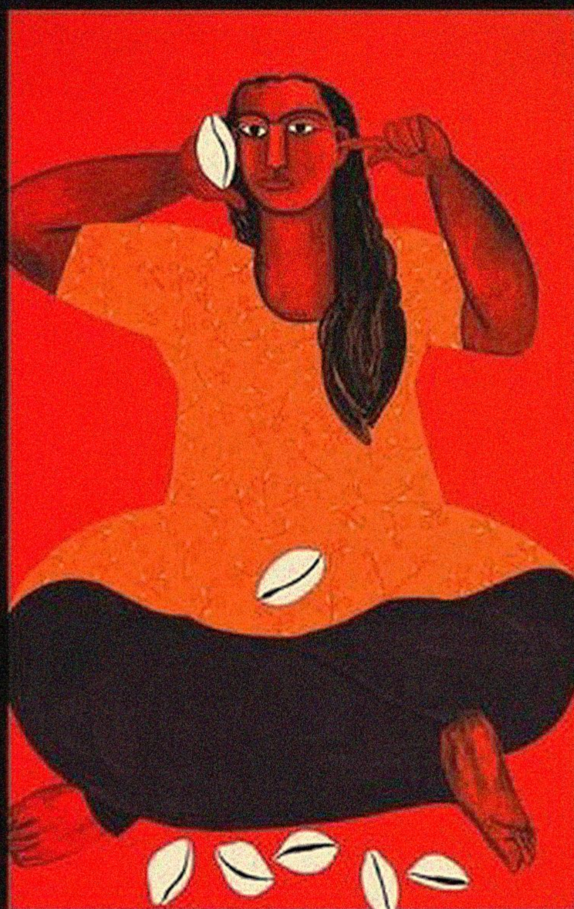




المشروع القومي للترجمة

أرونداتى روى

رب الأشياء الصغيرة



الرواية الفائزة بجائزة "بوكر" البريطانية عام ١٩٩٧

441

ترجمة : فخرى لبيب

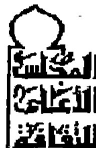
المشروع القومى للترجمة

ربُّ الأشياء الصغيرة

(الرواية الحائزة على جائزة بوكر لعام ١٩٩٧)

تأليف : أرونداتى روى

ترجمة : فخرى لبيب



٢٠٠٣

المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

– العدد : ٤٤١
– ربُّ الأشياء الصغيرة
– أروونداتى روى
– فخرى لبيب
– الطبعة الأولى ٢٠٠٣

ترجمة كاملة لرواية :

The God of Small Things

Arundhati Roy : تأليف

والحاصلة على جائزة بوكر البريطانية عام ١٩٩٧

India Ink : الناشر

1997

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة ت : ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس : ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

Tel : 7352396 **Fax** : 7358084

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

المحتويات

مقدمة المترجم

إن رواية "ربُّ الأشياء الصغيرة"، رواية ذات طعم خاص ، طعم يظل طويلاً وقد ارتشفته كل الحواس ، إنها رواية تتوالى فيها أجيال لا يرث بعضها غير المرارة والعلقم، ميراث قدرى لا يملك الوريث إلا أن يتسلم نصيبه منه، حتى وإن كان ذلك رغمًا عنه. كما تتوالى شرائح اجتماعية تتفوق رذائلها على فضائلها، تتصارع داخليًا فيما بينها، وخارجيًا مع غيرها، إننا أمام عالم يمور بالحياة، حياة يتصل ماضيها: تراثها وأساطيرها، بحاضرها ومستقبلها .

تبدأ الرواية بعودة «راهيل» إلى «أيمينم»، فى مايو: الشهر «الحار الرطب، بلياليه الصافية المخضبة باحتمالات البلادة» ، راهيل تعود لتلتقى بشقيقها التوءم «إستا»، فى السن التى ماتت فيها أمها، سن الواحدة والثلاثين ، يلتقيان فى المنزل أعلى التل، وقد أصاب الصدأ والتآكل كل شىء .

تبدأ الرواية وقد أوشكت الأحداث على ختامها، و«بيبى كوشاما»، عمة أمها الصغرى، ومصدر عذابهما لسنين طويلة، والتى دمرت كل شىء، تقبع تنعق كالبومة فيما تبقى من خرائب . لكن الراوية تستعيد البداية مرة أخرى، تستعيدها قرب نهاية الفصل الأول ، إن «صوفى مول» ابنة الخال «شاكو»، ومطلقته الإنجليزية «مرجريت كوشاما» قادمتان للفسحة فى الهند ، غير أن صوفى مول تموت غرقًا ، ويبدأ خط الموت مساره، باعتباره المحور الذى تدور الأحداث حوله، إن قربًا أو بعدًا، ويتداخل الحاضر بالماضى والمستقبل أيضًا ، فى اتساق مع البداية بالنهاية، فالراوى هنا عليم بالنهاية منذ البداية .

وكما يتداخل الحاضر بالماضى والمستقبل تتداخل الأسطورة بالواقع ، ويروى راقص «الكاثاكالى» القصص بجسده، الذى هو روحه ، وتعلى الكاتبة من سحر قصص التراث، «التى يعرف المرء نهايتها سلفًا، ومع ذلك ينصت إليها، يسمعها،

وكأنه لا يعرف النهاية. المرء يعرف فى القصص العظيمة من يعيش ومن يموت ، من يجد الحب ومن لا يجده، ومع ذلك، فإنه يود أن يعرف ثانية ، إن سر القصص العظيمة أنها بلا أسرار» .

ويلفت النظر في هذه الرواية، ذلك الحشد الباهر للألوان ، واللون هنا تجسيد للأشياء ، إنه فى عالم النبات، فى الأشجار الخضراء المتربة، البنية الحمراء بلون الخريف ، وألوان قمع ثمار الزينة تتراوح من ظلال الأسود المرقط إلى الأحمر فى لون الدم ، ويتنوع اللون فى عالم الكائنات الحيوانية، فالذباب أزرق، وذكور الضفادع صفراء ، والخفاش أسود، وديدان الأرض أرجوانية : بنية بلون الصدأ ، وهنالك حدأة ساخنة حمراء، عيناها خضراوان ، ويبدو اللون كالنغم فى عالم البشر، فتلك امرأة جسدها بنى ذهبى فى لون الجوز، وشعرها فى لون الزنجبيل، وذلك رجل بنى غامق فى ملابس بلون العسل الفاتح، شكولاتة مجدولة بالقهوة ، سطح العضلات بلون الشهد، وسقف الحلق قرنفلى .

كل الأشياء ملونة:المبانى ، والمنسوجات ، ومفردات الطبيعة .

وتلجأ الكاتبة إلى تجسيد ما هو وجدانى؛ ليصير حسيًا يمكن للمرء أن يشمه أو يتذوقه كأن نقول: «إن صوت جولى أندروز»، فى فيلم صوت الموسيقى، أشبه بماء الورد، وأنفاسها أشبه «بالنعناع»، و«لكل شيء رائحة المطر» ، وكذلك قولها : « إن رائحة النوم تفوح من التاكسى » ، « إن السائق يختزن فيه روائحه».

وتعمد الكاتبة أحيانًا إلى تقسيم الجملة الواحدة، وكأنها تنبه القارئ إلى التمهل والتوقف، فهو أمام معان هامة ، مثال ذلك : «لم يرها إستا هكذا ألبتة ، مهتاجة ، مريضة ، حزينة » ، « مظلم جاف بارد، بلا سقف ، وأعمى » .

ويتسم أسلوب الروائية بالذكاء الشديد، والتكثيف العميق، فتصيغ صورًا جديدة، مبهرة ورائعة. الرواية عامرة بالمتع الذهنية التى تمسك بالقارئ فيلتحم بالنص ليغدو جزءًا منه لا ينفصل عنه ، إنها تعيد صناعة الطبيعة والناس والمشاعر، تطليها بألوان رؤاها، وتعيد تشكيلها، فتبدو متحركة صاخبة أو هادئة، لكنها - أبدًا - لن تكون ساكنة ، والأمثلة وافرة : « كان الصوت مثل جرس عميق الصدى فى بئر يغطيه

الطحلب». «كان الضوء يرشح عبر الأبواب ، عبر الأشجار» ، «كان الحزن طازجًا» ، و«فراشات تطير خلال الهواء» « مثلها مثل رسائل سعيدة » ، « الحروف تقاوم تشكيل الكلمات » ، « والكلمات تقاوم أن تصبح جملاً » ، «أنسجة عنكبوت عملاقة انتشرت، مثل إشاعة، من شجرة إلى أخرى » ، « الليل يستند بمرفقيه إلى الماء، والنجوم الهاوية تطلق شقشقتها الهشة » ، « مثل علامة استفهام انجرفت عبر صفحات كتاب، ولم تستقر قط فى نهاية جملة » .

إن لكل ما سبق علاقة ما بالشكل ، أما المضمون فقد امتد ؛ ليشمل مساحة عريضة من المجتمع الهندى فى ولاية كيرالا، تتميز، من خلال العرض، قضية هامة تبرز مضفرة عبر النسيج كله ، إنها قضية : **« النبذ والمنبوذين »** .

لقد حدث - عندما جاء البريطانيون إلى «مالابار» - أن تحولت أعداد من المنبوذين إلى المسيحية ، والتحقوا بالكنيسة الإنجيلية ، هربًا من نقمة النبذ ، غير أنه لم يمض وقت طويل حتى اكتشفوا أنهم قد «قفزوا من طاسة القلى إلى النار». إذ فُرضت عليهم كنائس منفصلة ، ومنحوا أسقفًا منبوذًا، وكأنه قد غدا عليهم أن يمسحوا آثار أقدامهم دون مكنسة (كان على المنبوذ أن يمسح آثار أقدامه بمكنسة حتى لا ينجس من يخطئ ويطأها) ، أو أنه لم يعد يُسمح لهم بترك آثار أقدامهم على الإطلاق .

ولا يقف النبذ عند حد الانتماء إلى طوائف أو جماعات بعينها، مثل جماعة البارافان، لكن هنالك نبذ من نوع آخر : إن البعض يؤمن بأن الابنة المتزوجة ليس لها مقام فى منزل والديها ، أما الابنة المطلقة فليس لها مقام على الإطلاق فى أى مكان ، أما الابنة المطلقة من زواج قائم على الحب، فإنها تثير الغضب بطريقة لا توصف. أما الابنة المطلقة من زواج مختلط قائم على الحب (مسيحية تتزوج بهندوسى، مثل آمو) فتلك ابنة تثير الانتفاض ، وتتفاقم الأمور إن أنتج مثل هذا الزواج أطفالاً، فسيدعوهم البعض أطفال زنا، وتحرم من أقدمت عليه من الميراث .

وهنالك صورة أخرى للتعامل القائم على التعالى، وهى صورة من صور النبذ أيضًا. إذ يقول شاكو ساخرًا - وهو من تعلم فى أوكسفورد وزعم تبنيه الفكر التقدمى - : «إن للهندوس قرونًا وجلودًا حرشفية، وإن أطفالهم يخرجون فقسًا من البيض » .

وتتجسد غالبية تلك الصور فى آمو، ابنة باباشى وماماشى، وشقيقة شاكو، ووالدة راهيل وإستا، وحلقة الـوصل بين جيـل الأجداد وجيل الأحفاد ، لقد تزوجت من هندوسى وطلقت منه، وتلك خطيئة ، ثم عشقت ڤيلوتا البارافان المنبوذ، وتلك جريمة ، وبذا سقطت فى النبذ مرتين ، وأنجبت طفلين حلّت عليهما اللعنة، وأوقع بهما العقاب، كما أوقع العقاب بأمهما، أما ڤيلوتا البارافان، فقد قتل ركلاً بالأحذية ؛ لأنه تجاسر وتجاوب مع امرأة تنتمى لغير المنبوذين.

والمثير فى هذه المآسى أن من تزعمت التحريض عليها هى بيبى كوشاما، العمة الصغرى لآمو ، وهى امرأة رديئة أقدمت على مغامرة حب فاشلة، فعمدت إلى إخفاء مشاعرها وممارسة كل ما يدينها سرّاً. لقد أحبت راهبًا كاثوليكيّاً، وحاولت أن تدفعه إلى أحلامها، غير أنها لم تنجح تمامًا فى سعيها، فتحولت من السريانية إلى الكاثوليكية، وذلك أمر شائن، إذ كان والدها المبجل أ. جون إيب رجل دين سريانى يسىء إليه تحول ابنته من ملته إلى ملة أخرى ، ومع ذلك، فهى فى سبيل حبها المحرم لا تراعى شيئًا، بل تلجأ إلى الرهبنة ؛ حتى تتمكن من أن تكون قرب من تحب ، وعندما تفشل فى تحقيق غرضها مرة أخرى، وتعجز عن تحمل تبعات الرهبنة، تعود إلى دار أبيها ، وتُراسل حبيبها سراً.

الرواية تغوص بنا بعمق وصدق وواقعية داخل المجتمع فى كيرالا : إنها تقدم لنا أسرة مسيحية سريانية تنتمى إلى الطبقة الوسطى ، فرأس هذه الأسرة : باباشى عالم حشرات يلقى الفشل فى تسجيل فراشة اكتشفها، فيتمزق حزنًا وأسىً على ما أصابه من غبن ، وهو فى ذات الوقت زوج باطش ؛ يضرب زوجته ماماشى وابنته آمو ، إن زوجته تنجح وتقيم مصنعا للمخللات وأنواع المربى المختلفة، لكنها تفشل فى حياتها الزوجية فشلاً ذريعًا ، ولا يحميها من زوجها غير تهديد ابنها شاكو له ، فيعتزل الأب كل شىء حتى يموت.

وتتزوج الابنة آمو من هندوسى، هربًا من أسرتها، وخاصة أبيها ، وإذا بهذا الزوج سكّير مدمن، يقبل أن يدفعها إلى فراش رئيسه إبقاء على وظيفته، فترفض وتنطلق وتعود إلى أسرتها ومعها طفلاها التوأمان راهيل وإستا، حيث تعيش قصة حب ناعمة مع ڤيلوتا المنبوذ ، وتنتهى القصة بقتله وطردها من المدينة ، وتموت آمو وحيدة

فى حجرة قذرة، فى فراش غريب، فى غرفة غريبة، فى مدينة غريبة، وترفض الكنيسة دفنها، فتحرق جثتها .

ويتزوج الابن شاكو من بريطانية، تنجب له ابنته صوفى مول ، غير أن زوجته تحب رجلاً آخر، تحب چو: الذى وجدت فيه ما لم تجده فى شاكو، وتطلب الطلاق وتناله ، إلاَّ أن حبيبها تدهمه سيارة، فيتمزق قلبها على حبها القتيل ، وتسافر إلى الهند، إلى زوجها السابق شاكو، بناء على دعوته، ومعها ابنتهما صوفى مول، وقد بلغت التاسعة من عمرها، وتعلن الطفلة لأبيها أنها لا تحبه، لكنها تحب صديق أمها ، وبذا يصبح شاكو الزوج السابق، والأب السابق أيضًا ، ثم تغرق صوفى مول ؛ ليكون ذلك الحدث بداية إعصار يجتاح كل ما فى طريقه .

ويدير شاكو مصنع المخللات بعد وفاة باباشى، غير أنه يقود المصنع إلى الدمار، فيغلق، وتباع بعض حقول الأرز المملوكة للأسرة سداداً لقروض من البنك ، ويهاجر شاكو إلى كندا .

وتتزوج راهيل ابنة آمو وحفيدة باباشى من لارى مك كاسلين، زواج بين هندية وهندى، ينتهى بالفشل أيضًا ، وبالطلاق أيضًا ، وبدون إنجاب.

ويشب إستا توءم راهيل فى منزل أبيه، منزوعًا من أمه، مغتربًا عن أخته وعائلته ، ويرفض الالتحاق بالجامعة ، مهتمًا بالأعمال المنزلية كالكنس والطبخ والغسيل وتسوق الخضراوات ، لا أحد يحس بوجوده ، يبدو كفقاعة ساكنة فوق سطح بحر من ضجيج.

ويرى الرفيق ك.ن.م. بيلاى المسئول الشيوعى لمدينة أيمينم عن الحزب الماركسى الحاكم، أن ما حدث ويحدث لأى فرد من هذه الأسرة، إنما هو ثورة حقيقية ، «إذ أن البورجوازية المسيحية فى كيرالا قد بدأت تدمير ذاتها بذاتها».

إن واحدة من أكثر الأمور إضاءة ارتباطًا بهذه الرواية، هى أنها الرواية الأولى للروائية الهندية أرونداتى روى، التى تعلمت وتدربت كى تكون مهندسة ، ثم عملت كمصممة إنتاج ، وكتبت سيناريو وحوار فيلمين ، وقد قوبلت روايتها هذه بالثناء فى المجلات الهندية ، والبريطانية ، والأمريكية ، وحققت أفضل المبيعات الدولية، «رقم١» ، ونالت جائزة البوكر لعام ١٩٩٧.

وقد اختارت أرونداتي روى عنوان روايتها «رب الأشياء الصغيرة» بعناية تعبيراً عن المنبوذين ؛ فرب الأشياءِ الصغيرة هو الذى :

لم يترك أية تموجات فى الماء

ولا آثار أقدام على الشاطئ

رب الضياع

رب الأشياء الصغيرة

إنه ڤيلوتا المنبوذ ، رب الضياع ، رب الأشياء الصغيرة، الذى لا يترك أثراً فى الرمال، ولا تموجات خفيفة فى المياه، ولا صورة فى المرايا.

إنه موجود وغير موجود ، لا أثر له ، ولا انعكاس لصورته ، إنه لاشىء ، كائن بلا كيان ، إنه المنبوذ تجسيد الضياع.

ولا يفوتنى فى نهاية هذه المقدمة شكر السيد أ.أ. ڤيديا سيكيرا (سريلانكا) منسق السكرتارية الدائمة لمنظمة تضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية ، والأستاذ كلاماندلم مورالى بروفيسور رقصة الكاثاكالى، بكلية الموسيقى والرقص جامعة فيشوبهاراتى بالهند لما قدماه لى من عون فى التعرف على بعض مما جاء من كلمات باللغة المالايالامية .

إهداء

من أجل ماري روي التي ربتني
وعلمتني أن أقول « عُذرًا » قبل
أن أقاطعها علنًا .
وأحبتني كثيراً إلى حد إطلاق سراحي .
من أجل الـ كي . سي – التي بقيت حية مثلي .

شكر المؤلفة

براديب كريشن ، أكثر نقادى صواباً ، أقرب أصدقائى ، حبى ، الذى ما كان لهذا الكتاب بدونه أن يكون .

بيا وميثفا ؛ لكونهما ملكاً لى .

إرادهانا ، وآرجون ، وبيت ، وشاندو ، وكارلو ، وجولاك ، وأندو ، وجوانا ، وناهيد ، وفليب ، وسانجو ، وفينا ، وفيفيكا ؛ لزيارتهم لى عبر السنوات التى قضيتها أكتب هذا الكتاب .

بانكاج ميشراً لرفعه الكتاب راية ترفرف عبر رحلته فى العالم .

ألوك راى وشوميت ميتر ؛ لأنهما نوع القراء الذين يحلم بهم الكُتّاب .

دافيد جودوين ، الوكيل الطائر ، المرشد والصديق ؛ من أجل إقدامه على تلك الرحلة العامرة بالزخم إلى الهند .

نيلو ، وسوشما ، وكريشنان ؛ لإبقائهم على معنوياتى عالية ، وخطاى تعمل بانتظام .

وأخيراً ، وبلا حدود ، أبى وأخى الأكبر ؛ لحبهما ودعمهما لى .

شكراً لكم

لن تروى قصة واحدة وكأنها القصة الوحيدة ثانية البتة

چون برجر

الفصل الأول

مخللات ومربات الفردوس

شهر مايو فى أيمينم شهر حار، يثير الهموم ، الأيام طويلة رطبة ، النهر ينكمش، ينزوى، والغربان تلتهم المانجو اللامع على أشجار ساكنة خضراء مترية، الموز الأحمر ينضج ، والفواكه العذبة تتفجر ، والذباب الكبير الأزرق الفاسق يطن غبيًا فى الجو المفعم برائحة الفاكهة، ثم يصعق نفسه فى مواجهة النوافذ الزجاجية الصافية ويموت فى الشمس، وقد أعيته سمنته.

الليالى صافية وإن كانت مخضبة باحتمال بلادة وغضب مكفهر.

الرياح الموسمية الجنوبية – الغربية تنفجر فى أوائل يونيو، وهناك أشهر ثلاث من ريح وماء مع نوبات قصيرة من شمس ساطعة جادة تتلألأ، يختطفها الأطفال وقد هزتهم النشوة ليلهون بها، ويتحول الريف إلى خضرة فاقعة ، وتتلطخ الحدود عندما تحمل سياجات البتوكة [(1)] الجذور والزهور ، وتتلون الجدران القرميدية بخضرة الطحلب ، وتتلوى عرائش الفلفل، وتزحف أعلى الأعمدة الكهربية ، وتنبثق الزواحف البرية عبر الجسور الطوبية الحمراء ، وتنسكب خلال الطرق التى غمرها الفيضان ، القوارب تسعى إلى البازارات ، وتظهر الأسماك الصغيرة فى بركة النشع التى تملؤها حفر الـ «B. W. D» [(2)] الأشبه بالأصص على الطرق العمومية.

كانت تمطر عندما عادت «راهيل» إلى «أيمينم » تحمل حبالاً فضيّة موروبة تحز فى الأرض السائبة، تقلبها حرثًا مثل إطلاق البنادق للرصاص ، وارتدى المنزل أعلى التل سقفه الهرمى الجمالونى شديد الانحدار ، والمشدود فوق أذنيه مثل قبعة واطئة ، الجدران وقد خططها الطحلب غدت لينة ، وانتفخت بعض الشىء فى رطوبة الأرض

الراشحة ، وامتلأت الحديقة البرية، التى نمت بصورة مفرطة، بهمس كائنات حيَّة صغيرة ومروقها فراراً فى سرعة ، وحية آكلةً للفئران فى الشجيرات التى تنمو تحت الأشجار وبينها فى الغابة، تحك نفسها على حجر يتألق ، ذكور ضفادع صفراء تجوب البركة برغوتها بحثًا فى أمل عن أقران ورفاق ، ونمس مبلل برق عبر الدرب الذى يغطيه نثر أوراق الشجر.

بدا المنزل ذاته خاليًا ، كانت الأبواب والنوافذ مغلقة ، والشرفة الأمامية عارية خالية من الأثاث ، غير أن البليموث الزرقاء، بلون السماء، بأطرافها التى بلون الكروم، كانت ماتزال واقفة فى الخارج، وفى الداخل كانت «بيبى كوشاما» ماتزال حية.

إنها العمة الصغرى لأم راهيل، والشقيقة الصغرى لجدها لأمها ، كان اسمها فى الحقيقة ناقومى، «ناقومى إيب»، غير أن الكل كان يدعوها بيبى ، ثم غدت بيبى كوشاما عندما كبرت بما يكفى لتكون عمة ، غير أن مجىء راهيل لم يكن لرؤيتها ، ولم تتصرف ابنة الأخت، أو عمة الأم الصغرى على أساس هذا الوهم ، لقد جاءت راهيل لترى أخاها « إستا » ، كانا توأمى بيضتين ، وقال الأطباء عنهما : إنهما «انحدرا من لاقحتين» ، وُلدا من بيضتين منفصلتين خصبتا فى ذات الوقت ، إستا - إستابن كان الأكبر بثمانى عشرة دقيقة.

لم يكن إستا وراهيل يشبهان بعضهما ألبتة، وحتى عندما كانا طفلين نحيلى الذراعين، مسطحى الصدرين، يشبهان الديدان ولفة شعر إلفيس بريسلى، لم يكن أحد من الأقارب الذين يبتسمون كثيراً، والمطارنة الأرثوزكس السريان الذين كثيراً ما كانوا يجيئون لزيارة منزل إيمينم من أجل الهبات والتبرعات ، يسألون الأسئلة المألوفة : « من هذا ومن ذاك ؟ » : و« ما هذا وما ذاك ؟ » .

كانت الحيرة تكمن فى مكان أعمق وأكثر سرية.

فى تلك السنوات المبكرة التى لم تكن قد تبلورت بعد، عندما كانت الذاكرة قد بدأت لتوها، وعندما كانت الحياة مليئة «بالبدايات» دون «نهايات»، وكان كل «شىء» أبديًا ، فكر إستابن وراهيل فى نفسيهما معًا، باعتبارهما «أنا»، ومنفصلين كل منهما بمفرده، باعتبارهما «نحن» أو « ...نا»[٣]، كانا وكأنهما سلالة نادرة من التوائم السيامية، منفصلين جسديًا، لكنهما يمتلكان هوايات مشتركة.

والآن، وتلك السنوات متأخرة فيما بعد، تتذكر راهيل يقظتها ذات ليلة تقهقه على حلم إستا الهزلي المثير للضحك .

إن لديها أيضًا ذكريات أخرى، ذكريات ليست من حقها.

إنها تتذكر، مثلاً ، (رغم أنها لم تكن هنالك) ماذا فعل رجل شراب البرتقال وشراب الليمون بإستا فى إبهيلاش تالكيس ، إنها تتذكر طعم سندوتشات الطماطم - سندوتشات إستا، والتى أكلها إستا فى قطار بريد مدراس، فى الطريق إلى مدراس.

وتلك هى فقط الأشياء الصغيرة .

إنها على أية حال، تفكر الآن فى إستا وراهيل باعتبارهما «هما» ؛ لأن كلاً منهما منفرد، لم يعد بعد ما كانه، ولا يمكن أن يكونه كما كان التفكير فيه ألبتة .

لحياتهما الآن حجم وشكل : لإستا حجمه وشكله، ولراهيل حجمها وشكلها.

ظهرت الأطراف والحواشى والتخوم والحواف والنهايات على أفقيهما المنفصلين مثل فريق أقزام خرافية ، كائنات صغيرة ذات ظلال طويلة، تطوف حول النهاية الضبابية ، أشكال هلالية رقيقة تجمعت تحت أعينهما وهما فى عمر «أمو» عندما ماتت فى الحادية والثلاثين.

لم تكن عجوزًا.

لم تكن شابة.

لكنها ماتت فى السن التى يمكن أن يموت فيها الإنسان.

لقد وُلد إستا وراهيل فى سيارة ركاب تقريبًا ، السيارة التى أخذ فيها « بابا شئ » والدهما «أمو» أمهما إلى المستشفى فى «شيلونج» حتى تلدهما، وتعطلت على طريق عزبة الشاى المتعرج فى آسام. فتركا السيارة، وأوقفا سيارة نقل من سيارات الدولة المزدحمة. وقد أفسح بعض الركاب الجالسين مكانًا لهما، بسبب ما يكنُّه الفقراء للغاية من شفقة غريبة على من همَ نسبيًا - أفضل منهم حالاً، أو ربما فقط لأنهم رأوا كيف كانت آمو حبلى بصورة هائلة، وكان على والد إستا وراهيل أن

يمسك ببطن أمهما (وهما داخلها) حتى يمنعها من التمايل والترنح ، كان ذلك قبل أن ينطلقا وتعود آمو للحياة فى «كيرالا».

كان من حقهما، حسبما يقول إستا، الركوب مجانًا طوال حياتهما، إن كانا قد ولدا فى سيارة الركاب ، لم يكن واضحًا من أين جاء بهذه المعلومة، أو كيف عرف بهذه الأشياء، غير أن التوءمين ظلا - لسنوات - يضمران استياءً هينًا من والديهما ؛ لأنهما حرماهما من ركوب مجانى فى سيارة الركاب طوال حياتهما.

كانا يؤمنان أيضًا بأنهما إن قتلا وهما يعبران علامة عبور المشاة، فإن الحكومة تدفع نفقات جنازتيهما - كان لديهما انطباع يقينى بأن علامات عبور المشاة إنما وجدت من أجل ذلك ، من أجل الجنازات المجانية ، بالطبع لم تكن هنالك علامات عبور للمشاة فى أيمينم ليقتل الناس فيها، أو حتى فى «كوتايام» أقرب مدينة إليهم، من أجل هذا الغرض ، غير أنهما كانا قد رأيا البعض منها من نافذة السيارة عندما ذهبا إلى «كوشين»، والتى كانت تبعد عنهم مسافة ساعتين.

إن الحكومة لم تدفع لجنازة «صوفى مول» ألبتة ؛ لأنها لم تقتل على علامة مرور المشاة. لقد ماتت فى أيمينم، فى الكنيسة القديمة المدهونة بدهان جديد، كانت ابنة خال إستا وراهيل، ابنة خالهم «شاكو»، كانت قد جاءت من إنجلترا للزيارة ، كان إستا وراهيل فى السابعة عند موتها، وكانت صوفى مول فى التاسعة تقريبًا، أُعد لها تابوت خاص بحجم الأطفال.

مبطن بالأطلس .

تتألق مقابضه النحاسية الصفراء .

ورقدت فى سروالها «الكريمبلين» الأصفر بمؤخرته الواسعة المتوهجة وقد وُضع شعرها فى شريط، ومعها حقيبتها «الجو-جو» المصنوعة فى إنجلترا والتى كانت تحبها، كان وجهها ممتقعًا مجعدًا مثله مثل إبهام الغسال من طول وجوده فى الماء ، واحتشد الجمع حول التابوت، وانتفخت الكنيسة الصفراء، مثل الحلق، بصوت الغناء الحزين، والقساوسة بشعر ذقونهم وقد تجعد، يطوحون أقداح البخور المشدودة

بسلاسل دون أن يبتسموا للأطفال ألبتة ، بالطريقة نفسها التى يبتسمون بها لهم أيام الآحاد العادية .

مالت وانحنت شموع مذبح الكنيسة الطويلة، لكن القصيرة منها لم تنحنِ .

وسيدة عجوز متخفية كأنها تمت لهم بصلة قرابة بعيدة (وإن لم يتعرف أحد عليها)، لكنها غالبًا ما تظهر فى الجنازات قرب أجساد الموتى (هل هى مدمنة جنازات؟ أم أنها تضمر اشتهاء الموت ؟ !) تضع كولونيا على حشوة من قطن صوفى تربت بها على جبهة صوفى مول متحدية خاشعة ورقيقة ، وغدت رائحة صوفى مول مزيجًا من رائحة الكولونيا وخشب التابوت.

لم تسمح «مرجريت كوشاما»، والدة صوفى مول الإنجليزية لشاكو، والد صوفى مول البيولوچى، بأن يضع ذراعه حولها مواسيًا .

العائلة وقفت مجتمعة متزاحمة: مرجريت، شاكو، بيبى كوشاما، تتلوها «ماماشى» زوجة أخيها - وجدة إستا وراهيل (وصوفى مول) ، كانت ماماشى عمياء تقريبًا، ترتدى دومًا نظارة قاتمة عندما تخرج من المنزل ، كانت دموعها تسيل إلى أسفل من وراء النظارة، لترتعش على امتداد فكها، مثلها مثل قطرات ماء على حافة سقف ، بدت ضئيلة، عليلة، فى ساريها الأبيض الرمادى المتغضن ، كان شاكو هو ابن ماماشى الوحيد ، كان حزنها هى يكدرها ، وكان حزنه هو يدمرها .

كان قد سُمح لآمو وإستا وراهيل بحضور الجنازة، غير أنهم أُوقفوا منفصلين عن الآخرين، منفصلين عن بقية العائلة ، ولم ينظر أى أحد إليهم .

كان الجو فى الكنيسة حارًا، وقد تغضنت أطراف الزنابق الآرومية وتجعّدت، وماتت نحلة فى كفن من زهور، يدا آمو تهتزان ومعهما يهتز كتاب التراتيل ، كان جلدها باردًا ، ووقف إستا إلى جوارها، بالكاد يقظًا، عيناه المتألمتان تلمعان مثل الزجاج، وخده الملتهب على جلد ذراع أمو العارى المرتعش الحامل لكتاب الترانيم.

وراهيل من الناحية الأخرى، كانت يقظة تمامًا، منتبهة بشدة، هشة تعبًا وإعياءً من معركتها فى مواجهة «الحياة الحقيقية» .

وقد لاحظت أن صوفى مول كانت تبدو يقظة لجنازتها، وأنها أظهرت لراهيل «شيئين» : «الشيء الأول» كان قبة الكنيسة الصفراء حديثة الطلاء، والتى لم ترها راهيل من الداخل ألبتة، كانت مطلية باللون الأزرق مثل السماء، مع سحب منساقة، وطائرات نفاثة دقيقة، تصدر أزيزًا تتبعها آثار بيضاء تتقاطع مع السحب ، كان من الأيسر حقًا – وذاك ما يجب أن يقال – ملاحظة تلك الأشياء الراقدة فى تابوت تنظر إلى أعلى، بدلاً من الوقوف فى مقاعد خشبية، محاطًا بأرداف وكتب تراتيل حزينة .

وفكرت راهيل فى ذاك الشخص الذى تحمّل عبء الصعود إلى هناك، ومعه صفائح الطلاء، طلاء أبيض للسحب وأزرق للسماء، وفضىّ للنفاثات، والفرش ، والسائل الطيار الذى يجعل الدهان أكثر رقة ، تخيَّلتهُ هناك أعلى، شخصًا ما مثل «ڤيلوتا»، عاريًا يلمع، يجلس فوق لوح خشب سميك، يتأرجح مع سقالة البناء فى قبة الكنيسة، يرسم نفاثات فضّية فى سماء الكنيسة الزرقاء .

وفكرت ماذا يمكن أن يحدث إن انقطع الحبل ؟ تخيلته يسقط مثل نجم أسود من السماء التى صنعها بيدية ، يرقدُ محطماً فوق أرضية الكنيسة، وقد انبثق دم غامق من جمجمته مثل شيء خفى .

وتعلم إستابن وراهيل – حينذاك، أن للعالم طرقًا أخرى لتحطيم الرجال . كانت الرائحة مألوفة لهما بالفعل ، رائحة حلوى تثير الغثيان ، وورود عتيقة ذهبت رائحتها فلا يحملها النسيم .

وكان «الشيء الثانى» الذى أظهرته صوفى مول لراهيل هو الخفاش الطفل.

لاحظت راهيل خفاشًا صغيرًا أسود يتسلق السارى الجنائزى الثمين لبيبى كوشاما، يتعلق برقة بمخالب ملتوية ، وعندما وصل إلى المكان ما بين ساريها وبلوزتها، لفافة حزنها، عضلة حجابها الحاجز العارية، صرخت بيبى كوشاما، وضربت الهواء بكتاب ترانيمها ، وتوقف الغناء لمعرفة ما الأمر؟ وماذا حدث؟ وسبب هذا الهرير الغاضب، وحتى يسدل السارى .

ونفض القساوسة الحزانى ذقونهم المجعدة بأصابع تزينها الخواتم الذهبية وكأن عناكب خفية قد نسجت لنفسها بيوتًا فيها.

وطار الخفاش الطفل إلى السماء وتحول إلى طائرة نفاثة دون أن يترك أثراً متقاطعاً .

راهيل فقط هى التى لاحظت عملة صوفى مول الكبيرة السرية فى تابوتها.

بدأ الغناء الحزين مرة أخرى، غنوا ذات المقطع الحزين مرتين ، وانتفخت الكنيسة الصفراء مرة أخرى مثل الحلق بالأصوات.

كانت راهيل تعلم، عندما أنزلوا تابوت صوفى مول فى الأرض، فى الجبانة الصغيرة وراء الكنيسة، أنها لم تمت بعد ، وسمعت (نيابة عن صوفى مول) أصوات الطين اللينة والأصوات الصلبة لبقايا تآكل الصخور البرتقالية والتى أفسدت صقل التابوت اللامع ، سمعت صوت السقوط الكئيب عبر خشب التابوت المصقول، عبر بطانة التابوت الساتان ، وغطى الطين والخشب على أصوات القساوسة الحزينة.

إننا نستودع بين يديك، يا أشد الآباء رحمة،

روح طفلتنا هذه التى رحلت،

ونحن نعهد بجسدها إلى الأرض،

الأرض للأرض، والرماد للرماد، والتراب للتراب.

وصرخت صوفى مول داخل الأرض ، ومزقت الساتان بأسنانها ، غير أنك لا تستطيع سماع الصرخات عبر الأرض والأحجار.

لقد قتلتها جنازتها. التراب للتراب للتراب للتراب ، وقد كُتب على شاهد قبرها «شعاع شمس مُنح لنا فترة وجيزة للغاية».

وقد أوضحت آمو، فيما بعد، أن فترة وجيزة للغاية تعنى «مدة قصيرة للغاية».

وأخذت آمو التوءمين، بعد الجنازة، إلى مركز شرطة كوتايام، مرة أخرى ، كان المكان مألوفا لهما ، كان قد أمضيا هناك فى اليوم السابق جزءاً طيباً من الوقت. سدا فتحات أنفيهما قبل أن تبدأ رائحة البول التى توقعاها ، قديمة ، نتنة ، حادة ، قاتمة، تبدأ النفاذ من الحوائط والأثاث.

سألت آمو عن ضابط المركز، وعندما قُدمت إليه فى مكتبه، قالت له : إن خطأ رهيباً قد وقع، وإنها تود التقدم ببلاغ ، وطلبت رؤية ڤيلوتا .

وتحركت شوارب المفتش «توماس ماثيو» مثل شوارب مِهْراجا «إير إنديا»، غير أن عينيه كانتا خبيثتين نهمتين.

قال : «ألا تعتقدين أن الوقت قد تأخر للنظر فى كل هذا؟» ، تكلم بلهجة كوتايام الخشنة للغة «المالايالامية » ، كان يحملق فى صدر آمو وهو يتكلم ، قال : إن الشرطة تعرف كل ما تريد معرفته، وإن شرطة كوتايام لا تأخذ بلاغات من «ڤشياس» (٤) أو من أطفالهن غير الشرعيين ، قالت آمو : إنها سوف تفكر فى ذلك ، دار توماس ماثيو حول مكتبه، مقرباً من آمو، وهو يحمل عصا الشرطة القصيرة .

قال «لو كنت أنا مكانك، لذهبت إلى المنزل فى هدوء» ، ثم نقر صدرها بعصاه ، نقرة، نقرة، برقة – كأنما ينتقى مانجو من سلة – مشيراً إلى تلك التى يريد لفها وتسلُمِها. يبدو أن توماس ماثيو يعرف من الذى يستطيع الإساءة إليه ، ومن الذى لا يستطيع فعِل ذلك معه ، إن رجال الشرطة يتمتعون بتلك الغريزة.

كانت هنالك خلفه لوحة حمراء زرقاء تقول:

الأدب ،

الطاعة ،

الإخلاص ،

الذكاء ،

اللطف ،

الفاعية .

كانت آمو تبكى عندما غادروا مركز الشرطة، ولذا لم يسألها إستا وراهيل عما تعنيه كلمة «ڤشيا»(٥)، أو ماذا تعنى كلمة «غير الشرعيين» ، كانت المرة الأولى التى يريان فيها أمهما تبكى ، لم تكن تنتحب أو تشهق ، كان وجهها أشبه بالصخر، غير أن عينيها كانتا تغرورقان بالدموع التى تنساب أسفل على خديها المجعدين ، مما جعل

التوءمين يحسان بالسقم من الخوف، لقد جعلت دموع آمو كل شىء كان يبدو بعيداً للغاية عن الحقيقة، حقيقيًا ، وعادوا إلى أيمينم فى سيارة الركاب ، انزلق نحوهم كمسارى، محدود الحجم يرتدى الكاكى، على درابزين السيارة ، وازن أردافه العظمْية على ظهر مقعد ناقرًا حامل التذاكر أمام آمو ، كان النقر يعنى إلى أين؟ كان فى وسع راهيل أن تشم رائحة إضبارة تذاكر السيارة، وحموضة درابزين السيارة المصنوع من الصلب، على يدى الكمسارى.

وهمست آمو له : «لقد مات ، لقد قتلته» .

وقال إستا فى سرعة قبل أن يغضب الكمسارى: «أيمينم» .

أخذ النقود من كيس آمو، وأعطاه الكمسارى التذاكر ، فطواها إستا بعناية ووضعها فى جيبه ، ثم وضع ذراعيه الصغيرين حول أمه الجامدة، الباكية.

وأُعيد إستا بعد أسبوعين ، كان على آمو أن ترسله مرة أخرى إلى والدهما، الذى كان قد ترك - حينذاك - وظيفته المنعزلة فى عزبة الشاى فى «آسام»، وانتقل إلى «كلكتا» ليعمل فى شركة تقوم بصناعة مواد غروية سوداء من الفحم ، كان قد تزوج مرة ثانية وتوقف عن الشراب - تقريباً - وكان يعانى فقط من انتكاسات مرضية من حين لآخر.

ولم ير إستا وراهيل أيًا منهما الآخر منذ ذلك الحين.

والآن أعاد أبوهما إستا مرة أخرى بعد مرور ثلاثة وعشرين عامًا، إعادة إلى أيمينم ومعه حقيبة وخطاب ، كانت الحقيبة ملأى بملابس جديدة أنيقة ، وأعطت بيبى كوشاما الخطاب لراهيل ، كان مكتوبًا بخط مُدَرِّسة راهبات، خط مائل أنثوى، غير أن التوقيع أسفل كان توقيع والدها. أو على الأقل كان اسمه هناك ، ما كان فى إمكان راهيل معرفة التوقيع ، وقد جاء فى الخطاب أن والدهما اعتزل وظيفة المواد الغروية السوداء ، وأنه سوف يهاجر إلى أستراليا حيث حصل على وظيفة رئيس أمن فى مصنع للخزف، وأنه ليس فى وسعه أخذ إستا معه. وأنه يتمنى لكل من فى أيمينم أفضل الأمانى ، وأنه سوف يزور إستا إن عاد إلى الهند، وهو أمر- كما أكمل - غير محتمل - إلى حد ما.

وأخبرت بيبى كوشاما راهيل، أنه في وسعها – إن شاءت – الاحتفاظ بالخطاب ، فوضعته راهيل في مظروفه مرة أخرى ، كان الورق قد أصبح لينًا مطويًا مثل الملابس.

كانت قد نسيت كيف يكون جو الرياح الموسمية رطبًا فى أيمينم ، الدواليب المنتفخة لها صرير ، والنوافذ المغلقة تتفجر مفتوحة ، الكتب تغدو لينة متموجة بين الأغلفة ، وحشرات غريبة تظهر، مثل الأفكار، فى الأمسيات وتحرق نفسها على مصابيح بيبى كوشاما الكهربية المعتمة قوة ٤٠ وات ، وجثثها المجعدة التى صارت رماداً تتناثر فى النهار مبعثرة فوق الأرضية وعتبات النوافذ السفلية حتى تقوم «كوشو ماريا» بكنسها ووضعها فى إناء التراب البلاستيكى، ويحمل الهواء رائحة شىء يحترق.

إن أمطار يونيو تلك، لم تتغير.

انفتحت السماء وانهالت المياه بقوة وعنف كالمطارق معيدة الحياة إلى الينبوع العتيق، كاسية زريبة الخنازير التى بلا خنازير بخضرة الطحلب، كل شىء دُمِّر حتى سوِّى بالأرض، والبرك الصغيرة الموحلة بلون الشاى تعيد للذاكرة ما حدث من دمار ، بدا العشب الأخضر مبتلاً فرحا ، وديدان الأرض الأرجوانية السعيدة تمرح فى الوحل الرقيق ، والنباتات الوبرية الشائكة الخضراء تومئ ، والأشجار تنحنى.

كان إستا يسير هناك بعيداً، فى الريح والمطر على ضفاف النهر، فى ظلام رعد اليوم المفاجئ. كان يرتدى تى شيرت مجعداً فى لون الفراولة، ابتل فغدا الآن أغمق لونا، وكان يعرف أن راهيل قد جاءت.

كان إستا على الدوام طفلا هادئًا، لذا ليس فى وسع أحد أن يحدد – بأى قدر من الدقة – متى توقف تحديدا عن الكلام – تحديد العام، إن لم يكن فى الإمكان تحديد الشهر أو اليوم – ؟ متى توقف كلية ؟ كانت تلك هى المسألة ، ليس هنالك، فى الحقيقة، «متى تحديدا» كان الكف عن الكلام وإغلاق المتجر تدريجيًا ، سكون يمكن بالكاد ملاحظته، كأنه ببساطة أنهى حواراً ولم يعد لديه ما يقوله ، ومع ذلك، فإن صمت إستا لم يكن محرجًا، أو مربكًا ألبتة لم يكن اقتحاميًا ألبتة ، لم يكن مفعمًا بالضجيج ألبتة ، لم يكن صمتًا مُتهمًا، مُحتَجًا بقدر ما كان نوعًا من الحذر، من السبات، المعادل النفسى لما يفعله السمك الرئوى حتى يستطيع عبور موسم الجفاف، باستثناء أنه بدا فى حالة إستا، وكأن فصل الجفاف سيدوم إلى الأبد.

اكتسب بمرور الوقت القدرة على الاندماج فى خلفية أى مكان يكون فيه – فى أرفف الكتب، فى الحدائق، فى الستائر، فى المداخل ، فى الشوارع – حتى أنه يبدو جامدا فى حالة موات ، كان الأغراب عادة ما يحتاجون إلى وقت قبل ملاحظة حالته تلك ، حتى عندما يكونون معه فى ذات الغرفة ، بل كانوا يستغرقون وقتًا أطول لملاحظة أنه لم يتكلم ألبتة ، وكان البعض لا يلاحظ ذلك إطلاقا .

لقد احتل إستا حيزًا محدودًا للغاية فى هذا العالم.

عندما أُعيد إستا ، بعد وفاة صوفى مول، إلى والدهما، فإنه أرسله إلى مدرسة للأولاد فى كلكتا ، لم يكن طالبًا متميزًا، غير أنه لم يكن متخلفًا أو رديئًا بصورة خاصة. كانت التعليقات المعتادة التى كتبها مدرسوه عنه فى تقارير تقدمه السنوية أنه طالب متوسط، وأن عمله مرضٍ ، وإن كانت هنالك شكوى أخرى متكررة من أنه «لا يشارك فى نشاطات مجموعاتية» ، رغم أنهم لم يفصحوا قط عما يعنونه «بنشاطات مجموعاتية» .

أنهى إستا المدرسة بنتائج عادية متوسطة، غير أنه رفض الالتحاق بالجامعة ، وبدأ، بدلاً من ذلك، القيام بالأعمال المنزلية، مما تسبب فى إحراج والده وزوجة أبيه إحراجًا بالغًا، وكأنه كان يحاول كسب معاشه بطريقته ، قام بأعمال الكنس والمسح وكل أعمال الغسيل ، تعلم كيف يطبخ ويتسوق الخضراوات ، ابتدأ الباعة فى البازار، والذين يجلسون وراء أهرامات من الخضراوات المتألقة المدهونة بالزيت، فى التعرف عليه، والقيام بخدمته وسط ضجيج الزبائن الآخرين ، كانوا يعطونه علب الأفلام الصدئة ليضع فيها الخضراوات التى ينتقيها، هو لا يساوم أبداً، وهم لا يغشونه أبداً، وهم، عندما يزنون له الخضراوات، ويقوم هو بدفع ثمنها، فإنهم ينقلونها إلى سلته البلاستيكية الحمراء التى يتسوق بها (الأبصال فى القاع، الباذنجان والطماطم على القمة) وهم يعطونه دائمًا بلا مقابل فرع كزبرة وقبضة ملأى بالفلفل ، ويحمل إستا كل هذا إلى المنزل مستخدمًا الترام المزدحم ، فقاعة ساكنة تطفو فوق سطح بحر من الضجيج .

كان إن احتاج إلى شىء وقت تناول الوجبات، نهض ليخدم نفسه بنفسه .

ما إن يحل الهدوء حتى يستقر فى إستا وينتشر ، يمتد من رأسه ليطوقه يغمره بذراعيه ، يهدهده يؤرجحه على إيقاع ضربات قلب جنين عجوز ، إنه يرسل قرون استشعاره الماصة خلسة ، تزحف داخل جمجمته ، تدفع روابى ووهاد ذاكرته إلى الرفرفة والتحلق، تزيح الجمل والعبارات القديمة، تنفضها بعيداً عن طرف لسانه ، تجرد أفكاره من الكلمات التى تصورها وتتركها منقوصة عارية . غاية فى الرداءة ، بلا إحساس ، ومن ثم غدا بالكاد موجودا بالنسبة لمن يراقب ، انسحب إستا ببطء، عبر السنين من العالم ، واعتاد بصورة متزايدة الأخطبوط القلق المضطرب الذى يعيش داخله، والذى تنبثق منه أحباره لتعم السكينة ماضيه ، وتوارى بالتدريج سبب صمته، دُفن عميقًا فى الطيات التى تطيب خاطر حقيقته.

وعندما قرر «خويشاند» كلبه الهجين المحبوب، الأعمى الأجرد، المنهمك فى اللذات والبالغ من العمر سبعة عشر عامًا أن يمر بمرحلة موت بائسة طويلة، قام إستا بتمريضه خلال محنته الأخيرة، وكأن حياته هو تتوقف على ذلك بصورة ما ، إن «خويشاند» الذى كان لديه أفضل النوايا، كان لديه أيضًا مثانة لا يعتمد عليها ، كان فى شهور حياته الأخيرة، يجر نفسه إلى درفة الكلب المعلقة بمفصل فى أعلاها، والموجودة أسفل الباب الذى يؤدى إلى الخارج فى الحديقة الخلفية، ويدفع رأسه خلالها ويتبول فى «الداخل» بطريقة متقطعة، يتبول بولاً فاتح اللون ضاربًا للصفرة ، ومتى فرغت مثانته، وخلص ضميره، فإنه ينظر إلى أعلى إلى إستا، بعينين خضراوين معتمتين تستقران فى جمجمته الشهباء مثل بركتين من نفاية، ثم يشق طريقًا متعرجًا إلى وسادته الرطبة، تاركًا فوق الأرضية آثار أقدام مبتلة ، كان فى وسع إستا، بينما كان « خويشاند » راقداً يموت فوق الوسادة ، أن يرى نافذة حجرة النوم منعكسة فى خصيتيه الناعمتين الأرجوانيتين ، والسماء من وراء ، وطائر يعبر مرفرفًا ، كانت الحقيقة بالنسبة لإستا – الغارق فى رائحة الورود الذابلة، العائش على ذكريات رجل محطم – أن شيئًا هشًا إلى هذا الحد، رقيقًا للغاية قد عاش و«سُمح» له بالوجود، وتلك كانت معجزة ، وانعكس الطائر خفاقًا فى خصيتى الكلب العجوز ، مما جعله يبتسم ابتسامة عريضة .

بدأ إسثا، بعد موت «خوبشاند» نزهاته على الأقدام. كان يسير لساعات بلا انقطاع ، يطوف أساسًا فى الجوار فقط، لكنه - وبالتدريج - بدأ الذهاب بعيدا بعيدا عن موطنه .

واعتاد الناس رؤيته على الطريق ، رجل جيد الهندام، يسير فى هدوء ، وأصبح وجهه داكنا خلويا أكثر فأكثر ، عابسًا ، تجعد من الشمس وتغضن ، وبدأ يتخذ مظهراً أكثر حكمة من حقيقته ، مثل صياد سمك فى مدينة ، يحمل أسرار البحر داخله .

إن إسثا، وقد أعيد الآن ثانية، أخذ يتنزه عبر كل أيمينم.

إنه يسير فى بعض الأيام، على امتداد ضفتي النهر الذى تفوح منه رائحة الغائط والمبيدات التى أُشتريت بقروض البنك الدولى ، لقد ماتت أكثر الأسماك ، ويعانى ما تبقى منها حيًا من تغضن زعانفها وطفح الدمامل عليها.

ويسير، فى أيام أخرى، على الطريق ، عبر المنازل الجديدة التى شُيِّدت بأموال الخليج، شيدتها الممرضات وعمال البناء ومن يلوون الأسلاك ويشدّونها، وكتبة البنوك، كل هؤلاء الذين عملوا أعمالاً شاقة وتعسة فى أماكن بعيدة نائية، أماكن تعرضوا فيها للحر الشديد والبرد الشديد ، يسير عبر المنازل الأكثر قِدمًا والتى تثير النقمة، خِضراء من الحسد، تجثم فى دروبها الخاصة، بين أشجار المطاط ، كل منها عزبة إقطاعية متداعية، لها ملحمتها الخاصة.

مر عبر مدرسة القرية التى بناها جده الأكبر للأطفال المنبوذين ،عبر كنيسة صوفى مول الصفراء . عبر نادى كونج فو لشباب أيمينم ، عبر مدرسة دار حضانة البراعم الرقيقة - لغير المنبوذين - عبر متجر المؤن الذى يبيع الأرز والسكر وحيث يتدلى الموز فى قطوف من السقف ، المجلات الإباحية الناعمة الرخيصة والتى تكتب عن الأعمال الشيطانية الخيالية للجنس فى جنوب الهند مثبتة بإحكام بمشابك ملابس إلى حبال معلقة من السقف ، إنها تدور كالمغزل فى كسل وبلادة فى النسيم الدافئ، مغرية مبتاعى المؤن الأمناء بلمحات من نساء ناضجات عرايا يرقدن فى برك حياة زائفة.

كان إسثا يمر أحيانًا أمام «لكى برس» - مطبعة الرفيق العجوز «ك.ن.م. بيلاى»، والتى كانت ذات يوم مكتب الحزب الشيوعى فى أيمينم، حيث كانت تعقد اجتماعات

دراسية فى منتصف الليل، وحيث كانت تطبع وتوزع كتيبات قصائد وأغانى الحزب الماركسي المثيرة ، كان العلم الذى يخفق فوق السطح قد أصابه العرج والشيخوخة ، كان قد نزف لونه الأحمر.

يخرج الرفيق بيلاى كل صباح فى صدرية مطاطية رمادية، وقد ظهرت خصيتاه كصورة ظلية من الجزء السفلى من ردائه الكيرالى، «الموندو» الأبيض الناعم ، إنه يدهن نفسه بزيت جوز الهند الدافئ بالفلفل، يدلك لحمه الشائخ السائب الذى يتهدل بصورة طبيعية من عظامه، مثل اللبان ، إنه يعيش الآن بمفرده ، فقد ماتت زوجته كاليانى من سرطان مبيضى ، وانتقل ابنه لينين إلى «دلهى»، حيث يعمل مقاول خدمات للسفارات.

عندما يكون الرفيق بيلاى خارج منزله، داهنا نفسه بالزيت، ويمر إستا عبره، فإنه يصر على تحيته يناديه بصوته المرتفع الحاد وقد غدا ليفيًا مهترئًا مثل قصب السكر وقد نُزع لحاؤه، «صباح الخير! برنامجك اليومى؟»

ويمر إستا عبره، دون أن يكون وقحًا، أو مؤدبًا، فقط هادئًا ساكنًا.

كان الرفيق بيلاى يفرض على نفسه ضـــرورة التحــرك سيرا على الأقدام ، إنه لا يستطيع التحقق من إذا ما كان إستا قد تعرف عليه، أم لا، بعد كل تلك السنوات. إنه لا يهتم بذلك تحديداً، ورغم أن دوره فى المسألة برمتها كان، على أى حال – دوراً صغيراً، فإن الرفيق بيلاى لم يعتبر نفسه مسئولا – بأى شكل من الأشكال – مسئولية شخصية عما حدث ، لقد صرف نظره عن الأمر كله باعتباره «نتيجة حتمية لسياسات ضرورية». إنها مسألة الأومليت القديمة والبيض ، غير أن الرفيق ك.ن.م. بيلاى كان رجلاً سياسيًا فى الأساس ، كان هو نفسه صانع أومليت محترف. يسير عبر العالم كالحرباء ، لا يكشف نفسه ألبتة، لا يظهر أبداً ، يبرز سالمًا وقت الهرج والمرج .

كان أول من سمع بعودة راهيل فى أيمينم ، الأخبار لم تثر جزعه واضطرابه بقدر ما أثارت فضوله، كان إستا يكاد يكون غريبًا كُلية بالنسبة للرفيق بيلاى ، كان إخراجه من أيمينم فجائيًا تمامًا وجافًا بلا لياقة، كان ذلك منذ زمن طويل للغاية ، غير أن الرفيق بيلاى كان يعرف راهيل جيداً، كان يرقبها وهى تنمو ، وعجب لعودتها، بعد كل تلك السنين.

كان إستا يتمتع بالهدوء حتى جاءت راهيل ، فجاءت معها بأصوات القطارات المارة، والضوء والظلال التى تقع عليك إن أنت احتللت مقعداً بجوار النافذة، العالم، المُقفَل عليه لسنوات فاض، ولم يعد الآن فى وسع إستا أن يسمع – من الضوضاء – نفسه، قطارات ، مرور، موسيقى ، سوق الأوراق المالية. انفجر سد وكنست المياه الوحشية كل شيء فى مجرى يدور كالدوامة، نجوم مذنبة، كمانات، عروض، وحدة ووحشة، سحب، ذقون، متعصبون، جداول، أعلام، زلازل، يأس كلها كنسها مجرى يتدافع ويدور كالدوامة .

وإستا السائر على ضفة النهر، لا يستطيع أن يحس بلل المطر، وقشعريرة فجائية أصابت الجرو البارد الذى يتبعه مؤقتًا، فأخذ يسير خامداً إلى جواره ، لقد سار عبر شجرة المنجستين[٦] العجوزة حتى نهاية البروز الطينى الأحمر الذى يشبه المهماز والناتئ داخل النهر ، أقعى على ردفيه مؤرجحًا نفسه فى المطر ، وأصدر الطين المشبع بالماء أسفل حذائه أصوات فظة ماصة ، وانتفض الجرو الذى يعانى البرد وهو يراقبه.

كانت بيبى كوشاما وكوشوماريا، الطباخة – القزمة – سريعة الغضب، والتى تحس المرارة فى قلبها ، كانت كل من تبقى فى منزل أيمينم عندما أُعيد إستا للمرة الثانية ، وكانت ماماشى، جدتهم لأمهم ، قد ماتت ، وكان شاكو يعيش الآن فى كندا، يدير تجارة عادية فاشلة.

أمّا راهيل فإنها بعد وفاة آمو (بعد المرة الأخيرة، التى جاءت فيها إلى أيمينم للمرة الثانية، وقد تورمت من الكورتيزون، وهنالك خشخشة فى صدرها أشبه بصوت رجل يصرخ من بعد سحيق) انساقت من مدرسة إلى مدرسة ، كانت تقضى إجازاتها فى أيمينم، يتجاهلها إلى حد كبير، شاكو وماماشى (وقد ليّن الأسى عريكتيهما، وهما يرزحان تحت عبء حرمانهما مثل ثملين فى حانة خمر النخيل) وتتجاهل هى، إلى حد كبير، بيبى كوشاما ، لقد بذل شاكو وماماشى جهداً فى الأمور ذات العلاقة بنهوض راهيل، غير أنهما فشلا. قدّما الرعاية (الطعام والملبس والمصاريف) دون قلق أو اهتمام .

أحاط فقدان صوفى مول منزل أيمينم بالرّقة واللين فصار أشبه بشىء ساكن فى جورب قصير، لقد اندس فى الكتب والطعام ، فى علبة كمان ماماشى ، فى قشور قروح قصبتى ساقى شاكو ، فى رجليه المترهلتين الأنثويتين.

إن ما يثير العجب والفضول هو الكيفية التى تعيش بها أحيانا ذكرى الموت، طويلاً طويلاً، أكثر من ذكرى الحياة التى اختلسها ، وبينما ذكرى صوفى مول (الباحثة عن الحِكم الصغيرة: «أين تذهب الطوير العجوزة لتموت ؟ لماذا لا يسقط الموتى منها، من السماء، كالأحجار؟» القائلة بالحقيقة الفجة: «إن كلاً منكما مواطن هندى كلى، بينما أنا نصف مواطنة» . والتى تقدم درسًا عن الدم المسفوك : « لقد رأيت رجلاً وقعت له حادثة ، كانت مقلة عينه تتأرجح عند نهاية عصب، مثلها مثل اليويو») تخفت فى بطء، بمرور السنين، كان فقدان صوفى مول يزداد قوة وحيوية – كان هنالك دومًا ، مثله مثل فاكهة الموسم ، كل موسم ، إنه دائم مثله مثل وظيفة حكومية، رافق راهيل عبر طفولتها – من مدرسة إلى مدرسة – حتى غدت امرأة .

وُضعت راهيل فى البداية، وهى فى الحادية عشرة من عمرها، فى القائمة السوداء «لدير الراهبات النصارى»، عندما أُمسك بها خارج بوابة حديقة السيدة المشرفة عليها تزين كرة من روث البقر الطازج بالأزهار ، وقد أُجبرت فى «الجمعية» فى صباح اليوم التالى على البحث عن كلمة «فجور» فى قاموس أوكسفورد وقراءة معناها بصوت مرتفع ، حالة أن تكون فاجراً أو فاسداً، قرأت راهيل، « ووراءها جلس صف من الراهبات الصارمات، وأمامها بحر من وجوه تلميذات يضحكن ضحكات مكتومة» ، «النوعية المنحرفة الفاسدة: الانحراف الأخلاقى ، الفساد الفطرى للطبيعة البشرية بسبب الخطيئة الأصلية ، إن كلاً من المختارين وغير المختارين قد جاء فى حالة كلية من الفساد والاغتراب عن الله، وليس فى وسعهم القيام بأنفسهم، بفعل شىء غير الخطيئة. ج. هـ. بلونت».

وفُصلت، فيما بعد، بعد ستة شهور، إثر شكاوى متكررة من الفتيات الأقدم والأعلى مقامًا ، أُتهمت – وكان اتهامها عن حق تماما – بالاختفاء وراء الأبواب والتصادم عمداً مع من هن أقدم منها، وعندما حققت المديرة معها حول سلوكها – بعد مراوضتها وضربها بالخيزرانة وتجويعها – أقرت فى النهاية، بأنها قد فعلت ذلك

لتكتشف إن كانت النهود مؤلمة. لم يكن هنالك في هذه المؤسسة المسيحية اعتراف بالنهود لم يكن من المفترض وجودها، ومادامت غير موجودة، فهل يمكن لها أن تؤلم؟

كان ذلك هو الطرد الأول من ثلاثة ، وكان الثانى بسبب التدخين ، والثالث بسبب إشعال النار فى قرص الشعر المستعار الخاص بالسيدة المشرفة عليها.

لقد علقت مدرساتها، فى كل مدرسة ذهبت إليها، بقولهن إنها :

(أ) طفلة مؤدبة للغاية.

(ب) طفلة بلا أصدقاء.

بدا أن ذلك شكلاً من الأشكال المدنية المتفردة للفساد، ولهذا السبب تحديداً، اتفقن جميعًا (وهن يتلذذن باستتكارهن كمدرسات، يلمسنه بألسنتهن، يمتصنه مثلما تمتص الحلوى) اتفقن كلهن على المزيد من الوقار والرزانة.

كان الأمر، كما همسن لبعضهن البعض، وكأنها ما عرفت كيف تكون فتاة.

لم يكن بعيدات عن الهدف.

وللغرابة، بدا أن الإهمال يؤدى إلى إطلاق سراح الروح إطلاقًا طارئًا.

لقد شبت راهيل ونمت دون نصير ، دون أن يُعِدَّ لها أى شخص زواجًا ، دون أن يدفع لها أى شخص بائنة، ومن ثم دون زوج حتمى يظهر فى أفقها.

وحيث إنها لم تكن كثيرة الصخب حول ذلك الموضوع، فقد ظلت حرة فيما يتعلق بأسئلتها: عن النهود ومدى ما تسببه من ألم ؟ عن قرص الشعر المستعار وإلى أى مدى سيشتعل اشتعالاً جيداً؟ وعن الحياة وكيف يجب أن تُحيا ؟

عندما أنهت دراستها، فازت بقبولها فى كلية متوسطة للهندسة المعمارية فى دلهى ، لم يكن ذلك نتيجة أى اهتمام جاد بالعمارة ، ولا حتى، فى الحقيقة، اهتمام سطحى ، حدث فقط أنها دخلت امتحان القبول، وحدث أنها نجحت فيه ، وقد تأثرت جماعة الموظفين بالحجم (وكان هائلاً) أكثر مما تأثرت بالمهارة - حجم رسومها التخطيطية للحياة الساكنة وقد رُسمت بالفحم - لقد فُهمت الخطوط المرسومة بإهمال ولا مبالاة باعتبارها تعبيراً عن ثقة فنية، رغم أن مبدعها فى الحقيقة لم يكن فنانًا.

أمضت ثماني سنوات بالكلية دون أن تنهى السنوات الدراسية الخمس وتحصل على درجتها ، كانت المصروفات منخفضة، ولم يكن من الصعب ممارسة حياة ما، الإقامة في دار ضيافة، والأكل فى مطعم مدعوم للطلبة، والذهاب إلى الفصل نادراً، والعمل بدلاً من ذلك كرسامة فى الشركات المعمارية الكئيبة، التى تستغل عمل الطلبة الرخيص لتقدم ما أعدوه من رسوم، أو لتلقى باللوم عليهم إن وقع خطأ ما، وكان الطلبة الآخرون، وخاصة الأولاد، يهابون طريقة راهيل المتحفظة، وافتقادها الحاد - فى غالب الأحيان - للطموح ، فتركوها بمفردها ، لم تُدعَ إلى منازلهم اللطيفة أو حفلاتهم الصاخبة ألبتة ، بل وحتى مدرسوها كانوا حذرين منها بعض الشيء - من هيئتها الغريبة النابية، من خططها غير العملية للبناء والتشييد، والتى كانت تقدمها على ورق رخيص بنى اللون، ولا مبالاتها بانتقاداتهم الحادة.

كانت تكتب أحياناً إلى شاكو وماماشى، غير أنها لم تعد قط إلى أيمينم ، لم تعد عندما ماتت ماماشى ، ولم تعد عندما هاجر شاكو إلى كندا.

قابلت «لارى مك كاسلين» فى مدرسة الهندسة المعمارية، كان فى دلهى يجمع مادة رسالته للدكتوراه حول : «كفاءة الطاقة فى الهندسة المعمارية الوطنية». لقد لفتت راهيل نظره أولا فى مكتبة المدرسة، ثم مرة أخرى، بعد أيام قليلة، فى «سوق خان». كانت ترتدى «الچينز» و«تى شيرت» أبيض ، وقطعة قماش قديمة مختلفة الألوان من غطاء فراش مزررة حول رقبتها تجرجر وراءها مثل غطاء رأس ، كان شعرها الهائج المربوط إلى الخلف يبدو مستقيماً رغم أنه لم يكن كذلك ، وماسة دقيقة تومض فى فتحة أنف واحدة ، كان عظم ترقوتها أخاذاً جميلاً بطريقة غير معقولة، وكان عَدْوها الرياضى مليحاً.

وفكر لارى مك كاسلين، هنا تنساب أنغام موسيقا الجاز، وتبعها إلى متجر يبيع الكتب حيث لم ينظر أىّ منهما إلى الكتب.

واندفعت راهيل إلى الزواج مثلما يندفع مسافر نحو مقعد خال فى استراحة مطار، اندفعت بإحساس من يود القعود، عادت معه إلى «بوسطن».

عندما أمسك لارى بزوجته بين ذراعين، ووجنتها على قلبه، كان طويلاً حتى أنه رأى قمة رأسها، رأى تجعد شعرها وتشوشه ، وعندما وضع أصبعه قرب ركن فمها

كان فى وسعه أن يحس نبضة دقيقة ، أحب موقعها، وأحب هذه الوثبة الواهية المترددة تحت جلدها تحديداً، كان فى وسعه أن يلمسها، مثل أب منتظر يحس رفسة طفله، الذى لم يولد بعد، فى رحم أمه.

حملها وكأنها هدية مُنحت له فى حب ، شىء ما ساكن وصغير ، ثمين بما يتجاوز الاحتمال .

غير أنه عندما ضاجعها أحس بعينيها تثيران كدره. تصرفتا وكأنهما ينتميان إلى شخص آخر ، شخص يراقب ، ينظر من النافذة إلى البحر ، إلى قارب فى النهر ، أو عابر فى الضباب يرتدى قبعة.

ثار غضبه لأنه لم يعرف ماذا تعنى تلك النظرة ، وضعها فى مكان ما بين اللامبالاة واليأس. لم يكن يعرف، أنه فى بعض الأماكن، مثل البلد الذى جاءت منه راهيل تتنافس أنواع مختلفة من اليأس لتحتل الأولوية ، وأن اليأس الشخصى لم يكن قط يأساً مستميتًا ، وأن شيئًا ما قد حدث عندما هبط القلق الشخصى عند المزار القائم على جانب الطريق، مزار قلق الأمة العام، الجسيم، العنيف، الطواف، الدافع، المضحك، المجنون، الذى لا يمكن احتماله. إن الرب الكبير قد زعق مثل ريح حارة، وطلب الطاعة. ثم انفصل الرب الصغير (دافئا متمالكًا ذاته، وحده فى حدود) موسوما، يضحك مخدراً من إقدامه دون مبالاة ، غدا وقد تمرس على المكاره، بسبب رسوخ تدافعه ، مرنًا لا مباليا بحق. لاشىء يهم كثيرا . لا شىء كثير الأهمية، وكلما قلت أهميته، كلما غدا قليل الأهمية. لم يكن ألبتة هامًا بما يكفى؛ لأن «أشياء رديئة» قد حدثت. فظلت «الأشياء الرديئة» تحدث فى البلد الذى جاءت منه ، والذى يتوازن دومًا بين إرهاب الحرب ورعب السلام .

ومن ثم ضحك الرب الصغير ضحكة جوفاء، ووثب مرحًا ، مثل صبى صغير ثرى يرتدى سروالاً قصيراً ، يصفر، ويركل الأحجار ، كان مصدر زهوه الهش ضآلة سوء حظه النسبى ، كان يتسلق أعين الناس ليغدو تعبيراً ساخطا .

إن ما رآه مك كاسلين فى عينى راهيل لم يكن يأسًا ألبتة ، كان نوعًا من التفاؤل القسرى ، وفراغا حيث توجد كلمات إستا ، لم يكن من المتوقع فهمه لذلك. فهمه أن الفراغ فى أحد التوءمين هو الترجمة الوحيدة للهدوء والسكون عند الآخر ، وأن

الشيئين الاثنين يناسب الواحد منهما الآخر ، مثل ملعقتين متماثلتين ، مثل أجساد العشاق المألوفة .

عملت راهيل لشهور قليلة، بعد طلاقها، كنادلة في مطعم هندى في نيويورك ، ثم لسنوات عديدة ككاتبة ليلية في غرفة مقاومة للرصاص في محطة غاز خارج «واشنطن»، حيث يتقيأ السكارى من حين لآخر في صينية النقود، وحيث عرض عليها القوادون وظيفة أكثر ربحًا ربما. ورأت مرتين رجلين أُطلقت عليهما النيران عبر نافذتى سيارتيهما، وأُلقى، ذات مرة، من سيارة متحركة ، برجل مطعون وسكين مغروس في ظهره .

ثم كتبت إليها بيبى كوشاما تخبرها بأن إستا قد أُعيد مرة أخرى ، فتخلت راهيل عن وظيفتها في محطة الغاز ، وغادرت أمريكا سعيدة ؛ كى تعود إلى أيمينم ، إلى إستا وقت الأمطار.

جلست بيبى كوشاما في المنزل العتيق، فوق التل، إلى منضدة الطعام، تكشط المرارة الكثيفة من خيارة واهنة شائخة ، كانت ترتدى قميص نوم مترهل شطرنجى من قماش هندى مخطط بالأبيض والأزرق، له أكمام منتفخة به بقع صفراء مثل الزعفران الهندى ، كانت تهز قدميها الدقيقتين المقلمة أظفارهما، تحت المنضدة، مثل طفل صغير على مقعد مرتفع، كانتا منتفختين من الأوديما (٧) مثل وسادتين هوائيتين على هيئة قدمين صغيرتين. كانت بيبى كوشاما تعمل في الأيام الماضية - عندما يجىء أى امرئ إلى أيمينم - على جذب الانتباه إلى أقدام هؤلاء الكبيرة ، كانت تطلب محاولة ارتداء شباشبهم وتقول : «انظروا كم هى كبيرة علىّ!» ثم تسير وقد ارتدتها حول المنزل، رافعة ساريها قليلا حتى يمكن لكل شخص أن يتعجب من دقة قدميها.

كانت تعمل في الخيار في جو تخفى فيه بالكاد شعورها بالظفر والانتصار، كانت مبتهجة أن إستا لم يتحدث إلى راهيل ، نظر إليها ثم سار عبرها مباشرة ، في المطر، كما يفعل مع كل امرئ آخر .

كانت في الثالثة والثمانين ، وقد انبسطت عيناها مثل الزبدة وراء نظارتها السميكة .

قالت لراهيل : «لقد أخبرتك، ألم أفعل ذلك؟ ماذا كنت تتوقعين؟ معاملة خاصة؟ لقد فقد عقله ، إننى أقول لك ذلك ، إنه لم يعد يعرف الناس ! ماذا تعتقدين؟»

ولم تقل راهيل شيئا .

كان فى وسعها أن تحس وقع هزهزة إستا، وبلل المطر فوق جلده ، كان فى وسعها أن تسمع العالم الخشن المختلط داخل رأسه .

نظرت بيبى كوشاما إلى راهيل فى قلق ، أسفت بالفعل لأنها كتبت إليها عن عودة إستا، ولكن، ماذا كان فى وسعها أن تفعل حينئذ غير ذلك ؟ أن تحمله على يديها بقية عمرها؟ ! ولماذا عليها أن تفعل ذلك؟ إنها لم تكن مسئولة عنه .

أم هل كان مسئوليتها ؟

قبع الصمت بين حفيدة الأخ وعمة الأم ، وكأنه شخص ثالث، غريب ، منتفخ متضخم ، مؤذ ، وذكّرت بيبى كوشاما نفسها بغلق باب حجرة نومها ليلاً ، وفكرت فى شىء تقوله.

«ما رأيك فى قصة شعرى؟»

ولمست قصة شعرها الجديدة بيدها الممسكة بالخيار ، وتركت قطعة ضئيلة، من الخيار المر، مثبتة من وراء.

لم يكن فى وسع راهيل أن تفكر فى شىء تقوله ، أخذت تراقب بيبى كوشاما وهى تقشر خيارها ، شرائح صفراء من جلد الخيار بقعت حجرها، شعرها المصبوغ بالأسود الفاحم، كان مرتبًا عبر فروة رأسها مثل خيط سائب ، الصبغة بقعت جلد جبهتها بالرمادى الفاتح، مما أضفى عليها خط شعر آخر وهمى ، ولاحظت راهيل أنها قد بدأت تستعمل الزواق: أحمر الشفاة، الكحل، لسة خفيفة ماكرة من الروج، ولأن المنزل كان مغلقا ومظلما، ولأنها هى وحدها فقط التى تؤمن باللمبات الكهربية ٤٠ وات، فإن أحمر شفاها انحرف ومال قليلاً بعيداً عن فمها الحقيقى.

نحل وجهها وكتفاها، مما حولّها من شخص مستدير إلى شخص مخروطى، غير أن جلوسها إلى منضدة الطعام، مخفية أردافها الضخمة، قد جعلها تبدو هشة ، لقد محا ضوء حجرة الطعام المعتم التجعيدات من وجهها مما جعلها تبدو صغيرة بطريقة

غريبة غامضة ، كانت ترتدى كمية كبيرة من المجوهرات ، مجوهرات جدة راهيل المتوفاة ، كل المجوهرات : خواتم تلمع ، أقراط ماسية ، أساور ذهبية وسلسلة ذهبية جميلة الصنعة منبسطة تتحسسها من وقت لآخر لتؤكد لنفسها أنها مازالت هنالك ، وأنها ملك لها ، مثل عروس شابة لا تستطيع تصديق حسن حظها.

وفكرت راهيل، إنها تعيش حياتها عودة إلى الوراء.

كانت ملاحظة تثير الغرابة وحب الاستطلاع ، إن بيبى كوشاما تعيش حياتها إلى الوراء. لقد نبذت العالم المادى عندما كانت امرأة شابة، والآن تبدو تحتضن العالم وهى امرأة عجوز. إنها تضم العالم إلى صدرها، والعالم يضمها إلى صدره .

لقد وقعت بيبى كوشاما، وهى فى الثامنة عشرة من عمرها فى حب راهب إيرلندى شاب وسيم ، الأب « موليجان » ، والذى ظل فى كيرالا مدة عام مفوضًا من مدرسة اللاهوت التى هو بها إلى «مدراس» ، كان يدرس الأسفار الهندوسية، حتى يمكنه التنديد بها بذكاء.

كان الأب موليجان، يجىء إلى أيمينم، صباح كل ثلاثاء، ليزور والد بيبى كوشاما المبجل «أ. جون إيب»، الذى كان قسيسًا لكنيسة «مارتوما» ، كان المبجل إيب معروفًا تمامًا فى المجتمع المسيحى باعتباره رجلاً نال البركة شخصيًا من بطريرك «انتيوك» الرئيس الجليل للكنيسة المسيحية السريانية – وتلك حادثة هامة غدت جزءًا من فولكلور أيمينم .

عام ١٨٧٦ عندما كان والد بيبى كوشاما فى السابعة من عمره ، أخذه والده ليرى البطريرك الذى كان يزور المسيحيين السريانيين فى كيرالا ، ووجدا نفسيهما مباشرة أمام مجموعة من الناس ، كان البابا يخاطبهم من الشرفة الغربية القصوى للمنزل الكالينى فى كوشين ، وانتهز الأب الفرصة، فهمس فى أذن الابن الصغير ودفع بالزميل الصغير إلى الأمام ، وانزلق المبجل مستقبلاً على ركبتيه ، متيبسًا من الخوف، والتمست شفتاه الفزعتان خاتم أصبع البطريرك الأوسط تاركة إياه مبللاً باللعاب ، ومسح البطريرك خاتمه فى كمه، وبارك الصبى الصغير ، وفيما بعد بكثير، عندما نما المبجل إيب، وغدا قسيسًا، فإنه استمر معروفًا باعتبار «بونيان كونجو» – الصغير

المبجل إيب، وغدا قسيساً، فإنه استمر معروفًا باعتبار «بونيان كونجو» - الصغير المبارك - وجاء الناس عبر النهر في زوارق من «أليبي» و «إرناكولام»، بأطفالهم لينالوا بركته .

ورغم وجود فارق كبير في السن بين الأب موليجان والمبجل إيب، ورغم أنهما ينتميان إلى طائفتين من الكنيسة مختلفتين (كانت العاطفة الوحيدة المشتركة بينهما هي الفتور والنفور المتبادل) فإن كلاً من الرجلين كان يستمتع بصحبة الآخر، وكثيراً ما كان يُدعى الأب موليجان للبقاء لتناول الغداء ، واحد فقط من الرجلين، كان يحس بالإثارة الجنسية التي تهب كالمد في الفتاة النحيلة التي تحوم حول المنضدة طويلاً بعد انتهاء الغداء.

حاولت بيبي كوشاما إغراء الأب موليجان بمعارض أسبوعية تقدم أعمالاً خيرية ، كانت بيبي كوشاما، تجبر طفل القرية الفقير على الاستحمام عند البئر بصابونة حمراء قاسية تؤذي ضلوعه الناتئة، صباح كل ثلاثاء، اليوم الذي يفترض فيه مجيء الأب موليجان.

«صباح الخير، أبتاه !» كانت تقول بيبي كوشاما عندما تراه، وعلى شفتيها ابتسامة تناقض تماماً قبضتها الشديدة الأشبه بالخطيئة والتي تمسك بذراع الطفل النحيل الزلق كالصابون.

«صباح الخير لك، بيبي !» يقول الأب موليجان، ثم يتوقف ويطوي مظلته.

«هنالك شيء أود أن أسألك عنه، أبتاه"، تقول بيبي كوشاما: «جاء في كورنتي الأول ، الفصل العاشر ، الآية الثالثة والعشرين، "أن كل الأشياء جائزة لي، غير أن كل الأشياء ليست مناسبة"، أبتاه، كيف يمكن أن تكون الأشياء جائزة "له"؟ أعني أنني أستطيع فهم أن بعض الأشياء جائزة "له" ولكن ...».

كان الأب موليجان يحس بأكثر من مجرد توجيه الإطراء إليه، بسبب المشاعر التي أيقظها في الفتاة الصغيرة الجذابة التي تقف أمامه، بفم مرتعش يدعو للتقبيل وعينين مشتعلتين بلون الفحم الأسود، كان هو شاباً أيضا، وربما لم يكن غافلاً تماماً عن أن الشروح الوقورة التي يبدد بها شكوكها الإنجيلية الزائفة كانت تتناقض كلية مع الوعد المثير الذي تقدمه عيناه المتألقتان الزمرديتان.

كانا يقفان كل ثلاثاء إلى جوار البئر، لا يهابان شمس منتصف النهار القاسية ، الفتاة الصغيرة والجزويتى الجسور ، يرتجفان بعاطفة غير مسيحية ، ويستخدمان الإنجيل كمبرر ليكونا معًا .

ويحدث دومًا ، أن يفلت الطفل التعس المغطى بالصابون والذى أُجبر على الاستحمام، يفلت فى هدوء فى منتصف مناقشاتهما ، فيستعيد الأب موليجان أحاسيسه ويقول : «أدبس[8]، من الأفضل أن تمسكه قبل أن يمسك البرد به».

ثم يعيد فتح مظلته ويسير مبتعدًا فى كسوته الرسمية التى بلون الشيكولاتة وصندله المريح ، مثله مثل جمل واسع الخطى ، لديه موعد عليه أن يلحق به، وبيبى كوشاما الصغيرة، تتخبط وراءه، وقد أمسك الوجع بقلبها، تترنح فوق أوراق الشجر والأحجار الصغيرة ، مهروسة تكاد تكون محطمة.

انقضى عام كامل من أيام الثلاثاء ، وأخيرًا حان الوقت ليعود الأب موليجان إلى مدراس ، ولما لم تحقق أعمال الخير أية نتائج ملموسة فإن بيبى كوشاما الصغيرة السارحة الذاهلة استثمرت كل أملها فى الإيمان والعقيدة.

أظهرت بيبى كوشاما رغبة منفردة عنيدة (كان يعتبر صدورها، من فتاة شابة، فى تلك الأيام، مسألة سيئة، مثلها مثل عاهة بدنية، مثل أن تكون الشفة العليا مشقوقة أو أن تكون القدم مشوهة)، فتحدت رغبات والدها وأصبحت كاثوليكية رومانية ، وترهبنت بترخيص خاص من الفاتيكان ودخلت ديرًا للراهبات فى مدراس على أساس أنها أصغر الراهبات درجة تحت التدريب ، وأملت أن يقدم لها هذا، بصورة ما، فرصة مشروعة كى تكون مع الأب موليجان ، وتصورت أنهما سوف يناقشان «اللاهوت» معا فى حجرات مظلمة كئيبة ذات أغطية مخملية، كان ذلك هو كل ما تبتغيه ، كل ما جرؤت أن تأمل فيه ، أن تكون بالقرب منه فقط ، قريبة بما يكفى لتشم لحيته ، لترى النسيج الخشن لثوبه الكهنوتى ، أن تحبه بالنظر إليه فقط.

وأدركت بسرعة شديدة عدم جدوى هذا المسعى ، وجدت أن الراهبات الأقدم قد احتكرن القساوسة والأساقفة بشكوك إنجيلية أكثر تعقيدًا مما كان يمكن أن تكون عليه شكوكها، وأنه قد تمضى سنوات قبل أن تقترب من الأب موليجان حيثما يكون ،

وغدت قلقة تعسة في الدير ، وأصابها طفح جلدى عنيد شديد الحساسية في فروة رأسها بسبب الاحتكاك الدائم لخمارها ، وجعلها ذلك أكثر شعورا بالعزلة مما كانت عليه في أي يوم من الأيام .

وبدأ والدها تسلم رسائل محيرة واردة بالبريد، خلال عام من التحاقها بالدير «يا أعز الآباء : إنني بصحة جيدة وسعيدة في "خدمة سيدتنا"، غير أن كوهي نور تبدو تعسة عليلة بالشوق إلى الوطن، يا أهز الآباء، اليوم تقيأت كوهي نور بعد الغداء، وهي تعاني من ارتفاع في درجة حرارتها، يا أعز الآباء، يبدو أن طعام الدير لا يناسب كوهي نور، رغم أنني أحبه كثيراً، يا أعز الآباء، إن كوهي نور منزعجة لأن عائلتها تبدو كأنها لا تفهمها ولا تبالي برفاهيتها..».

إن المبجل أ. إيب ما كان يعرف كوهي نور أخرى، غير كوهي نور التي كانت (في ذلك الوقت) اسم أكبر جوهرة في العالم ، واندهش كيف يمكن لفتاة تحمل اسمًا مسلماً أن ينتهي بها الأمر إلى دير كاثوليكي .

كانت والدة بيبي كوشاما هي التي أدركت أخيراً أن كوهي نور لم تكن واحدة أخرى غير بيبي كوشاما ذاتها، تذكرت أنها اطلعت، بيبي كوشاما، منذ زمن طويل مضى على نسخة من وصية والدها (جد بيبي كوشاما) يصف فيها أحفاده، وقد كتب : «إن لدى سبع جواهر وواحدة منها هي جوهرة الكوهي نور» ، ثم أخذ يوصي بكميات قليلة من النقود والمجوهرات لكل منهم، دون أن يوضح أيُّها هي جوهرته الكوهي نور ألبتة ، وأدركت والدة بيبي كوشاما أن بيبي كوشاما زعمت، لغير سبب يمكن التفكير فيه، أنها هي من عناها الجد بالكوهي نور ، كانت تعلم طوال فترة وجودها في الدير أن الأم الرئيسية تقرأ كل خطاباتها قبل إرسالها بالبريد، ولذا بعثت إلى الحياة بالكوهي نور حتى توصل آلامها إلى أسرتها .

وذهب المبجل أ . إيب إلى مدراس، وسحب ابنته من الدير، كانت سعيدة لتركه، غير أنها أصرت على ألا ترتد مرة ثانية، وظلت بقية حياتها كاثوليكية رومانية ، وأدرك المبجل إيب أن لابنته الآن «سمعة»، وأنه من المستبعد عثورها على زوج ، وقررت هي أنه طالما لن يكون في وسعها الحصول على زوج، فليس هنالك ضرر من تعلمها، ولذا أُجريت ترتيبات لإلحاقها ببرنامج دراسي في جامعة «روشستر» بأمريكا .

عادت بيبى كوشاما من «روشستر» بعد عامين، وقد حصلت على دبلوم فى «زراعة حدائق الزينة»، ولكن بحب للأب موليجان، أكثر من أى وقت مضى ، لم يعد هنالك من أثر للفتاة النحيلة الجذابة التى كانتها ، لقد نمت بيبى كوشاما، أثناء سنتيها فى روشستر، نمت نمواً كبيراً ، دعنا نقول : إنها غدت فى الحقيقة، بدينة ، حتى أن الترزى «شيلابن» الضئيل الخجول فى «شونجام بريدج» أصر على أن تكون مقاييس بلوزات ساريها مثل تلك التى لقميص فضفاض .

وعهد والد بيبى كوشاما إليها العناية بالحديقة الأمامية لمنزل أيمينم، حتى يبعد الهموم عنها، فأنشأت حديقة اتسمت بالتوحش والصرامة، حتى أن الناس كانوا يأتون من كوتايام لرؤيتها .

كانت قطعة من الأرض مستديرة منحدرة، لها طريق خاص بها حاد الميل، ملىء بالحصى، يلف كالأنشوطة حولها، لقد حوّلتها بيبى كوشاما إلى تيه ناضر الخضرة من سياجات النباتات القزمية والصخور والميازيب التى تنتهى برؤوس عجيبة الأشكال ، كانت الزهرة التى تحبها أكثر من غيرها هى الأنثوريوم ، «أنثوريوم أندرانيوم» ، كان لديها مجموعة منها، «الروبروم»، و«الهونى مون» وكثرة من أنواع يابانية ، كان قمع ثمرتها الريان المنفرد تتراوح ألوانه من ظلال الأسود المرقّط إلى الأحمر فى لون الدم والبرتقالى المتألق ، كان طلعها المنمنم البارز أصفر على الدوام ، وأُقيم فى وسط حديقة بيبى كوشاما، مُحاطًا بطبقات من «الكانا»[٩] و«الفلوكس»[١٠] «شاروبيم»[١١] رخامى يتبول قوسًا فضياً لا ينتهى، فى بركة ضحلة تزهر فيها نبتة واحدة من لوتس أزرق ، وقد تدلى من كل ركن من أركان البركة قزم من جص باريس القرنفلى له وجنتان ورديتان وغطاء رأس أحمر .

كانت بيبى كوشاما تقضى ما بعد الظهيرة فى حديقتها، ترتدى السارى وحذاءً غروياً ، تحمل مقص سياجات كبيراً فى قفازها البرتقالى الفاتح الذى ترتديه لزراعة الحديقة وهى مثلها مثل مروض الأسود، قد روضت عرائش ملتوية مبرومة، وأنبتت أنواعًا من الصبار شائكة ، حدت من نباتات «البوساى»[١٢]، ودللت نباتات «الأركيديا»[١٣] النادرة ، وشنت الحرب على الطقس، وحاولت زراعة «الأيدلويس»[١٤] و«الجوافة الصينية» .

كانت تدهن قدميها كل ليلة بـ كريم حقيقى وتدفع إلى الخلف بغطاء الجلد الموجود فوق أظفار أصابع أقدامها .

ثم هُجرت حديقة الزينة، منذ عهد قريب، بعد انقضاء أكثر من نصف قرن من الرعاية المتصلة الدؤوبة، تُركت لتدير نفسها بنفسها، لتتشابك كعقدة برية على فطرتها، مثل سيرك نسيت حيواناته ألاعيبها وخدعها، والعشب الذى أطلق الناس عليه اسم «الباتشا» الشيوعى (حيث ترعرع وازدهر فى كيرالا مثل الشيوعية) يخنق النباتات الأخرى الغريبة، وظلت العرائش فقط هى التى تنمو مثل أظفار أصابع قدم جثة ميت. ووصلت إلى فتحات أنوف الأقزام الجصية القرنفلية وترعرعت فى رؤوسها الفارغة، فأسبغت عليها تعبيراً ينم نصفه عن الدهشة ، والنصف الآخر عن عطسة موشكة .

كان السبب وراء هذا التحول المفاجئ المبتذل، إلى مقلب قمامة، هو حب جديد، كانت بيبى كوشاما قد وضعت طبقا له هوائى على سطح منزل أيمينم ، أصبحت تشرف على العالم من قاعة الاستقبال عبر تلفاز قمر صناعى ، إن الإثارة التى أوجدها هذا التلفاز، بطبقه ذاك، فى بيبى كوشاما لم يكن من الصعب فهمها ، لم تكن شيئًا ما حدث بصورة تدريجية ، لقد حدث فى ليلة واحدة، ما بين عشية وضحاها . شقراوات، حروب، مجاعات، كرة قدم، جنس، موسيقى، انقلابات – كلها وصلت على ذات القطار ، كلها خرجت معًا ، وأقامت فى الفندق ذاته ، كان أعلى صوت فى أيمينم، ذات يوم، هو الصوت الموسيقى لنفير سيارة الركاب، فأصبح فى الإمكان الآن، استدعاء حروب بكاملها، مجاعات، مذابح رائعة وبيل كلينتون، استدعاؤهم مثلما تستدعى الخدم ، وهكذا، بينما حديقتها، حديقة الزينة، تذبل وتذوى وتموت، كانت بيبى كوشاما تتابع ألعاب رابطة «إن . بى . إيه .» الأمريكية، كريكيت يوم واحد، وكل مباريات «الجراند سلام» الدورية للتنس كانت تتابع عبر أيام الأسبوع «الجرىء والجميلة» و«سانتا بربارا»، حيث الشقراوات الرقيقات حتى الهشاشة، بأحمر شفاههن وأنساق تسريحات شعورهن مضمخات بالعطور، يغرين أشباه بشر ويدافعن عن إمبراطورياتهن القائمة على الجنس وأحبت بيبى كوشاما ملابسهن البراقة والأجوبة الحاضرة الحاذقة العاهرة ، كانت تستعيد أثناء النهار نتفًا غير مترابطة وتقهقه ضاحكة .

كوشوماريا الطباخة، مازالت ترتدى الأقراط الذهبية السميكة التى شوهت إلى الأبد حلمتى أذنيها، إنها تستمتع بعروض «دبليو دبليو إڤ» : «هوس المصارعة»، حيث يرتدى كل من : «هولك هوجان» ، و«مستر بيرفكت»، واللذان كانت رقبتاهما أعرض من رأسيهما، طماق «ليكرا» المزركش بالترتر، ويضربان بعضهما بوحشية ، كانت ضحكة كوشوماريا مشوية بذلك الجرس القاسي بعض الشيء والذى يصدر عن الأطفال الصغار فى بعض الأحيان.

كانتا تقضيان طوال اليوم جالستين فى حجرة الاستقبال، بيبى كوشاما على كرسى صاحب المزرعة بذراعيه الطويلتين أو على الشيزلونج (ويتوقف هذا على حالة قدمها)، وتجلس كوشوماريا فوق الأرض تالية لها (تمتطى زبد القنوات إن استطاعت)، محبوستين معًا فى صمت تلفاز صاخب كان شعر إحداهن أبيض ثلجيًا وشعر الأخرى مصبوغًا بالأسود الفاحم ، دخلا كل المسابقات، واستفادا من كل التخفيضات التى أُعلن عنها، وكسبا فى مناسبتين : تى شيرت ، وزمزمية احتفظت بها بيبى كوشاما، أغلقت عليها دولابها.

أحبت بيبى كوشاما منزل أيمينم، ودللت الأثاث الذى ورثته حيث ظلت حية بعد كل الآخرين ، كمان ماماشى وحامل الكمان، صوانات «الأوتى»، المقاعد ذات السلال البلاستيكية، سرر دلهى، خوان للزينة من ڤيينا به عقد من عاج مشروخ ، ومنضدة طعام صنعها ڤيلوتا من خشب الورد.

لقد أفزعتها مجاعات الـ «بى. بى. سى.» وحروب التلفاز التى اصطدمت بها وهى تقلب القنوات ، وأشعلت، من جديد، هموم التلفاز المثيرة للقلق حول الأعداد المتزايدة من البائسين والمسلوبين، أشعلت مخاوفها القديمة من الثورة والتهديد الماركسى اللينينى ، رأت فى التهديد الاثنى والمجاعة ، والتدمير المنظم العمدى العنصرى السياسى أو الثقافى، رأت فى كل ذلك تهديدًا مباشرًا لأثاثها.

أبقت أبوابها ونوافذها مغلقة، ما لم تستخدمها ، استخدمت نوافذها لأغراض بعينها، من أجل نسمة هواء منعش ، من أجل الدفع لبائع اللبن ، من أجل طرد دبور محاصر (كان على كوشوماريا أن تطارده بمنشفة الوجه عبر المنزل).

كما أغلقت ثلاجتها الكئيبة التى تقشرت رقائق صغيرة من طلائها، حيث احتفظت بمؤونتها من أقراص القشدة التى أحضرتها لها كوشوماريا من «بست بيكرى» (١٥) من كوتايام ، وزجاجتين من ماء الأرز الذى تشربه بديلاً عن الماء العادى، وقد احتفظت فى الرف أسفل الحاجز المعدنى بما تبقى من طاقم مائدة عشاء ماماشى المصنوع من خشب الصفصاف.

وقد وضعت فى الجزء المخصص للجبن والزبد دستة، أو ما يقارب ذلك ، من زجاجات الأنسولين التى أحضرتها لها راهيل ، كانت ترتاب فى إمكان أن يكون الساذج والمخنث، فى تلك الأيام، لصوص خزفيات ، أو يشتهون بشدة أقراص القشدة، أو يسرقون من مرضى البول السكرى الأنسولين المستورد الذى يطوفون أيمينم بحثًا عنه .

إنها حتى لم تثق بالتوءمين ، إنها تعتقد أنهما قادران على أى شيء، أى شيء على أى حال ، «إنهما قد يسرقان حتى من يشد أزرهما الآن»، وفكرت، وأدركت فى لوعة كيف أنها قد ارتدت سريعاً إلى التفكير فيهما وكأنهما قد أصبحا، مرة أخرى، وبعد كل تلك السنوات، وحدة واحدة ، وغيرت فى الحال تفكيرها، وقد صممت على ألا تجعل الماضى يزحف عليها هى «هى قد تسرق من يشد أزرها الآن».

ونظرت إلى راهيل وهى تقف إلى جوار منضدة الغداء ولاحظت التلصص نفسه ، القدرة نفسها على البقاء غاية فى الهدوء والسكون والذى بدا أن إستا غدا يتقنها وقد تمكن منها، كانت بيبى كوشاما تخشى هدوء راهيل بعض الشىء.

قالت – وصوتها يصرصر حاداً متهدجًا – : «إذن، ما هى خططك؟ وإلى متى ستبقين هنا؟ هل توصلت إلى قرار؟»

وحاولت راهيل قول شىء ما ، فخرج هذا الشىء مشرشراً فى غير استواء ، مثل قطعة من صفيح ، سارت إلى النافذة وفتحتها ، بحثا عن نسمة هواء منعش.

«أغلقيها بعد أن تنتهى من حاجتك إليها» قالت بيبى كوشاما وقد أطبقت وجهها كما تطبق صوانًا.

لم يعد فى الوسع رؤية البحر من النافذة.

كان ذلك فى الإمكان حتى أغلقت ماماشى الشرفة الخلفية بأول باب ينزلق مطويا فى أيمينم. وأخذت الصورتين الزيتيتين للمبجل أ. چون إيب، و«إليوتى أماشى» (الجدة الكبرى لإستا وراهيل) من الشرفة الخلفية لتضعهما فى الشرفة الأمامية.

إنهما الآن معلقتان هناك، المبارك الصغير وزوجته على جانبى رأس الثور البرى المحنطة المثبتة إلى الحائط.

المبجل إيب يبتسم ابتسامة أسلافه الواثقة متجهًا بها إلى الطريق بدلاً من البحر ، وتبدو أليوتى أماشى أكثر ترددًا، وكأنها تود الاستدارة غير أنها لا تستطيع فعل ذلك ، ربما لم يكن سهلاً عليها هجران البحر ، إنها تنظر بعينيها فى الاتجاه الذى ينظر فيه زوجها ، بينما تنظر بقلبها بعيدا. قرطها «الكونكو» الذهبى القبيح الثقيل (دلالة على طيبة وكرم المبارك الصغير) قد شد حلمتى أذنيها وتعلق هنا على الامتداد حتى كتفيها ، كان فى وسعك أن ترى عبر ثقبى أذنيها النهر الحار ، والأشجار القاتمة ، وقد انحنت عليه ، والصيادين فى قواربهم ، والأسماك .

ورغم أنه لم يعد فى الإمكان رؤية النهر من المنزل، فإنه مازال لمنزل أيمينم إحساس بالنهر، مثلما يكون لمحارة البحر إحساس دائم بالبحر.

إحساس سمكة تعوم تندفع تتقلب.

كان فى وسع راهيل أن ترى من نافذة حجرة الطعام حيث تقف، والريح فى شعرها، ترى المطر يدق كالطبل السقف الصفيحى الصدئ لما كان لمصنع جدهما لأمهما، مصنع المخللات.

«مخللات ومربيات الفردوس».

لقد اعتادوا عمل مخللات، وعصائر فواكه ، ومربيات فواكه، ومساحيق توابل هندية، وأناناس محفوظ، ومربى الموز (بطريقة غير شرعية) بعد أن حرمتها الـ «إف . بى . أو .» (منظمة المنتجات الغذائية) حيث لم تكن، طبقا لمواصفاتها مربى أو چيلى ، كانت أرق بكثير من الچيلى، وأكثف بكثير من المربى ، كانت نوعًا مبهما غير قابل للتصنيف ، طبقًا لما جاء فى كتبهم .

وقد بدا لراهيل، وهى تعود بنظرها الآن إلى الخلف ، وكأن هذه الصعوبة التى لاقتها أسرتهم مع التصنيف، قد سارت إلى مدى أعمق بكثير من مجرد تصنيف المربى والچيلى.

ربما كانت آمو وإستا وهى أسوأ المتجاوزين ، لكن الأمر لم يقف عند حدهم هم ، كان الآخرون أيضًا كذلك. لقد حطموا جميعًا القواعد والقوانين ، عَبَر جميعهم حدودًا ممنوعة. عبث الجميع بالقوانين التى تحدد من الذى يجب أن يُحَب وكيف ، وإلى أى مدى ؟ القوانين التى تجعل الجدود جدودًا، والأخوال أخوالاً، والأمهات أمهات، وأبناء الخال أبناء خال، والمربى مربى ، والچيلى چيلى.

إنه زمن غدا فيه الأخوال آباء، والأمهات محبات عاشقات ، وأبناء الخال موتى يحظون بالجنازات .

إنه زمن غدا فيه ما لاُ يصدَّق مصدقًا ، والمستحيل يحدث بالفعل.

حتى أن الشرطة وجدت ڤيلوتا قبل جنازة صوفى مول.

اقشعرت ذراعاه حينما لمست الأغلال جلده ، كانت أصفاد باردة تحمل رائحة حمض معدنى ، مثل درابزين سيارة الركاب المصنوع من الصلب ورائحة راحتى كمسارى السيارة بسبب إمساكه بهذا الدرابزين.

قالت بيبى كوشاما بعد أن انتهى كل شىء : «سوف تحصد ما تزرع» ، وكأنها هى لا علاقة لها «بالزرع» أو «الحصاد».لقد عادت على قدميها الصغيرتين إلى تطريز الغرز المتقاطعة ، لم تلمس أصابع قدميها الصغيرة الأرض ألبتة ، كانت هى من فكرت فى إعادة إستا إلى أبيه.

كان حزن مارجريت كوشاما ومرارتها؛ لموت ابنتها، يتلويان داخلها ملفوفين مثل زنبرك غاضب ، لم تقل شيئًا، غير أنها كانت تصفع إستا، كلما استطاعت ذلك، فى تلك الأيام التى كانت فيها هناك قبل عودتها إلى إنجلترا .

راقبت راهيل آمو وهى تحزم صندوق ثياب إستا الصغير.

«ربما كانوا على صواب » ، همست آمو قائلة ، « ربما يحتاج الصبى إلى أب بالفعل».

ورأت راهيل عينيها وقد احمرتا احمرارًا تامًا.

استشاروا خبيرة توائم من «حيدر أباد»، ردت عليهم قائلة : إنها لاتنصح بفصل توءم البويضة الواحدة الملقحة، غير أن توءمي البيضتين لا يختلفان عن الأخوة العاديين، وأنهما سوف يعانيان الكرب والضيق الطبيعي الذى يعانيه أطفال البيوت المتهدمة، غير أن الأمر لن يكون أكثر من ذلك ، لا شيء غير طبيعي.

وهكذا أُعيد إستا فى القطار بصندوق ملابسه الصفيحي وحذائه الصوفى المدبب ملفوفًا فى حقيبة سفره القماشية الكاكية ، أعيد بالدرجة الأولى خلال الليل على قطار «بريد مدراس» حتى مدراس، ثم مع صديق لوالدهما من مدراس إلى كلكتا.

كان معه حامل غذاء خفيف به سندوتشات طماطم ، و«قارورة النسر» عليها صورة نسر ، فى رأسه تدور صور مخيفة.

المطر يدفع بمياه سوداء كالحبر، ورائحة حلوى تثير الغثيان ، مثل ورود عتيقة ذهبت رائحتها فلا يحملها النسيم.

غير أن أسوأ الأمور كان ما حمله فى داخله من ذكرى لرجل شاب بفم عجوز، ذكرى وجه متورم وابتسامة مقلوبة محطمة ، ذكرى بِركة ممتدة من سائل صاف تنعكس فيه فقاعة عارية ، ذكرى عين حمراء قانية انفتحت، تعجبت واندهشت، ثم ثبتت تتفرس فيه إستا ، وماذا فعل إستا؟ نظر إلى ذلك الوجه المحبوب وقال: نعم.

نعم كان هو.

نعم كانت هى تلك الكلمة التى عجز إخطبوط إستا عن إدراكها، بدا أن التردد لن يقدم عونا ، كانت الكلمة مودعة تسكن هناك، عميقًا داخل طية أو شق، مثل ألياف المانجو بين الضروس ، ألياف لا يمكن أن يثير انفلاتها قلقًا.

يمكن القول عن حق، وبإيمان عملى خالص، إن كل شيء قد بدأ عندما جاءت صوفى مول إلى أيمينم ، ربما كان صحيحًا أن الأشياء يمكن أن تتغير فى يوم ، وأن ساعات قليلة يمكن أن تؤثر فى ناتج حياة كاملة ، وأن تلك الساعات القليلة، عندما تفعل ذلك، يكون مثلها مثل البقايا التى استنقذت من منزل محترق - ساعة كبيرة

متضخمة، صورة ممهورة، الأثاث وقد أصابه التلف - بقايا يجب بعثها من الحطام وحفظها. وتفسير ما حدث لها.

إن أحداثًا صغيرة، أشياء عادية، تتحطم ويعاد بناؤها ، تُصبغ بمعان جديدة ، وفجأة تصبح عظاماً بيَّض لونها لتصبح قصة ما.

ومع ذلك فإن القول بأن كل شيء قد بدأ بمجيء صوفى مول إلى أيمينم، ليس إلا أسلوبًا واحدًا للنظر فى الأمر.

ويمكن القول بالمثل، وبنفس القدر: إن الأمر قد بدأ بالفعل منذ آلاف السنين التى مضت ، طويلا قبل مجيء الماركسيين ، قبل أن يستولى البريطانيون على «مالابار»، قبل سطوة الهولنديين، قبل وصول «فاسكو دى جاما»، قبل قهر «زامورين» «لكاليكوت» ، قبل أن يتم العثور على أساقفة سريان ثلاث يرتدون كسوات رسمية أرجوانية، طافين فى البحر مع ثعابين بحر ملفوفة ، تمتطى صدورهم وأصداف معقدة فى لحاهم المتشابكة بعد أن اغتالهم البرتغاليون ، يمكن القول : إن الأمر بدأ منذ زمن بعيد قبل أن تصل المسيحية فى قارب وترشح فى كيرالا مثل الشاى من كيس الشاى.

لقد بدأت حقًا أيام صنعت «قوانين الحب» ، القوانين التى وضعت من الذى يجب أن يُحَب ؟ وإلى أى مدى ؟ وكيف ؟

الفصل الثانى

فراشة باباشى

ومع ذلك، ولأغراض عملية، فى عالم عملى بلا رجاء ...

... كانت سماء اليوم من ديسمبر عام تسعة و ستين (التسعمائة والألف مذكورة) سماء زرقاء. كان هذا هو نوع الوقت الذى يموت فيه شىء ما فى حياة الأسرة ؛ ليدفع بأخلاقياتها الدفينة الهاجعة فى مكمنها لتفور إلى السطح، حيث تطفو بعض الوقت، فى مشهد جلى واضح يراه الجميع.

بليموث زرقاء كالسماء، و الشمس فى زعانف ذيولها، تنطلق بسرعة مفرطة عبر حقول الأرز الفتية وأشجار المطاط العجوز، فى طريقها إلى كوشين ، وبعيداً إلى الشرق، فى بلد أصغر، به مناظر طبيعية مماثلة : أدغال،أنهار،حقول أرز ، شيوعيون أسقط ما يكفى من القنابل ، لتغطيتها كلها بستة بوصات من الصلب ، هنا، على أى حال، كان الوقت سلما، وسافرت الأسرة فى البليموث دون خوف أو توجس.

كانت البليموث سيارة «باباشى»، جد إستا وراهيل ، وقد غدت الآن، بعد مماته، سيارة ماماشى، جدتهم، وكان راهيل و إستا فى طريقهما إلى كوشين لرؤية « صوت الموسيقى » للمرة الثالثة، كانا يعرفان كل أغانى الفيلم .

كانوا سيذهبون جميعًا بعد ذلك للإقامة فى «أوتيل سى كوين" [١٦] مع رائحة الطعام القديمة ، كانوا قد قاموا بالحجز مقدما ، وكان عليهم أن يذهبوا باكراً فى الصباح التالى إلى مطار كوشين للقاء زوجة شاكو السابقة، خالتهم الإنجليزية، مرجريت كوشاما، وابنة خالهم صوفى مول، والتى كانت قادمة من إنجلترا لقضاء عيد الميلاد فى أيمينم ، فقد قُتل فى فترة مبكرة من هذا العام – «جو» الزوج الثانى

لمرجريت كوشاما – فى حادثة سيارة ، وعندما سمع شاكو بالحادثة دعاهم إلى أيميتم. قال إنه لم يستطع احتمال التفكير ؛ فهما يقضيان عيد ميلاد موحش كئيب فى إنجلترا، فى منزل ملىء بالذكريات .

قالت آمو : إن شاكو لم يكف عن حب مرجريت كوشاما، غير أن ماماشى لم توافق على ذلك ، كانت تود الاعتقاد بأنه، أساساً، لم يحبها ألبتة.

لم تكن راهيل وإستا قد التقيا بصوفى مول ألبتة ، كانا قد سمعا الكثير عنها، رغم أن ما سمعاه كان فى ذلك الأسبوع الأخير ، سمعاه من بيبى كوشاما، ومن كوشو ماريا، بل وحتى من ماماشى ، لم تكن أىّ منهن قد التقت بها، غير أن جميعهن تصرفن وكأنهن يعرفنها بالفعل. كان الأسبوع، هو أسبوع : « ما الذى تعتقده صوفى مول » ؟

كانت بيبى كوشاما تسترق السمع بقلق على محادثات التوءمين طوال الأسبوع، وكانت كلما ضبطتهما يتحدثان اللغة المالايالامية[١٧] تفرض عليهما غرامة صغيرة تقتطع من المنبع ، من مصروفهما، وفرضت عليهما أن يكتبا ما أسمته بالواجبات مائة مرة – «سوف أتحدث دوماً بالإنجليزية، سوف أتحدث دوماً بالإنجليزية» ، و عندما أديا هذا الواجب علمته بقلمها الأحمر حتى تتأكد من أن السطور القديمة لن يعاد استخدامها تنفيذاً لعقوبات جديدة.

دربتهما على أغنية إنجليزية حتى يغنياها فى السيارة أثناء العودة ، كان عليهما أن يشكلا الكلام تشكيلاً صحيحًا، وأن يكونا حريصين على النطق بشكل خاص ، أ ل ن ط ق.

ابتـ – هج دو دوماً بالرب ،

ومرة أخرى أقول ابتـ – هج،

ابتهج،

ابتهج،

ومرة أخرى أقول ابتـ – هج.

كان اسم إستا بالكامل هو إستابن ياكو ، وكان اسم راهيل هو راهيل ، لم يكن لهما في هذا الوقت لقب أو كنية، إذ إن آمو كانت تفكر في الرجوع إلى اسمها و هي بكر عذراء، رغم أنها قالت : إن الاختيار بين اسم زوجها واسم أبيها لا يوفر للمرأة الكثير من حرية الاختيار.

كان إستا يرتدي حذاءه البيج المدبب، وقد لف شعره على طريقة ألفيس، لفة ناعمة سائبة. لفة الشعر الخاصة بالنزهة ، كانت أغنية ألفيس «حفلة» هي الأغنية المفضلة لديه، «بعض الناس يحب الـ روك، وبعض الناس يحب الـ رول». ، كان يدندن عندما لا يوجد هنالك من يراقبه، يداعب مضرب «البادمينتون»[١٨]، وقد عقص شفتيه مثل الفيس ، «لا داعي للحزن والأنين ، دعونا نحتفل...»

كانت عينا إستا مائلتان ناعستان، وكانت نهايات أسنانه الأمامية ما تزال غير مستوية ، بينما كانت أسنان راهيل الأمامية ماتزال تنتظر داخل لثتها، مثل كلمات في قلم ، وقد أثار حيرة الجميع تسبب ثماني عشرة دقيقة فرق في العمر في مثل ذلك التناقض والتضارب في توقيت الأسنان الأمامية.

كانت كثرة شعر راهيل تقبع فوق قمة رأسها مثل النافورة ، وقد جُمع الشعر معًا بواسطة «الحب في طوكيو»، خرزتان على شريط مطاطي ، ولا علاقة لكل ذلك «بالحب» أو«بطوكيو».

كان الوقت يظهر مطليًا في ساعة معصم راهيل اللعبة ، كانت الساعة الثانية إلا عشر دقائق ، كانت إحدى طموحاتها امتلاك ساعة يمكنها أن تغير الوقت فيها متى شاءت (كان الأمر بالنسبة لها، في المقام الأول، هو : ما الذي يعنيه الوقت ؟). كانت نظارتها الشمسية الحمراء البلاستيكية ذات الإطار الأصفر تجعل الدنيا تبدو حمراء اللون ، قالت أمو لها : إنها ضارة بعينيها، ونصحتها بالتقليل من ارتدائها قدر الإمكان .

كان رداؤها الخاص بالمطار في حقيبة آمو الصغيرة ، و كانت له سراويل خاصة مناسبة.

كان شاكو يسوق السيارة ، إنه يكبر آمو بأربع سنوات ، وما كان في وسع راهيل وإستا دعوته «شاشن»[١٩] ؛ لأنهما إن فعلا ذلك، كان يدعوهما «شيتان»[٢٠]

و«شيدوتى»[٢١] ، وإن دعواه «أماثان»[٢٢]، فإنه كان يدعوهما «أبوى» و«أماى»[٢٣]، وإن دعواه «أونكل»، دعاهما «أونتى»، وكان ذلك محرجاً لهما أمام الناس، لذا فإنهما دعواه شاكو.

كانت حجرة شاكو تغص بالكتب من الأرضية إلى السقف ، كان قد قرأها جميعاً وأخذ منها فقرات طويلة دون سبب واضح ، أو على الأقل، لا يمكن لأحد أو أى أحد آخر إدراكه. مثلاً، بينما يسوقون ذلك الصباح، عبر البوابة، ويصيحون وداعًا لماماشى التى كانت بالشرفة ، قال شاكو فجأة: «غدا «جاتسبى» فى النهاية على ما يرام ، إن ما أثار قلق جاتسبى، و عكر الغبار الطافى فى مجرى أحلامه التى حجبت مؤقتًا اهتمامى بأحزان الرجال العقيمة، وزهوهم قصير الأجل» .

كان الكل قد اعتاد ذلك، حتى أن أحداً منهم لم يهتم أو يبالى بوخز كوع الآخر أو تبادل النظرات ، كان شاكو قد حصل على منحة رودس الدراسية (٢٤) فى «أوكسفورد» وقد سُمح له بتجاوزات وانحرافات لم يسمح بها لأحد آخر.

ادعى أنه يكتب تاريخ الأسرة، وأن الأسرة سوف تدفع له حتى لا ينشر هذا التاريخ. وقد قالت آمو، إن هنالك شخصًا واحداً فى الأسرة هو المرشح المناسب للابتزاز ارتباطا بتاريخ الأسرة، وإن ذلك الشخص هو شاكو نفسه.

بالطبع كان ذلك حينئذ قبل الفزع.

كانت آمو تجلس فى البليموث فى الجزء الأمامى إلى جوار شاكو ، كانت فى السابعة و العشرين فى ذلك العام، وكانت تحمل فى أحشائها إدراكًا لامباليًا ، إنها قد عاشت حياتها. كان من حقها فرصة واحدة.، وهى قد أخطأت : تزوجت الرجل غير المناسب.

لقد أنهت آمو دراستها فى نفس العام الذى اعتزل فيه والدها وظيفته فى دلهى وانتقل إلى أيمينم. ، وأصر باباشى على أن التعليم الجامعى بالنسبة للفتاة ، هو إنفاق لا ضرورة له، ومن ثم، لم يكن أمام آمو أى اختيار غير أن تغادر دلهى معهم.

كان هنالك القليل للغاية الذى يمكن لفتاة شابة أن تقوم به فى أيمينم، غير انتظار عروض الزواج، بينما تساعد أمها فى الأعمال المنزلية ، لم يكن لدى والدها ما يكفى

من النقود لتقديم بائنة مناسبة، ولذا لم تتقدم لها أية عروض ، ومر عامان ، وجاء عيد ميلادها الثامن عشر ، ومر دون أن يلحظه والداها أو يشيرا إليه على الأقل ، وأحست آمو باليأس ، كانت تحلم طوال الوقت بالهروب من أيمينم ومن مخالب أبيها بأخلاقه السيئة وأمها الممرورة التى عانت طويلاً ، وقد خططت خططًا عديدة صغيرة رديئة ، وفى النهاية نجحت إحداها ، ووافق باباشى على السماح لها بقضاء الصيف مع عمة تعيش بعيدًا فى كلكتا .

والتقت آمو هنالك، فى حفل زفاف، بزوجها المستقبلى .

كان فى إجازة من وظيفته فى آسام حيث يعمل كمساعد مدير لمزرعة من مزارع الشاى ، كانت عائلته عائلة «زامندارية»[٢٥] ذات ثراء فى وقت ما ، وقد هاجروا إلى كلكتا فى «البنغال» الشرقية بعد «التقسيم».

كان رجلاً ضئيلاً، جيد البنيان – حسن المظهر – يرتدى نظارة عتيقة الطراز تجعله يبدو جادًا مما يتناقض تمامًا وسحره وشبابه الذى لا يحمل همًا، غير أنها تجرده تمامًا من سلاح الإحساس بالفكاهة ، كان فى الخامسة والعشرين وكان يعمل بالفعل فى مزارع الشاى منذ ست سنوات ، لم يذهب إلى كلية طبقًا لمزاجه وقت أن كان تلميذا . وتقدم إلى آمو بعد خمسة أيام من أول لقاء لهما ، ولم تتظاهر آمو بأنها قد وقعت فى حبه ، كل ما فعلته أنها وزنت الفوائد والمميزات ووافقت ، فكرت أن «أى شىء»، أى امرئ، بأى حال من الأحوال، سوف يكون أفضل من العودة إلى أيمينم ، وكتبت إلى والديها تخبرهما بقرارها ، ولم يردا عليها .

وكان عرس آمو فى كلكتا عرسًا حسنًا . إن آمو عندما تعود، فيما بعد، بناظرها إلى الوراء، إلى ذلك اليوم، فإنها تدرك أن البريق المحموم بعض الشىء فى عينى عريسها لم يكن حبًا أو حتى حماسًا لأمل منتظر فى نعيم شهوانى، كان على وجه التقريب بسبب احتسائه ثمانية كؤوس كبيرة من الويسكى الصرف ، الصافى.

كان حمو آمو رئيس مكتب السكة الحديدية، وكان حاصلاً على الشارة الزرقاء للملاكمة فى «كمبريدج» ، كان سكرتيرا لـ «بى إيه بى إيه» – الجمعية البنغالية لهواة الملاكمة ، وقد مَنَح الزوجين الشابين، طبقًا للعرف المألوف، سيارة فيات مدهونة باللون الأحمر الوردى الترابى، كهدية قام هو بسوقها بنفسه بعد الفرح، مع كل المجوهرات،

وغالبية الهدايا الأخرى التى مُنحت لهما ، وقد مات قبل مولد التوءمين – على منضدة العمليات بينما كانوا يزيلون له مثانته ، وقد حضر حرق جسده كل لاعبى الملاكمة فى البنغال ، كانوا جماعة من المشيعين طويلى الوجوه مكسورى الأنوف.

وكانت آمو عندما انتقلت وزوجها إلى آسام، جميلة، شابة، وقحة، وغدت من يُشرب نخبها فى «نادى المزارعين» ، كانت ترتدى بلوزات عارية الظهر مع ساريها وتحمل كيس نقود من ديباج فضى له سلسلة ، وتدخن سجائر طويلة فى مبسم فضى، وقد تعلمت نفخ حلقات دخان متقنة ، وتحول زوجها ليس فقط إلى مدمن ثقيل للشراب، ولكن أيضًا إلى مدمن كحول متعب تمامًا، بكل ما فى مدمن الكحول من اعوجاج وضلال محزن فاجع. كانت أشياء ذات علاقة به لم تفهمها آمو ألبتة ، إنها لم تتوقف ألبتة عن التساؤل، بعد أن تركته بزمن طويل، لماذا كان يكذب بفظاعة بالغة، بينما لم يكن فى حاجة إلى الكذب ، وخاصة عندما لم تكن هى فى حاجة إلى ذلك؟! كان يقول فى حديث له مع أصدقائه ، إنه يحب السلمون المدخن ، بينما تعلم آمو أنه يكرهه ، أو يجىء إلى المنزل من النادى ويخبر آمو بأنه رأى هنالك فيلم «قابلنى فى سانت لويس» بينما هم يعرضون بالفعل فيلم «راعى البقر البرونزى» ، وعندما واجهته بهذه الأشياء لم يقدم تفسيرًا أو اعتذارًا ألبتة فقط ضحك بفتور واستهزاء، مما أثار غضب آمو بطريقة لم تكن تتصور أنها قادرة عليها.

كانت آمو حبلى فى شهرها الثامن عندما نشبت الحرب مع الصين ، كان ذلك فى أكتوبر ١٩٦٢، وتم إجلاء زوجات وأطفال المزارعين فى آسام ، كانت آمو حبلى بصورة يصعب السفر معها فظلت فى المزرعة. وفى نوفمبر، بعد ركوب مرعب فى سيارة ركاب على طريق ملىء بالحفر والنتوءات إلى «شيلونج»، وسط شائعات بالاحتلال الصينى والهزيمة الهندية الموشكة، ولد إستا وراهيل ، فى ضوء الشموع ، فى مستشفى طُليت نوافذه بالسواد ، بزغا دون كثير جلبة أو ضوضاء، خلال ثمانى عشرة دقيقة فيما بينهما ، اثنان صغيران بدلاً من واحد كبير ، فقمتان توأمتان، زلقتان فى عصائر أمهما، متغضنتان من الجهد الذى بذل فى ولادتهما ، وفحصتهما آمو بحثا عن أية تشوهات قبل أن تغلق عينيها وتنام .

أخذت تعد : أربعة عيون ، وأربعة آذان، وفمين، وأنفين، وعشرين إصبعًا، وعشرين ظفر أصبع ، وقدم كاملة ....

لم تلاحظ الروح السيامية الواحدة ، كانت سعيدة بأنها أنجبتهما ، وكان أبوهما المخمور، يتمدد على مقعد خشبى طويل فى ممر المستشفى .

وعندما بلغ التوءمان العامين، كان إقبال والدهما على الشراب قد تفاقم بسبب وحشة حياة مزرعة الشاى، والتى دفعت به إلى أن يكون مدمن كحول يعيش ذاهلاً فى غيبوبة ، وتمر أيام بكاملها لا يفعل خلالها شيئًا غير الرقاد فى السرير وعدم الذهاب إلى العمل ، وأخيراً استدعاه مديره الإنجليزى، مستر «هوليك» إلى منزله الريفى من أجل «حديث جاد».

جلست آمو في شرفة منزلها تنتظر في قلق عودة زوجها، كانت واثقة بأن السبب الوحيد الذى يريد هوليك رؤيته من أجله هو صرفه من الخدمة ، واندهشت عندما عاد يبدو عليه الاكتئاب، وإن لم يصبه الخراب والدمار ، وقال لآمو : إن مستر هوليك قد اقترح عليه شيئا ما، وأنه فى حاجة لمناقشة ذلك معها ، بدأ غير واثق بنفسه إلى حد ما، متجنبا نظراتها. غير أنه استجمع شجاعته وهو يتقدم فى الحديث ، قال إنه من الناحية العملية، وعلى المدى الطويل، اقتراح يمكن أن يفيد كليهما. «جميعهم» فى الحقيقة، إن وضعوا فى الاعتبار عملية تعليم الطفلين.

كان مستر هوليك صريحاً مع مساعده الشاب ، أخبره عن الشكاوى التى تلقاها من العمال وبالمثل من المديرين المساعدين الآخرين.

قال : «أخشى أنه لا اختيار أمامى غير أن أطلب منك تقديم استقالتك» ، وسمح للصمت أن يأخذ حقه ومجراه ، وسمح للرجل المثير للشفقة، الجالس عبر المنضدة، أن يبدأ فى الانتفاض ، أن يبكى ، ثم تكلم هوليك مرة أخرى.

«حسنًا، قد يكون هنالك بالفعل اختيار ما ... ربما نستطيع أن نجرب شيئًا ما ، التفكير الإيجابى هو ما أقول به دومًا ، أحص ما معك من نِعَم وعطايا» ، وتوقف هوليك عن الكلام ليأمر بقدح من القهوة السوداء - «أنت، كما تعلم، رجل محظوظ للغاية : عائلة رائعة، طفلان جميلان، ومثل تلك الزوجة الجذابة ...» وأشعل سيجارة وترك عود الكبريت الخشبى يحترق حتى لم يعد فى إمكانه الإمساك به أكثر من ذلك ، «زوجة جذابة للغاية...».

توقف البكاء ، نظرت عينان بنيتان حائرتان فى عينين شنيعتين خضراوين ذات أوردة حمراء ، واقترح هوليك، وهو يشرب القهوة، أن يذهب بابا بعيداً مدة من الزمن ، فى إجازة ربما إلى مستوصف للعلاج ، لأطول فترة تحتاجها صحته كى تتحسن ، واقترح مستر هوليك أن تُرسل آمو إليه فى منزله الريفى، خلال فترة غيابه، «للعناية بها ورعايتها».

كان هنالك بالفعل عدد من الأطفال مهلهلى الثياب، فاتحى البشرة، فى المزرعة التى أوصى بها هوليك لقاطفات الشاى المولع بهن ، كانت هذه هى غزوته الأولى فى دوائر الإدارة.

راقبت آمو فم زوجها وهو يتحرك يشكل الكلمات ، لم يقل شيئًا، تزايد قلقه ثم استشاط غضباً بسبب صمتها، فجأة اندفع نحوها، أمسك بشعرها، لكزها وأغمى عليه من الجهد، أمسكت آمو بأثقل كتاب وجدته فى رف الكتب - «أطلس عالم ريدرز ديجست» - وضربته به بأقسى ما فى استطاعتها على رأسه ، على رجليه ، على ظهره وكتفيه ، وعندما استعاد وعيه، انتابته الحيرة من الكدمات التى أصابته ، واعتذر ذليلاً للعنف ، غير أنه بدأ للحال مضايقتها فيما يتعلق بمساعدتها فى نقله وتحويله ، وسار الحال على هذا النسق ، عنف السكران تتبعه مضايقة ما بعد حالة السكر ، كانت الرائحة أشبه برائحة الدواء، رائحة الكحول البائت الراشح عبر جلده، والقيء المتجمد، يرصع فمه مثل فطيرة كل صباح، يثير نفورها واشمئزازها ، وعندما بدأت نوبات عنفه تنال الأطفال، وبدأت الحرب مع باكستان، تركت آمو زوجها وعادت، غير مُرَحَّب بها، إلى والديها فى أيمينم ، عادت لكل ما هربت منه، فقط منذ سنوات قليلة مضت ، ماعدا أن لديها الآن طفلين صغيرين ، دون المزيد من الأحلام.

ولم يصدق باباشى قصتها - ليس لأنه أحسن الظن بزوجها؛ ولكن لأنه لم يصدق ببساطة أن رجلاً إنجليزياً ، «أى» رجل إنجليزى، يمكن أن يطمع فى زوجة رجل آخر ويشتهيها.

أحبت آمو - بالطبع - طفليها ، غير أن أعينهما الواسعة القابلة للجَرْح، واستعدادهما الطوعى لحب الناس الذين لا يحبونهما فى الواقع، كان أمرًا يثير حنقها وغضبها، ويجعلها تريد إيلامهما فى بعض الأحيان - فقط لتعليمهما، وحمايتهما.

كان الأمر وكأن النافذة التى اختفى والدهما عبرها مازالت مفتوحة لأى واحد آخر كى يدخل منها ويلقى الترحيب.

كان التوءمان بالنسبة لآمو مثل زوج من الضفادع الصغيرة المثيرة للدهشة، وقد احتكر كل منهما صحبة الآخر، يسيران فى تراخ ، ذراع كل منهما فى ذراع الآخر، فى طريق رئيسى مليء بالمرور المندفع، ذاهلين تمامًا عما يمكن أن تفعله عربات الشحن والبضاعة بالضفادع. آمو تراقبهما بحدة - مشدودة متوترة بسبب يقظتها الدائمة ، كانت سريعة فى توبيخ وتقريع طفليها، لكنها كانت أسرع فى الاستياء والتكدر نيابة عنهما.

كانت تعرف أنه لم تعد هنالك أمامهما فرص أخرى ، هنالك الآن أيمينم فقط - شرفة أمامية وشرفة خلفية ، نهر حار ومصنع للمخللات.

وهنالك فى الخلفية عويل دائم عال كبكاء الأطفال يعلن الرفض المحلى.

تعلّمت آمو سريعًا خلال الشهور الأولى القليلة من عودتها إلى منزل والديها، تعلمت التعرف على الوجه القبيح للمواساة واحتقاره ، علاقات أنثوية قديمة ذوات لحى فى بدايتها وذقون عديدة تتمايل، تقمن برحلات فى الليل إلى أيمينم لإبداء الإشفاق عليها بسبب طلاقها ، وكانت تعصر ركبتها تتفرس فيهن ، تتأملهن ، تقاوم حافزًا يدفعها لصفعهن ، أو فتل حلمة أثدائهن بمفك صواميل ، مثل « شابلن » فى « الأزمنة الحديثة» .

أحست آمو وهى تنظر إلى صورة عرسها أن المرأة التى تنظر إليها هى واحدة أخرى غيرها ، عروس بلهاء مزينة بالجواهر ، كان ساريها الحريرى بلون الشمس الغاربة ، والخواتم فى كل الأصابع ، ونقط بيضاء من خشب الصندل أُلصقت بحاجبيها المقوسان. عندما تنظر آمو إلى نفسها هكذا، يلتوى فمها الناعم فى ابتسامة صغيرة مريرة لهذه الذكرى - ليست ذكرى العرس بذاته، لكن حقيقة أنها سمحت لنفسها بأن تتزوق وتتزين هكذا قبل أن تُقاد إلى المشنقة ، بدا الأمر سخيفًا للغاية ، عبثيًا للغاية ، مثل صقل أخشاب الحريق .

ذهبت إلى صائغ الحلى بالقرية وطلبت منه أن يصهر خاتم عرسها الثقيل، وأن يصنع منه سوارًا رفيعًا برؤوس حيات، احتفظت به من أجل راهيل .

عرفت آمو أن الأعراس ليست بالشيء الذي يمكن تجنبه كلية ، فهذا على الأقل كلام غير عملي ، لكنها ظلت بقية حياتها تدافع عن الأفراح في ملابس عادية ، رأت أن ذلك يجعلها أقل شراً.

كانت آمو عندما تستمع إلى الأغاني التى تحبها من المذياع، تحس أحيانًا بأن شيئًا ما يضطرب داخلها، ألَمٌ يسيل تحت جلدها منتشراً، تغادر العالم فجأة غاضبة مثل ساحرة، إلى مكان أفضل وأكثر سعادة ، كان هنالك، فيما يتعلق بها، فى مثل تلك الأيام، شىء قلق متبرم غير أليف ، وكأنها قد ألقت جانبًا، بصورة مؤقتة، بأخلاق الأمومة والتطليق ، حتى مشيتها تغيرت من مشية أمومة آمنة إلى مشية من نوع آخر، مشية وحشية ، إنها تضع أزهاراً فى شعرها وتحمل أسراراً سحرية فى عينيها ، لا تتحدث إلى أحد ، تقضى الساعات على ضفة النهر مع «ترانسيتورها» البلاستيكى الصغير الذى يشبه ثمرة اليوسفى ، تدخن السجائر وتسبح فى منتصف الليل.

ما الذى أسبغ على آمو هذه النهاية الخطرة؟ هذا الجو من فقدان القدرة على التنبؤ بالمستقبل؟ كان ذلك لأنها تخوض حرباً داخلها ، خليط غير قابل للاختلاط ، الرقة المتناهية للأمومة، والغضب الطائش لقاذفة قنابل انتحارية ، كان هذا هو ما ينمو فى داخلها، ليقودها فى النهاية إلى أن تحب بالليل الرجل الذى أحبه طفلاها بالنهار ، وأن تستخدم بالليل القارب الذى استخدمه طفلاها بالنهار ، القارب الذى جلس إستا عليه، ووجدته راهيل.

كل امرئ يَحْذَر آمو – بعض الشىء – فى الأيام التى يغنى المذياع فيها أغانيها. كانوا يحسون – بصورة ما – أنها تعيش فى الظلال الباهتة ما بين عالمين، فقط فيما وراء قبضة سطوتهما ، إن المرأة التى لعنوها بالفعل، لم يُترك لها الآن غير القليل لتفقده، ومن ثم يمكن أن تكون خطرة ، ولذا فإنه فى الأيام التى يذيع فيها المذياع أغانى آمو يتجنبها الناس، يقومون بعمل خيات حولها، لقد اتفق الجميع على أنه من الأفضل «تركها لحالها».

فى الأيام الأخرى، كان لديها عندما تبتسم غمازتين عميقتين.

ولديها وجه رقيق منحوت، وحاجبين سوداوين لهما زوايا مثل جناحى «نورس» يحلق عالياً، وأنف صغيرة مستقيمة، وجسد مثير بنى فى لون الجوز.

في ذلك اليوم من ديسمبر بسمائه الزرقاء أفلت شعرها الوحشى المجعد فى خصلات فى ريح السيارة ، بدا كتفاها، فى بلوزة السارى الخالية من الأكمام، وكأنهما قد صقلا بدهان للكتفين من شمع كثيف. كانت أحياناً هى المرأة الأكثر جمالاً والتى لم يَرَ إستا وراهيل أجمل منها ، وأحيانا أخرى لم تكن كذلك .

جلست بيبى كوشاما، فى المقعد الخلفى للبليموث، الراهبة السابقة وعمة الأم الصغرى بين إستا وراهيل ، كرهت بيبى كوشاما التوءمين، بنفس الطريقة التى يكره بها سيئ الحظ قرينه فى سوء الحظ، اعتبرتهما لقيطين مدانين بلا أب ، والأسوأ أنهما «نصف هندوسين مختلطى المولد»، لن يقبل مسيحى سريانى يحترم نفسه الزواج منهما ألبتة. كانت حريصة على أن يدركا أنهما (مثلها) يعيشان على الكرم والتسامح فى منزل أيمينم ، منزل جدتهما لأمهما، حيث ليس لهما فيه - فى الحقيقة - أى حق من الحقوق . كانت بيبى كوشاما مستاءة من آمو لأنها رأتها تصارع قدرها، والذى تحس بيبى كوشاما ذاتها، أنها قبلته راضية ، قدر المرأة الملعونة التى بلا رجل. الأب موليجان الحزين بلا بيبى كوشاما ، لقد أقنعت نفسها عبر السنوات بأن حبها الذى لم يكتمل للأب موليجان إنما يرجع كلية إلى كبحها لنفسها وإصرارها على فعل الصواب .

لقد قبلت قلبيًا وبإخلاص، الرأى المأخوذ به عامة، من أن الابنة المتزوجة ليس لها مقام فى منزل والديها ، أما الابنة «المطلقة» فليس لها - طبقا لبيبى كوشاما، مقام فى أى مكان ألبتة ، أما الابنة «المطلقة» من زواج قام على الحب فإن الكلمات لا يمكنها- حسنا - أن تصف غضب بيبى كوشاما. أما الابنة «المطلقة» من زواج قام على الحب بين مجتمعات مختلفة، فإن بيبى كوشاما اختارت أن تظل تنتفض ملتزمة الصمت حول هذا الموضوع .

كان التوءمان أصغر بكثير من أن يفهما كل هذا، ولذا فإن بيبى كوشاما غبطتهما للحظات السعادة الفائقة التى يعيشانها عندما رفعت حشرة «اليعسوب» الطائرة التى أمسكا بها قطعة حجر صغيرة من كفيهما برجليها، أو عندما كان يُسمح لهما بإعطاء الخنازير حمامًا أو عندما يحصلان على بيضة ساخنة من دجاجة ، غير أن السلوى التى يستخرجانها من بعضهما كانت أشد ما يثير حسدها ، كانت تتوقع منهما، على الأقل، بعض التعاسة الرمزية .

سوف تجلس مرجريت كوشاما، فى طريق العودة من المطار، فى المقعد الأمامى مع شاكو باعتبار أنها كانت زوجته ، وستجلس صوفى مول فيما بينهما ، وسوف تتحرك آمو لتجلس فى المقعد الخلفى .

وسوف تكون هنالك قاورتان من الماء : ماء مغلى من أجل مرجريت كوشاما وصوفى مول، وماء صنبور للباقين جميعاً.

وسوف توضع أمتعة السفر فى صندوق السيارة.

كانت راهيل تعتقد أن «صندوق السيارة» كلمة محببة ، أفضل، على أى حال، كثيرا من كلمة «ستيردى» – «ستيردى» كلمة بشعة ، أشبه باسم قزم «ستيردى كوشى أومن» – قزم لطيف من الطبقة الوسطى، يخاف الله، منخفض الركبتين، وله فارق شعر جانبى .

كان هنالك على سقف البليموث إطار من أربعة جوانب من خشب الأبلكاش المبطن بالصفيح، لوحة إعلانات كُتب على جوانبها الأربعة بخط متقن، «مخللات ومربيات الفردوس» ، وأسفل الكتابة كانت هناك رسوم زيتية لزجاجات مربات فاكهة مختلطة ومخلل ليمون بنزهير حار فى زيت صالح للأكل، عليها بطاقات كتب عليه بخط متقن «مخللات ومربات الفردوس» – ويلى الزجاجات قائمة بكل منتجات «الفردوس» وراقص «كاثا كالى» وجهه أخضر وتنورته كالدوامة ، وقد كُتبت على امتداد الجزء السفلى من دوامة تنورته الهائجة التى على شكل حرف S، عبارة «أباطرة المذاق» – وهى المساهمة التى قدمها الرفيق ك. ن. م. بيلاى من تلقاء ذاته ، وهى ترجمة حرفية لـ «روشى لوكاتيند راجاقو»، والتى كان رنينها أقل سخفا وإثارة للضحك بعض الشىء من «أباطرة المذاق» ، غير أن الرفيق بيلاى كان قد طبعها بالفعل، ولذا فإن أحدا لم يملك شجاعة سؤاله بتغيير أمر الطباعة كله. وهكذا، ولسوء الحظ، غدت «أباطرة المذاق»، سمعة دائمة لبطاقات «مخللات الفردوس».

قالت آمو : إن راقص الكاثاكالى كان «رنجة حمراء»، ولا علاقة له بأى شىء وقال شاكو إنه أسبغ على المنتجات «نكهة إقليمية»، مما يحقق لها قاعدة راسخة عندما تدخل «سوق ما وراء البحار».

قالت آمو : إن خشب الأبلكاش قد جعل منظرهم مثيراً للضحك ، مثل سيرك على سفر ، له زعانف ذيول أسماك.

بدأت ماماشي صناعة المخللات تجارياً بعد قليل من إحالة باباشي إلى التقاعد من الخدمة الحكومية في دلهي وعودته إلى الحياة في أيمينم. كانت «جمعية الإنجيل بكوتايام» تقيم سوقاً خيرية، وطلبت من ماماشي إعداد بعض من مربة الموز التي اشتهرت بها ، ومخلل المانجو الغض الريان. وبيعت كلها سريعاً، ووجدت ماماشي أن لديها طلبات تفوق ما تقوى عليه ، فقررت، وقد هزها نجاحها، أن تداوم بإصرار على المخللات والمربات، وسرعان ما وجدت نفسها مشغولة طوال العام ، وكان باباشي يواجه، من ناحيته، متاعب خزى الاعتكاف ، كان عمره أكبر من عمر ماماشي بسبعة عشر عاماً، وأحس بالصدمة عندما أدرك أنه قد غدا عجوزاً بينما زوجته ماتزال في ريعان شبابها.

ورغم أن ماماشي كانت تعاني من القرنية المخروطية وتكاد تكون ضريرة، من الناحية العملية، غير أن باباشي لم يكن يعاونها في صناعة المخللات ، كان يعتبر صناعة المخللات مهمة لا تناسب موظفاً كبيراً سابقاً في الحكومة ، كان على الدوام رجلاً غيوراً، لذا كان استياؤه شديداً من الانتباه الذي حظيت به زوجته فجأة ، كان يسير مترهلا في مشيته حول الدار في حلله التي حيكت حياكة لا عيب فيها، ينسج دوائر من التجهم حول كومات الفلفل الأحمر الحار والكركم الأصفر المطحون حديثاً، يراقب ماماشي وهي تشرف على شراء ووزن وتمليح وتجفيف، الليمون البنزهير والمانجو الغض الريان. إنه يضربها كل ليلة بفازة زهور نحاسية ، لم يكن الضرب جديداً الجديد فقط كان تكرار مرات الضرب وتعددها، وفي إحدى الليالي قام باباشي بتحطيم قوس كمان ماماشي وإلقائه في النهر.

ثم جاء شاكو، من أوكسفورد، إلى المنزل لقضاء الإجازة الصيفية ، كان قد نما ليصبح رجلاً كبيراً ، وكان في تلك الأيام قوياً يمارس التجديف «للباليول» ، ووجد بعد أسبوع من وصوله، باباشي يضرب ماماشي في غرفة المطالعة، فأسرع الخطى داخلاً الحجرة، وقبض على يد باباشي الممسكة بالفازة وثناها إلى خلفه.

قال لوالده : «لا أود أن يحدث ذلك ثانية ألبتة ، لا أوده أن يحدث أبداً». وجلس باباشى بقية هذا اليوم فى الشرفة يحملق متحجراً فى حديقة الزينة، متجاهلاً أطباق الطعام التى أحضرتها له كوشو ماريا. وفى المساء، متأخراً، دخل حجرة المطالعة وأخرج كرسيه الماهوجنى المفضل لديه المتين كالصخر. ووضعه وسط الطريق الخاص، وحطمه إلى قطع صغيرة مستخدماً مفك سباك، وترك الحطام هناك فى ضوء القمر، كومة من أغصان مجدولة مصقولة وشظايا خشب ، لم يلمس ماماشى مرة أخرى ألبتة. غير أنه لم يكلمها أيضاً طوال حياته ألبتة ، كان عندما يحتاج إلى شىء ما يستخدم كوشو ماريا أو بيبى كوشاما كوسيطتين .

كان يجلس فى الأمسيات، عندما يعرف أن هنالك زواراً من المتوقع قدومهم، يجلس فى الشرفة، يخيط أزراراً غير مفقودة فى قمصانه، حتى يخلق انطباعاً بأن ماماشى تهمله ، وقد نجح – إلى حد ما – فى تحقيق المزيد من تآكل وجهة نظر أيمينم فى الزوجات العاملات .

اشترى البليموث الزرقاء فى لون السماء من عجوز إنجليزى فى مونار ، وغدا مشهده مألوفاً فى أيمينم، يسير بحذاء الشاطئ، فى عظمة، أسفل الطريق الضيق فى عربته الواسعة، وقد بدا من الظاهر رشيقاً أنيقاً، غير أنه كان يعرق بحرية داخل حلته الصوفية ، لم يكن يسمح لماماشى أو لأى شخص آخر من العائلة بأن يستخدمها، أو حتى الجلوس فيها ، كانت البليموث هى أداة انتقام باباشى.

كان باباشى عالم حشرات جليل فى «معهد بوسا» ، وقد تغير لقبه بعد الاستقلال ومغادرة البريطانيين، من عالم حشرات جليل إلى مدير مشارك لقسم الحشرات. وارتفع فى العام الذى اعتزل فيه إلى مرتبة تعادل مرتبة المدير.

غير أن أكبر عقبة واجهته فى حياته كانت عدم إطلاق اسمه على الفراشة التى اكتشفها.

لقد سقطت فى شرابه ذات مساء، بينما كان يجلس فى شرفة الاستراحة بعد يوم عمل طويل فى الحقل ، وقد لاحظ عندما التقطها أن ذؤاباتها الظهرية كثيفة بشكل غير عادى ، فحصها عن قرب ، ثم ثبتها بانفعال متزايد، ووضعها فى اليوم التالى فى

الشمس ساعات قليلة حتى يتبخر الكحول ، ثم أخذ أول قطار عائداً إلى دلهى ، ثم قام بفحصها فى ضوء تصنيف الأحياء، وأمل فى الشهرة يداعبه ، وقد قيل لباباشى، بعد ستة شهور من القلق غير المحتمل إنه قد تم التعرف أخيراً على هوية تلك الفراشة باعتبارها سلالة غير عادية – إلى حد ما – من أنواع معروفة جيداً تنتمي إلى عائلة «ليمانتريديا الاستوائية»، مما أصابه بخيبة الأمل.

وجاءت الضربة الحقيقية بعد اثنى عشر عاماً، إذ قرر علماء الحشرات قشرية الأجنحة، نتيجة تعديل جذرى فى دراسات تصنيف الأحياء ، أن فراشة باباشى كانت فى الحقيقة نوعاً منفصلاً، وبالتالى صنفاً غير معروف للعلم ، كان باباشى بالطبع قد اعتزل، حينذاك، وانتقل إلى أيمينم ، كان الوقت قد فات ليثبت ادعاءه لهذا الاكتشاف ، وأُطلق على فراشته اسم نائب مدير قسم الحشرات، وكان موظفاً أدنى يكرهه باباشى دوماً.

فى السنوات التالية، ورغم أن باباشى كان سيئ المزاج منذ فترة طويلة قبل مسألة الفراشة، فإن فراشته تلك حُمِّلت مسئولية حالاته المزاجية الكئيبة ونوبات الغضب المفاجئة . كان شبحها الخبيث الرمادى، الوبرى ، بنؤاباته الظهرية الكثيفة بصورة غير عادية يسكن كل منزل يعيش فيه ، كان يعذبه ويعذب أطفاله ، وأطفال أبنائه.

كان باباشى يرتدى كل يوم وحتى يوم وفاته، وحتى فى ظل حرارة أيمينم الخانقة، حلته المكونة من قطع ثلاث والمكوية كيًا جيداً، وساعة الجيب الذهبية، وعلى خوان الزينة الخاص به، تجيء تاليةً لزجاجة الكولونيا وفرشاة الشعر الفضية، صورته فى شبابه التى يحتفظ بها، وقد صقل شعره، صورة أُخذت له فى ستوديو تصوير فى ڤيينا، حيث درس دبلوماً مدة، شهور ستة أهلّته لشغل وظيفة عالم حشرات جليل، أخذت ماماشى، خلال تلك الشهور القليلة التى قضياها فى ڤيينا، دروسها الأولى فى العزف على الكمان ، لكن الدروس توقفت فجأة عندما أخطأ مدرس ماماشى، «لاونسكى تيفتال» وقال لباباشى : إن زوجته موهوبة فذة ، وإنها يمكن أن تكون – كما يعتقد – على مستوى الجوقة الموسيقية.

وألصقت ماماشى، فى ألبوم صور العائلة، قصاصة «الإنديان إكسبريس» التى جاء فيها خبر وفاة باباشى ، وقد جاء فى القصاصة:

إن عالم الحشرات ذائع الصيت، شرى بينان چون إيب،
ابن المرحوم المبجل أ. چون إيب من أيمينم (وشهرته
بين العامة بونيان كونجو) قد أصابته أزمة قلبية
خطيرة. وقد توفى فى المستشفى العام لكوتايام
الليلة الماضية ، لقد أحس فى الساعة ١٫٠٥ قبل
الظهر بآلام فى الصدر، وحُمل على الفور إلى
المستشفى ، وجاءت النهاية الساعة ٢٫٤٥ بعد الظهر -
لقد كان شرى إيب يمر بظروف صحية غير مواتية
خلال الستة أشهر الأخيرة ، وهو سيظل حياً فى
زوجته سوشاما وابنه وابنته.

بكت ماماشى، فى جنازة باباشى، وانزلقت عدساتها اللاصقة من عينيها، قالت آمو للتوءمين إنها كانت تبكى فى الأساس لاعتيادها عليه أكثر من حبها له ، لقد اعتادت عليه يسير مترهلاً حول مصنع المخلل، واعتادت أن يضربها من حين لآخر ، قالت آمو : إن البشر مخلوقات تحكمها العادة، ونوع الأشياء التى اعتادوها، وهى أنواع تثير الدهشة ، وقالت آمو : ما عليكما إلا أن تنظرا حواليكما، لتريا أن الضرب بالفازات النحاسية هو أقل تلك العادات جميعاً .

سألت ماماشى راهيل، بعد الجنازة، أن تساعدها فى وضع وإزاحة عدساتها اللاصقة بوساطة الأنبوبة الماصة للبرتقال والتى كانت فى حقيبتها، وسألت راهيل ماماشى، إن كان فى وسعها وراثة الأنبوبة الماصة بعد موت ماماشى ؟ فأخذتها آمو خارج الحجرة وضربتها.

قالت لها: لا أريد أن أسمعك أبداً تناقشين موت الناس معهم مرة أخرى .

قال إستا: إن راهيل تستحق الضرب لأنها عديمة الإحساس للغاية.

أُعيد عمل برواز لصورة باباشى المأخوذة فى ڤيينا، بشعره المصقول ووضعت فى قاعة الاستقبال.

كان رجلاً لامعًا ، أنيقًا ، مهندمًا، صغيرًا ، ذا رأس أميل إلى أن تكون كبيرة ، كانت له ذقن أخرى بادئة فى التكوين، ويمكن تأكيد وجودها إن نظر إلى أسفل أو أومأ برأسه. وقد راعى فى الصورة أن يرفع رأسه عالية بما يكفى لإخفاء ذقنه المزدوجة، ومع ذلك لم يكن الرأس عالياً بما يكفى ليبدو متعجرفًا. كانت عيناه البنيتان الفاتحتان مؤدبتين، ومع ذلك كانتا شريرتين وكأنه كان يبذل جهداً ليكون مهذباً أمام المصور بينما هو يعد مؤامرة لقتل زوجته ، كان لديه عقدة لحمية تتدلى على شفته السفلى على شكل بوز أنثوى – مثل ذلك الذى للأطفال الذين يمصون إبهامهم ، وكان لديه غمازة مستطيلة فى ذقنه تساعد فقط فى إبراز تهديد بعنف كامن مجنون ، نوع من قساوة ضمنية ، كان يرتدى سروال ركوب الخيل الكاكى رغم أنه لم يمتطِ ألبتة حصانا فى حياته ، كان حذاء الركوب يعكس أضواء استوديو المصور ، وكانت ترقد أفقية عبر حجره عصا ركوب ذات مقبض عاجى.

كان هنالك سكون حذر يحيط بالصورة مما أضفى على الحجرة الدافئة، المعلقة بها، برداً واضحًا .

عندما مات باباشى ترك صناديق مليئة ببذلات غالية الثمن، وعلبة شيكولاتة مليئة بأزرار أطراف أكمام القمصان الإفرنجية، والتى قام شاكو بتوزيعها بين سائقى التاكسى فى (كوتايام) ، لقد فُصلت وحولت إلى خواتم ودلايات لبائنات الفتيات غير المتزوجات.

وعندما سأل التوءمان فيما تستخدم أزرار أكمام القمصان ؟ قالت لهما آمو: «لتربط أطراف أكمام القمصان معًا – وانفعلا بقطعة المنطق هذه ارتباطًا بما بدا حتى الآن لغة غير منطقية : أزرار + ربط = أزرار – ربط ، كان ذلك بالنسبة لهما، منافسًا لدقة وإحكام ومنطق الرياضيات ، لقد منحتهم روابط – الأزرار رضاء مفرطًا (إن بالغنا فى القول) ، وميلاً حقيقيًا للغة الإنجليزية.

قالت آمو : إن باباشى كان «سى سى بى» بريطانيًا مستعضيًا، وهى الحروف الأولى «شهى شهى بوش»[٢٦]، والتى تعنى فى الهندية ممسحة الزبالة. قال شاكو : إن الكلمة الصحيحة المناسبة لأناس مثل باباشى هى «إنجلوفيل»[٢٧]، وجعل راهيل وإستا

يبحثان فى «قاموس دائرة المعارف الكبرى لريدرزديجست» عن معنى «إنجلوفيل» ، وقد قال القاموس : إنه «شخص ميَّال إلى الإنجليز» ، وكان على إستا وراهيل أن يبحثا عن معنى «ميَّال إلى» .

وكان المعنى يقول:

(١) أن يوضع بطريقة ملائمة فى وضع خاص.

(٢) أن يُهيَّأ لحالة بعينها.

(٣) أن يفعل ما يشاء على أن، يكف يديه، يتهرب، يدمر، يجهز وينهى، يستقر، يستهلك (الطعام)، يقتل، يبيع.

قال شاكو : إن تلك الكلمة تعنى، فى حالة باباشى، رقم (٢) أى يهيئ عقله لحالة بعينها ، والتى تعنى، كما قال شاكو: أن عقل باباشى قد تمت تهيئته لحالة جعلته يحب الإنجليز .

وقال شاكو : للتوءمين إنهم جميعًا إنجلوفيل، رغم كرهه الاعتراف بذلك ، إنهم عائلة من «الإنجلوفيل» ، عائلة وُجهت فى الاتجاه الخاطئ، وقعوا فى شرك خارج تاريخهم، وهم عاجزون عن متابعة آثار خطواتهم ؛ لأن آثار أقدامهم قد مُحيت ، وشرح لهم أن التاريخ كان مثل منزل عتيق فى الليل ، وقد أضيئت كل مصابيحه ، والأسلاف داخله يهمسون .

قال شاكو: «علينا، حتى نفهم التاريخ، أن ندخل وأن نستمع إلى ما يقولون ، وأن ننظر إلى الكتب والصور التى على الجدران، وأن نشم الروائح».

لم يكن لدى إستا وراهيل شك فى أن المنزل الذى يعنيه شاكو هو المنزل الذى على الضفة الأخرى من النهر، وسط مزرعة المطاط المهجورة، حيث لم يذهبوا إلى هنالك قط. منزل «كارى سايبو» ، صاحب السود ، الرجل الإنجليزى الذى «أصبح مواطنًا» ، تحدث «المالايالامية» وارتدى «الموندوس» ، «كيرتز»[٢٨] أيمينم الخاص بها، أيمينم «قلب الظلام» الخاص به ، لقد أطلق النار على رأسه منذ عشر سنوات مضت عندما أخذ والدا عشيقه الصغير، الصبى بعيداً عنه وأرسلاه إلى المدرسة ، وأصبح العقار بعد الانتحار،موضع نزاع شديد بين طباخ كارى سايبو وسكرتيره. وظل المنزل خاليًا

لسنوات. عدد قليل من الناس هم الذين رأوه ، غير أنه كان فى وسع التوءمين أن يتصوراه :

منزل التاريخ .

بأحجار أرضياته الباردة، وحوائطه القاتمة، وظلاله المتموِّجة الأشبه بالسفن. والسحالى السمينة نصف الشفافة تعيش وراء الصور القديمة، والأسلاف الذين كالشمع، المتغضنين، بأظفار أصابع أقدام صلبة، يتنفسون رائحة خرائط صفراء تحيطها ثرثرات هامسة ورقية كالصفير.

وشرح شاكو «غير أننا لا نستطيع الدخول، فقد أُغلقت الأبواب فى وجوهنا ، وعندما ننظر عبر النوافذ، فإن كل ما نستطيع رؤيته هو الظلام ، وعندما نحاول ونسمع، فإن كل ما نسمعه هو الهمس ، ونحن لا نستطيع أن نفهم الهمس ؛ لأن عقولنا قد غزتها الحرب حرب كسبناها وخسرناها، أشد أنواع الحروب سوءاً، الحرب التى تأسر الأحلام ثم تعيد الحلم بها - الحرب التى جعلتنا نهيم بمن هزمونا ونحتقر أنفسنا».

وقالت أمو فى جفاء : «ونتزوج بقاهرينا، ذلك هو الأكثر قربًا»، مشيرةً إلى مرجريت كوشاما. وتجاهلها شاكو. وطلب من التوءمين أن يبحثا فى القاموس عن معنى كلمة «يحتقر» ، فوجدا أن المعنى يقول: ينظر من أعلى إلى أسفل: ينظر باحتقار ، يزدرى أو يعامل بأنفة وكبرياء.

وقال شاكو : إنه فى سياق الحرب التى يتكلم عنها «حرب الأحلام» فإن كلمة «يحتقر» تعنى كل تلك الأشياء.

قال شاكو : «نحن أسرى حرب ، وقد تمت مداراة أحلامنا ، إننا لا ننتمى إلى أى مكان ، إننا نبحر دون مرساة فوق بحارٍ هائجة ، وربما لن يُسمح لنا بأن نرسو على شاطئ ألبتة ، إن أشجاننا لن تكون كئيبة بما يكفى ألبتة ، ومسراتنا لن تكون سعيدة بما يكفى ، وأحلامنا لن تكون كبيرة بما يكفى ، وحياتنا لن تكون هامة بما يكفى ، هامة إلى حد وجود من يهتم بها .

ثم تحدث إلى إستا وراهيل عن «الأرض المرأة»، حتى يعطيهما إحساساً بالمنظور التاريخى (رغم أن المنظور، فى الأسابيع التالية، كان شيئًا يفتقده شاكو ذاته بصورة مريرة) جعلهما يتخيلان أن الأرض التى بلغت من العمر أربعة آلاف وستمائة مليون سنة، كانت امرأة فى السادسة والأربعين، مثلاً، فى عمر مدرس «الياما»، الذى أعطاها دروس الملايالامية. لقد استغرق الأمر حياة الأرض المرأة كلها لتصبح الأرض ما أصبحته ، من أجل أن تنفصل المحيطات ، من أجل أن ترتفع الجبال ، قال شاكو ، كانت الأرض المرأة في الحادية عشرة من عمرها عندما ظهرت الكائنات وحيدة الخلية ، الحيوانات الأولى، كائنات مثل الديدان وقنديل البحر، ظهرت فقط عندما كانت فى الأربعين ، وكانت قد تجاوزت الخامسة والأربعين، فقط، منذ ثمانية أشهر مضت - عندما جالت الديناصورات في الأرض .

وقال شاكو للتوءمين : «إن الحضارة البشرية كلها، كما نعرفها، بدأت منذ ساعتين فقط في حياة الأرض المرأة، نفس الوقت الذى نأخذه بالسيارة من أيمينم إلى كوشين».

قال شاكو : كانت فكرة أن كل التاريخ المعاصر، والحروب العالمية، وحروب الأحلام، والإنسان على القمر، والعلم، والأدب، والفلسفة، ومتابعة المعرفة - لم تكن أكثر من طرفة عين للأرض المرأة، فكرة تُلقى الرهبة فى القلب وتفرض التواضع (وفكرت راهيل فى أن كلمة يفرض التواضع، كلمة ظريفة، يفرض التواضع دون اكتراث بالعالم) .

« ونحن أعزائى، وكل شىء نكونه أو سنكونه على الإطلاق - مجرد طرفة فى عينها» - قال شاكو - بأبهة وعظمة ، راقداً فوق سريره، محملقًا فى السقف.

كان شاكو - عندما يكون فى مثل هذا المزاج - يستخدم صوته الجهير الذى يستخدمه فى القراءة. كانت حجرته تضفى على نفسها ذلك الإحساس الذى ينتاب المرء فى الكنيسة. كان لا يبالى إن كان أحد يستمع إليه أم لا ، وإن كان هناك من يستمع، فإنه لا يبالى إن كان ذلك المستمع يفهم ما يقوله أم لا، وكانت آمو تطلق على حالته تلك «مزاجه الأوكسفوردى » .

وفيما بعد، وفي ضوء كل ما جرى، بدت كلمة طرفة عين كلمة خاطئة تماماً لوصف التعبير الذى ظهر فى عين الأرض المرأة ، إن طرفة العين كلمة ذات حواف مجعدة سعيدة .

ورغم أن الأرض المرأة أثرت تأثيراً دائماً على التوءمين، إلا أن منزل التاريخ - والذى كان أكثر قرباً بكثير - هو الذى فتنهما بحق ، لقد فكرا فيه كثيراً، المنزل على الجانب الآخر من النهر.

يتراءى فى قلب الظلام .

منزل لم يستطيعا دخوله، ملىء بهمسات لم يستطيعا فهمها.

لم يعرفا حينذاك أنهما سوف يدخلانه قريباً، سوف يعبران النهر ويكونان حيث يفترض ألا يكونا، مع رجل لم يفترض أن يحباه ، إنهما سوف يلاحظان بعيون أشبه بأطباق العشاء، يلاحظان التاريخ وهو يفصح لهما عن نفسه فى الشرفة الخلفية.

لقد تعلم إستا وراهيل، بينما كان أطفال آخرون يتعلمون أشياء أخرى، تعلما كيف يتفاوض التاريخ حول شروطه، وكيف يجمع استحقاقاته من هؤلاء الذين يحطمون قوانينه ، سمعا صوت خبطه المثير للسأم ، وشما رائحته التى لم ينسياها.

للتاريخ رائحة :

مثل زهور عتيقة ذهبت رائحتها فلا يحملها النسيم .

إنه فى وسعه الاختفاء إلى الأبد فى أشياء عادية ، فى عَلاّقة معطف ، فى الطماطم ، فى القار على الطريق ، فى ألوان معينة ، فى طبق يقدمه مطعم ، فى غياب الكلمات ، فى فراغ العيون .

يمكن أن يشبا وقد تشبثا بطرق للحياة تتمسك بما حدث ، يمكن أن يحاولا إخبار نفسيهما أنه طبقاً للزمن الچيولوچى فإن ما حدث كان حدثاً غير ذى بال ، مجرد طرفة عين الأرض المرأة ، «وأن أشياء أسوأ» قد حدثت ، وأشياء أسوأ مازالت تحدث ، غير أنهما لن يجدا عزاء فى هذا التفكير .

قال شاكو : إن الذهاب لرؤية فيلم «صوت الموسيقى»، كان ممارسة ممتدة للإنجلوفيليا.

وقالت آمو : « أوه، دعك من هذا، فإن كل العالم يذهب لرؤية صوت الموسيقى ، إنه ضربة عالمية » .

«إنه كما قلت أنا، بالرغم من ذلك، يا عزيزتى» – قال شاكو بصوته المرتفع الذى يقرأ به – « بالرغم من ذلك » .

كانت ماماشى كثيراً ما تقول : إن شاكو هو ببساطة واحد من أذكى الرجال فى الهند ، وكانت آمو تقول : « من الذى يقول بهذا، وعلى أى أساس ؟ » كانت ماماشى تحب حكى القصة (قصة شاكو)، وكيف أن واحداً من الدونات [٢٩] فى أوكسفورد قال : إن شاكو، من وجهة نظره،كان لامعاً متألقاً ، وأنه مصنوع من مادة رئيس وزراء .

وكانت آمو دائما ما تعقّب على هذا بالقهقهة عالياً، «ها ! ها ! ها !» مثلما يفعل الناس فى التمثيليات الهزلية.

قالت :

(أ) إن الذهاب إلى أوكسفورد لا يجعل المرء ذكياً بالضرورة.

(ب) إن الذكاء لا يصنع بالضرورة رئيس وزراء.

(جـ) إنه إذا عجز المرء عن إدارة مصنع للمخللات بصورة مربحة، فكيف لهذا الشخص أن يدير بلداً بكامله؟ !

والأهم من كل ذلك.

(د) أن كل الأمهات الهنديات يتسلط عليهن أبناؤهن، ومن ثم فإنهن قاضيات يفتقرن إلى معرفة قدرات هؤلاء الأبناء.

قال شاكو:

(أ) أنت لا تذهب إلى أوكسفورد ، أنت تتعلم فى أوكسفورد ،

(ب) أنك تهبط بعد التعلم فى أوكسفورد.

وسألت آمو : «هل تعنى الهبوط إلى الأرض؟ هذا ما فعلته أنت يقيناً، مثل طائراتك الشهيرة».

قالت آمو : إن مصير طائرات شاكو المثير للحزن ، وإن كان يمكن التكهن به تماماً، هو الذى كان مقياساً عادلاً لقدراته .

كانت تصل إلى شاكو كل شهر (باستثناء أوقات هبوب الرياح الموسمية) ربطة من الـ «فى بى بى» ، كانت تحتوى دوماً على أجزاء تشكل طائرة من خشب أخف وزناً من الفلين ، وكان شاكو عادة ما يستغرق من ثمانية إلى عشرة أيام فى تجميع طائرته بخزان وقودها الدقيق وإمداد مروحتها بمحرك ، وعندما تصبح الطائرة معدة فإنه يأخذ إستا وراهيل إلى حقول الأرز فى ناتاكوم ليساعداه فى تطييرها، ولم يحدث أن طارت أية واحدة منها أكثر من دقيقة ألبتة. كان شاكو يصنع بعناية طائرات، شهراً بعد شهر، فتتحطم فى حقول الأرز الموحلة الخضراء، والتى كان إستا وراهيل ينطلقان فيها، مثل كلاب الصيد المدربة، ليستنقذوا ما تبقى منها.

ذيل، خزان، جناح.

ماكينة جريحة...

كانت حجرة شاكو مليئة بالطائرات الخشبية المحطمة ، وظلت تصل كل شهر أجزاء أخرى كشكل طائرة ، لم يكن شاكو يلقى باللوم أبداً على تلك الأجزاء.

بعد وفاة باباشى فقط – اعتزل شاكو عمله كمحاضر فى «كلية مدراس المسيحية»، وجاء إلى أيمينم ومعه «مجداف الباليول» وأحلامه فى «مخللات البارون». استبدل معاشه – بالإضافة إلى ما اقتصده من أموال – حتى يستطيع شراء ماكينة تقوم ببرشمة زجاجات «البهار» وقد علق مجدافه بأطواق حديدية على جدار المصنع (مع أسماء زملاء فريقه مدهونة بالذهب).

كان المصنع، حتى وصول شاكو، مصنعاً صغيراً، غير أنه كان مشروعاً مربحاً. لقد أدارته ماماشى مثلما تدير مطبخاً كبيراً فقط ، قام شاكو بتسجيله كشركة وأخبر ماماشى أنها الشريك المتضامن ، استثمر فى المعدات (ماكينات التعليب، والمراجل الكبيرة، وأجهزة الطبخ) ووسع قوة العمل. وللحال، تقريباً ، بدأ التناقص المالى الذى جرى تعويمه بطريقة زائفة عن طريق قروض مفرطة من البنك، ارتفعت عن طريق رهن حقول أرز العائلة التى كانت تحيط «بمنزل أيمينم» ، ورغم أن آمو كانت تقوم بعمل فى

المصنع مثل شاكو، غير أنه كان عندما يتعامل مع مفتشى الأغذية أو مهندسى الصحة يشير إلى المصنع ويقول: مصنعى، أناناسى، مخللاتى ، كانت الحال هكذا من الناحية القانونية، لأن آمو، كابنة، ليس لها حق تدعيه فى الملكية.

أخبر شاكو راهيل وإستا أنه ليس لآمو سند أساسى تعتمد عليه.

قالت آمو : "شكرًا لمجتمعنا الشوفينى الذكورى الرائع"

قال شاكو، «إن مالك هو مالى، ومالى هو مالى أيضًا» .

كان يضحك ضحكة عالية مثيرة للدهشة قياسا على حجمه وبدانته ، وعندما كان يضحك كان يهتز كله، كما يبدو، دون أن يتحرك.

لم يكن لمصنع ماماشى اسما ، حتى وصول شاكو إلى أيمينم ، كان الكل يشير فقط إلى مخللاتها ومرباتها باعتبارها «مانجو سوشا الغضة» أو «مربى موزسوشا». كان الاسم هو سوشا هو اسم ماماشى الأول : «سوشاما».

كان شاكو هو الذى سمى المصنع مصنع «مخللات ومربات الفردوس»، وهو الذى صمم وطبع بطاقات له فى مطبعة الرفيق ك. ن. م. بيلاى ، كان يود أن يسميه فى البداية «مخللات ومربات زيوس»، غير أنه اعترِض على هذه الفكرة ، إذ قال الكل : إن زيوس كان شخصية غامضة للغاية، وليس له صلة محلية وثيقة، بينما للفردوس صلة (وقد واجه اقتراح الرفيق بيلاى تسمية المصنع - مخللات باراسورام - المعارضة للسبب العكسى: وهو أن له صلة محلية وثيقة للغاية).

كان شاكو هو الذى فكر فى عمل لوحة إعلانات مدهونة مركبة فوق سطح البليموث.

كانت تقعقع وتجلجل ، وتصدر عنها ضوضاء ذابلة وهى فى طريقها الآن إلى كوشين.

كان عليهم أن يتوقفوا قرب «ڤايكوم» لشراء حبل لتأمينها بصورة أكثر قوة ، وقد تسبب ذلك فى تأخيرهم عشرين دقيقة. وبدا أن راهيل تحس بالقلق خشية التأخر عن فيلم «صوت الموسيقى».

ثم هبط الذراع الأحمر والأبيض لمزلقان السكة الحديدية، عندما اقتربوا من ضواحي كوشين ، وأدركت راهيل أن ذلك قد حدث ؛ لأنها كانت تأمل ألا يحدث.

لم تكن قد تعلمت بعد كيف تتحكم فى آمالها. قال إستا : إن تلك كانت « إشارة سيئة».

إذن، سوف تفوتهم بداية الفيلم : عندما انطلقت «چولى أندروز» أشبه ببقعة ضئيلة فوق التل، ثم أخذت تكبر وتكبر حتى انفجرت فوق الشاشة بصوتها الأشبه بماء بارد وأنفاسها الأشبه بالنعناع.

كانت العلامة الحمراء على الذراع الأحمر والأبيض تقول «قف» باللون الأبيض.

وقالت راهيل : «فق».(٣٠)

لوحة إعلانات ضخمة صفراء تقول فى خطوط حمراء، «كن هنديًا، واشتر ما هو هندى». قال إستا: «ن ك ا ى د ن هـ ى ر ت ش ا و ا م و هـ ى د ن هـ».(٣١)

كانت قدرة التوءمين على القراءة قد نضجت مبكرًا، كانا قد انطلقا عبر : « الكلب العجوز توم»، و«چانيت وچون» و«كتيبات رونالد ريدونت» ، كانت آمو تقرأ فى المساء من «كتاب الغابة» لكيبلينج.

الآن يجىء صوت الحدآت مما يعنى قدوم المساء.

فيُطلق سراح الخفافيش.

الزغب الذى على ذراعيهما يمكن أن يقف منتصبًا، ذهبيًا فى ضوء المصباح القائم إلى جوار السرير. كان فى استطاعة آمو أن تجعل صوتها، وهى تقرأ، رصينًا وقورا مثل صوت «شيرخان» أو كالعواء مثل صوت «تاباكى».

«أنت تختار ولا تختار ! ما هذا الكلام عن الاختيار؟ هل لأننى قتلت ذلك الثور، أقف أتلمس فى جحر كلبكم استحقاقاتى العادلة؟ إنه أنا شيرخان من يتكلم !».

وأنا هو «راكشا» (الشيطان) الذى يجيب، كان يصرخ بها التوءمان فى صوت عال ، ليس معًا، ولكن يكادا أن يكونا معًا.

«إن صغير الإنسان هو الـ «لونجرى» الخاص بى، المملوك لى أنا ، إنه لن يُقتل ، سيعيش ليجرى مع «القطيع» ويصطاد مع القطيع؛ وفى النهاية، اعلم أنت يا صائد الحيوانات الصغيرة العارية، يا آكل الضفادع، يا قاتل الأسماك، أنه هو الذى سوف يصطادك أنت !».

كانت بيبى كوشاما المسئولة عن التعليم الرسمى للتوءمين، قد قرأت لهما نصًا من «العاصفة» قام باختصاره «شارلز ومارى لامب».

ويقول إستا وراهيل: «أمتص أنا حيثما تمتص النحلة، وفى جرس زهرة الأقحوان أرقد».

ولذا، عندما أهدت «ميس ميتن» المبشرة الأسترالية، وصديقة بيبى كوشاما، أهدت إستا وراهيل – عندما زارت أيمينم – كتاب الأطفال، «مغامرات السنجاب سوزى»، أحسا بالمهانة العميقة، وقرآه قدما من أوله ، وقالت ميس ميتن، والتى كانت تنتمى إلى طائفة «المسيحيين الذين يولدون ثانية» : إنهما خيبا أملها فيهما بعض الشىء عندما قرآه لها بصوت مرتفع وبصورة عكسية.

«ت ا ر م ا غ م ب ا ج ن س ل ا ى ز و س ت ا ذ ح ا ب ص ى ع ى ب ر ظ ق ى ت س ا ب ا ج ن س ل ا ى ز و س» (٣٢)

وبيّنا لميس ميتن أنه يمكن قراءة كل من «مالايالام» و«مادام» من الخلف تمامًا مثلما يمكن قراءتها من الأمام. لم يكن ذلك أمرًا مسليًا لها، واتضح أنها لا تعرف حتى معنى كلمة مالايالام ، أخبراها أن تلك هى اللغة التى يتحدث بها كل امرئ فى كيرالا. فقالت : إنه كان لديها انطباع أن تلك اللغة هى اللغة الكيرالية ، وقال إستا الذى كان يحس بكره شديد لها، إنه بقدر ما يرى، فإن «انطباعها غبى للغاية».

واشتكت ميس ميتن إلى بيبى كوشاما، من وقاحة إستا ، وقراءتهما العكسية ، قالت لبيبى : إنها قد رأت الشيطان فى عينيهما.

وفُرض عليهما أن يكتبا «لن نقرأ فى المستقبل بالمقلوب ، لن نقرأ فى المستقبل بالمقلوب» ، مائة مرة ، سوف نقرأ بالمعدول.

وقُتلت ميس ميتن بعد أشهر قليلة ، قتلتها عربة ألبان كبيرة فى «هوبارت» عبر الشارع أمام مباراة «للكريكيت» ، كان الأمر بالنسبة للتوأمين عدالة مستترة ، إذ أن عربة الألبان الكبيرة كانت تسير بالعكس إلى الوراء.

وتوقف المزيد من سيارات الركاب والسيارات العادية على جانبى إشارة العبور وسيارة إسعاف مكتوب عليها «مستشفى القلب المقدس » مليئة بجماعة من الناس فى طريقهم إلى عرس ، والعروس تحملق من النافذة الخلفية ، ووجهها معتم قليلاً من طلاء الصليب الأحمر الهائل المتشظى إلى رقائق صغيرة.

كل سيارات الركاب تحمل أسماء فتيات : «لوسى كوتى»، «مولى كوتى»، «بينا مول» ، إن «مول» فى «المالايالامية» تعنى : «فتاة صغيرة» ، و«مون» تعنى : «صبى صغير». كانت السيارة «بينا مول» مليئة بالحجاج الذين حلقت رؤوسهم فى «تيروباتى» ، واستطاعت راهيل أن ترى صفًا من الرؤوس الجرداء من نافذة سيارة الركاب، فوق آثار قىء متساوية الأبعاد، رأت فى التقيئ ما يثير العجب والدهشة ، إنها لم تتقيأ ألبتة ، ولا مرة واحدة ، إستا تقيّأ، وعندما كان يتقيأ، كانت تزداد حرارة جلده ولمعانه، وتصبح عيناه عاجزتين وجميلتين، وتحبه آمو أكثر من المعتاد. قال شاكو : إن إستا وراهيل كانا بصحة جيدة بصورة منافية للياقة ، وكذلك كانت صوفى مول. قال : إن ذلك يرجع إلى أنهم لم يعانوا من زواج الأقارب مثل غالبية المسيحيين السريان والزرادشتيين .

قالت ماماشى : إن ما يعانيه أحفادها أسوأ بكثير من زواج الأقارب ، كانت تقصد طلاق الوالدين. وكأن هذين فقط هما الخياران المتاحان أمام الناس: زواج الأقارب أو الطلاق .

لم تكن راهيل متيقنة مما تعانى منه، غير أنها كانت ترى، ما بين الحين والآخر وجوهًا حزينة تتنهد فى المرآة .

«ذلك العمل الذى قمتُ به عمل جيد، بصورة أكثر كثيراً من أى عمل آخر قمتُ به»، كانت تقول لنفسها فى حزن ، كانت راهيل تقول ذلك عندما كانت هى «سيدنى كارتون» ، وقد غدا «شارلز دارناى»، وهو واقف فوق الدرجات فى انتظار إعدامه بالجيلوتين، فى النسخة الهزلية الكلاسيكية المصورة لـ «قصة مدينتين».

كان يُحيرها تقيُّؤ الحجاج المحلوقى رءوسهم بهذا الانتظام الشديد، وإذا ما كانوا معًا فى غثيان واحد موزع أوركستراليًا بطريقة جيدة (ربما بسبب الموسيقى، وربما بسبب إيقاع «بهاجان» (٣٣) سيارة الركاب) أو غثيان منفصل، واحد فى كل مرة .

امتلأ الجو، أساسًا، عندما أُغلق المزلقان بالأصوات الملولة للماكينات الكسولة ولكن عندما خرج حارس المزلقان من كشكه، على قدميه الملتويتين إلى الوراء، وأشار بذراعه، وسار يرفرف إلى كشك الشاى الذى كانوا فيه طوال وقت الانتظار الطويل، أوقف السائقون ماكيناتهم، وانتظروا ممددين أرجلهم.

استحضر رب المزلقان، بإيماءة متقطعة من رأسه الضجرة الناعسة، الشحاذين بضماداتهم، والرجال بصوانيهم التى يبيعون عليها قطعًا من جوز الهند الطازج و«الباربيوفاداس»(٣٤) على أوراق الموز ، ومشروبات باردة كولا-كولا، ڤانتا، روز ميلك.

مصاب بالجذام عليه ضمادات ملوثة ملطخة يتسول عند نافذة السيارة .

«لقد بدا لى ذلك الدم وكأنه ميركوروكروم» - قالت آمو عن دمه الزاهى اللون بطريقة مفرطة.

«تهانىّ» : قال شاكو : «لقد تحدثت مثل بورجوازية حقيقية».

ابتسمت آمو وتصافحا، وكأنها قد تلقت حقًا جائزة هى «شهادة استحقاق وجدارة» لأمانتها فى التعبير عن طيبة وصلاح البورجوازية الحقيقية ، كان التوأمان يكتنزان مثل تلك اللحظات وينظمانها مثل حبات ثمينة (قليلة بصورة ما) فى قلادة.

عصرت راهيل وإستا أنفيهما فى زجاج نوافذ تهوية البليموث ، كانا يتشوقان إلى «المارشمالوس»(٣٥) التى مع الأطفال العابسين وراءهما ، وقالت آمو : «كلا» حاسمة وعن اقتناع.

أشعل شاكو «شارمينار»، واستنشق أنفاسها بعمق، ثم أزاح نتفة صغيرة من التبغ علقت بلسانه.

لم يكن من اليسير لراهيل أن ترى إستا وهى داخل البليموث، حيث انتصبت بيبى كوشاما بينهما مثل تل من التلال ، لقد أصرت آمو على أن يجلسا منفصلين حتى

لا يتشاجران. عندما كانا يتشاجران، كان إستا يدعو راهيل «بالحشرة اللاجئة اللاصقة»، وكانت راهيل تدعو «الفيس البلفيس» (٣٦)، كانت تتلوى تؤدى نوعًا من الرقص المثير للضحك، مما كان يجعل إستا يستشيط غضبًا – عندما كانا يتشاجران شجاراً بدنيا جاداً كانا ندين متساويين حتى أن الشجار بينهما يمتد إلى الأبد، وتتحطم كل الأشياء التى تعترض سبيلهما – مصابيح الموائد، طفايات السجائر وأباريق المياه – تتحطم بصورة لا يمكن إصلاحها.

كانت بيبى كوشاما تمسك بظهر الكرسى الأمامى، بذراعيها. وعندما تحركت السيارة، تمرجحت دهون ذراعيها مثل غسيل ثقيل تطوحه الرياح ، إنه معلق الآن كستارة من لحم تفصل كالسد إستا عن راهيل.

كان هنالك على الجانب من الطريق الذى يجلس إستا ناحيته، كوخ الشاى، الذى يبيع الشاى وبسكويتات من الجلوكوز بائتة فقدت طلاوتها فى علب زجاجية معتمة يغطيها الذباب ، وكان هنالك ليمون بالصودا فى زجاجات سميكة ذات سدادات زرقاء رخامية حتى تبقى على المشروب فواراً، وصندوق ثلج أحمر كتب عليه بطريقة أقرب للكآبة «الأمور تغدو أفضل مع الكوكاكولا».

حط «مورليد هاران» مخبول المزلقان جاثمًا برجلين متقاطعتين وبصورة متزنة تماماً فوق حجر طاحونة ، وقد تدلت خصيتيه وعضوه الذكرى مشيراً إلى العلامة التى كتب عليها:

كوشين

٢٣

كان مورليد هاران عارياً إلا من حقيبة بلاستيكية طويلة وضعها أحدهم فوق رأسه مثل طاقية رئيس الطهاة، شفافة يمكن أن تتصل عبرها رؤية المنظر الطبيعى – معتماً، على هيئة طاقية رئيس الطباخين، لكنه متصل لا يعترضه شىء ، لم يكن فى وسعه أن يحرك طاقيته حتى إن شاء إذ لم يكن له ذراعان ، لقد نُسفا فى سنغافورة عام ٤٢ فى الأسبوع الأول لهروبه من منزله للالتحاق بصفوف «الجيش الوطنى الهندى» المقاتلة .

ساعة منبه، سيارة حمراء ذات نفير موسيقىّ ، كوز أحمر للحمام ، زوجة ذات جوهرة ، حافظة بها أوراق مهمة ، العودة من المكتب إلى المنزل ، «آسف كولونيل سابها باتى ، لكننى أخشى أننى قد قلت ما لدى من كلام» ، و«شيبس» موز مقرمش للأطفال .

إنه يراقب القطارات تجيء وتذهب ، ويحصى مفاتيحه.

يراقب الحكومات تصعد وتسقط ، ويحصى مفاتيحه.

إنه يراقب الأطفال العابسين فى نوافذ السيارة بأنوف تشتاق إلى «المارشمالو».

المشردون ، العاجزون، المرضى، الضئيلون والضائعون، كلهم يصطفون عبر نافذته ، وهو مازال يحصى مفاتيحه.

لم يكن متيقنًا أى دولاب عليه أن يفتحه أو متى يفتحه ألبتة ؟ إنه يجلس فوق رحى الطاحونة الملتهبة بشعره المتلبد وعينيه الأشبه بنافذتين، وهو سعيد بأنه قادر على النظر بعيداً فى بعض الأحيان ، ومعه مفاتيحه يحصيها ويدقق فيها.

الأعداد تكفى.

الخدر يمكن أن يكون لطيفًا.

حرك مورليد هاران فمه وهو يحصى، ونطق كلمات جيدة التكوين.

أوتر

روندر

مونر

لاحظ إستا أن شعره فوق الرأس كان مجعداً رمادياً، وأن شعر إبطه العاصف، الذى بلا ذراعين كان أسود كحزمة قش، وشعر مفرقه كان أسود لدنًا، رجل واحد له أنواع ثلاثة من الشعر! وتعجب إستا، كيف يمكن أن يحدث ذلك ؟! وحاول أن يفكر فيمن يسأله عن هذا الموضوع.

شحن الانتظار راهيل حتى غدت جاهزة للانفجار، نظرت فى ساعتها ، كانت الثانية إلا عشر دقائق، فكرت فى جولى أندروز و«كريستوفر بلومر» يقبلان بعضهما بطريقة جانبية حتى لا تتصادم أنفاهما، وعجبت إن كان الناس يقبلون بعضهم دوماً بطريقة جانبية ، وحاولت التفكير فيمن تسأله حول هذا الموضوع.

ومن بعيد اقترب طنين من المرور، ثم غطاه مثل عباءة. والسائقون الذين كانوا يُمَشُّون أرجلهم عادوا إلى مركباتهم وأقفلوا الأبواب بعنف ، واختفى الشحاذون والباعة. وفى ثوان لم يعد هناك أحد على الطريق ، باستثناء موريليد هاران ، حاطاً بردفه فوق حجر الطاحون الملتهب ، دون قلق أو جزع ، فقط مندهش اندهاشاً رقيقاً.

كان هنالك تدافع وضوضاء ، وعلت صفارات الشرطة.

وظهر من وراء خط انتظار حركة المرور المقبلة، صف من الرجال يحملون الأعلام والرايات الحمراء، وطنين يزداد ارتفاعاً.

قال شاكو: «أغلقوا نوافذكم ، وابقوا هادئين، فإنهم لن يوقعوا بنا أذى أو ضرراً».

قالت آمو : «لماذا لا تلحق بهم، يا رفيق ؟ وسأقوم أنا بقيادة السيارة».

ولم يقل شاكو شيئاً، توترت عضلة أسفل حشوة الدهن الموجودة على فكه ، ألقى بسيجارته وأغلق نافذته.

كان شاكو يسبغ على ذاته صفة الماركسى ، كان يستدعى النساء الجميلات العاملات فى المصنع إلى حجرته، بحجة إلقاء محاضرة عليهن عن حقوق العمال وقانون النقابات، ويقوم بمغازلتهن بطريقة مشينة ، كان يدعوهن بالرفيقات، ويصر على أن ينادينه بالرفيق (مما كان يجعلهن يضحكن استهزاء) ، وكان مما يضايقهن ويحبط ماماشى إجباره لهن على الجلوس معه إلى ذات المنضدة وشرب الشاى.

بل لقد أخذ ذات مرة مجموعة منهن لحضور فصول «نقابية» كانت تُعقد فى «أليبى» ، ذهبن فى سيارة الركاب وعُدن بالقارب ، عُدن سعيدات بغوايش زجاجية وزهور فى شعورهن.

قالت آمو ، إن كل ذلك إنما هو قمامة مطبخ ، إنها فقط حالة أمير فاسد يلعب لعبة «الرفيق! الرفيق !» خريج أوكسفورد تجسدت فيه الأرباب بعقلية «زاميندار»

عتيقة - مالك كبير يفرض اهتماماته على النساء اللاتي يعتمدن عليه في معاشهن .

أغلقت آمو نافذتها عندما اقترب المشاركون في المسيرة ، وأغلق إستا نافذته، وأغلقت راهيل نافذتها (باذلة بعض الجهد لأن العقدة السوداء فوق المقبض كانت قد سقطت).

فجأة بدت البليموث الزرقاء بلون السماء موسرة بصورة سخيفة في هذا الطريق الضيق المليء بالحفر والنقر بدت مثل سيدة عريضة تحشر نفسها عبر ممر ضيق ، مثل بيبي كوشاما في الكنيسة وقت التناول، تناول الخبز والخمر.

قالت بيبي كوشاما عندما اقتربت الصفوف الأولى من الموكب، من السيارة: «انظروا إلى أسفل ! تفادوا التقاء العيون ، فإن ذلك هو ما يثيرهم حقًّا».

كان نبضها في جانب رقبتها، يدق.

وفي دقائق غمر الآلاف من الناس المشاركين في المسيرة الطريق ، جُزر من سيارات في نهر من البشر، واصطبغ الجو بلون الأعلام الحمراء، التي كانت تغطس وتطفو بينما المشاركون في المسيرة ينحنون تحت بوابة المزلقان ، يجتاحون خطوط السكة الحديدية في موجة حمراء.

وانتشرت آلاف الأصوات فوق حركة المرور المتجمدة مثل مظلة من الضوضاء.

«انكويلاب زنداباد !

ثوزهيلالي أكتا زنداباد !»

«تحيا الثورة !» كانوا يهتفون، «اتحدوا يا عمال العالم !».

حتى شاكو، لم يكن لديه تفسير كامل حقيقي، لماذا نجح الحزب الشيوعي، إلى هذا الحد الكبير في كيرالا، عن أي مكان آخر في الهند تقريبًا، ربما باستثناء البنغال.

كانت هنالك عدة نظريات تنافس بعضها ، وكانت إحداها تُرجع ذلك إلى العدد الكبير من السكان المسيحيين في الولاية ، كان عشرون في المائة من سكان كيرالا مسيحيين سريان، يؤمنون بأنهم سلالة المائة البراهمة الذين حولهم القديس «توماس» الرسول إلى المسيحية عندما سافر إلى الشرق بعد القيامة من الأموات ، كانت

الماركسية من الناحية التركيبية – كما تقول الحجة الأولية بديلاً بسيطًا – إلى حدٍّ ما – للمسيحية. «ماركس» محل «الرب»، و«البورجوازية» محل «الشيطان»، مجتمع لا طبقي محل «السماء»، و«الحزب» محل «الكنيسة»، وظل شكل الرحلة وغرضها متماثلا، سبّاق حواجز، وجائزة عند خط النهاية ، بينما العقل الهندوسي يحتاج إلى القيام بالمزيد من التعديلات المركبة.

إن مشكلة هذه النظرية هى أن المسيحيين السريان فى كيرالا كانوا هم الأثرياء بشكل عام، هم الذين يمتلكون فى الولاية (إدارة مصنع المخللات)، هم كبار الملاك الإقطاعيين، والذين تمثل الشيوعية بالنسبة لهم مصيراً أسوأ من الموت، وكانوا دومًا يصوتون لحزب المؤتمر.

وادعت نظرية أخرى أن ذلك يرجع إلى مستوى معرفة القراءة والكتابة المرتفع نسبيًا فى الولاية ، ربما. باستثناء أن مستوى معرفة القراءة والكتابة المرتفع كان إلى حد كبير «بسبب» الحركة الشيوعية .

كان السر الحقيقى هو أن الشيوعية زحفت إلى كيرالا بطريقة ماكرة .

إنها باعتبارها حركة إصلاحية فإننا لم نتشكك علانية فى القيم التقليدية لطائفة متسلطة فى مجتمع تقليدى للغاية ألبتة . لقد عمل الماركسيون من داخل الأقسام المجتمعية، لم يتحدوها، ولم يظهروا أنهم لا يفعلون ذلك ألبتة. لقد قدموا ثورة كوكتيل ، مزيجًا جامحًا من الماركسية الشرقية والهندوسية الأرثوزكسية مجهزة بديمقراطية سديدة.

ورغم أن شاكو لم يكن يحمل بطاقة عضوية الحزب، إلا أنه كان قد تحول مبكراً وظل، عبر كل معاناته، دائمًا ملتزمًا.

كان مايزال طالبًا فى جامعة دلهى خلال فترة الانتعاش الوقتى عام ١٩٥٧، عندما كسب الشيوعيون انتخابات «جمعية الولاية»، ودعاهم نهرو إلى تشكيل الحكومة ، وأصبح بطل شاكو، الرفيق «ا. م. س. نامبوديرپياد» البرهمى المزدهر الكاهن الأعظم للماركسية فى كيرالا، رئيس وزراء أول حكومة شيوعية منتخبة ديمقراطيًا فى العالم. وفجأة وجد الشيوعيون أنفسهم أمام انتقادات غير عادية تتحدث عن الوضع السخيف لممارسة حكم شعب ، وتحريك ثورة فى ذات الوقت ، ونشر الرفيق ا. م. س.

نامبوديرياد نظريته عن الكيفية التى سيفعل بها ذلك ، ودرس شاكو مقالته حول «الانتقال السلمي للشيوعية»، بدأب مراهق مشغول البال، واستحسان لاشك فيه لمعجب يتقد حماسًا. إنها تطرح تفصيلات كيف أن حكومة الرفيق ا.م. س. نامبوديرياد تنوى : فرض إصلاحات زراعية، تحييد الشرطة، قلب القضاء رأسًا على عقب، «ردع يد حكومة المؤتمر الرجعية المعادية للشعب، والموجودة فى المركز».

ولسوء الحظ، فإنه قبل انقضاء العام، انتهى الجزء السلمى من «الانتقال السلمى».

كان عالم الحشرات الجليل يسخر كل ص[illegible] وقت الإفطار، من ابنه الماركسى المحب للجدل بتلاوة تقارير الصحف عن أعمال الشغب والإضطرابات، والاضرابات وحوادث الشرطة الوحشية التى تزعزع كيرالا.

كان باباشى يقول مستخفًا بشاكو عندما يجىء إلى المائدة : «والآن يا كارل ماركس ! ماذا ستفعل مع هؤلاء الطلاب الدمويين؟ إن المأجورين الأغبياء يقومون بالإثارة ضد حكومة شعبنا، هل نبيدهم؟ يقينًا أن الطلاب لم يعودوا بعد الآن شعبًا؟».

وانزلق النزاع السياسى عبر السنتين التاليتين، يغذيه حزب المؤتمر والكنيسة، إلى الفوضى ، وغدت كيرالا – فى الوقت الذى أنهى فيه شاكو بكالوريوس الآداب واتجه إلى أوكسفورد للحصول على بكالوريوس آخر – على وشك حرب أهلية ، طرد نهرو الحكومة الشيوعية وأعلن عن انتخابات جديدة وعاد حزب المؤتمر إلى السلطة.

فقط عام ١٩٦٧ – بعد عشر سنوات بالضبط، على وجه التقريب، من مجيئهم الأول للسلطة – أُعيد انتخاب حزب الرفيق ا.م.س. نامبو ديرياد كجزء فى هذه المرة، من تحالف بين من أصبحا الآن حزبين منفصلين – الحزب الشيوعى للهند، والحزب الشيوعى للهند (الماركسى)، الـ «سى. بى. أى» والـ «سى بى أى (إم)».

كان باباشى حينذاك قد مات، وشاكو قد تطلق، ومصنع «مخللات الفردوس»، قد بلغ من العمر سبع سنوات.

كانت كيرالا تترنح فى أعقاب المجاعة ورياح موسمية خامدة ، كان الناس يموتون ، وكان لابد من أن يحتل الجوع أعلى قمة قائمة أولويات أية حكومة.

وسار الرفيق ا. م. س. خلال مدته الثانية فى مكتب الرئاسة، فى تطبيق «الانتقال السلمى» بطريقة أكثر تعقلاً ورزانة ، وقد أكسبه ذلك سخط وغضب الحزب الشيوعى الصينى ، فقد استنكروه علنًا لـ «اضطرابه البرلمانى»، واتهموه بأنه «يقدم التنفيس للشعب ، ومن ثم تبليد وعى الشعب والانحراف به بعيداً عن الثورة».

وأدارت بكين رعايتها وتعضيدها إلى الأقسام الأكثر حدة والأكثر كفاحية من الحزب الشيوعى للهند (الماركسى) - «الناكساليين »- والذين بدأوا طوراً من التمرد المسلح من «ناكسالبارى»، قرية فى البنغال. نظموا الفلاحين فى كادرات مسلحة، استولوا على الأرض، طردوا أصحابها، وشكلوا محاكم الشعب لمحاكمة الأعداء الطبقيين، وانتشرت الحركة الناكسالية عبر البلاد، ودقت الرعب فى قلب كل بورجوازى.

وفى كيرالا نفثوا نفخة اضطراب فى الجو الخانق بالفعل : لقد بدأت أعمال القتل فى الشمال ، كانت هنالك، فى شهر مايو صورة فوتوغرافية ملطخة فى الجرائد لمالك كبير فى «بلغات»، مقيد إلى عامود نور وقد قُطعت رأسه ، كانت الرأس ترقد على جانبها، بعيداً عن جسده بمسافة ما فى بركة داكنة يمكن أن تكون ماء، ويمكن أن تكون دمًا. كان من الصعب تبين ذلك فى صورة من الأسود والأبيض ، فى الضوء الرمادى الذى يسبق الفجر.

كانت عيناه المندهشتان مفتوحتين.

قام الرفيق ا. م. س. نامبوديريباد (الكلب الراكض، والدسيسة السوفيتية) بطرد الناكساليين من حزبه، واكتفى مؤقتًا بتسخير الغضب من أجل أغراض برلمانية.

كانت المسيرة التى تصطخب حول البليموث الزرقاء بلون السماء فى ذلك اليوم الديسمبرى بسمائه الزرقاء جزءاً من تلك العملية، إنها مسيرة نظمها «اتحاد عمال "ترافاتكور" - كوشين الماركسى» ، كان رفاقهم فى «تريڤاندروم» سوف يسيرون إلى السكرتارية ويقدمون «ميثاق مطالب "الشعب» إلى الرفيق ا. م. س. شخصيًا - الفرقة الموسيقية تقدم التماسا إلى قائدها ومرشدها. كانت مطالبهم أن يُسمح لعمال الأرز، الذين يفرض عليهم العمل فى الحقول إحدى عشرة ساعة ونصف يوميًا - من السابعة صباحًا حتى السادسة والنصف مساء - يسمح لهم بساعة راحة للغداء ، وأن تزداد

أجور النساء من «روبية» واحدة وخمسة وعشرين «بايسا» يوميًا إلى ثلاث روبيات، وأجر الرجال من روبيتين وخمسين بايسا إلى أربع روبيات وخمسين بايسًا يوميًا، كما طالبوا أيضا بألا يُخاطب المنبوذين بعد اليوم بأسمائهم الطائفية ، طالبوا ألا يخاطبوا باعتبارهم «آشو بارايان»، أو «كيلان باراڤان»، أو «كوتان بولايان»، ولكن فقط باعتبارهم «آشو»، أو «كيلان» ، أو «كوتان».

وهبط ملوك الحبَّهان، وكونتات البن ، وبارونات المطاط - والذين كانوا زملاء قدامى فى المدرسة الداخلية - من مزارعهم المنعزلة واسعة الانتشار، وارتشفوا البيرة المثلجة فى «نادى إقلاع السفن» ، كانوا يرفعون أكوابهم ويقولون : «وردة بأى اسم آخر...»، وضحكوا بأصوات خافتة مستنكرة يخفون ذعرهم المتنامى.

كان المشاركون فى المسيرة، فى ذلك اليوم، عمال ، أعضاء فى الحزب، طلاب، والعمال أنفسهم «المنبوذون» و«غير المنبوذين» كانوا يحملون على أكتافهم برميلاً صغيراً من غضب قديم، أشعله فتيل جديد، كان هنالك طرف لهذا الغضب هو الناكسالية، وكانت جديدة.

كان فى وسع راهيل أن ترى عبر نافذة البليموث، أن أعلى كلمة يهتفون بها هى زينداباد ، وأن عروق رقابهم تقف منتصبة عندما يقولونها. وأن السواعد التى تحمل الأعلام والرايات كانت معقدة وصلْبة.

وداخل البليموث كان هنالك سكون وحر.

ورقد خوف بيبى كوشاما ملفوفًا فوق أرضية السيارة مثل «شيروت» (٣٧) رطب بارد ، كانت هذه هى البداية فقط ، بداية الخوف الذى ينمو مع السنوات ليستهلكها، والذى سوف يجعلها تغلق أبوابها ونوافذها، والذى سوف يمنحها خطين دقيقين عند مفرق شعرها وفمين. كان خوفها، أيضًا، خوفًا قديمًا، عتيقًا، الخوف من أن تُسلب وتُجرَّد.

حاولت أن تحصى الخرزات الخضراء فى سبحتها، غير أنها لم تستطع التركيز. وصفعت يد مفتوحة شباك السيارة.

ودقت قبضة مضمومة بعنف فوق غطاء مقدمة السيارة الأزرق بلون السماء ، فقفز الغطاء مفتوحًا ، وبدت البليموث أشبه بحيوان أزرق فى حديقة الحيوان، له زوايا وأركان، يطلب الطعام.

قرص قطايف.

موزة .

وصفعتها قبضة مضمومة أخرى، فأُغلق غطاء مقدمة السيارة ، فتح شاكو نافذته ونادى على الرجل الذى فعل ذلك.

«شكرًا كيتو ![٣٨]» قال : «ڤاليرى[٣٩] شكرًا !»

وقالت آمو : «لا تتحبب إليه هكذا أيها الرفيق ، فقد كانت صدفة ، إنه لم يقصد حقًا أن يقدم يد المساعدة ، كيف له أن يعرف أن هنالك فى داخل هذه السيارة العتيقة ينبض قلب ماركسى حقيقى؟»

قال شاكو- وصوته راسخ ثابت، عديم الاكتراث بصورة متعمدة - : « آمو : هل فى استطاعتك وقف سخريتك التى لا قيمة لها، سخريتك التى تلون كل شىء تلوينًا تامًا؟».

ملأ الصمت السيارة مثل إسفنجة تشبعت بالمياه ، قطعت عبارة «لا قيمة لها» كما تقطع السكين شيئًا طريًا ، وومضت الشمس مثل تنهيدة مرتعشة ، كانت تلك هى مشكلة العائلات مثل أطباء يثيرون الاستياء، يعرفون فقط أين يكمن الضرر والإيذاء.

وحينئذ فقط رأت راهيل ڤيلوتا ابن ڤيليا بابن، ڤيلوتا أكثر من تحبه من الأصدقاء، ڤيلوت كان يسير حاملاً علمًا أحمر ، يرتدى قميصًا وموندو أبيضين، وقد نفرت شرايين رقبته ، إنه عادة لا يلبس قميصًا .

فتحت راهيل النافذة فى سرعة خاطفة.

ونادت عليه : «ڤيلوتا ! ڤيلوتا !»

تجمد للحظة، واستمع وهو حامل رايته ، كان ما سمعه صوتًا مألوفًا فى ظرف هو أكثر الظروف غير المألوفة ، وراهيل واقفة على مقعد السيارة، وقد نمت وكبرت خارج

نافذة البليموث مثل قرن سائب، أشبه بمضرب حنطة، لآكل عشب على شكل سيارة ، مع نافورة فى «حب فى طوكيو»، ونظارة شمس بلاستيكية حمراء ذات حواف صفراء.

«ڤيلوتا ! إيڤيداى[٤٠] ! ڤيلوتا !» ونفرت شرايينها هى أيضًا فى رقبتها.

خطا جانبًا واختفى فى رشاقة فى الغضب الذى يحيط به.

وفى داخل السيارة كانت آمو تدور سريعًا حول نفسها، وقد ملأ الغضب عينيها ولطمت عضلات ساقى راهيل ، كانت هى الجزء الوحيد الذى تبقى منها داخل السيارة حتى يمكن لطمه ، عضلات الساقين وقدمين بنيتين فى صندل «باتا».

قالت آمو : «تأدبى !»

وشدت بيبى كوشاما راهيل إلى أسفل فهبطت على المقعد فى هبدة مندهشة ، اعتقدت أن هنالك سوء فهم لما فعلت.

قالت تشرح مبتسمة «إنه ڤيلوتا ، كان يحمل علمًا !»

بدا العلم لها أكثر قطع العتاد والمعدات تأثيرًا الشىء الصحيح الذى يجب أن يكون مع الصديق.

قالت آمو : «أنت فتاة صغيرة غبية حمقاء !»

ثبّت غضبها الوحشى راهيل ودبسها فى مقعد السيارة ، أصابتها الحيرة، لماذا آمو غاضبة هكذا؟ وممَّ هى غاضبة ؟

«لكنه كان هو !» : قالت راهيل .

«اخرسى !» : قالت آمو .

رأت راهيل أن آمو قد رشحت عرقًا فوق جبهتها وشفتها العليا، وأن عينيها قد أصبحتا قاسيتين مثل الرخام ، مثل باباشى فى الصورة الفوتوغرافية لاستديو ڤيينا (ما المدى الذى تهمس به فراشة باباشى فى شرايين أبنائه ؟).

وأغلقت بيبى كوشاما نافذة راهيل .

حدث بعد سنوات لاحقة، ذات صباح خريفى منعش، فى الأقسام الشمالية من ولاية «نيويورك»، فى قطار يوم الأحد، من «جراند سنترال» إلى «كروتون هارمون» أن تذكرت راهيل فجأة ذلك التعبير على وجه آمو ، مثل قطعة مخادعة فى لغز أو أحجية ، مثل علامة استفهام انجرفت عبر صفحات كتاب ، ولم تستقر قط فى نهاية جملة.

تلك النظرة الصُّلبة الرخامية فى عينى آمو ، تألق العرق على شفتها العليا.. وقشعريرة ذلك الصمت المفاجئ الذى يثير الألم .

ماذا كان يعنى كل ذلك ؟

كان قطار يوم الأحد يكاد يكون خاليًا، وعبر ممشى عربة القطار من الناحية الأخرى لراهيل كانت تجلس امرأة ذات خدين متشققين وشارب من بلغم نتيجة سعال عنيف، بلغم لفته فى لفات من جرائد مزقتها من صحافة الأحد المكومة فى حجرها ، وقد نظمت اللفات الصغيرة فى صفوف مرتبة أمامها وكأنها تبنى مصطبة من البلغم ، كانت وهى تعمل ذلك تحدث نفسها دون كلفة فى صوت مبتهج يبعث الهدوء والسكينة .

الذكرى كانت هى تلك المرأة فى القطار ، مختلة العقل بطريقتها التى تدقق بها النظر عبر أشياء معتمة فى خزانة لتخرج منها بأكثر الأشياء غير المحتملة - نظرة عابرة زائلة، وإحساس وانفعال ، رائحة دخان، ممسحة الواجهة الزجاجية الأمامية للسيارة ، عينا أم رخامية ، عاقلة تماما لتركها بقعًا ضخمة من الظلام محجوبة مخفية ، منسية.

كان جنون زميلة راهيل فى السفر عزاء لها وسلوى ، جذبها أكثر وأقرب إلى رحم نيويورك المشوش ، بعيداً عن الشىء الآخر، الأكثر بشاعة والذى سكنتها كالروح الشريرة «رائحة المعدن الحمضية، مثل درابزين سيارة الركاب، ورائحة يدىّ كمسارى سيارة الرّكاب من إمساكه به ، شاب له فم عجوز».

وتلألأ «الهدسون»، خارج القطار، وكانت الأشجار بُنية حمراء بألوان الخريف. فقط كان الجو بارداً بعض الشىء .

«هنالك حلمة فى الجو» : قال لارى مك كاسلين لراهيل، ووضع راحته برقة فوق لمحة احتجاج من حلمة ثدى مرتجفة عبر« تى شيرتها » القطنى ، وعجب لماذا لم

تبتسم ، وعجبت هى لماذا كلما فكرت فى الوطن وجدته دومًا فى ألوان قاتمة، وأخشاب، وقوارب بها زيوت، وقلوب جوفاء لألسنة لهب تخفق مضطربة فى المصابيح النحاسية.

لقد كان هو ڤيلوتا.

كانت راهيل متأكدة من ذلك تمامًا ، لقد رأته، وقد رآها، إن فى وسعها التعرف عليه فى أى مكان، وفى أى وقت ، وحتى إن لم يكن مرتديًا قميصًا، فإنها فى وسعها التعرف عليه من الخلف ، إنها تعرف ظهره ، لقد حُملت عليه ، مرات عديدة لا تستطيع أن تحصيها ، إن لديه وحمة بنية قاتمة على شكل ورقة شجر جافة مدببة ، قال عنها، إنها ورقة تجلب الحظ، وتجىء بالرياح الموسمية فى أوانها ، وورقة شجر بنية على ظهر أسود ، وورقة شجر خريفية فى الليل.

ورقة تجلب الحظ، لكنها لم تجلبه بالقدر الكافى.

لم يكن مفترضًا أن يصبح ڤيلوتا نجارًا.

لقد أسموه ڤيلوتا - والذى يعنى الأبيض باللغة المالايالامية لأنه كان أسود ، كان أبوه فيليا بابن ينتمى إلى البارڤان ، الرجل الذى يعد شرابًا مسكرًا من زهرة جوز الهند ، كانت له عين زجاجية إذ كان يشكل كتلة جرانيتية بمطرقة عندما طارت شظية منها نحو عينه اليسرى وانسابت عبرها مباشرة.

كان ڤيلوتا يجىء، كصبى صغير، مع فيليابابن إلى المدخل الخلفى لمنزل أيمينم لتسليم جوز الهند الذى جناه من أشجار الباحة حول الدار ، لم يكن باباشى يسمح لأحد من البارافان بدخول منزله ، لم يكن هنالك من أحد يسمح بذلك ، لم يكن مسموحًا لهم بأن يلمسوا أى شىء يلمسه غير المنبوذين ، طائفة الهندوس ، وطائفة المسيحيين. وقالت ماماشى لإستا وراهيل، إنها تتذكر وقتًا، عندما كانت صبية، كان ينتظر فيها من البارافان أن يزحفوا إلى الوراء بمكنسة ليكنسوا آثار أقدامهم حتى لا ينجس البراهمة أو المسيحيون السريان أنفسهم ويدنسوها، بأن يسيروا خطأ فوق آثار أقدام أحد البارافان، كان البارافان، فى زمن باباشى، مثلهم مثل المنبوذين الآخرين، لا يُسمح لهم بالسير فى الطرق العامة، كما لم يكن يسمح لهم بتغطية

الأجزاء العليا من أجسادهم، أو أن يحملوا مظلات ، وكان عليهم أن يضعوا أيديهم على أفواههم عندما يتكلمون، حتى يبعدوا أنفاسهم الملوثة عن هؤلاء الذين يخاطبونهم .

وعندما جاء البريطانيون إلى «مالابار» تحول عدد من الباراڤان، و«البلايا» و«البولايا» (وبينهم «كيلان» جد ڤيلوتا) إلى المسيحية والتحقوا بالكنيسة الإنجيلية هرباً من نقمة المنبوذية ، وأعطى لهم قل من الطعام والنقود كحوافز إضافية ، وعرفوا باسم مسيحيو- الأرز ، ولم يمض وقت طويل حتى اكتشفوا أنهم قد قفزوا من طاسة القلى إلى النار ، فُرضت عليهم كنائس منفصلة، بخدمات منفصلة ، ومنحوا أسقفًا منبوذًا منفصلاً باعتبار أن ذلك مِنة خاصة ، ووجدوا بعد الاستقلال، أنهم لا يستحقون أية فوائد أو منافع مثل حفظ الوظائف أو القروض المصرفية بأقل معدلات الفائدة، لأنهم رسمياً، على الورق مسيحيون، ومن ثم لا طائفة لهم ، كان ذلك - إلى حد ما - مثل كنس آثار أقدامك دون مكنسة ، أو أنه لم يعد يُسمح لك - وذلك هو الأسوأ- أن تترك آثار أقدامك على الإطلاق .

كانت ماماشى أثناء إجازة من دلهى، وعالم الحشرات الجليل، هما أول من لاحظ السهولة الواضحة التى يستخدم بها ڤيلوتا يديه ، كان ڤيلوتا فى الحادية عشرة حينذاك، أصغر من آمو بحوالى ثلاث سنوات ، كان مثل ساحر صغير ، كان فى مقدوره صناعة . لعب معقدة ، طواحين هواء دقيقة، خشخيشات، علب مجوهرات صغيرة من جريد النخل بعد تجفيفه. كان فى مقدروه نحت قوارب متقنة من سيقان «التابيوكا»[٤١]، وتماثيل صغيرة من المصيص فوق «جوز الكاشيو»[٤٢] ، وكان يجئ بها إلى آمو يحملها فى راحة يده (كما علموه) حتى لا تلمسه عند أخذها ، ورغم أنه كان أصغر منها، كان يدعوها «أموكوتى» - آمو الصغيرة ، وقد أقنعت ماماشى فيليا باين بإرساله إلى مدرسة المنبوذين التى أسسها حموها بونيان كونجو.

كان ڤيلوتا فى الرابعة عشرة عندما جاء «جوهان كلين» نجار من رابطة النجارين فى «باڤاريا»، إلى كوتايام، وأمضى ثلاث سنوات مع «جمعية البعثة المسيحية» يدير ورشة مع النجارين المحليين ، كان ڤيلوتا يأخذ - بعد ظهر كل يوم - بعد المدرسة، سيارة الركاب إلى كوتايام حيث يعمل كلين حتى الغسق، وعندما بلغ ڤيلوتا السادسة عشرة كان قد أنهى المدرسة العليا، وأصبح نجاراً ماهراً حاذقًا ، كان لديه مجموعة

أدوات النجارة الخاصة به، ودقة إحساس واضحة بالتصميم الألمانى ، وقد صنع لماماشى منضدة طعام «باوهاوس» ذات اثنى عشر كرسيًا من خشب الورد و«شيزلونج باقارى»[٤٣] تقليدى برافعة خفيفة ، وصنع من أجل تمثيليات «الميلاد السنوية» التى تعدها بيبى كوشاما كومة من الأسلاك المشكلة على هيئة أجنحة ملائكة يمكن وضعها على ظهور الأطفال مثل الجربنديات، وسحابات من الورق المقوىّ كى يظهر بينها الملاك «جبريل»، ومزود يمكن تفكيكه كى يولد فيه المسيح ، وعندما كان يجفو قوس البول الفضى لشاروبيم حديقتها - على غير انتظار- كان د. ڤيلوتا هو الذى يثبت له مثانته من أجلها.

كان لڤيلوتا - بالإضافة إلى مهاراته فى النجارة - تعاملاته مع الآلات ، وكانت ماماشى كثيرًا ما تقول (بمنطق غير المنبوذين الأصم) إنه لو لم يكن فى الباراڤان، لكان من الممكن أن يكون مهندسًا ، كان يصلِّح أى مذياع، كذا الساعات ومضخات المياه ، وكان يقوم بكل أعمال السباكة ويعتنى بالأدوات الكهربائية بالمنزل.

وعندما قررت ماماشى عمل سياج للشرفة الخلفية ، كان ڤيلوتا هو الذى صمم وشيد الباب المنزلق الذى يطوى، والذى غدا - فيما بعد - مألوفا ومشهورًا فى أيميتم.

كان ڤيلوتا يعرف ماكينات المصنع أكثر من أى أحد آخر.

عندما استقال شاكو من عمله فى مدراس ، وعاد إلى أيميتم بماكينة برشمة زجاجات البهار، كان ڤيلوتا هو الذى قام بتجميعها ونصبها، وكان ڤيلوتا هو الذى قام بصيانة ماكينة التعليب الجديدة ، وآلة تقطيع الأناناس الأوتوماتيكية ، كان ڤيلوتا هو الذى يشحِّم طلمبة المياه والمولد الديزل الصغير ، كان ڤيلوتا هو الذى شيد الألواح المبطنة بالألمونيوم، والأسطح القاطعة سهلة التنظيف، وأفران غَلْى الفاكهة التى فى مستوى الأرض.

كان والد ڤيلوتا - على أى حال - فيليا بابن، باراڤان عالميًا عجوزًا. لقد رأى «أيام الزحف إلى الخلف»، وكان امتنانه لكل ما فعلته ماماشى وأسرتها من أجله عريضًا عميقًا مثل نهر فى فيضان ، وعندما وقعت له حادثة شظية الصخرة، فإن ماماشى هى التى نظمت ودفعت من أجل عينه الزجاجية ، إنه لم يسدد دينه بعد، ورغم

أنه يعلم أن أحداً لم يكن يتوقع منه ذلك، وأنه لن يكون قادراً على ذلك أبداً - فإنه يشعر أن عينه ليست ملكًا له ، لقد وَسّع امتنانه ابتسامته وأحنى ظهره.

كان فيليا بابن يخاف على ابنه الأصغر ، لم يكن في وسعه أن يقول : ما الذي يخيفه ؟ إن الذي يخيفه لم يكن شيئًا قاله ، أو فعله ، لم يكن ما قاله، لكنها الطريقة التي قال بها ولا ما فعله، لكنها الطريقة التي فعل بها.

ربما كان الأمر مجرد افتقاد للشك والتردد ، ثقة لا مبرر لها ، في الطريقة التي كان يسير بها ، الطريقة التي يحمل بها رأسه ، الطريقة الهادئة التي يقدم بها اقتراحات دون أن يسأله أحد ، أو الطريقة الهادئة التي كان لا يكترث فيها بالاقتواحات دون أن يبدو العصيان عليه.

وبينما كانت تلك الصفات مقبولة تماماً، وربما حتى مرغوبة من غير المنبوذين، فإن فيليا بابن كان يعتقد أنها يمكن تفسيرها وتأويلها إن صدرت عن باراڤان بأنها وقاحة وسفاهة (إنها سوف تكون، ويجب أن تكون كذلك حقاً).

وقد حاول فيليا بابن أن ينبه ويحذر ڤيلوتا ، غير أن عجزه عن وضع أصبعه على ما أثار ضيقه جعل ڤيلوتا يسيء فهم قلقه المشوش المتخبط ، لقد بدا الأمر له وكأن والده يحسده على فترة تدريبه القصيرة ومهاراته الطبيعية ، وسرعان ما انحطت نوايا فيليا بابن الطيبة إلى ضيق وضجر ومناكفة وجو عام كريه بين الأب والابن ، وبدأ ڤيلوتا تجنب الذهاب إلى المنزل بسبب فزع أمه البالغ ، أخذ يعمل إلى وقت متأخر ، كان يصطاد السمك من النهر ويطبخه على نار في العراء.

ثم اختفى ذات يوم ، ولم يعرف أحد أين كان مدة أربع سنوات ، وسرت شائعة أنه يعمل في موقع بناء «لإدارة الرفاهية والإسكان» في تريڤاندروم ، ثم كانت هنالك إشاعة لا يمكن تجنبها تقول إنه قد غدا ناكساليًا ، وإنه قد دخل السجن ، وقال أحدهم إنه قد رآه في «كويلون».

لم تكن هنالك وسيلة لمعرفة أين كان وقت أن ماتت أمه، «شيلا»، من السل ، ثم سقط أخوه الأكبر « كوتابن »، من فوق شجرة جوز هند ودُمر عاموده الفقري ،

أصابه الشلل ولم يعد قادراً على العمل ، وسمع ڤيلوتا بالحادثة بعد وقوعها بعام كامل.

كانت قد مضت خمسة شهور على عودته إلى أيمينم ، ولم يتحدث ألبتة أين كان أو ماذا فعل؟

أعادت ماماشى استئجار ڤيلوتا نجاراً للمصنع، وجعلته مسئولاً عن الصيانة العامة ، وكان ذلك سبباً فى قدر كبير من الاستياء بين عمال المصانع الأخرى غير المنبوذين، كانوا يرون أن الباراڤان «يجب ألا يكونوا نجارين». والباراڤان الضالين يجب ألا يعاد استئجارهم.

وحتى تسعد ماماشى الآخرين، وحيث إنها تعرف أن أحداً لن يستأجر ڤيلوتا كنجار، فإنها دفعت له أقل مما كان عليها أن تدفعه لنجار من غير المنبوذين ولكن أكثر مما كانت ستدفعه لواحد من الباراڤان ، ولم تشجعه ماماشى على دخول المنزل (فقط عندما تحتاج إلى تركيب شيء أو إصلاحه) ، كانت ترى أنه يجب عليه أن يكون ممتنًا وقد سُمح له - على أى حال - بدخول المصنع - وسُمح له بأن يلمس الأشياء التى يلمسها غير المنبوذين ، قالت : إن ذلك كان خطوة كبيرة للباراڤان.

عندما عاد ڤيلوتا إلى أيمينم بعد سنوات كان فيها بعيداً عن داره، كان مايزال يتمتع بنفس السرعة، واليقين ، وخاف فيليا بابن عليه فى ذلك الوقت أكثر من أى وقت مضى ، غير أنه جنح هذه المرة إلى السلم ، ولم يقل شيئا.

لم يقل شيئًا، على الأقل، حتى أمسك الفزع بتلابيبه ، لم يقل شيئًا حتى رأى، ليلة بعد أخرى، قارباً يبحر عبر النهر، لم يقل شيئا حتى عاد عند الفجر، لم يقل شيئًا حتى رأى ما قد لمسه ابنه المنبوذ. لمسه أكثر مما لمسه غير المنبوذين.

لقد دخل.

وأحب.

عندما أمسك الفزع بتلابيبه، ذهب فيليا بابن إلى ماماشى ، نظر أمامه مباشرة بعينه المرهونة ، بكى بعينه هو ، لمعت وجنة من وجنتيه بالدموع ، وظلت الأخرى جافة ، أخذ يهز رأسه من ناحية إلى أخرى حتى أمرته ماماشا بأن يتوقف ، أخذ جسده

ينتفض مثل مريض بالملاريا ، أمرته ماماشى بأن يتوقف ، غير أنه عجز ، أنت لا تستطيع أن تأمر الخوف الذى حولك ولا حتى خوف الباراڤانى ، أخبر فيليا بابن ماماشى بما رأى ، طلب غفران الإله لأنه أنجب وحشا ، عرض أن يقتل ابنه بيديه العاريتين ، أن يدمر ما أنجبه.

سمعت بيبى كوشاما الضجة وهى فى الحجرة المجاورة، فجاءت لتستكشف الأمر ، رأت «الحزن» و«القلق» أمامها، فابتهجت سراً فى أعمق أعماقها.

قالت (من بين أشياء أخرى) : « كيف استطعت احتمال الرائحة ؟! ألم تلاحظى أن لهم - لهؤلاء الباراڤان - رائحة خاصة؟»

ثم هزت كتفيها بطريقة مسرحية، مثل طفل فُرض عليه أن يأكل السبانخ ، لقد فضلت هى رائحة إيرلندى جزويتى على الرائحة الخاصة لواحد من الباراڤان .

إنها أفضل بكثير ، أفضل كثيراً .

كان ڤيلوتا وفيليابن وكوتابن يعيشون فى كوخ طوبى فى اتجاه مصب النهر من منزل أيمينم ، كان المنزل على بعد مسافة يقطعها إستابن وراهيل جرياً فى ثلاث دقائق فقط عبر أشجار جوز الهند ، كان قد وصلا لتوّهما إلى أيمينم مع آمو، وكانا صغيرين للغاية، أصغر من أن يتذكرا ڤيلوتا عندما غادر ، غير أنهما قد أصبحا، خلال الشهور الماضية منذ عاد، أفضل أصدقائه ، كانا ممنوعين من زيارة منزله، غير أنهما كانا يزورانه ، كان يجلسان معه بالساعات على ردفيهما - أشبه بعلامات التوقف عند مقاطع الكلمات، تتلاطم فى بركة من قشور الخشب - ويعجبان كيف بدا أنه يعلم دائما أية أشكال ناعمة مصقولة كانت فى انتظاره داخل الأخشاب ، أحبا الطريقة التى بدا بها الخشب، بين يدى ڤيلوتا ليناً مرناً مثل الصلصال ، كان يعلمهم استخدام الفارة ، كانت رائحة منزله (فى الأيام الطيبة) رائحة قشور الخشب الطازجة والشمس برائحة السمك الأحمر المطبوخ بالبهار الهندى والتمر الهندى الأسود ، أجود سمك بالبهار الهندى فى العالم كله، هذا ما يقوله إستا .

كان ڤيلوتا هو الذى صنع قصبة صيد السمك الأكثر حظاً لراهيل، وعلمها وإستا صيد السمك .

وكان هو الذى رأته من خلال نظارتها الشمسية الحمراء، فى ذلك اليوم من ديسمبر أزرق السماء. يسير حاملاً علمًا أحمر عند المزلقان خارج كوشين.

صفارات الشرطة الحادة كالصلب حفرت ثقوبًا فى مظلة الضوضاء. واستطاعت راهيل، عبر ثقوب المظلة غير المتساوية، أن ترى أجزاء من السماء الحمراء ، ورأت فى السماء الحمراء حدأة ساخنة حمراء تبحث عن فئران ، وفى عينها الصفراء المغطاة كان هنالك طريق وأعلام حمراء تسير ، وقميص أبيض فوق ظهر أسود به وحمة يسير .

الرعب، والعرق، ومسحوق التَّلْك مخلوط فى عجينة بنفسجية زاهية بين طيات دهون جيدها ، اللعاب تخثر فى قطع صغيرة بيضاء فى ركنى فمها ، تصورت أنها رأت فى الموكب رجلا يشبه صورة منشورة فى الجريدة لناكسالى يدعى «راجان»، هنالك إشاعة تدور حول اتجاهه جنوبا «بالغات» تصورت أنه نظر إليها مباشرة .

فتح رجل يحمل علمًا أحمر، ووجهًا يشبه عقدة، باب راهيل حيث لم يكن مغلقًا. وامتلأ المدخل برجال توقفوا يحملقون.

«هل تحسين بالحر يا طفلتى؟» سأل الرجل الذى يشبه العقدة راهيل برقة باللغة المالايالامية ، ثم قال بخشونة : «اطلبى من والدك أن يشترى لك مكيف هواء»، ثم صفر مبتهجا بفطنته وتوقيته وابتسمت له راهيل، سعيدة ؛ لأنه اعتقد خطأ أن شاكو والدها. مثلها مثل عائلة طبيعية.

همست بيبى كوشاما بصوت أجش :«لا تردى عليه، انظرى إلى أسفل ، فقط انظرى إلى أسفل »

وتحول الرجل حامل العلم بانتباهه إليها كانت تنظر إلى أسفل، إلى أرضية السيارة ، مثل عروس خجولة زُوجت إلى غريب أجنبى.

قال الرجل بالإنجليزية فى حذره : «هالو، أيتها الأخت ، ما اسمك لو سمحت؟»

وعندما لم ترد عليه بيبى كوشاما، عاد ينظر إلى زملائه.

«ليس لها اسم».

اقترح أحدهم وهو يضحك مستهزئًا: «ماذا لو كان "مودالالى مارياكوتى"؟». ومودالالى فى اللغة المالايالامية تعنى المالك الكبير.

(«ا.ب.ت.ث.ج.هـ.لا ى» قال شخص آخر، بطريقة لا علاقة لها بأى شىء.

وتزاحم عدد أكبر من الطلاب حولهم ، كانوا جميعًا يرتدون مناديل أو مناشف يد على رؤوسهم درءًا للشمس، وقد طبعت عليها عبارة : «صناعة بومباى»، بدوا أشبه بأشياء زائدة شردت من سلسلة الترجمة المالايالامية لسندباد: «الرحلة الأخيرة».

أعطى الرجل الأشبه بالعقدة علمه الأحمر كهدية لبيبى كوشاما ، وقال لها : «هيا، امسكى به».

وأمسكت به بيبى كوشاما، وهى مازالت لا تنظر إلى الرجل.

أمرها قائلاً : «لوِّحى به».

كان عليها أن تلوِّح به ، لم يكن أمامها أى خيار آخر ، كانت تفوح منه رائحة الملابس الجديدة والدكاكين ، كان مجعدًا متربًا ، حاولت التلويح به وكأنها لا تلوِّح به.

«والآن قولى : ايتكويلاب زينداباد !»

همست بيبى كوشاما: «ايتكويلاب زينداباد !»

«أنت فتاة طيبة» .

وزمجر الحشد ضاحكًا، وارتفع صوت صفير حاد.

قال الرجل لبيبى كوشاما بالإنجليزية وكأنهما قد أنهيا بنجاح صفقة عمل ما، «أوكى ، باى، باى» !

وأغلق الباب الأزرق فى لون السماء بشدة ، واهتزت بيبى كوشاما مترجرجة ، وتناثر الحشد حول السيارة وذهب فى مسيرته .

طوت بيبى كوشاما العلم الأحمر ووضعته على الإفريز وراء المقعد الخلفى ، ووضعت مسبحتها مرة أخرى فى بلوزتها حيث أبقتها مع نتوءات بطنها التى تشبه البطيخ ، إنها تشغل نفسها بهذا وذاك، محاولة إنقاذ بعض عزة نفسها وكرامتها .

عندما مر العدد القليل الأخير من الرجال، قال شاكو : إنه قد حان الوقت الآن لفتح النوافذ.

سأل شاكو راهيل : «هل أنت متأكدة من أنه كان هو؟»

«من؟» : سألت راهيل، وقد غدت فجأة حذرة.

«هل أنت متأكدة أنه كان ڤيلوتا؟»

«هوم..؟» : قالت راهيل وهى تعمل على كسب الوقت، محاولة حل إشارات إسثا التى اتسمت بالتفكير الحماسى.

«لقد قلت : هل أنت متأكدة من أن الرجل الذى رأيته كان ڤيلوتا؟» ، قال شاكو للمرة الثالثة .

«م م م نيز تن تن تقريبًا» : قالت راهيل.

قال شاكو : «أنت متأكدة تقريبًا؟»

قالت راهيل : «كلا ... كان ڤيلوتا تقريبًا ، كان يشبهه تقريبًا ...»

«إذن فأنت لست متأكدة؟»

«كلا، تقريبًا،» : قالت راهيل، وهى تنظر إلى إسثا تستدعى موافقته.

قالت بيبى كوشاما : «لابد من أن يكون هو ، إنها «تريڤاندروم» التى فعلت به هذا، إنهم جميعًا يذهبون إلى هناك ويعودون معتقدين أنهم قد غدوا سياسيين كبارًا».

بدا أن لا أحد على وجه الخصوص قد تأثر ببعد نظرها.

قالت بيبى كوشاما: «يجب أن نراقبه، إن بدأ أعمالاً نقابية فى المصنع... لقد لاحظت بعض المؤشرات، بعض الوقاحة، بعض الجحود... وقد طلبت منه فى اليوم التالى أن يعاوننى بالصخور اللازمة لحوض الزهور وهو...»

«لقد رأيت ڤيلوتا فى المنزل قبل أن نغادر» : قال إسثا بذكاء «إذن كيف يمكن أن يكون هو؟»

قالت بيبى كوشاما بطريقة غامضة : «أتمنى لصالحه، ألا يكون هو ، وأنت إستابن لا تقاطعنى وتتدخل مرة أخرى».

وأحست بالضيق لأن أحداً لم يسألها ما هو حوض الزهور هذا ؟

ركزت بيبى كوشاما كل غضبها، فى الأيام التالية، على الإذلال العلنى لڤيلوتا ، جعلت غضبها حاداً مثل قلم ، كانت تفكر فيه، بصورة متزايدة، باعتباره ممثلاً للمسيرة، والرجل الذى أجبرها على التلويح بعلم الحزب الماركسى ، والرجل الذى عَمّدَها كمودالالى مارياكوتى ، وكل الرجال الذين ضحكوا منها.

وبدأت تكرهه .

كان فى وسع راهيل أن تقول : إن آمو ما تزال غاضبة من الطريقة التى تُمسك بها رأسها، ونظرت راهيل إلى ساعتها. كانت الثانية إلا عشر دقائق ، لم يأتِ قطار بعد. وضعت ذقنها على حافة النافذة ، كان فى وسعها أن تحس ألياف اللباد الرمادية التى تحمى زجاج النافذة وهى تضغط على جلد ذقنها ، خلعت نظارة الشمس حتى تنظر بطريقة أفضل إلى ضفدعة هُرست على الطريق ، كانت ميتة، مهروسة، مبططة إلى حد كبير، حتى أنها بدت أقرب إلى بقعة على شكل ضفدعة على الطريق، أكثر منها ضفدعة ، وتساءلت راهيل إن كانت ميس ميتن قد هرستها عربة اللبن الكبيرة التى قتلتها فجعلتها بقعة تشبه ميس ميتن.

لقد أكد فيليا يابن للتوءمين، بيقين مؤمن حقيقى، أنه لا يوجد فى الدنيا شىء اسمه القطة السوداء ، قال : إنه هنالك فقط ثقوب فى الكون على شكل قطط سوداء .

كانت هنالك بقع عديدة على الطريق .

بقع فى العالم على شكل ميس ميتن مهروسة .

بقع فى العالم على شكل ضفدع مهروس .

غربان مهروسة حاولت أكل البقع التى على شكل ضفادع مهروسة فى العالم.

ريش ، ثمار مانجو ، بصاق على طول الطريق إلى كوشين .

الشمس تلألأت عبر نافذة البليموث مباشرة إلى أسفل عند راهيل ، أغلقت عينيها فتلألأت ثانية ، كان الضوء مشرقًا حارًا، حتى من وراء حقيبتها ، السماء برتقالية، وأشجار جوز الهند أشبه بشقائق نعمان البحر تتماوج قرون استشعارها، تأمل الإيقاع بسحابة لا يداخلها سوء ظن وتأكلها ، حيّة شفافة منقطة مشقوقة اللسان تطفو عبر السماء ، ثم جندى رومانى شفاف على جواد منقط ، إن الشيء العجيب فى الجنود الرومان فى الهزليات، كما تقول راهيل، كان كمية العناء التى يتحملونها بسبب دروعهم وخوذاتهم، ثم يتركون بعد كل ذلك أقدامهم عارية . ليس لهذا أى معنى على الإطلاق ، سواء أكانوا بارعين فى التنبؤ بالتغييرات الجوية أم خلاف ذلك .

كانت اَمو قد قصت عليهم قصة «يوليوس قيصر»، وكيف طعنة «بروتس»، أفضل صديق له فى مجلس الشيوخ ، وكيف وقع إلى الأرض والسكاكين فى ظهره وهو يقول : «حتى أنت يا بروتس؟ – ثم يسقط القيصر».

قالت آمو : «إن ذلك يبيّن فقط أنك لا تستطيع الثقة بأحد : بالأم، بالأب، بالأخ، بالزوج، بأفضل صديق ، لا أحد».

قالت للطفلين (عندما سألاها) أن الأمر يظل كذلك حتى يرياه بأنفسهما، قالت : إنه من الممكن تماما، أن ينمو إستا، مثلا، ليصبح خنزيراً ذكورياً شوفينياً.

كان إستا يقف، فى الليل، على السرير وقد لف ملاءته حوله ويقول. «حتى أنت؟ يا بروتس ؟ ثم يسقط القيصر » ويهذى فوق السرير دون ثنى ركبتيه مثل جثة مطعونة. وقالت له كوشوماريا، التى كانت تنام على حصيرة فوق الأرض، إنها سوف تشكوه إلى ماماشى.

قالت : «أخبر أمك أن تأخذك إلى بيت أبيك ، هنالك تستطيع أن تحطم أى عدد تريد من الأسرَّة ، تلك ليست أسرَّتكم، وليس هذا المنزل منزلكم».

وينهض إستا من الأموات ، ويقف فوق السرير ويقول : « حتى أنت ؟ يا كوشوماريا؟ ثم يسقط إستا !» ويموت ثانية.

كانت كوشوماريا على ثقة من أن «حتى أنت؟» هذه كانت شيئا بذيئًا فاحشًا باللغة الإنجليزية، وكانت فى انتظار فرصة مناسبة كى تشكو إستا إلى ماماشى .

كانت توجد على فم المرأة التي في السيارة المجاورة كسرات بسكويت أشعل زوجها عود سيجارة وزفر نفسين من دخان عبر منخريه ، مثل نابيّ فيل، وبدا للحظة عابرة أشبه بذكر خنزير متوحش ، سألت «السيدة خنزير» راهيل عن اسمها «بصوت طفولي» ، تجاهلتها راهيل ونفخت بإهمال فقاعة لعاب .

كانت آمو تكرههما عندما ينفخان فقاعات اللعاب ، قالت : إن ذلك يذكرها بـ «بابا» ، أبيهما ، قالت : إنه كان معتاداً على نفخ اللعاب وهز رجليه، الكتبة وحدهم، على حد قول آمو، هم الذين يتصرفون هكذا وليس الأرستقراطيون .

الأرستقراطيون أناس لا ينفخون فقاعات اللعاب ، أو يهزون أرجلهم، أو يغرغرون.

ورغم أن «بابا» لم يكن من الكتبة، غير أنه، كما قالت آمو، كان يتصرف في الغالب كواحد منهم.

كان إستا وراهيل عندما يكونان بمفرديهما يتصرفان كالكتبة ، ينفخان فقاعات لعاب ويهزان رجليهما ويغرغران مثل الديكة الرومية ، إنهما يتذكران والدهما الذي عرفاه فيما بين الحروب ، لقد جعلهما، ذات مرة، يأخذان أنفاساً من سيجارته، غير أنه تضايق لأنهما امتصاها وبلّلا الفلتر باللعاب .

«إنها ليست حلوى حمراء": قال بغضب حقيقي.

تذكرا غضبه ، غضب آمو ، تذكرا أنهما كانا يُدفعان، ذات مرة، في حجرة ما، من آمو إلى بابا ، إلى آمو، إلى بابا مثل كرات البلياردو ، كانت آمو تدفع بإستا ، «هاك أحدهما أحتفظ به ، إنني لا أستطيع رعاية كليهما». وفيما بعد، عندما سأل إستا آمو عن ذلك، احتضنته وطلبت منه ألا يتخيل أشياء.

كان يرتدي في الصورة الوحيدة التي رأياه فيها (والتي سمحت لهما آمو ذات مرة برؤيتها) قميصاً أبيض ونظارات ، بدا وسيما مفكراً أشبه بلاعب كريكيت ، كان يحمل إستا بذراع واحدة إلى كتفه ، وكان إستا مبتسماً، وقد استراحت ذقنه فوق رأس أبيه ، وكان يحمل راهيل إلى صدره بذراعه الأخرى ، كانت تبدو متذمرة متأففة

سيئة الخلق، ورجلاها الطفوليتان متدليتان وقد رسم أحدهم بالزيت نقطًا وردية على خديها.

قالت آمو : إنه حملهما فقط من أجل الصورة، وإنه كان حتى حينذاك مخمورًا، لدرجة أنه كان يخشى سقوطهما منه ، وقالت آمو: إنها كانت تقف خارج الصورة بالضبط على استعداد للإمساك بهما إن أسقطهما. كان إستا وراهيل يعتقدان أن الصورة ماتزال، باستثناء خدودهما، صورة لطيفة.

«توقفي عما تفعلين !» : قالت آمو بصوت مرتفع حتى أن مورليد هاران، الذى قفز من على حجر الطاحونة ليحملق فى البليموث، عاد القهقرى، وبقية ذراعيه المقطوعتين تختلجان فزعًا.

«أتوقف عن ماذا؟» : قالت راهيل ، غير أنها للحال عرفت ما الذى يجب عليها أن تتوقف عنه. فقاقيع لعابها، «آسفة آمو».

«آسف لن تحيى رجلاً مات» : قال إستا.

«أوه حسنا » :قال شاكو ، «لا يمكنك أن تملى عليها، ماذا يجب أن تفعل بلعابها»

فزجرته آمو، «اهتم أنت بشئونك الخاصة».

وأوضح إستا الأمر لشاكو، بطريقته الحكيمة، «إنها تعيد الذكريات».

ووضعت راهيل نظارتها على عينيها، وتلون العالم بلون الغضب.

قالت آمو : «اخلعى تلك النظارة الغريبة !»

خلعت راهيل نظارتها الغريبة.

قال شاكو : «إن الطريقة التى تعاملينها بها طريقة فاشية ، حتى الأطفال لهم ، بالله عليك، بعض الحقوق».

قالت بيبى كوشاما: «لا تستخدم اسم الله عبثًا».

قال شاكو : «إننى لا أستخدمه عبثًا، إننى استخدمه لغرض طيب للغاية».

قالت آمو : «كف عن اصطناع دور «منقذ الأطفال العظيم» ، إنك لن تبالى بهما، أو بى إن تطلب الأمر موقفًا مسئولاً».

قال شاكو : «وهل علىّ أن أفعل ذلك؟ هل أنا مسئول عنهما؟» وقال أيضا : إن أمو وإستا وراهيل هم أحجار طاحونة حول رقبته.

تبللت بطن ساقى راهيل بالعرق ، وانزلق جلدها فوق التنجيد الجلدى الإسفنجى لمقعد السيارة ، إنها وإستا يعرفان أشياء عن أحجار الطواحين ، فالناس عندما كانوا يموتون فى عرض البحر فى «ثورة على بونتى»، كانوا يلفون فى ملاءات بيضاء و يلقى بهم من فوق ظهر الباخرة وقد وضعت أحجار الطاحونة حول رقابهم حتى لا تطفو جثثهم ، لم يكن إستا متيقنًا من الطريقة التى يقدرون بها عدد أحجار الطواحين التى سيأخذونها قبل أن يبدأوا رحلتهم.

ووضع إستا رأسه فى حجره.

وتَلِفتَ لفة شعره الناعمة.

وانسابت دمدمة قطار صاعدة من الطريق الذى بقعته الضفدعة ، وأخذت تنحنى أوراق «اليام» (٤٤) على جانبى خط السكة الحديدية انحناءً جماعيًا تعبيرًا عن الرضا والموافقة. نعم ، نعم ، نعم ، نعم ، نعم.

وبدأ الحجاج العرايا فى «بينامول»، «بهاجان» (٤٥) آخر.

قالت بيبى كوشاما بورع وتقوى : «إن هؤلاء الهندوس، أقول لكم، ليس لديهم أى إحساس «بالخصوصية».

قال شاكو ساخراً: «إن لهم قرونًا و جلودًا حرشفية ، وقد سمعت أن أطفالهم يخرجون فقساً من بيض»

كان لدى راهيل نتوءان فى جبهتها وقال إستا إنهما سوف ينموان ويتحولان إلى قرنين ، ربما واحد منهما على الأقل لأنها نصف هندوسية.لم تكن سريعة بما يكفى حتى تسأله عن قرنيه. حيث إنها أيًا كانت ، فهو كذلك أيضًا .

انطلق القطار فى ضوضاء عنيفة أسفل عمود من دخان أسود كثيف ، كان هنالك اثنتان وثلاثون عربة شحن، والمداخل مليئة بشباب قصوا شعورهم قَصة الخوذة، وهم فى طريقهم إلى «طرف العالم» ؛ ليروا ماذا حدث لهؤلاء الناس الذين سقطوا وقد سقط منهم هم أيضًا هؤلاء الذين اشرأبوا بأعناقهم بعيداً للغاية عند الحافة ، سقطوا فى الظلام الضارب ، فانقلبت قصات شعورهم من الداخل إلى الخارج.

كان القطار يسير فى سرعة كبيرة، حتى أنه كان من الصعب تصور أن كل هؤلاء قد انتظروا طويلا للغاية من أجل هذا الوقت القصير للغاية وواصلت أوراق اليام انحناءها طويلا بعد ذهاب القطار، وكأنها تتفق معه كلية دون أن تنتابها أية شكوك.

وسبح هابطًا غطاء أشبه بخيط العنكبوت، غطاء رقيق من غبار الفحم مثل نِعمة قذرة كتمت برقة أنفاس المرور.

بدأ شاكو إدارة البليموث. وحاولت بيبى كوشاما أن تكون خفيفة الظل فبدأت أغنية.

«هناك طنين حزين

من الساعة فى القاعة

من الأجراس فى البرج أيضًا

وهنالك فى غرفة الأطفال طائر صغير

سخيف

يطل ليقول...»

ونظرت إلى إسثا وراهيل، فى انتظار أن يقولا «كو - كو».

غير أنهما لم يفعلا ذلك.

وهبت نسمة سيارة وانسابت الأشجار الخضراء وأعمدة الهاتف مبتعدة عن النوافذ. وانزلقت الطيور الساكنة على الأسلاك المتحركة، مثل متاع لا يطالب به أحد فى المطار.

و علق فى السماء قمر نهارى هائلَ، ذهب معهم حيثما ذهبوا ، كبير مثل بطن رجل يشرب البيرة .

الفصل الثالث

الرجل الكبير "اللالتين" ، الرجل الصغير "المومباتى"

أحاطت القاذورات بمنزل أيمينم كجيش من القرون الوسطى يتقدم إلى قلعة العدو، تكتلت في كل شق وفجوة والتصقت بألواح النوافذ الزجاجية.

الذباب الصغير المجنح يئز فى أوانى الشاى، وحشرات ميتة ترقد فى الفازات الفارغة.

كانت الأرضية لزجة، وقد تحولت الجدران إلى لون رمادى غير مستو، المفصلات النحاسية ومقابض الأبواب أصبحت غثة زلقة عند لمسها. ومواضع السدادات - التى نادرا ما استخدمت - ملأها السخام والوسخ، مصابيح الإنارة عليها طبقة رقيقة من الزيت، الأشياء الوحيدة اللامعة هى الصراصير العملاقة التى تمرق مسرعة فى المكان مثل ضفائر مصقولة على شريط فيلم.

كانت بيبى كوشاما قد كفت عن ملاحظة تلك الأشياء منذ زمن طويل، وكفت كوشو - ماريا، التى كانت تلاحظ كل شىء، عن الاهتمام والمبالاة.

وسحق الشيزلونج ، الذى تستلقى عليه بيبى كوشاما، قشور الفول السودانى المحشوة فى فجوات النجادة التى اهترأت.

كانت السيدة والخادمة، فى لمحة غير واعية من الديمقراطية التى يفرضها التلفاز، تخمشان بصورة خفية فى طاس السودانى ذاته ، كوشوماريا تقذف بالسودانى فى فمها، وبيبى كوشاما تضعه فى فمها بطريقة محتشمة لائقة.

كان المستمعون فى الاستوديو فى برنامج عن «أفضل ما لدى دوناهو»، يتفرجون على لقطة من فيلم يقوم فيها مغنى أسود بغناء «فى مكان ما فوق قوس قزح» فى محطة نفق، كان يغنى بإخلاص وكأنه يؤمن حقًا بكلمات الأغنية، وغنت بيبى كوشاما معه، وقد مال صوتها الرفيع المرتعش إلى أن يكون غليظًا بسبب عجينة الفول السودانى. ابتسمت وقد عاد إليها صوتها الغنائى، نظرت إليها كوشى ماريا وكأنها تنظر إلى مجنونة، ثم اختطفت أكثر من نصيبها الذى تستحقه من الفول السودانى. ألقى المغنى برأسه إلى الوراء عندما أطلق أنغامًا عالية (أين التى فى مكان ما؟)، وملأ سقف حلقه القرنفلى الناتئ شاشة التلفاز، كان هائجًا مثل نجم من نجوم الروك، غير أن سنته المفقودة وجلده الشاحب كان يعنى صحة معتلة ويعلن ببلاغة عن حياة من الفاقة واليأس. كان عليه أن يوقف الغناء كلما وصل قطار أو غادر، وهو أمر كثير الوقوع.

ثم اتجهت الأضواء إلى أعلى، إلى الاستوديو، حيث قدم دوناهو الرجل بذاته، والذى بدأ الأغنية، طبقًا لإشارة مُعدّة من قبل، بدأها من النقطة التى توقف عندها بالضبط (بسبب وجود قطار)، محققًا بذكاء انتصارًا لـ «أغنية فوق النفق».

المرة الثانية التى تواضع فيها المغنى، وسط الأغنية، كانت فقط عندما وضع دوناهو ذراعه حوله وقال: «أشكرك، أشكرك، شكرًا جزيلاً»، كانت مقاطعة دوناهو، دون شك، مختلفة كلية عن مقاطعة دمدمة النفق، كانت متعة، وكانت شرفا.

وصفق المستمعون فى الاستوديو، كانوا رؤوفين مشفقين.

وأحمر وجه المغنى خجلاً بسبب السعادة التى يلقاها لأول مرة. واتخذ الحرمان للحظات قليلة طريقه إلى المقعد الخلفى. قال: كان حلمه أن يغنى فى العرض الذى يقدمه دوناهو، دون أن يدرى أنه قد سُلب الآن من ذلك أيضًا.

هنالك أحلام كبيرة وأحلام صغيرة، «الرجل الكبير اللالتين صاحب، والرجل الصغير الومباتى»، شيال بيهارى[٤٦] قديم، التقى بمدرسة إستا فى رحلة قصيرة (عامًا بعد عام دون انقطاع) فى محطة للسكك الحديدية، كان دائم الحديث عن الأحلام.

الرجل الكبير الفنار، الرجل الصغير عصا المسلى.

لقد غَفَل ذكر أن الرجل الضخم هو الأضواء الباهرة، والرجل الصغير هو محطة النفق.

السادة يمكن أن يساوموه وهو يسير وراءهم متثاقلاً، يحمل متاع الأولاد، وساقاه المنحنيتان تنحنيان أكثر، وصبية المدارس القساة يقلدون مشيته. اعتاد أن يطلقوا عليه «خصيتين بين قوسين».

الرجل الأصغر، الأوردة المتورمة [٤٧]، نسى تماماً ذكر أنه قد مُنح أقل من نصف النقود التى طلبها، وأقل من عشر النقود التى يستحقها.

توقف المطر فى الخارج، تخثرت السماء الرمادية: أذابت السحب نفسها فى قطع صغيرة، مثل حشو حشية أقل من المستوى الأمثل.

ظهر إستابن عند باب المطبخ، مبللا (أكثر حكمة مما هو حقًا)، وخلفه كان العشب الطويل يتلألأ. وخلفه أيضًا وقف الجرو على السلم، وانزلقت قطرات مطر عبر القاع المقوس للميزاب الصدئ عند حافة السطح، مثل حبات لامعة على الجزء العلوى للأعمدة الداعمة.

رفعت بيبى كوشاما عينيها عن التلفاز.

أعلنت لراهيل، غير عابئة بخفض صوتها، «ها هو ذا يظهر، راقبيه الآن، لن يقول شيئًا، سوف يتجه مباشرة، إلى حجرته. راقبيه فقط !»

انتهز الجرو الفرصة وحاول الدخول معه، ضربت كوشوماريا الأرض بوحشية براحتيها، وقالت : «هوب ! هوب ! بودا باتى ![٤٨]» .

كف الجرو متعقلاً عن محاولته، يبدو أنه اعتاد هذا الروتين.

قالت بيبى كوشاما – فى انفعال – : «انظرى ! سوف يتجه رأسًا إلى غرفته ويغسل ملابسه. إنه مفرط للغاية فى نظافته.... لن يقول كلمة !»

كانت تعيش جو مراقب إحدى الألعاب وهو يشد الانتباه إلى حيوان فى أرض معشبة. كانت تحس بالفخار لقدرتها على التنبؤ بحركاته. ومعرفتها الفائقة لعاداته وميوله.

كان شعر إسثا ملتصقًا فى كتل، أشبه بأوراق زهرة مقلوبة، تلمع خلاله خصلات بيضاء فى فروة الرأس، جداول ماء تنساب عبر وجهه ورقبته. سار إلى حجرته.

ظهرت هالة تأمل تحيط برأس بيبى كوشاما، قالت : «أرأيت؟»

انتهزت كوشوماريا الفرصة فحولت قناة التلفاز حتى ترى جزءًا من «أجساد فى عنفوانها».

تبعت راهيل إسثا إلى حجرته - حجرة آمو - يوما مًا.

حفظت الحجرة أسراره، لم تفصح عن أى شىء : عن عدم ترتيب الملاءات المجعدة، ولا عن قلة العناية بحذاء رُفس بالقدم، أو منشفة مبللة على ظهر مقعد، أو كتاب لم يقرأ غير نصفه، كانت أشبه بحجرة فى مستشفى غادرتها المرضة لتوها، الأرضية نظيفة، والحوائط بيضاء، والصوان مغلق، والأحذية مرتّبة، وصندوق القمامة فارغ.

كانت النظافة التى تلف الحجرة هى العلاقة الإيجابية الوحيدة عن إرادة الاختيار عند إسثا، الدلالة الوحيدة الباهتة على أنه، ربما، يمتلك «تصميما ما على الحياة». مجرد همسة إحجام عن التقوت على الفتات الذى يقدمه الآخرون، كانت توجد على الحائط، إلى جوار النافذة، مكواة على طاولة الكى، كومة ملابس مطوية مجعدة تنتظر الكى.

الصمت يعلق فى الهواء أشبه بضياع سر من الأسرار.

الأشباح الرهيبة للعِب النسيان - المستحيل تتجمع على شكل عنقود فوق أنصال مروحة السقف، منجنيق، كوانتس كولا [٤٩] (من ميس ميتن) مع عروات أزرار محلولة. أوزة يمكن نفخها (فجرتها سيجارة شرطى)، قلمان لكل منهما كرة معدنية دوارة على

طرفه، مع مشاهد للشارع صامتة ، وسيارات ركاب لندن الحمراء التى تطفو أعلاها، وأسفلها.

فتح إسـثا الصنبور، فسقطت المياه فى صوت إيقاعى فى دلو بلاستيكى، خلع ملابسه فى الحمام المتوهج، خرج من سرواله الچينز المبلل، العسير، الأزرق الغامق، الذى يصعب الخروج منه. سحب التى شيرت المسحوق الذى بلون الفراولة من رأسه، فتقاطع ذراعاه الناعمان، النحيلان، القويان فوق جسده. لم يسمع صوت أخته وهى تقف عند الباب.

راقبت راهيل بطنه المشفوطة إلى الداخل وقفصه الصدرى المرتفع، بينما كان يخلع التى شيرت عن جلده، تاركًا إياه مبللاً فى لون العسل، كان وجهه ورقبته والمثلث عند قاعدة أسفل حلقه أغمق من باقى جسده، كانت ذراعاه أيضًا ثنائية اللون. افتح حيث تنتهى أكمام قميصه. رجل بنى غامق فى ملابس بلون العسل الفاتح، شكولاتة مجدولة بالقهوة، عظام وجنتين عالية وعينان مطاردتان، صياد سمك فى حمام من قرميد أبيض، وأسرار البحر فى عينيه .

هل رآها؟ هل هو حقًا مجنون؟ هل كان يعرف أنها هناك؟

إنهما لم يخجلا من جسد كل منهما ألبتة ، غير أنهما لم يكونا (معًا) كبيرين بما يكفى ليعرفا معنى الخجل.

إنهما الآن كبيران. كبيران بما يكفى.

كبيران.

السن التى يمكن أن يموت فيها الإنسان.

راهيل - عند باب الحمام - نحيلة الأرداف («قل لها : إنها سوف تحتاج إلى عملية قيصرية» ، هذا ما قاله طبيب أمراض نساء مخمور لزوجها، بينما كان ينتظران التبديل فى محطة غاز)، سحلية فوق خريطة ترتدى "تى شيرتا" باهتًا، شعر طويل وحشى يتلألأ بحنة حمراء قاتمة، وقد أرسلت أصابع متمردة فى خصرها، لمعت جوهرة منخارها.

أحياناً. وأحياناً لا تلمع، توهج سوار رفيع ذهبى على شكل حية برأسها، مثل ضوء برتقالى حول معصمها، حيات نحيلة تهمس لبعضها، رأسا برأس، خاتم زواج أمها الذى صُهر. وإلى أسفل لانت الخطوط الحادة لذراعيها النحيلتين البارزى العظام.

بدت، لأول وهلة، أنها قد نمت فى جلد أمها، عظام الوجنتين العالية، الغمازتان العميقتان عندما تضحك، غير أنها كانت أطول، وأشد صلابة، وأكثر تسطيحا، وعظامها أكثر بروزاً مما كانت عليه آمو، ربما كانت أقل ظرفًا بالنسبة لهؤلاء الذين يحبون الاستدارة والليونة فى المرأة، فقط عيناها كانت أكثر جمالاً، بما لا يقبل الجدل، كبيرتان، مضيئتان، يمكن للمرء أن يغرق فيهما. مثلما قال، واكتشف "لارى مك كاسلين"، طبقا لتقديره.

بحثت راهيل عن علامات تدل عليها فى عرى جسد أخيها، فى شكل ركبتيه، فى قوس مشط قدمه، فى انحدار كتفيه، فى الزاوية التى يقابل بها كوعه باقى ذراعه، فى الطريقة التى تنقلب بها أظفار أصابع قدميه إلى أعلى عند نهاياتها، فى التجويفين المنحوتين على جانبى ردفيه المتماسكين الجميلين، مثل خوخ مشدود، إن عجيزة الرجال لا تكبر أبداً، مثل حقائب الكتب المدرسية، التى تستدعى للحال ذكريات الطفولة، علامتا تطعيم تلمعان على ذراعه مثل العملة، علامتا تطعيمها كانتا على فخذها.

إن علامات تطعيم الفتيات دوما فى أفخاذهن، لقد اعتادت آمو قول ذلك.

راقبت راهيل إستا بفضول أُم تراقب طفلها المبتل. أخت تراقب أخاها، امرأة تراقب رجلا، توأم تراقب توأماً.

لقد طيرت كل تلك الحدآت العديدة مرة واحدة.

كان غريبًا عاريًا تلتقى به صدفة، كان هو الشخص الذى عرفته قبل أن تبدأ «الحياة»، الشخص الذى قادها ذات يوم (عائمة) عبر فرج أمهما الظريف الممتع.

شيئان غير محتملين كقطبين، منفصلين كل منهما بعيد بعداً لا يقبل المصالحة.

لمعت نقطة مطر عند نهاية شحمة أذن إستا، غليظة، فضية في الضوء، مثل حبة زئبق ثقيلة، مدت يدها، لمستها، أزاحتها.

إستا لم ينظر إليها، إنسحب إلى هدوء أبعد، وكأن جسده يمتلك قوة دفع أحاسيسه إلى الداخل (معقدة، أشبه بالبيض)، بعيداً عن جلده إلى مخبأ أكثر عمقا يتعذر التأثير عليه.

لملم الصمت أطراف ثيابه وانزلق مثل «المرأة العنكبوت»، فوق جدار الحمام الزلق.

وضع إستا ملابسه في دلو وبدأ غسلها بصابونة متغضنة زرقاء فاتحة.

الفصل الرابع

أبهيلاش توكيز [٥٠]

أعلنت «أبهيلاش توكيز» عن نفسها باعتبارها صالة العرض السينمائى الأول فى كيرالا مع شاشة سينما سكوب ٧٠ مليمتراً. وصممت واجهتها، تحقيقاً لهذا الغرض، فى صورة أسمنتية طبق الأصل من شاشة سينما سكوب مقوسة. وقد كتب أعلاها (بالأسمنت وأضيئت بالنيون) أبهيلاش توكيز باللغة الإنجليزية والمالايالامية.

كان هنالك مرحاضان، أُطلق على أحدهما «له» والآخر «لهن». كان «لهن» مخصصاً لآمو وراهيل وبيبى كوشاما. وكان المرحاض «له» مخصصاً لإستا وحده، حيث ذهب شاكو إلى «فندق ملكة البحر» لحجز أماكن لهم به.

«هل أنت على ما يرام؟» : قالت آمو، قلقة.

أومأ إستا.

دخلت راهيل تتبعها آمو ثم بيبى كوشاما مرحاضهن عبر الباب الفورمايكا الأحمر الذى يُغلق تلقائياً ببطء. استدارت عبر الأرضية الرخامية الزلقة كالزيت لتلوح لإستا الذى كان بمفرده (مع مشط) وهو يرتدى حذاءه البيج المدبب. انتظر إستا فى الردهة الرخامية القذرة، مع المرايا المنفردة التى ترصد وتراقب حتى ابتلع الباب أخته ثم استدار وسار إلى مرحاضه.

اقترحت آمو، فى مرحاضها، أن توازن راهيل نفسها فى الهواء حتى تتبول. قالت إن السلطانيات العامة قذرة، مثلها مثل النقود، أنت لن تعرف أبداً من الذى لمسها. المصابون بالجذام، الجزارون، ميكانيكى السيارات (صديد. دم. زيوت).

لقد لاحظت راهيل، عندما أخذتها كوشوماريا، ذات مرة، إلى دكان جزار، أن ورقة الخمس روبيات الخضراء التى أعطاها لهما، كانت توجد عليها نقطة حمراء دقيقة من اللحم. وقد أزاحت كوشوماريا النقطة بإبهامها. وترك السائل لطخة حمراء. ووضعت النقود فى صدرها، نقود تحمل رائحة دم اللحم.

كانت راهيل أقصر من أن توازن نفسها فى الهواء فوق السلطانية، ومن ثم حملتها آمو وبيبى كوشاما وتشبثت رجلاها بأذرعيهما، كانت قدماها بأصابعهما التى تشبه أصابع اليمامة فى صندل من باتا، رُفعت فى الهواء، بينما أُنزل سروالها إلى أسفل، للحظة لم يحدث شيء، نظرت راهيل إلى أمها وعمة أمها الصغرى وعلامات استفهام تتسم بالشقاوة تتلاعب فى عينيها (وماذا بعد؟).

«هيا»، قالت آمو : «س س س س س».

س س س س س من أجل صوت «السو - سو». م م م م م من أجل صوت «الميووزيك».

هأهأت راهيل، هأهأت آمو، وهأهأت بيبى كوشاما. وعندما بدأ انسياب البول قليلاً قليلاً ضبطا وضعها الهوائى، لم تحس راهيل بالضيق، أنهت وكان لدى آمو ورق التواليت.

قالت بيبى كوشاما لآمو: «هل تستخدمين أنت المرحاض أم استخدمه أنا؟»

قالت آمو: «أىّ منا. هيا. أنت».

حملت راهيل حقيبة يدها. رفعت بيبى كوشاما ساريها المجعد. تأملت راهيل رجلىّ عمة أمها الصغرى (حدث فيما بعد، أثناء درس فى التاريخ كان يُقرأ فى المدرسة - درس يقول أن لون بشرة الإمبراطور بابور كان قمحيًا وكان له فخذان - أن ومض هذا المشهد أمامها، وازنت بيبى كوشاما نفسها فوق السلطانية العامة مثل طائر ضخم، عروق زرقاء مثل حياكة كثيرة العقد تنساب على قصبتى رجليها الشفافتين، ركبتان سمينتان ذات غمازات، عليهما شعر، قدمان صغيران دقيقان لحمل مثل هذا

الثقل !) ، وانتظرت بيبى كوشاما نصف لحظة. اندفعت رأسها إلى الأمام، وابتسامة غبية، تأرجح صدرها إلى أسفل، بطيخ فى البلوزة، أسفلها إلى أعلى وإلى الخارج، وجاء صوت البقبقة والكركرة، فاستمعت إليه بعينيها، نهيراً أصفر يخرخر عبر مضيق جبلى.

أحبت راهيل كل هذا، الإمساك بشنطة اليد، كل واحدة منهن تتبول أمام الأخريين مثل الصديقات، لم تعرف شيئًا حينذاك عن نفاسة هذا الشعور. «مثل الصديقات». إنهن لن يكن مثل هذه المرة أبداً، آمو، بيبى كوشاما ، وهى.

أنهت بيبى كوشاما مهمتها، فنظرت راهيل إلى ساعتها، وقالت، «لقد استغرقت وقتًا طويلاً بيبى كوشاما، الساعة الآن الثانية إلا عشر دقائق.

روبا دوب دوب (فكرت راهيل)،

ثلاث نسوة فى قصعة،

قالت : «سلو» تمهلن لحظة.

اعتقدت أن سلو شخص ما ، «سلوكورين»، «سلوكوتى»، «سلومول»، «سلوكوشاما».

سلوكوتى [٥١]، «فاست فرغيز» [٥٢] و«كرياكوز»، ثلاثة أخوة ذوى قشور فى رؤوسهم.

تبولت آمو، إلى جانب السلطانية، كالهمس، حتى أنك لا تستطيع السماع. غادرت صلابة والدها عينيها ، فعادتا عينا آمو مرة أخرى. كانت هنالك غمازتان عميقتان فى ابتسامتها ولم تعد تبدو غاضبة، مما له علاقة بڤيلوتا أو بفقاقيع اللعاب.

وكانت تلك علاقة طيبة.

كان على إستا ، بمفرده فى مرحاضه، أن يتبول فوق كرات النفتالين وأعقاب السجائر فى المبولة. كان يمكن أن يصيبه التبول فى السلطانية بالإحباط. كان قصيراً

للغاية فلا يمكنه التبول فى المبولة. كان يحتاج إلى شىء يرتفع عليه، بحث عن شىء يعتليه، عثر عليه فى ركن من أركان مرحاضه، مكنسة قذرة، زجاجة شراب مليئة لنصفها بسائل كاللبن (فينيك) وأشياء سوداء تطفو عليه، ممسحة للأرضية وصفيحتان صدئتان لتعبئة لا شىء، كان يمكن أن يكونا من منتجات «مخللات الفردوس»، قطع قصيرة غليظة من الأناناس فى شراب، أو فى شرائح، شرائح الأناناس، استرد إستا شرفه بصفائح جده لأمه، فقام بمفرده بوضع الصفيحتان الصدئتان اللتان لا تصلحان لشىء أمام المبولة. ثم وقف عليهما، واضعًا قدمًا على كل واحدة منهما، وقام بالتبول بعناية بأقل قدر من الاهتزاز والاضطراب، مثل ربل، أعقاب السجائر التى كانت رطبة أصبحت الآن مبللة، تدور كالدوامة، انتقل من العسر إلى اليسر، إنه "قزعة" قياسا إلى حجم مشط آمو الذى كان كبيرًا للغاية بالنسبة إليه، إخذ فى إعادة تشكيل لفة شعره بعناية، ملسها إلى الوراء، ثم دفعها إلى الأمام، تم أدارها جانبًا عند نهايتها بالضبط. أعاد المشط إلى جيبه، خطًا بعيدًا عن الصفيحتين وأعادهما مع الزجاجة والممسحة والمكنسة، وانحنى لها جميعًا. لكل شركاء المباراة، الزجاجة، الممسحة، الصفيحتان، وممسحة الأرضية العرجاء.

قال وهو ينحنى : «بو»، فقد كان لديه انطباع، وهو أصغر سنًا، بأنه يتوجب عليك أن تقول : «بو» (٥٣) وأنت تنحنى (٥٤). يجب عليك أن تقولها حتى تفعلها، كانوا يقولون له «انحنى إستا»، وكان عليه أن ينحنى وهو يقول : «بو»، وكانوا ينظرون إلى بعضهم ويضحكون، أما هو فقد كان يحس بالقلق.

إستا وحده بأسنانه غير المنتظمة.

وقف هو فى الخارج فى انتظار والدته وأخته وعمة أمه الصغرى، وعندما خرجن قالت آمو : «أوكى، إستابن؟»

«أوكى» : قال إستا، وهز رأسه بعناية حتى يُبقى على لفة شعره.

«أوكى، أوكى»، ووضع المشط مرة أخرى فى حقيبة يدها، وأحست آمو بنبضة حب مفاجئة لابنها الصغير المتحفظ الوقور فى حذائه البيج المدبب، والذى أكمل لتوه أول وظائف بلوغه، ومررت أصابع محببة ودودة فى شعره. فأتلفت لفة شعره.

قال الرجل الحامل «لتورش إڤر ريدى» من الصلب أن السينما قد بدأت وعليهم أن يسرعوا، كان عليهم أن يصعدوا الدرجات الحمراء المغطاة بالسجادة الحمراء القديمة باندفاع، سلالم حمراء عليها بقع بصاق أحمر فى الركن الأحمر، الرجل حامل «التورش» جعد المونِدو الخاص به ، وأمسكه يحشره بيده اليسرى أسفل خصيتيه. تصلبت، بينما كان يصعد، عضلات ساقيه تحت جلده المتسلق مثل دانَتَى قنبلتين غزيرتا الشعر. أمسك بالتورش فى يده اليسرى. وأسرع ينبههم.

قال : «بدأ العرض منذ وقت طويل».

لقد فاتتهم البداية إذن، فاتهم رفع الستارة المخملية المتموجة، مع لمبات الإضاءة فى الشراشيب الصفراء العنقودية، ترتفع فى بطء، تصاحبها موسيقا «الفيل الصغير يسير من هاتارى» أو «مارش الكولونيل بوجى».

أمسكت آمو بيد إستا، وأمسكت بيبى كوشاما براهيل، وهى تتكوم فوق الدرجات. إن بيبى كوشاما، يثقلها بطيخها، لا تعترف لنفسها بأنها تسعى للفرجة على الفيلم، إنها تفضل الإحساس بأنها تفعل ذلك فقط من أجل الأطفال، إنها تحتفظ فى عقلها بإحصاء منظم دقيق «بالأشياء التى فعلتها من أجل الناس»، و«الأشياء التى لم يفعلها الناس من أجلها».

لقد أحبت أفضل الحب زجر وكبح الراهبات المبكر، وكانت تأمل ألا يفتقدنه. أوضحت آمو لإستا وراهيل أن الناس يحبون دوماً أفضل الحب ما يلائم ذاتيتهم أفضل الملاءمة، افترضت راهيل أن ما يلائم ذاتيتها أكثر الملاءمة هو «كريستوفر بلومر» الذى يمثل دور «الكابتن فوق تراب»، غير أن شاكو لم يكن يتواءم معه ألبتة ، وكان يدعوه «الكابتن فون كلاب تراب» (٥٥) .

كانت راهيل أشبه بناموسة مضطربة فوق طوق، تطير عديمة الوزن، درجتان إلى أعلى، درجتان إلى أسفل. درجة إلى أعلى، كانت تتسلق خمس درجات من السلالم الحمراء مقابل واحدة لبيبى كوشاما.

أنا البحار بوب آى   دوم دوم

أعيش فى كارا-ڤان   دوم دوم

افـ - تح الباب

واسقط - فوق الأرض

أنا البحار بوب آى   دوم دوم

درجتان إلى أعلى، درجتان إلى أسفل، واحدة إلى أعلى، قفزا، قفزا.

قالت آمو: «راهيل، أنت لم تحفظى درسك بعد - هل حفظتيه؟»

كانت راهيل قد حفظته، «الاضطراب يقود دوما إلى الدموع»، دوم دوم.

وصلوا إلى «ردهة قسم الأميرة»، ساروا عبر «البوفيه»، حيث كانت تنتظر مشروبات البرتقال، وكانت تنتظر مشروبات الليمون، البرتقال برتقال بحق، والليمون ليمون بحق، الشكولاتة ذائبة بحق.

فتح رجل التورش الباب الثقيل لقسم الأميرة، إلى حيث المروحة سريعة الدوران وظلمة قرقشة الفول السودانى، كانت له رائحة أناس يتنفسون وزيت الشعر وسجاجيد قديمة، رائحة سحرية، رائحة «صوت الموسيقى» التى تتذكرها راهيل وتعتز بها. الروائح، تمسك بالذكريات، مثلها مثل الموسيقى، وتنفست راهيل بعمق، محتجزة أنفاسها للأجيال المقبلة.

كانت التذاكر مع إستا، الرجل الصغير، لقد عاش فى قافلة، دوم دوم.

سلط رجل التورش الضوء الذى معه على التذاكر الوردية، ألصقت أرقام ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠. إستا، آمو، راهيل وبيبى كوشاما، عصروا أنفسهم عبر أناس ساخطين حركوا أقدامهم إلى هذا الجانب أو ذاك حتى يفسحوا لهم طريقًا، كان لابد من شد مقاعد الكراسى إلى أسفل، أمسكت بيبى كوشاما بمقعد راهيل إلى أسفل حتى تسلقته، لم تكن ثقيلة بما يكفى فطواها الكرسى داخله مثل حشو «سندوتش»، وأخذت تراقب من بين ركبتيها، ركبتان ونافورة، وجلس إستا بوقار أكثر على طرف مقعده.

كانت ظلال المراوح على جانبى الشاشة، حيث لا توجد الصور.

انتهت العلاقة مع التورش، وبدأت مع «الضربة العالمية».

حلقت الكاميرا عاليًا فى سماء النمسا الزرقاء (بلون السيارة) مع الصوت الواضح الحزين لأجراس الكنائس.

وهنالك بعيداً : أسفل، فوق الأرض، فى باحة الدير، كانت تلمع أحجار الرصف المستديرة، الراهبات يسرن عبرها. مثلهن مثل سيجار بطىء، ساكنات يتجمعن فى هدوء كالعنقود حول أمهن المبجلة، التى لا تقرأ خطاباتهن ألبتة، تجمعن مثل النمل حول كسرة خبز محمص، كلهن مثل السيجار حول السيجار الملكة، لا شعر على ركبتهن. لا يطيخ فى بلوزاتهن، وأنفاسهن مثل النعناع، كانت لديهن شكاوى يتقدمن بها إلى أمهن المبجلة، شكاوى حول الغناء العذب. جولى أندروز، والتى كانت ماتزال فى التلال، تغنى «التلال حية بصوت الموسيقى»، والتى تأخرت مرة أخرى عن القداس.

إنها تتسلق شجرة وتخدش ركبتها

وتسللت الراهبات بطريقة موسيقية.

وتمزق رداؤها

ترقص الفالس وهى فى طريقها إلى القداس

وتصفر على السلم.

استدار المتفرجون المستمعون حولهم.

قالوا: «شهه !»

شه ! شه ! شه! !

وهناك تحت خمارها

خصلات من شعرها

كان هنالك صوت من خارج الفيلم. كان واضحًا وحقيقيًا، يقاطع عبر دوران المروحة، وظلمة قرقشة الفول السودانى. وكانت هنالك راهبة بين المتفرجين لفت الرؤوس مثلما تلف أغطية الزجاجات، خلفيات الرؤوس سوداء الشعر غدت وجوهًا ذات أفواه وشوارب، أفواهها تفح بأسنان أشبه بأسماك القرش، العديدون منهم، أشبه بملصقات فوق بطاقة.

«شه !» : قالو معًا.

كان إستا هو الذى يغنى، راهبة ذات لفة فى شعرها، راهبة الفيس بلفيس، لم يستطع مقاومة فعل ذلك.

«أخرجوه من هنا » : قال المتفرجون المبتمعون، عندما عثروا عليه.

اصمت أو اخرج، اخرج أو اصمت.

كان المتفرجون هم «الرجل الكبير» وكان إستا هو «الرجل الصغير»، ومعه التذاكر.«إستا بالله توقف !» : قالت آمو فى همسة حادة.

توقف إستا، واستدارت الأفواه والشوارب، بعيدًا، لكن الأغنية عادت، دون إنذار، ولم يستطع إستا التوقف.

«آمو: هل أستطيع الذهاب وغناء الأغنية فى الخارج؟» : قال إستا (قبل أن تصفعه آمو): «سأعود بعد انتهاء الأغنية».

قالت آمو: «لا تتوقع منى إحضارك هنا مرة أخرى ألبتة، إنك تحرجنا جميعا».

غير أن إستا لم يستطع التوقف عن الغناء، وقف ليخرج. مارًا بآمو الغاضبة. مارًا براهيل المركزة عبر ركبتيها. مارًا ببيبى كوشاما. مارًا بالمتفرجين المستمعين الذين كان عليهم أن يحركوا أرجلهم مرة أخرى. إلى هذا الجانب وذاك. العلامة الحمراء على الباب تقول، فى ضوء أحمر: «خروج»، وخرج إستا.

مشروبات البرتقال كانت تنتظر في الردهة، مشروبات الليمون كانت تنتظر، الشكولاتة الذائبة كانت تنتظر، أرائك أشبه بأرائك السيارة بجلدها الإسفنجي الأزرق وشحنته الكهربية كانت تنتظر. الإعلانات الكبيرة عن «العرض القادم» كانت تنتظر.

إسثا وحده جلس على الأريكة الأشبه بأريكة السيارة بجلدها الإسفنجي الأزرق وشحنته الكهربية في «بهو قسم الأميرة بأبهيلاش توكيز»، وغنى في صوت راهبة واضح وضوح ماء زلال.

كيف أقنعتها بالغناء.

والاستماع لكل ما تقول؟

واستيقظ الرجل الذى كان نائمًا خلف طاولة المشروبات المنعشة، فوق صف من الكراسي التى لا مساند لها، فى انتظار الاستراحة، رأى بعينيه اللزجتين، إسثا بمفرده فى حذائه البيج المدبب، ولفة شعره وقد تَلفت. ومسح الرجل طاولته الرخامية بخرقة لونتها القذارة، وانتظر، ومسح وهو ينتظر، وانتظر وهو يمسح، وراقب إسثا وهو يغنى.

كيف يمكنك الإبقاء على موجة فوق الرمال؟

أوه، كيف يمكنك حل مشكلة مثل مارى ... ياه؟

«آى ! إيدا شيروكا !» (٥٦) قال رجل شراب البرتقال وشراب الليمون، فى صوت جاد يثقله النوم : «ماذا تعتقد، بحق الجحيم، أنك فاعل؟»

كيف تمسك

بشعاع القمر

فى يدك؟

غنى إسثا

«آی !» قال رجل شراب البرتقال وشراب الليمون. «انتبه. هذا وقت راحتی. وسرعان ما يجب أن أستيقظ لأعمل، لذا لن أسمح لك بالغناء هنا أغان إنجليزية، كف عن الغناء»، ساعة معصمه الذهبية يكاد يخفيها شعر زنده المجعد، سلسلته الذهبية يكاد يخفيها شعر صدره. قميصه الترلين الأبيض كان مفتوح الزراير حتى بداية انتفاخ بطنه. كان يبدو مثل دب معاد مرصّع بالجواهر، كانت وراءه مرايا يرى الناس فيها أنفسهم بينما يشترون المشروبات والمنعشات الباردة، وليعيدوا ترتيب لفات شعورهم وتسويتها، راقب المرايا إستا.

قال الرجل لإستا: «في وسعي أن أتقدم ضدك بشكوى، ما رأيك في هذا؟ شكوى مكتوبة؟».

كف إستا عن الغناء، ووقف كي يعود إلى الداخل.

قال رجل شراب البرتقال وشراب الليمون : «الآن وقد قمت من نومي، الآن وقد أيقظتني من راحتي، الآن وقد أقلقتني؟! عليك أن تحضر وتأخذ شراباً. هذا أقل ما يمكنك عمله».

كان لوجهه غير الحليق فكّان بارزان. وراقب أسنانه الصفراء، الأشبه بمفاتيح البيان، ألفيس البلفيس الصغير.

قال ألفيس بأدب: «كلا، شكراً. إن عائلتي تنتظرني. وقد أنهيت مصروف جيبي».

«مصروف جيبي؟» قال رجل شراب البرتقال وشراب الليمون، وأسنانه ماتزال تراقب «أولاً أغان إنجليزية، والآن مصروف جيبي ! أين تعيش؟ فوق القمر؟»

استدار إستا ليغادر.

«انتظر دقيقة !» قال رجل شراب البرتقال وشراب الليمون. دقيقة فقط !» قال – بطريقة أكثر رقة : «أعتقد أنني سألتك سؤالاً».

كانت أسنانه الصفراء مثل المغناطيس، إنها ترى، تبتسم، تغني، تشم، تتحرك، تنوم تنويماً مغناطيسياً.

«لقد سألتك أين تعيش؟» : قال وهو يفرك جلده القذر بين أصابعه.

«أيمينم» قال إستا: «إننى أعيش فى أيمينم، إن جدتى لأمى تمتلك «مخللات ومربات الفردوس»، إنها الشريك المتضامن (٥٧) ».

«هل هى كذلك الآن؟» قال رجل شراب البرتقال وشراب الليمون، «ومن ذا الذى تنام معه؟». وضحك ضحكة بذيئة، لم يستطع إستا فهمها، «لا عليك، فإنك لن تفهم».

«تعالَ وخذ شرابًا»، قال: «شرابًا باردًا مجانيًا . تعالَ. تعالَ هنا وأخبرنى عن جدتك لأمك».

وذهب إستا إليه، تجذبه الأسنان الصفراء.

«تعالى هنا، وراء الطاولة»، قال رجل شراب البرتقال وشراب الليمون. هبط بصوته إلى حد الهمس، «يجب أن يكون ذلك سراً، لأنه غير مسموح بالمشروبات قبل الاستراحة، إن فى ذلك إساءة للمسرح».

«تلك مسألة يمكنك فهمها»، أضاف بعد وقفة.

وذهب إستا إلى وراء طاولة المنعشات ليتناول شرابه البارد المجانى. رأى الكراسى الثلاث المرتفعة التى بلا مساند مرصوصة فقط كى ينام عليها رجل شراب البرتقال وشراب الليمون، كان الخشب لامعاً من كثرة جلوسه عليه.

«والآن، لو سمحت، امسك هذا من أجلى»: قال رجل شراب البرتقال وشراب الليمون وناوله عضوه الذكرى داخل مئزره الموسلين الأبيض الناعم الأملس، «سوف أحضر لك شرابك: برتقال؟ ليمون؟»

وأمسك به إستا لأنه كان عليه أن يفعل ذلك.

قال الرجل: «برتقال؟ ليمون؟ ليمون برتقال؟»

«ليمون لو سمحت»: قال إستا فى أدب.

ناوله زجاجة باردة وماصة. أمسك بالزجاجة فى يد وبالعضو الذكرى فى اليد الأخرى. صلب ساخن، ملىء بالعروق. لم يكن شعاع القمر.

أطبقت يد رجل شراب البرتقال وشراب الليمون على يد إسثا. كان ظفر إبهامه طويلا مثل امرأة. حرك يد إسثا إلى أعلى وإلى أسفل. بطيئًا فى البداية. ثم سريعًا.

كان شراب الليمون باردًا ولذيذًا. والعضو الذكرى ساخنًا وصلبًا.

مفاتيح البيان كانت تراقب.

«إذن فجدتك لأمك تدير مصنعًا؟» قال رجل شراب البرتقال وشراب الليمون: «أى نوع من المصانع هذا؟».

«منتجات عديدة»: قال إسثا، دون أن ينظر والماصة فى فمه: «عصائر، مخللات، مربات، مساحيق تابل الكرى، شرائح الأناناس».

«حسنًا»: قال رجل شراب البرتقال وشراب الليمون، «رائع».

أمسكت يده يد «إسثا» بقوة - بقوة وقد بللها العرق. ومازال يحركها بصورة أسرع.

سريع أسرع فالأكثر سرعة

لا تدعه أبدًا يستريح

حتى يصبح السريع أسرع

والأسرع أكثر سرعة

كانت حلاوة شراب الليمون تصعد عبر الماصة الورقية المبتلة (والتى تكاد تكون قد تبططت من النفث والخوف). كان «إسثا» ينفث فى المصاصة (بينما يده الأخرى تتحرك) ينفخ فقاعات فى الزجاجة. فقاعات ليمون حلوة لزجة من الشراب الذى لم يستطع شربه، وأجمل فى رأسه قائمة بمنتجات جده لأمه.

مخللات	عصائر	مربات
مانجو	برتقال	موز
عصائر	عنب	فاكهة مختلطة
فلفل أحمر	أناناس	جريب فروت
قرع مر	مانجو	
ثوم		
ليمون بنزهير مملح		

ثم سيطر الوجه الغضروفى خشن الشعر. تبللت يد «إسثا» وغدت ساخنة لزجة. كان عليها لون أبيض كالبيض، أبيض فى لون بياض البيض. ربع المغلى.

كان شراب الليمون بارداً حلواً. وغدا العضو الذكرى طرياً وقد تجعد مثل كيس نقود جلدى فارغ. ومسح الرجل يد إسثا بالخرقة الملونة بالقذارة.

قال: «انتبه، الآن، من شرابك»، وعصر إحدى إليتى «إسثا» بطريقة ودية، خوخ مشدود فى أنابيب الصرف. وحذاء بيج مدبب الطرف. قال: «عليك ألا تضيعهما. فكر فى كل الناس الفقراء الذين ليس لديهم شىء يأكلونه أو يشربونه. أنت صبى غنى محظوظ، معك مصروف جيب ومصنع جدتك الذى سترثه، عليك أن تشكر الله أنك لا تعانى هموما، عليك الآن أن تنهى شرابك».

وهكذا، خلف طاولة المنعشات فى بهو قسم الأميرة بالأبهيلاش توكين، فى القاعة مع افتتاح أول شاشة سينما سكوب ٧٠ ملليمتراً فى «كيرالا»، أنهى إستابن ياكو زجاجته المجانية، زجاجة الليمون الفوار بنكهة الخوف. زجاجة الليمون الليمونية للغاية. الحلوة للغاية، والتى وصل فوارها حتى أنفه، إنه يمكن أن يُمنح فى القريب زجاجة أخرى (مجانية، فواره بالخوف)، غير أنه لم يكن يعرف ذلك بعد. رفع «يده الأخرى» اللزجة بعيداً عن جسده.

لم يكن مفترضاً أن تلمس أى شىء.

عندما أنهى إسثا شرابه، قال رجل شراب البرتقال وشراب الليمون: «هل انتهيت؟ أنت صبى طيب».

أخذ الزجاجة الفارغة والماصة التى تبططت، وعاد إسثا إلى «صوت الموسيقا».

عاد إسثا إلى داخل ظلام زيت الشعر، رافعًا «يده الأخرى» بعناية (إلى أعلى وكأنه يحمل برتقالة متخيلة). انزلق ماراً بالمتفرجين (أرجلهم تتحرك فى هذا الاتجاه أو ذاك)، ماراً ببيبى كوشاما، ماراً براهيل (والتى كان ظهرها مايزال مائلا)، ماراً بآمو (التى كانت ماتزال متكدرة)، جلس إسثا وهو مايزال يمسك ببرتقالته اللزجة.

وكان هناك كابتن فون كلاب – تراب، كريستوفر بلومر، متعجرف قاسٍ له فم مثل شق، وصفارة شرطة حادة مثل الصلب، كابتن لديه سبعة أطفال، أطفال يتسمون بالنظافة مثل حزمة نعناع، إنه يتظاهر بأنه لا يحبهم، لكنه يحبهم، هو يحبهم، ويحبها (جولى أندروز)، وهى تحبه، وهما يحبان الأطفال، والأطفال يحبونهما. إنهم جميعًا يحبون بعضهم، كانوا أطفالاً يتسمون بالنظافة، بيضًا، وكانت أسرّتهم ليّنة محشوّة بزغب البط البحرى.

كان المنزل الذى يعيشون فيه بركة وحدائق، وسلم واسع، وأبواب وشبابيك بيضاء وستائر بها ورود وأزهار.

الأطفال الصغار البيض الذين يتسمون بالنظافة، بل وحتى الكبار أيضًا، كانوا يخافون الرعد، وحتى تسليهم جولى أندروز، كانت تضعهم جميعًا فى سريرها النظيف، وتغنى لهم أغنية نظيفة عن بعض الأشياء المفضلة لديها، وتلك كانت بعض أشيائها المفضلة:

(١) فتيات فى أردية بيضاء ذات زنار من ساتان أزرق.

(٢) الأوز البرى الذى يطير والقمر فوق جناحيه.

(٣) الأباريق النحاسية البهية.

(٤) أجراس الأبواب وأجراس مركبات الجليد وحساء ضلعة لحم العجل.

(٥) إلخ.

ومن ثم، فقد ثارت بعض الأسئلة التى تحتاج إلى إجابات فى عقلى توءمين من بيضتين معينتين، كانا ضمن المتفرجين المستمعين فى"أبهيلاش توكيز"، مثال:

(أ) هل هز كابتن فون كلاب – تراب رجله؟

لم يهزها.

(ب) هل نفخ كابتن فون كلاب – تراب فقاقيع لعاب؟ هل فعل ذلك؟

يقينًا أنه لم يفعل ذلك.

(جـ) هل غرغر كالديك الرومى؟

لم يغرغر.

أوه كابتن فون تراب، كابتن فون تراب، هل يمكن أن تحب الزميل الصغير مع البرتقال فى القاعة ذات الرائحة؟

لقد أمسك فى يده لتوه بسوسو رجل شراب البرتقال وشراب الليمون، فهل فى وسعك أن تظل تحبه؟

وأخته التوأم؟ وهى تميل إلى أعلى ومعها نافورتها فى «الحب فى طوكيو»؟ هل فى وسعك أن تحبها أيضاً؟

وكان لدى الكابتن فون تراب بعض أسئلته الخاصة:

(أ) هل هما طفلان أبيضان نظيفان؟

كلا ، (لكن صوفى مول كذلك).

(ب) هل ينفخان فقاقيع لعاب؟

نعم ، (لكن صوفى مول لا تفعل ذلك).

(جـ) هل يهزان أرجلهما؟ مثل الكتبة؟

نعم ، (لكن صوفى مول لا تفعل ذلك).

(د) هل قام، فى أى وقت مضى،أحدهما أو كلاهما، بالإمساك بسوسو أناس غرباء؟

لـ..لـ نعم ، (لكن صوفى مول لم تفعل).

«أوه أنا آسف»، قال كابتن فون كلاب – تراب، «تلك مسألة غير مطروحة للتساؤل، ليس فى وسعى أن أحبهما،لا يمكن أن أكون أبًا لهما، أوه كلاًّ».

لم يستطع كابتن فون كلاب – تراب أن يكون كذلك.

ووضع إستا رأسه فى حجره.

«ماذا بك؟» : قالت آمو : «إن كنت تعساً مرة أخرى، فإننى آخذك إلى البيت مباشرة، اجلس لو سمحت منتصباً، وراقب، هذا ما جىء بك إلى هنا من أجله».

انته من الشراب.

تابع الفيلم.

فكر في كل الناس الفقراء.

صبيٌّ غنى محظوظ معه مصروف جيب، بلا هموم.

انتصب إستا فى جلسته وأخذ يراقب، أحس بالغثيان، شعور أخضر متموج، ثقيل مائى،كتلى، عشبى بحرى، طاف عائم، لا يدرك غوره ــــ عميق الغور.

قالت، «آمو؟» .

«ماذا الآن؟» فرقعت ماذا هذه، أشبه بنباح، ببصقة.

«أحس برغبة فى القىء».

«هل هو مجرد إحساس أم أنك ترغب فى ذلك؟» ، كان صوت آمو قلقًا .

«لا أعرف».

«هل نذهب ونحاول؟» قالت آمو : «سوف أجعلك تحس أنك أفضل».

«أوكى». قال إستا .

أوكى؟ أوكى.

«إلى أين أنتما ذاهبان؟» أرادت بيبى كوشاما أن تعرف.

«إستا سيحاول و يتقيأ». قالت آمو.

«إلى أين أنتما ذاهبان؟» سألت راهيل.

«أحس برغبة فى القيء»: قال إستا.

«هل فى وسعى الذهاب معكما والمراقبة؟»

«كلاً»، قالت آمو.

مرا، مرة أخرى، بالمتفرجين (الأرجل فى هذا الاتجاه وذاك)، المرة الأخيرة للغناء. هذه مرة للمحاولة والقيء، الخروج عبر يافطة"الخروج".إلى الخارج فى البهو الرخامى، حيث كان رجل شراب البرتقال وشراب الليمون يأكل قطعة حلوى، كان خده منتفخًا بحلوى متحركة، كان يصدر عنه صوت لين ماص، مثل ماء يسيل تدريجيًا من حوض. كان هنالك دثار"بارى" الأخضر فوق الطاولة، كانت الحلوى لهذا الرجل مجانية، كان لديه صف من الحلوى المجانية فى زجاجات معتمة، مسح الطاولة الرخامية بالخرقة الملونة بالقذارة، والتى يمسك بها فى يده المشعرة ذات الساعة، عندما رأى المرأة المضيئة بكتفيها المصقولين والصبى الصغير، انزلق ظل عبر وجهه. ثم ابتسم ابتسامته، ابتسامة البيانو المحمول.

«هكذا خرجت سريعًا مرة ثانية؟» : قال.

كان إستا يحاول التقيؤ بالفعل، سارت به آمو الهوينا، كما السير فى ضوء القمر، إلى حمام قسم الأميرة، إلى مرحاضهن. حُمل إلى أعلى، منحشراً بين الحوض غير النظيف وجسد آمو، الرِجلان متدليتان. صنابير الحوض من الصلب، وبقع صدأ، وشبكة من نسيج بنى لشقوق رفيعة كالشعرة، مثل خريطة طرق بلد ما، كبيرة ومعقدة.

انتفض إستا متشنجًا، غير أنه لم يتقيأ شيئًا، مجرد أفكار، تطفو جيئة وذهابًا، لم يكن فى وسع آمو أن تراها، حومت مثل عاصفة سحاب فوق مدينة الحوض، غير أن رجال الحوض ونساء الحوض ذهبوا إلى أعمال حوضهم العادية، عربات الحوض وسيارات ركاب الحوض مازالت تطن فى الجوار، حياة الحوض سارت قدما.

«لا شىء؟» تساءلت آمو.

«لا شىء» : قال إستا.

لا شيء؟

لا شيء.

«إذن اغسل وجهك»، قالت آمو. «فالمياه دومًا تقدم العون والمساعدة. اغسل وجهك ودعنا نذهب لنأخذ شراب ليمون فوار».

غسل إستا وجهه ويديه، ووجهه ويديه، كانت رموشه مبللة وقد تجمعت معًا.لف رجل شراب البرتقال وشراب الليمون لفافة الحلوى الخضراء وثبت اللفة بظفر إبهامه المطلى، صعق ذبابة بمجلة مطوية، أزاحها، برقة، إلى طرف الطاولة، إلى فوق الأرض. رقدت على ظهرها ملوحة بأرجلها الواهنة.

«هذا الولد الظريف» : قال لآمو، «يغنى بطريقة لطيفة».

«إنه ابنى»، قالت آمو.

«حقًا؟»، قال رجل شراب البرتقال وشراب الليمون، ونظر إلى آمو بأسنانه، «حقًا؟ إنك لا تبدين كبيرة بهذا القدر !».

«إنه ليس على ما يرام»، قالت آمو، «وقد فكرت أن مشروبًا مثلجًا قد يجعله أحسن حالاً».

«بالطبع» : قال الرجل. «بالطبع بالطبع. برتقال ليمون؟ ليمون برتقال؟»

مخيف فظيع، سؤال مريع.

«كلا، شكرًا». نظر «إستا» إلى «آمو». أخضر متموج، عشبى بحرى، لا يُدرك غوره – عميق الغور.

«ماذا عنك أنت؟» سأل رجل شراب البرتقال وشراب الليمون آمو.

«كوكا ـــ كولا فانتا؟ أيس كريم روز ميلك؟»

«كلاً، شكرًا.ليس من أجلى»: قالت آمو. امرأة مضيئة ذات غمازتين عميقتين.

«هنا» : قال الرجل، وقبضته مليئة بالحلوى، مثل مضيفة جوية كريمة ، «هذه من أجل رجلك الصغير».

«كلاً، شكراً»: قال إستا وهو ينظر إلى آمو.

«خذها إستا»: قالت آمو. «لا تكن وقحاً».

أخذها إستا.

«قل شكراً»، قالت آمو.

«شكراً»، : قال إستا (من أجل الحلوى، ومن أجل الأبيض بياض البيض).

«عفواً» : قال رجل شراب البرتقال وشراب الليمون باللغة الإنجليزية.

«إذن» : قال : «يقول المون (٥٨) إنكم من أيمينم؟».

«نعم»: قالت آمو.

«إننى كثيراً ما أذهب إلى هناك» : قال رجل شراب البرتقال وشراب الليمون. «إن أهل زوجتى من أهالى أيمينم ، إننى أعرف أين يقع مصنعكم. مخللات الفردوس. أليس كذلك؟ لقد أخبرنى صبيكم بذلك».

إنه يعرف أين يجد إستا، كان ذلك ما يبغى قوله، وكان ذاك إنذاراً.

رأت آمو عينى ابنها المحمومتين اللامعتين.

قالت: «يجب أن أذهب»، ثم شرحت للعم: «يجب ألا نخاطر باحتمال الإصابة بالحمى، إن ابنة خالهما قادمة باكر». ثم أضافت عرضاً، «من لندن».

«من لندن»، برق احترام جديد فى عينى العم.احترام لعائلة ذات علاقات بلندن.

«إستا، أبقى هنا مع العم. سوف أذهب لإحضار بيبى كوشاما وراهيل» : قالت آمو.

«تعالى» : قال العم : «تعالى وأجلس معى فوق الكرسى العالى بلا مسند.»

«كلا ، آمو، كلا، آمو،كلاً ! إننى أود الذهاب معك !».

عجبت آمو لهذا الإصرار الحاد غير العادى من ابنها الهادئ عادة، فاعتذرت إلى عم شراب البرتقال وشراب الليمون.

«إنه عادة ليس كذلك. تعالى إذن إسشا بن».

رائحة الداخل مرة أخرى، ظلال المراوح، خلفيات الرؤوس، الرقاب، الياقات، الشعر، أقراص، ضفائر، ذيل حصان.

نافورة فى «حب فى طوكيو»، فتاة صغيرة وراهبة سابقة.

أطفال كابتن فون تراب السبعة النعناعيون، أخذوا حماماتهم النعناعية، وكانوا يقفون فى خط نعناعى وشعورهم تتسدل إلى أسفل، يغنون فى أصوات نعناعية مطيعة للمرأة التى تزوجها الكابتن تقريباً :

البارونة الشقراء التى بدت كالجوهرة.

التلال حية

بصوت الموسيقى .

«يجب أن نغادر» : قالت آمو لبيبى كوشاما وراهيل.

«ولكن آمو» : قالت راهيل: «إن الأشياء الرئيسة لم تحدث بعد ! إنه حتى لم يقبلها ! إنه حتى لم يمزق علم هتلر بعد! ورودلف البوسطجى لم يخنهم حتى الآن !»

«إن إسثا مريض» : قالت آمو : «هيا بنا !»

«حتى الجنود النازيين لم يجيئوا بعد !»

«هيا بنا» : قالت آمو : «هيًا قفا !»

«إنهم حتى لم يغنوا بعد، هناك فوق التل عاليًا راعى ماعز وحيد».

«يجب أن يكون إسثا فى حالة جيدة، من أجل صوفى مول، ألا يجب أن يكون كذلك؟» : قالت بيبى كوشاما.

«إنه ليس كذلك» : قالت راهيل، لكنها كانت فى الغالب تتحدث إلى نفسها.

«ماذا قلت؟» قالت بيبى كوشاما، وقد بلغها المعنى العام وليس ما قيل تحديداً.

«لا شىء» : قالت راهيل.

«لقد سمعتك» : قالت بيبى كوشاما.

فى الخارج كان العم يعيد ترتيب زجاجاته المعتمة، يمسح بخرقته التى لونتها القذارة بقع الماء الدائرية الشكل التى تركاها على رخام طاولة المنعشات، كان يعد للاستراحة، كان عم شراب البرتقال وشراب الليمون عماً نظيفاً، كان يحمل قلب مضيفة جوية وقد أُسر فى جسد دب.

«ستغادرن إذن؟» قال.

«نعم» : قالت آمو : «أين نجد تاكسيا؟»

«خارج البوابة، على الطريق، إلى يساركم،" قال وهو ينظر إلى راهيل : "أنت لم تخبرينى أن لديك مول [٥٩] أيضاً ألبتة»، ماداً يده بقطعة حلوى أخرى ، «هذه لك أيتها الصبية».

«خذى قطعتى !» : قال إستا فى سرعة، غير راغب فى اقتراب أخته من الرجل، إلا أن راهيل كانت قد بدأت فى السير نحوه بالفعل، وابتسم لها وهى تقترب منه، وجعلها شيئاً ما فى تلك الابتسامة، التى كانت كالبيان المحمول، شىءٌ ما فى تفرسه فيها جعلها تجفل منه ، كان ذلك أكثر الأشياء التى رأتها فى حياتها قبحاً وشناعة، ثم استدارت لتنظر إلى إستا.

وعادت بعيداً عن الرجل كثيف الشعر.

ضغط إستا حلوى «بارى» فى يدها ، فأحست بأصابعه الساخنة المحمومة وأطرافها الباردة برودة الموت.

«وداعًا، أيها الرجل» : قال العم لإستا : «سوف أراك فى أيمينم يومًا ما».

ومن ثم عادت السلالم الحمراء مرة أخرى، كانت راهيل هى التى تتلكأ هذه المرة – بطيئة – كلا أنا لا أرغب فى المغادرة، طن من القرميد على طوق فى عنقها.

«شخص ظريف، بائع شراب البرتقال وشراب الليمون ذاك» : قالت آمو.

«شــهى [٦٠] !» قالت بيبى كوشاما: «إنه لا يبدو كذلك، لكنه كان ظريفًا بطريقة مدهشة مع إستا»: قالت آمو.

«لماذا لا تتزوجينه إذن؟» : قالت راهيل مغتاظة.

توقف الزمن على السلالم الحمراء، توقف إستا، توقفت بيبى كوشاما.

«راهيل» : قالت آمو.

تجمدت راهيل، كانت آسفة أشد الأسف لما قالته، إنها لا تدرى من أين جاءت تلك الكلمات، لم تكن تدرى أنها كانت تختزنها فى داخلها، لكنها خرجت الآن، ولن تعود فتدخل مرة أخرى. لقد تعلقت هناك فوق السلالم الحمراء مثل الكتبة فى مكتب حكومى : البعض واقف ، والبعض جالس يهز رجليه.

«راهيل»: قالت آمو : «هل تدرين ماذا فعلت الآن؟»

عينان خائفتان ونافورة تنظر إلى آمو.

«حسنًا، لا تخافى» : قالت آمو : «فقط أجيبى على سؤالي : هل تدرين؟»

«ماذا؟» : قالت راهيل بأضعف صوت لديها.

«هل تدرين ماذا فعلت الآن؟» : قالت آمو.

عينان خائفتان ونافورة تنظر إلى آمو.

«هل تعرفين ماذا يحدث عندما تؤذين مشاعر الناس؟» : قالت آمو : «إنك عندما تؤذين مشاعر الناس فإنهم يحبونك أقل، هذا ما تؤدى إليه الكلمات التى تقال دون مبالاة، إنها تجعل الناس يحبونك أقل قليلاً».

فراشة باردة ذات ذؤابات ظهرية كثيفة بصورة غير عادية طفت فى خفة على قلب راهيل، وعندما لمستها أرجلها الثلجية، أحست بضربات أوزة، ضربات ست أوزات على قلبها اللامبالى.

آمو، أمها، أحبتها أقل قليلاً .

وهكذا، خارج البوابة، إلى الطريق، إلى اليسار. وقف التاكسى. أُم مجروحة، راهبة سابقة، طفل ساخن وطفلة باردة، ضربات ست أوزات وفراشة.

رائحة النوم تفوح من التاكسى، ملابس قديمة ملفوفة، مناشف رطبة، إبطان، كان التاكسى رغم كل شىء، منزل السائق، إنه يعيش فيه، كان هو المكان الوحيد الذى يختزن فيه روائحه، كانت المقاعد قد ذبحت تمزقت، لفافة إسفنج قذر اندلقت ترتجف على المقعد الخلفى مثل كبد ضخم مصاب باليرقان.

كان السائق يقظًا نشطًا مثل قارض صغير. كانت له أنف رومانية معقوفة وشارب مثل شارب ريتشارد الصغير، كان ضئيلاً إلى حد أنه كان يراقب الطريق عبر عجلة القيادة. كان يبدو للمرور العابر وكأنه تاكسيًا به ركاب لكنه بلا سائق، كان يسوق سريعًا مشاكسًا، يثب إلى الأماكن الخالية، يدفع السيارات الأخرى من مساراتها، يزيد السرعة عند عبور المشاة، ينتقل كيفما اتفق عند إشارات السير.

«لماذا لا تستخدم وسادة أو مخدة أو أى شىء؟» ، اقترحت بيبى كوشاما بصوت ودود ، «إن ذلك سوف يمكّنك من الرؤية بصورة أفضل».

«لماذا أيتها الأخت، لا تهتمين بشئونك الخاصة؟» اقترح السائق بصوت غير ودود.

وضع إستا – بينما العربة تندفع عبر البحر الأسود كالحبر – وضع رأسه خارج النافذة. كان فى وسعه أن يتذوق مرارة النسيم وملوحته فى فمه، يحس به يرفع شعره، أدرك لو أن آمو اكتشفت ما فعله مع رجل شراب البرتقال وشراب الليمون لأحبته أقل بالمثل، أقل بكثير جدًا، أحس بغثيان الخجل يتحرك بعنف، يقلب المرض فى معدته. اشتاق إلى النهر، حيث يقدّم الماء على الدوام العون والمساعدة.

اندفع ليل النيون اللزج يمر أمام نافذة التاكسى، كان الجو داخل التاكسى حاراً هادئاً. بدت بيبى كوشاما متوردة ومنفعلة، ما كانت تحب أن تكون سبباً فى أى شعور كريه، كلما تسكع كلب ضال فى الطريق، بذل السائق جهداً مخلصاً حتى يقتله.

نشرت الفراشة جناحيها الخمليين على قلب راهيل، وزحفت القشعريرة إلى عظامها.

وقفت البليموث الزرقاء، فى لون السماء، فى موقف سيارات «فندق ملكة البحر»، مع سيارة أخرى أصغر منها. «هسليب هسليب هيسنوه - سناه»، سيدة كبيرة فى حفل سيدات صغيرات، زعانف ذيول أسماك تخفق وترفرف.

«حجرتان أرقامهما ٣١٣، ٣٢٧»، قال رجل الاستقبال: «بلا تكييف، سرائر مزدوجة، والمصعد متوقف للإصلاح».

خادم الفندق [٦١]، الذى أخذهم إلى أعلى، ليس صبيًا وليس لديه جرس، كانت عيناه معتمتين وهنالك زراران ناقصان من معطفه البالى الأحمر الداكن، كان قميصه التحتى ظاهراً فقد غدا رمادياً، كان عليه أن يرتدى غطاء رأس غبى لخادم فندق، غطاء مائلاً إلى جنب، وقد غرق رباطه البلاستيكى المحكم فى لغده [٦٢] ، بدا إلباس رجل عجوز غطاء رأس مائلاً إلى جنب هكذا، وإعادة تنظيم السبيل الذى اختاره سنه ليتدلى معلقاً من ذقنه، بطريقة تحكمية تعسفية، بدا قسوة لا ضرورة لها.

كان هنالك المزيد من الدرجات الحمراء لتسلقها، وهنا كانت تتبعهم فيما حولهم ذات السجادة الحمراء التى فى بهو السينما. السجادة الطائرة السحرية.

كان شاكو فى حجرته، ضُبط وقد أولم وليمة: دجاجة مشوية، بطاطس أصابع، ذرة صفراء حلوة، حساء دجاج، قطعتان من الباراتا[٦٣] ، أيس كريم «ڤانيليا» بالشيكولاتة السائلة. الشيكولاتة السائلة فى إناء الشكولاتة السائلة. كان شاكو غالبًا ما يقول: إن مطمحه هو الموت من فرط الأكل، وقالت ماماشى: إن ذلك علامة مؤكدة على شقاء مكبوت، وقال شاكو: إن الأمر ليس هكذا، إنه مجرد شراهة.

أصابت الحيرة شاكو لعودة الجميع مبكرين هكذا، غير أنه تظاهر بغير ذلك وواصل الأكل.

كانت الخطة الرئيسة أن ينام إستا مع شاكو، وراهيل مع آمو وبيبى كوشاما. أما وإستا ليس بحالة جيدة، والحب يُعاد توزيع حصصه (أصبحت آمو تحبها أقل قليلاً) فإن راهيل سوف تنام مع شاكو، وإستا مع آمو وبيبى كوشاما.

أخذت آمو منامة راهيل وفرشة أسنانها من الحقيبة ووضعتها فوق الفراش.

«هنا»: قالت آمو.

تكّتان وتغلق الحقيبة.

تكة وتكة.

«آمو»: قالت راهيل: «هل سأعاقب بعدم العشاء؟»

كانت تحب مبادلة العقوبات، لا عشاء، فى مقابل أن تحبها «آمو» كما كانت تحبها من قبل.

«كما تحبين»: قالت آمو: «لكننى أنصحك أن تأكلى، إن كنت ترغبين فى النمو فالأمر هكذا، ربما تستطيعين المشاركة فى بعض من دجاجة شاكو».

«ربما، وربما لا»: قال شاكو.

«ولكن ماذا عن عقوبتى؟» قالت راهيل: «أنت لم توقعى علىّ أية عقوبة!»

«إن بعض الأشياء تجىء ومعها عقوبتها» : قالت بيبى كوشاما، وكأنها تشرح حسبة لا تستطيع راهيل فهمها.

إن بعض الأشياء تجىء ومعها عقوبتها، مثل حجرات ذات دواليب مشيدة فى داخلها، سوف يتعلم جميعهم أكثر، فى القريب، عن العقوبات، لقد جاءوا مختلفى

الأحجام، البعض منهم كبير للغاية حتى أنه يشبه الدواليب المبنية فى حجرات النوم. يمكنك أن تمضى حياتك كلها فيها، تائهًا شارداً عبر أرففها المعتمة.

تركت قبلة مساء الخير التى قبلتها بيبى كوشاما لراهيل بصقة صغيرة على خدها، مسحتها بكتفها.

«مساء الخير، الرب يبارككم» : قالت آمو، لكنها قالتها وهى مستديرة بظهرها. كانت قد غادرت بالفعل.

«مساء الخير» : قال إستا، مريضاً للغاية عاجزًا عن تقبيل أخته.

راهيل وحدها هى التى كانت تراقبهم وهم يسيرون عبر ممر الفندق مثل أشباح صامتة لكنها ثابتة، شبحان كبيران، وواحد صغير يرتدى حذاءً بيچىّ اللون مدبب الطرف، أبطلت السجادة الحمراء صوت أقدامهم.

وقفت راهيل فى مدخل حجرة النوم فى الفندق، ممتلئة حزنًا.

كان فى داخلها حزن مجىء صوفى مول، حزن حب آمو لها الأقل قليلاً، والحزن مما قد يكون رجل شراب البرتقال وشراب الليمون قد فعله، بإستا فى الأبهيلاش توكيز.

هبت ريح لاسعة عبر عينيها الجافتين المتألمتين.

وضع شاكو لراهيل رِجل الدجاجة وبعض البطاطس الصوابع على ربع طبق.

«كلا أشكرك» : قالت راهيل، آملة فى أنها لو أوقعت عقوبتها على نفسها بصورة ما، فإن آمو سوف تبطل عقوبتها.

«ماذا لو أخذت بعض الأيس كريم مع الشكولاتة السائلة؟» : قال شاكو.

«كلاً شكرًا»: قالت راهيل.

«حسنًا» : قال شاكو: «لكنك لا تعرفين قدر ما فاتك وافتقدتيه».

أنهى الدجاجة كلها ، ثم الآيس كريم كله .

غيرت راهيل ملابسها وارتدت المنامة.

«أرجوك ألا تخبريني ما الذى تعاقبين من أجله» : قال شاكو: «إننى لا أحتمل الاستماع له»، كان يمسح آخر ما تبقى من الشكولاتة السائلة الموجودة فى إناء الشكولاتة السائلة بقطعة من الباراتا، حلواه المقززة، حلوى ما بعد الحلوى، «ما الذى يخمش موضع لدغات الناموس التى على جسدك حتى سال دمها؟ هل هو عدم قولك "شكرا" » لسائق التاكسى؟»

«شىء أسوأ من ذلك بكثير» : قالت راهيل فى وفاء وولاء لأمو.

«لا تخبرينى» : قال شاكو : «لا أود أن أعرف».

دق الجرس طالبًا خدمة الغرف، وجاء خادم متعب لأخذ الأطباق والعظام، حاول الإمساك بروائح العشاء، غير أنها أفلتت وتسلقت ستائر الفندق البنيّة المترهلة.

ابنة الأخت التى لم تتعشى، والخال الذى امتلأ بالعشاء غسلا أسنانهما معًا فى حمام «فندق ملكة البحر»، هى مذنبة قصيرة مكعبرة مخذولة فى منامة مخططة ونافورة من «الحب في طوكيو»، وهو فى صدريته وسراويله التحتية القطنية، وقد شدت صدريته وامتدت على كرشه المستدير أشبه بجلد آخر ثم تراخت فوق منخفض سرته.

عندما ثبتت راهيل فرشة أسنانها كثيرة الرغوة، وحركت أسنانها بدلاً منها، فإنه لم يقل لها ألا تفعل ذلك.

لم يكن فاشيًا.

تبادلا البصق. فحصت راهيل بعناية رغوتها «البيناكا» البيضاء وهى تسيل على جانب الحوض، حتى ترى ما يمكنها رؤيته.

أى ألوان غريبة لفظتها المسافات بين أسنانها؟!

لا شىء الليلة، لا شىء غير عادى، فقط فقاعات البيناكا.

أطفأ شاكو النور الكبير.

خلعت راهيل فى الفراش «حبها فى طوكيو»، ووضعتها إلى جانب نظارة الشمس، تكونت نافورتها قليلاً، لكنها ظلت منتصبة.

رقد شاكو فى الفراش فى بركة الضوء الصادرة عن المصباح المجاور للفراش. رجل بدين على مسرح مظلم، استطاع بلوغ قميصه الراقد مجعداً عند طرف السرير. أخذ المحفظة من جيبه، نظر إلى صورة صوفى مول التى كانت مرجريت كوشاما قد أرسلتها إليه منذ عامين مضيا.

راقبته راهيل وقد فردت فراشتها الباردة جناحيها مرة أخرى، تتحرك ببطء إلى الخارج، ببطء إلى الداخل، رمشة كسولة لحيوان ضارٍ.

كانت الملاءات خشنة، لكنها نظيفة.

أغلق شاكو محفظته وأطفأ النور، أشعل فى الليل «شارمينار[٦٤]»، وأخذ يتساءل كيف تبدو ابنته الآن، إنها فى التاسعة من عمرها، آخر مرة رآها فيها كانت حمراء مجعدة، بالكاد بشرية، بعد ثلاثة أسابيع صرخت فيه زوجته، وحبه الوحيد، مرجريت، وأخبرته عن جو.

قالت مرجريت لشاكو : إنها لن تستطيع الحياة معه بعد الآن، قالت له : إنها فى حاجة إلى مكانها الخاص بها، حيث كان شاكو يستخدم أرففها ليضع عليها ملابسه، والتى كانت لديه، على الأرجح، منذ عرفته.

طلبت منه الطلاق.

كان شاكو، فى تلك الليالى الأخيرة القليلة المليئة بالعذاب، قبل أن يتركها، ينزلق من السرير وقد حمل مصباحًا كى ينظر إلى طفلته النائمة؛ ليلم بها، يطبعها فى ذاكرته ؛ ليؤكد أنه عندما يفكر فيها، فإن الطفلة التى سيحضرها لابد أن تكون هى بذاتها، إنه يتذكر الزغب البنى على جمجمتها اللينة، شكل فمها المتغضن دائم الحركة. المسافات فيما بين أصابع قدميها، واحتمال وجود شامة، ثم وجد نفسه، دون مقصد،

يبحث فى طفلته عن علامات خاصة «بجو»، تشبثت الطفلة بأصبعه السبابة، بينما كان يواصل دراسته المجنونة، المدمرة، الحسودة، التى تجرى فى ضوء مصباح كهربى. برزت سرتها من معدتها الناعمة الملساء المتخمة مثل نصب تذكارى، أشبه بقبة فوق تل. وضع شاكو أذنه عليها واستمع فى دهشة وعجب للدمدمة القادمة من الداخل، كانت هنالك رسائل ترسل من هنا إلى هناك، أعضاء جديدة تعتاد التعامل بعضها مع البعض، حكومة جديدة تضع نظامها، تنظم تقسيم العمل، تقرر من الذى يقوم بهذا أو ذاك.

كانت تفوح منها رائحة اللبن والبول، أصابت الدهشة شاكو من الكيفية التى يمكن بها لإنسان صغير وغير محدد ، إلى هذا الحد، مبهم غامض فيمن يشبه، أن يشد الانتباه الكلى لرجل ناضج، يشد حبه وعقله.

عندما غادر، أحس أن شيئًا قد انتزع منه، شيئًا كبيرًا.

غير أن جو قد مات الآن. قُتل فى حادثة سيارة تحطمت. ميت مثل مقبض باب. ثقب فى الكون شكله شكل جو.

كانت صوفى مول، فى الصورة التى لدى شاكو، فى السابعة من عمرها. بيضاء زرقاء. شفاة وردية، وليست سريانية مسيحية فى أى مكان، رغم أن ماماشى، التى كانت تنعم النظر، أصرت على أن لها أنف باباشى.

«شاكو؟» قالت راهيل من سريرها الغارق فى الظلمة: «هل فى وسعى أن أسألك سؤالا؟»

«اسألينى سؤالين»: قال شاكو.

«شاكو، هل تحب صوفى أكثر من أى شىء آخر تحبه فى العالم؟»

«إنها ابنتى» : قال شاكو

«شاكو؟ هل من الضرورى أن يحب الناس أطفالهم أكثر من أى شىء يحبونه فى العالم؟»

«ليس هنالك قواعد لذلك»: قال شاكو: «لكن الناس غالبًا ما يفعلون ذلك».

«شاكو مثلا» : قالت راهيل: «فقط مثلا، هل من الممكن أن تحب آمو صوفى مول أكثر منى ومن إستا؟ وهل من المحتمل بالنسبة إليك مثلا، أن تحبنى أكثر مما تحب صوفى مول؟»

«كل شىء محتمل فى الطبيعة البشرية» : قال شاكو فى صوته المرتفع كمن يقرأ. كان يتحدث الآن إلى الظلام، فجأة قال دون إحساس بابنة أخته الصغيرة بشعرها الذى يشبه النافورة : «الحب، الجنون، الأمل، مرح بلا حدود».

فكرت راهيل أن من بين الأشياء الأربعة المحتملة فى الطبيعة البشرية، كان «للمرح بلا حدود» صداه الأكثر حزنًا، ربما بسبب الطريقة التى تحدث بها شاكو.

مرح بلا حدود، به صوت كنسى، مثل سمكة حزينة تغطيها الزعانف.

فراشة باردة رفعت رِجلاً باردة.

دخان السيجارة كان يرتفع بطريقة لولبية فى الليل، رقد الرجل البدين والفتاة الصغيرة يقظين فى صمت.

وعلى بعد حجرات قليلة استيقظ إستا، بينما عمة والدته الصغرى تشخر.

كانت آمو نائمة وقد بدت جميلة فى ضوء الشارع الأزرق الذى كان على شكل قضبان، والآتى إلى الداخل عبر النافذة الزرقاء ذات القضبان، ابتسمت ابتسامة نائمة تحلم بالدلافين والأزرق العميق الذى على شكل قضبان، كانت ابتسامة لا تقدم أى مؤشر أو دلالة على أن الشخص الذى تنتمى إليه كان قنبلة فى انتظار الانفجار.

إستا فقط هو الذى سار مترنحًا إلى الحمام، تقيأ سائلاً، صافيًا، مرًا، ليمونيًا، لامعًا، فوارًا، المذاق اللاذع المتخلف عن المواجهة الأولى لرجل صغير مع الخوف. دوم دوم.

أحس أنه أفضل قليلاً، ارتدى حذاءه وسار خارجًا من حجرته، يجرجر رباط الحذاء، ثم إلى الممر ليقف فى هدوء خارج غرفة راهيل.

وقفت راهيل على مقعد وفتحت له سقاطة الباب.

لم يندهش شاكو من الكيفية التى يحتمل أنها قد عرفت بها وقوف إستا عند الباب، كان قد اعتاد غرائبهما ما بين الحين والحين.

رقد مثل حوت سُحب إلى الشاطئ فوق سرير الفندق الضيق وتساءل فى كسل، إن كان ڤيلوتا حقًا هو من رأته راهيل، لم يعتقد أن ذلك كان محتملاً، كان لدى ڤيلوتا الكثير للغاية الذى فى صالحه، كان باراڤانا له مستقبل ينتظره، كان يتساءل إن كان ڤيلوتا قد غدا عضواً يحمل بطاقة الحزب الماركسى، وإن كان يرى الرفيق ك.ن.م. بيلاى مؤخراً.

كانت طموحات الرفيق بيلاى قد حظيت، فى باكورة العام، بدفعة غير متوقعة، فقد فُصِلَ عضوان محليان من أعضاء الحزب، هما الرفيق «ج. كاتوكاران» والرفيق «جوهان مينون»، على أساس الشك فى أنهما ناكساليان، كان المفترض أن أحدهما، وهو الرفيق جوهان مينون، سوف يكون مرشح الحزب فى كوتايام فى انتخابات الجمعية التشريعية المحدد لها مارس القادم. وقد أدى فصله إلى خلق فراغ حتى أن عدداً من الآملين كانوا يناورون لملئه، وكان من بين هؤلاء الرفيق ك.ن.م. بيلاى.

كان الرفيق بيلاى قد بدأ يرقب ما يجرى من أحداث فى «مخللات الفردوس» باهتمام البديل الاحتياطى فى مباراة كرة القدم، فكر فى أن تشكيل اتحاد عمال جديد، مهما كان صغيراً، سوف يكون محط أمله فى أن يكون هو جمهور ناخبيه المستقبلى. أن يكون بداية رائعة لرحلة إلى الجمعية التشريعية.

حتى ذلك الحين، لم تكن المناداة بأيها الرفيق، أيها الرفيق (كما قالتها آمو) داخل «مخللات الفردوس»، أكثر من لعبة غير ضارة تُلعب خارج ساعات العمل، ولكن إن انتعشت المخاطر وانتزعت عصا المايسترو من يد شاكو، فإن كل شخص (باستثناء شاكو) يعرف أن المصنع الغارق فعلاً فى الديون سوف يواجه المتاعب.

ولما كانت الأمور ليست على مايرام مالياً، فإن العمال كانوا ينالون أجراً أقل من المعدلات الدنيا التى حددتها نقابة العمال، كان شاكو بالطبع هو الذى لفت أنظارهم

إلى هذا، ووعدهم بأنه ما إن تتحسن الأحوال حتى يُعاد النظر فى أجورهم، كان يؤمن بأنهم يثقون به، وكان يعرف أنه يحتفظ، فى القلب بأفضل مصالحهم.

غير أنه كان هنالك شخص ما يفكر بطريقة مخالفة، كان الرفيق ك.ن.م. بيلاى يقطع الطريق على عمال «مخللات الفردوس»، فى الأمسيات بعد انتهاء وردية المصنع، يسوسهم ويقودهم كالراعى إلى مطبعته، كان يحثهم على الثورة بصوته النحيل الحاد. كان يقدم فى أحاديثه مزيجًا ذكيًا من الموضوعات المحلية وثيقة الصلة بهم، والبلاغة المادية الفخمة والتى تعطى صدىً أكثر فخامة فى اللغة المالايالامية.

«يا شعوب العالم»، كان يزقزق، «كونوا شجعانًا، تمتعوا بجسارة القتال، تَحدُّوا المصاعب والمتاعب وتقدموا موجة وراء موجة، وحينئذ سوف يصير العالم كله إلى الشعب، سوف تدمر الوحوش من كل نوع، يجب أن تطالبوا بما هو حقكم حقًا: علاوة سنوية، صندوق ادخارى، تأمين ضد الحوادث». كانت تلك الأحاديث جزئيًا أحاديث تدريبية ، إذ أنه عندما يخاطب الرفيق بيلاى الملايين المحتشدة ، كان هنالك شيء غريب فى طبقة الصوت والإيقاع، كان صوته مليئًا بحقول الأرز الخضراء والرايات الحمراء التى تشكل أقواسًا عبر السماوات، بدلاً من حجرة صغيرة حارة ورائحة حبر صاحب المطبعة.

إن الرفيق ك.ن.م.بيلاى لم يظهر قط علنًا ضد شاكو، عندما كان يشير إليه فى أحاديثه كان حريصًا على تجريده من أية من صفاته البشرية، كان يقدمه مجرد موظف فى نظام ما أكثر كبرًا . فى بناء نظرى، بيدق شطرنج فى المؤامرة البورجوازية شديدة البشاعة من أجل هدم الثورة، إنه لم يشر إليه باسمه ألبتة، ولكن دومًا باعتباره «الإدارة»، وكأن شاكو كان عددًا من الناس، فضلاً عن أن ذلك كان الشيء الصحيح من الناحية التكتيكية، فإن هذا الفصل بين الرجل ووظيفته ساعد الرفيق بيلاى فى الحفاظ على ضميره صافيًا فيما يتعلق بصفقات أعماله الخاصة مع شاكو، إن عقده لطباعة بطاقات «مخللات الفردوس» كان يمده بدخل هو فى حاجة ملحة إليه، لقد قال

لنفسه إن شاكو - الزبون ، وشاكو - الإدارة كانا شخصين مختلفين، ومنفصلين بالطبع عن شاكو - الرفيق.

كان ڤيلوتا هو العقبة الوحيدة فى خطة الرفيق ك.ن.م. بيلاى، كان هو الوحيد من كل عمال «مخللات الفردوس»، الذى لديه بطاقة عضوية الحزب، وقد وفر ذلك للرفيق بيلاى حليفًا، كان الأحرى به أن يعمل بدونه. كان يعرف أن كل العمال الآخرين غير المنبوذين في المصنع قد امتعضوا من ڤيلوتا لأسباب قديمة تخصهم، وقد لف الرفيق بيلاى بعناية حول هذه التجعيدة منتظراً فرصة مناسبة للتغلب عليها وحلها.

ظل على اتصال دائم بالعمال، جعل مهمته المعرفة الدقيقة لما يجرى فى المصنع يسخر منهم لقبولهم الأجور التى قبلوها، فى الوقت الذى كانت فيه حكومتهم، حكومة الشعب فى السلطة.

عندما جاء «بوناشين»، المحاسب، الذى يقرأ الجرائد لماماشى كل صباح، بأخبار أن هنالك كلامًا بين العمال للمطالبة برفع الأجور، ثارت ماماشى وهاجت: «قل لهم اقرؤوا الجرائد، هنالك مجاعة، ليس هنالك وظائف، الناس يموتون جوعًا، عليهم أن يكونوا ممتنين إذ لديهم عملاً بأية صورة من الصور».

عندما تقع أية واقعة خطيرة فى المصنع، كانت تذهب أخبارها إلى ماماشى وليس إلى شاكو، ربما كان هذا لأن ماماشى كانت لائقة -بحق- لهذا النسق التقليدى للأشياء. كانت «المودالالى»، لعبت دورها. إن ردود فعلها، مهما كانت عنيفة وقاسية، غير أنها كانت مستقيمة يمكن التنبؤ بها، أمّا شاكو، من ناحية أخرى، فرغم أنه كان «رجل البيت»، ورغم أنه كان يقول : «مخللاتى، مرباتى، مساحيق الكرى[٦٥] التى جئتها، كان مشغولاً للغاية يجرب حُلاً مختلفة حتى أنه جعل خطوط المعركة مبهمة.

حاولت ماماشى تحذيره، كان يصغى إليها دون مقاطعة، لكنه فى الحقيقة لم يكن يسمع ما كانت تقول، لذا ، فإن شاكو رغم دمدمات السخط المبكرة حول مبنى «مخللات الفردوس»، واصل لعب دور الرفيق ! الرفيق !، وهو يتدرب على الثورة.

فكر فى تلك الليلة وهو نائم، راقد على سريره الضيق فى الفندق، فى أن يبادر ويستحوذ على الرفيق بيلاى بتنظيم عمال مصنعه فى نوع من أنواع نقابات العمال الخاصة، يعقد لهم انتخابات - يصوتون، يتناوبون انتخاب أنفسهم ممثلين للمصنع. ابتسم لفكرة إجراء مفاوضات مائدة مستديرة مع الرفيق «سوماتى» أو الأفضل مع الرفيقة «لوسى كوتى»، بشعرها الأكثر ظرفًا.

وعادت أفكاره إلى مرجريت كوشاما وصوفى مول. شُدَّت أحزمة من الحب قاسية حول صدره حتى أنه بالكاد كان يتنفس، رقد مستيقظًا يعد الساعات المتبقية على ذهابهم إلى المطار.

وعلى السرير الآخر كانت ابنة أخته وابن أخته ينامان وذراعا كل منهما ملتفين حول الآخر، توأم أحدهما ساخن والآخرى باردة، «هو» و«هى»، «نحن» و«نا» (٦٦)، لم يكونا - على نحو ما - واعين كلية بلمحة القضاء والقدر، وكل ذلك الذى كان ينتظرهما فيما يحيط بهما.

حلما بنهرهما.

بأشجار جوز الهند التى تنحنى فيه، تراقب بعيون من جوز الهند، القوارب التى تنساب عبره، أعلى المجرى فى أوقات الصباح وأسفل المجرى فى الأمسيات، وصوت قصبات بامبو المراكبية الكئيب الكليل وهم يخبطون خشب القارب القاتم المدهون بالشحم.

كانت المياه دافئة، خضراء مائلة إلى اللون الرمادى، مثل حرير متموج.

بها أسماك.

بها السماء والأشجار.

بها القمر الأصفر المنكسر فى الليل.

وعندما يتعبون من الانتظار، تتسلق روائح العشاء الستائر وتتجرف عبر نوافذ «ملكة البحر»، تزيح الليل بعيداً فوق بحر يفوح برائحة العشاء.

كان الوقت الثانية إلا عشر دقائق.

الفصل الخامس

بلاد الله الخاصة

عندما عادت راهيل إلى النهر، فيما بعد سنوات، حياها بابتسامة جمجمة شاحبة شحوب الموت، بثقوب في موضع الأسنان ويد عرجاء مصابة مرفوعة من سرير المستشفى.

لقد حدث كل من الأمرين.

انكمش هو وانزوى. ونمت هي وكبرت.

شُيد أسفل النهر خزان للمياه المالحة للحصول على أصوات لوبي مزارعي - الأرز ذوي النفوذ والتأثير، نظم الخزان جريان الماء المالح إلى الداخل من جدول منشق يفتح في البحر العربي، وبذا أصبح لديهم الآن محصولان في السنة بدلاً من محصول واحد. المزيد من الأرز، مقابل ثمن النهر.

ورغم حقيقة أن الوقت كان يونيو، وكانت هنالك أمطار، غير أن النهر لم يكن الآن أكثر من مصرف منتفخ، شريط رفيع من ماء غليظ يلعق في فتور وسأم شاطئي الطين على جانبيه، يبرق من حين لآخر بأسماك ميتة فضية ترقد مائلة، كان النهر يغص بالأعشاب الضارة الريانة، والتي كانت جذورها البنية الأشبه بالفروة تتموج مثل قرون استشعار رفيعة تحت الماء، تسير عبرها الزنابق العداءة بأجنحتها البرونزية، بأقدام مفلطحة حذرة.

كان يمتلك، ذات يوم، قوة استدعاء الخوف. قوة تغيير الحياة، غير أن أسنانه الآن خُلعت، وروحه تبددت، إنه مجرد شريط أخضر موحل معشوشب، بطيء، تعبره القمامة كريهة الرائحة إلى البحر، حقائب بلاستيكية لامعة تنطلق عبر سطحه اللزج، المليء بالأعشاب الضارة، مثل زهور شبه استوائية طائرة.

الدرج الحجرى الذى كان يقود المستحمين ذات يوم إلى أسفل، إلى المياه مباشرة، ويقود الصيادين إلى الأسماك، غدا مكشوفًا تمامًا، يقود من لا مكان إلى لا مكان، مثل بناء أثرى كابولى (٦٧) لا يحيى ذكرى أى شىء، والسراخس تندفع عبر الشقوق.

على الجانب الآخر من النهر، تتحول فجأة الجسور الطينية شديدة الانحدار إلى حوائط طينية منخفضة لمجموعة أكواخ مسكونة. الأطفال يعلقون مؤخراتهم فوق الحافة ويتبرزون مباشرة فى الطين الكتوم الماص لطبقة النهر المكشوفة.الأصغر سنًا تركوا خطوط المستردة التى تسيل منهم قطرة قطرة لتجد طريقها إلى أسفل، وأخيراً يوقظ النهر، فى المساء، نفسه ليتقبل تقدمات اليوم وينساب موحلاً إلى البحر، تاركاً خطوطًا متعرجة من الرغوة البيضاء الكثيفة كجرة السفينة، وتقوم الأمهات النظيفات بغسل الملابس والأوانى، من أعلى المجرى، فى فوائض المصنع الخالصة. الناس يستحمون، أبدان كالحة تغسل نفسها بالصابون، مرصوصة مثل تماثيل نصفية قائمة على شريط رفيع من أرض معشوشبة متمايلة.

ترتفع فى الأيام الدافئة، رائحة الفضلات من النهر وتحلق فوق أيمينم مثل قبعة.

وبعيداً إلى الداخل، فى الجانب الآخر أيضًا، اشترت سلسلة فنادق خمسة نجوم، «قلب الظلام».

لم يعد فى الإمكان الوصول إلى «منزل التاريخ» (حيث همست ذات يوم خريطة حياة الأسلاف بأظفار أصابع أقدامهم الصلبة) من ناحية النهر، لقد أعطى ظهره لأيمينم، إن نزلاء الفندق يعبرون خلال المياه الخلفية، مباشرة من كوشين، إنهم يصلون بالزوارق الآلية السريعة، التى تشق طريقها على شكل حرف V من الرغوة فوق المياه، تاركة وراءها غشاءًا رقيقًا من الجازولين يشبه قوس قزح.

كان المنظر فى الفندق جميلاً، غير أن المياه، هنا أيضًا، كانت سامة وكثيفة، كانت هنالك لوحات موضوعة مكتوب عليها «ممنوع الاستحمام» فى خط فنى أنيق، كانوا قد

شيدوا حائطًا طويلاً حتى يخفون المساكن المكتظة القذرة ومنعها من الاعتداء على عزبة «كارى سايپو»، غير أنه لم يكن فى وسعهم فعل الكثير فيما يتعلق بالرائحة.

كان لديهم بركة سباحة للسباحة، و«تاندورى بومفرت» طازجة ، و«كريب سوزيت» فى قائمة الطعام.

كانت الأشجار ماتزال خضراء، والسماء ماتزال زرقاء، مما كان يُعدّ شيئًا ما، ومن ثم فإنهم مضوا قدمًا وعطوا فردوسهم نتن الرائحة – وأطلقوا عليه فى كراساتهم «بلاد الله الخاصة» – لأنهم أصحاب الفنادق الأذكياء هؤلاء، قد عرفوا أن الرائحة مثلها مثل فقر الناس، كانت مجرد أمر يجرى اعتياده، مسألة نظام وتعّود، مسألة تدقيق وتكييف للهواء. ولا أكثر من ذلك.

كان منزل «كارى سايبو» قد تم تجديده وطلاؤه، غدا مركز شبكة أُعدت بالتفصيل. تقطعها قنوات صناعية وقناطر رابطة، قوارب صغيرة تتمايل تتموج فى الماء، البينجالو (٦٨) الكولونيالى بشرفته العميقة وأعمدته الدوريكية (٦٩) ، كان محاطًا بمنازل خشَبية أصغر، أقدم – منازل الأسلاف – اشترتها سلسلة الفنادق من العائلات القديمة وأعادت غرسها فى «قلب الظلام». تواريخ لعب للسياح الأثرياء كى يلهوا فيها، كانت المنازل القديمة مرصوصة حول «بيت التاريخ» فى وضع امتثال وتوقير، مثل حزم الأرز فى حلم يوسف، مثل صحافة مواطنين متلهفين يتقدمون بالتماس إلى حاكم إنجليزى، وأطلقوا على الفندق اسم «هريتاج» (٧٠) .

كان أصحاب الفندق يحبون إخبار ضيوفهم أن المنزل الأقدم فى المنازل الخشبية بهوائها القليل وغرف خزينها ذات الأطر السفلية، والتى يمكنها تخزين ما يكفى من الأرز لتغذية جيش مدة عام، كان منزل أسلاف الرفيق أ. م. س. نامبوديريباد، «ماوتسى تونج» كيرالا، هكذا كانوا يشرحون لغير المطلعين، كان الأثاث والتحف الرخيصة التى جاءت مع المنزل ظاهرة معروضة، مظلة من البوص، أريكة من أغصان مجدولة، صندوق بائنة خشبى، كانت عليها بطاقات تعليمية تقول : «مظلة كيرالا التقليدية» ، و«صندوق بائنة زواج تقليدى».

ومن ثم، كان هناك التاريخ والأدب تضمهما معًا قائمة التجارة، «كورتز» و«كارل ماركس» معًا وقد لحقا بالنخيل تحية للضيوف الأثرياء عندما يخطون خارج القارب.

استخدم منزل الرفيق نامبوديريباد كقاعة أكل للفندق، حيث يرتشف سياح يكاد جلدهم يكون مصبوغًا باللون البنى بسبب تعرضهم لأشعة الشمس، ويرتدون ثياب الاستحمام، يرتشفون ماء جوز هند رقيق (يقدم فى قشرته) ، والشيوعيون القدامى، الذين يعملون الآن كحاملين فى ملابس اثنية ملونة، متعبين مرهقين يطأطئون قليلاً وراء صوانى مشروباتهم.

كانت تُقدم للسياح فى الأمسيات (تحقيقًا لتلك النكهة الإقليمية المحلية) عروض مقتضبة «للكاثا كالى» («فترات قصيرة شدا للانتباه»، كما أوضح «أصحاب الفندق» للراقصين). وهكذا انخسفت وبترت قصص قديمة للغاية، ست ساعات من الكلاسيكيات خُفضت إلى عشرين دقيقة من الإسكتشات القصيرة، جرى أداء العروض قرب بركة السباحة، كان ضيوف الفندق يلهون، بينما الطبالون يطبلون والراقصون يرقصون، يلهون مع أطفالهم فى الماء، كان الأزواج يتطارحون الغرام ويدهن الواحد منهم الأخرى بزيت يحمى الجلد من صبغة التعرض للشمس، بينما «كونتى» تكشف عن سرها «لكارنا» على ضفة النهر، وبينما الآباء يلعبون ألعابًا جنسية نقية طاهرة مع بناتهم العشراويات [٧١] الصالحات للزواج، كانت «بوتانا» ترضع «كريشنا الصغير» من صدرها المسموم، ونزع «بهيما» أحشاء «دوشا سانا» وغسل شعر «دراوبادى» فى دمه.

أحيطت الشرفة الخلفية «لمنزل التاريخ» بسور (حيث تلاقت جماعة من رجال الشرطة غير المنبوذين وحيث تشققت أوزة ضخمة منفوخة وتفجرت) وتحولت إلى مطبخ للفندق فى الهواء الطلق، لاشىء يعد هناك الآن أسوأ من الكباب وحلوى الكرملا. غدا الرعب ماضيًا، تغلبت عليه رائحة الطعام، ألزمته الصمت دمدمة الطباخين، والتقطيع المرح للجنزبيل والثوم إلى شرائح، شرائح شرائح. وانتزاع أحشاء الثدييات صغيرة الحجم كالخنازير والماعز، وتقطيع اللحم إلى مكعبات صغيرة، وتقشير الأسماك.

هنالك شىء ما يرقد مدفونًا فى الأرض، تحت العشب، تحت ثلاثة وعشرين عامًا من أمطار يونيو.

شىء صغير منسىّ.

شىء لا يفقد العالم بفقده شيئًا.

ساعة معصم طفلة بلاستيكية منقوش عليها الوقت.

كانت الساعة الثانية إلا عشر دقائق.

لاحقت عصبة من الأطفال راهيل، وهى تسير.

قالوا: «هالو، أيتها الهيبية، ما اسمك؟» لقد جاءوا متأخرين كثيرًا، خمسة وعشرين عامًا.

ثم ألقى أحدهم حجرًا صغيرًا عليها، وهربت طفولتها، تدق ذراعيها النحيلتين.

خرجت راهيل فى طريق عودتها، بينما كانت تدور حول منزل أيمينم، خرجت إلى الطريق الرئيسى، هنا، أيضًا، منازل نمت، وكانت الحقيقة أن المنازل عشعشت فقط تحت الأشجار، وأن الدروب التى تتفرع من الطريق الرئيس وتقود إليها لا تصلح لاستخدام السيارات مما أعطى أيمينم مشابهتها للهدوء الريفى، لقد تضخم سكانها، فى الحقيقة، إلى حجم مدينة صغيرة، وخلف الواجهة الخضراء الهشة عاش بعض من الناس يمكن جمعه فى لحظة، ليضرب -حتى الموت- سائق سيارة ركاب مهمل، ليحطم الزجاج الأمامى لسيارة تجاسرت وخاطرت بالخروج أثناء امتناع المعارضة عن العمل كشكل من أشكال الإضراب، ليسرق أنسولين بيبى كوشاما المستورد وأقراص القشدة التى جاءت من بست باكرى من كوتايام.

كان الرفيق ك. ن. م. بيلاى يقف خارج «مطبعة لكِى» عند الحائط الذى يحدد حدوده، يتحدث إلى رجل على الجانب الآخر، كانت ذراعا الرفيق بيلاى متقاطعتين على صدره، وقد قبض بشدة على إبطيه، كأنما طلب أحد اقتراضهما، ورفض هو لتوه ذلك

الطلب، وقد جمع الرجل عبر الحائط، فى جو من الاهتمام المصطنع، حزمة من الصور الفوتوغرافية فى كيس من البلاستيك، كانت الصور، فى غالبيتها، صور لينين، ابن الرفيق ك. ن. م. بيلاى، الذى يعيش ويعمل فى دلهى لحساب السفارتين الهولندية والألمانية، وحتى يُهدئ أية مخاوف لدى زبائنه فيما يتعلق بميوله السياسية، غير اسمه تغييرًا طفيفًا، أطلق على نفسه الآن اسم ليڤين. ب . ليڤين.

حاولت راهيل المرور دون أن يلحظها أحد، كان من غير المعقول تصورها إمكان فعل ذلك.

«أييــو[٧٢]، راهيل مول !» : قال الرفيق ك. ن. م. بيلاى، وقد عرفها على الفور. «أوركونيلى[٧٣] ؟ العم الرفيق؟»

«أوور»[٧٤] : قالت راهيل.

هل تذكرته ؟ لقد تذكرته حقًا.

لم تكن الأسئلة أو الأجوبة تعنى شيئًا أكثر من مقدمة مهذبة للحديث، كان كلاهما هو وهى يعرفان أن هنالك أشياء أخرى يمكن نسيانها، وأشياء لا يمكن نسيانها - أشياء تقبع فوق الأرفف المتربة مثل طيور محنطة بعيون مؤذية تحملق بصورة جانبية.

«أنت إذن، كما أعتقد، فى أمريكا الآن؟» : قال الرفيق بيلاى.

«كلاً»، قالت راهيل : «أنا هنا».

«نعم، نعم،» كان هنالك بعض الضيق فى رنين صوته، «ولكن أنت، خلاف ذلك، كما أفترض، فى أمريكا».

حلّ الرفيق بيلاى ذراعيه من فوق صدره، لاحت حلمة ثدييه تختلسان النظر إلى راهيل من فوق قمة الحائط الحدودى مثل عينى القديس برنارد الحزينتين.

«هل عرفتها؟» : سأل الرفيق بيلاى الرجل الذى معه الصور الفوتوغرافية مشيرًا إلى راهيل بذقنه.

لم يكن الرجل قد عرفها.

«إنها ابنة ابنة كوشاما عجوز «مخللات الفردوس» : قال الرفيق بيلاى.

بدا الرجل حائرًا مرتبكا، كان رجلاً غريبًا بوضوح. وليس من آكلى المخللات. حاول الرفيق بيلاى تجربة مسار آخر.

«بونيان كونجو؟» : سأله الرفيق بيلاى بطريرك «أنتيوك» الذى ظهر لفترة وجيزة فى السماء ملوحًا بيده الذاوية.

بدأت الأمور تقع فى موضعها الصحيح بالنسبة للرجل الذى يحمل الصور الفوتوغرافية، أومأ بحماس.

«ابن بونيان كونجو^ بينان جون إيب؟ والذى اعتاد الإقامة فى دلهى؟» : قال الرفيق بيلاى.

«أوور، أوور، أوور» (٧٥) : قال الرجل.

«هذه هى ابنة ابنته، وهى فى أمريكا الآن».

أومأ الرجل الذى يومئ وقد وقع نسب راهيل، بالنسبة إليه، فى موضعه.

«أوور، أوور، أوور، إنها فى أمريكا الآن، أليس كذلك، لم يكن سؤالاً ، كان مجرد إعجاب.

تذكر بطريقة غائمة رائحة فضيحة، لقد نسى التفاصيل، لكنه تذكر أنها كانت تنطوى على جنس وموت، كانت فى الصحف، ناول الرجل الرفيق بيلاى كيس الصور الفوتوغرافية بعد فترة صمت قصيرة وسلسلة أخرى من الإيماءات.

«أوكيه إذن يا رفيق، سوف أغادر».

كان عليه أن يلحق بسيارة الركاب.

«هكذا !» اتسعت ابتسامة الرفيق بيلاى، وقد حوّل كل انتباهه، مثل نور كشاف، إلى راهيل، كانت لثته وردية بطريقة رائعة، بسبب نباتيته التى لا تهاون فيها، كان رجلاً

من النوع الذى يصعب تصور أنه كان، ذات يوم، صبيًا، أو طفلاً، بدا وكأنه قد وُلد كهلاً ، مع خط شعر منحسر متراجع.

«زوج السيدة»؟ أراد أن يعرف.

«لم يحضر».

« صور فوتوغرافية؟»

«لا توجد».

«الاسم؟»

«لارى لورانس».

«أوو . لورانس»، أومأ الرفيق بيلاى، وكأنه يوافق عليه، وكأنه لو أُعطى حق الاختيار، لانتقاه بذاته.

«أية ذرية؟»

«كلاَّ»، قالت راهيل.

«مازلتما فى مراحل التخطيط، كما أفترض؟ أو أتوقع؟».

«كلاَّ».

«واحد لا بد منه، ولد، بنت، أى واحد»: قال الرفيق بيلاى: «اثنان بالتأكيد هما اختياركما».

«إننا مطلقان»، أملت راهيل أن تصدمه فيصمت.

«مطـ – لقان؟» ارتفع صوته إلى حد أنه تشقق عند علامة الاستفهام، حتى أنه نطق الكلمة وكأنها شكل من أشكال الموت (٧٦) .

«ذاك سوء حظ بالغ»، قال: عندما استعاد نفسه. إنه، لسبب ما، لجأ إلى لغة كتبية غير مميزة، «سوء – حظ بالغ».

بدا للرفيق بيلاى أن هذا الجيل، ربما كان يدفع ثمن فساد آبائه البورجوازيين السابقين.

أحدهم كان مجنونًا، الآخر تطـ – لق، الأرجح أنه كان عقيماً.

ربما كانت هذه هى الثورة الحقيقية – البورجوازية المسيحية قد بدأت تدمير ذاتها.

خفض الرفيق بيلاى صوته وكأن هناك أناسًا يستمعون، رغم أنه لم يكن هنالك أحد حولهما.

«والسيد؟» همس بثقة: «كيف حاله؟»

«بخير»: قالت راهيل: «بخير».

بخير، مسطح وبلون العسل، يغسل ملابسه بصابونة مفتتة.

«إيپو باقـام (٧٧)»، همس الرفيق بيلاى، وقد تدلت حلمتا ثدييه فى فزع مثير للسخرية، «الزميل المسكين».

كانت راهيل تتساءل عما عاد عليه من استجوابه لها بهذا التدقيق الشديد، ثم عدم الاكتراث بإجاباتها، لم يكن، بوضوح، يتوقع أن يحصل منها على الحقيقة، ولكن لماذا لم يهتم على الأقل بالتظاهر بخلاف ذلك؟

«لينين فى دلهى الآن». أخيرًا أعلنها الرفيق بيلاى، عاجزًا عن إخفاء افتخاره وتباهيه، إنه يعمل مع السفارات الأجنبية، انظرى كيف أصبح !.

وناول راهيل الكيس السوليفان، كانت غالبية الصور فوتوغرافية للينين وعائلته، زوجته وطفله ودراجته «الباجاج» الجديدة، كانت هنالك صور للينين يصافح رجلا حسن الهندام للغاية، رجلاً ورديًا للغاية.

«إنه السكرتير الأول الألمانى»: قال الرفيق بيلاى.

بدا لينين وزوجته مرحين فى الصور الفوتوغرافية، وكأن لديهما ثلاجة جديدة فى حجرة الاستقبال، وكأنهما دفعا عربون شقة «دى دى إيه».

تذكرت راهيل الحادثة التى جعلت لينين يسبح فى الضوء باعتباره «شخصًا حقيقيًا» بالنسبة لها ولإستا، عندما توقفا ينظران إليه على أنه مجرد طية أخرى فى سارى أمه، كانت وإستا فى الخامسة من عمرهما، وربما كان لينين فى الثالثة أو الرابعة من عمره، التقوا فى عيادة «دكتور فرغيز فرغين» (طبيب الأطفال الرئيسى فى كوتايام والذى يقوم بتحسس أمهاتهم بحثًا عن الإثارة الجنسية)، كانت راهيل مع آمو وإستا (الذى أصر على المجىء). كان لينين مع أمه، «كاليانى»، كانت شكوى لينين وراهيل واحدة : أشياء غريبة استقرت فى أنفيهما، إنها تبدو الآن مصادفة غريبة، على نحوٍ ما، لكنها لم تكن كذلك حينذاك، كان غريبًا كيف كمنت السياسة وقبعت حتى فيما اختاره الأطفال ليحشوا به أنوفهم، هى حفيدة عالم حشرات جليل، وهو ابن عضو شعبى فى الحزب الماركسى - كان حشوها هى خرزة زجاجية، وكان حشوه هو عُشبًا أخضر، كانت حجرة الانتظار مليئة.

همهمت أصوات تثير القلق من وراء ستارة الطبيب، يقاطعها عواء أطفال شرسين، كانت هنالك خشخشة الزجاج على المعدن، وهمس وبقبقة الماء المغلى، وصبى يلعب بلوحة : «*الطبيب فى الداخل : الطبيب فى الخارج*» ، المعلقة على جدار وهو يزحلق الإطار النحاسى إلى أعلى وإلى أسفل، وطفل محموم مصاب بالفواق فوق صدر أمه. وشقت مروحة السقف البطيئة الهواء الغليظ الخانق إلى حلزون بلا نهاية يدور كالمغزل فى بطء إلى الأرضية مثل قشرة بطاطس مسلوقة لا آخر لها.

لا أحد يقرأ المجلات.

وجاءت، من أسفل الستارة الناقصة التى تغطى المدخل الذى يقود مباشرة إلى الشارع، أصوات الطرقعات التى لا تهدأ لأقدام فى شباشب منفصلة عن أجسادها. عالم ملىء بالضجة خالى البال لهؤلاء الذين لا توجد لديهم أشياء تحشو أنوفهم.

تبادلت آمو وكاليانى الأطفال، دُفع بالأنفين إلى أعلى، وثُبت الرأسين إلى الوراء، وأديرتا فى مواجهة الضوء للتحقق من أن إحدى الوالدتين قد استطاعت رؤية ما لم تره الأخرى، وعندما لم تُجد هذه الطريقة استعاد لينين الذى كان يرتدى قميصًا أصفر بلون التاكسى، وسروالاً قصيرًا أسود يمكن مطه، استعاد حجر أمه النايلون (وعلبة الشيكليتس)، جلس فوق زهور السارى ومسح المشهد أمامه من موضع القوة هذا الذى لا يمكن اقتحامه، وأولج أصبعه السبابة عميقًا فى منخره الخالى وتنفس عبر فمه بصوت عال، كان مفرق شعره الجانبى متقنًا، وشعره ينساب إلى أسفل مصقولاً بزيت «الأيورفديك»، كان عليه أن يمسك بالشيكليتس قبل أن يراه الطبيب وأن يستهلكه فيما بعد. كان كل شىء فى العالم على ما يرام، ربما كان صغيرًا للغاية لإدراك أن «الجو» فى «غرفة الانتظار»، وكذا الصرخات القادمة من وراء الستارة، يجب أن تُضاف منطقيًا إلى «خوف صحى» من الدكتور ف . ف.

انهمك فأر خشن الشعر فوق الكتفين فى القيام بعدة رحلات ما بين حجرة الطبيب، وأسفل الدولاب فى حجرة الانتظار.

ممرضة تظهر وتختفى عبر ستارة باب الطبيب البالية، إنها تحمل أسلحة غريبة : قارورة دقيقة، شريحة زجاجية مستطيلة وقد لطخها الدم، أنبوبة اختبار بها بول يتلألأ، فى إضاءة خلفية، صينية من صلب لا يصدأ عليها إبر مغلية، كان شعر رجليها مضغوطًا مثل أسلاك ملتفة تحت جوربها الطويل الأبيض الشفاف، وقد بلى موضع كعبى حذائها من الداخل، فجعلا قدميها تنزلقان الواحدة منهما تجاه الأخرى، ودبابيس شعر سوداء لامعة، مثل حيات مستقيمة، تشد غطاء رأس الممرضة الجاف المنشأ إلى رأسها المدهون بالزيت.

يبدو أن لديها على نظارتها مصفاة تحول بينها وبين رؤية الفئران، بدت أنها لا تلاحظ الفأر، بكتفيه المليئتين بالشعر الخشن، حتى عندما يمرق بجانب قدميها مباشرة، كانت تنادى على الأسماء بصوت عميق، يشبه صوت الرجل. أ. نينان ... س. سوسو مالاثا ... ب. ف. روشينى... ن. أمبادى، تجاهلت الهواء الحلزونى المزعج.

كانت عينا إستا طبقين خائفين، كانت لوحة «الطبيب فى الداخل، الطبيب فى الخارج»، قد نومته تنويماً مغناطيسياً.

وارتفع مدّ من الفزع داخل راهيل.

«آمو، دعينا نحاول مرة أخرى».

أمسكت آمو بخلفية رأس راهيل بيد واحدة، وسدت بإبهامها، داخل منديلها، منخارها الذى لا توجد به الخرزة. كل العيون في حجرة الانتظار اتجهت إلى راهيل. كان ذلك هو أهم استعراض لها فى : حياتها، ارتسم على وجه إستا تعبير المتأهب المخط، تجمعت الأخاديد على جبهته وأخذ نفسًا عميقًا، استدعت راهيل كل قوتها. أرجوك يا ربى، أرجوك أن تخرجها، من أخمص قدميها، من قاع قلبها، نفخت فى منديل أمها.

برزت وبزغت، فى دفعة من المخاط والفرج، خرزة صغيرة بنفسجية زاهية فى طبقة مخاطية لزجة متألقة، متباهية مثل لؤلؤة فى محارة، تجمع الأطفال حولهم معجبين بها، الصبى الذى كان يلعب باللوحة بدا مستخفًا بما جرى، أعلن قائلاً، «يمكننى فى بساطة أن أفعل مثل ذاك».

قالت أمه: «حاول وسترى أية صفعة ستَنَال».

«ميس راهيل !» صرخت الممرضة وهى تنظر حولها.

«لقد انتهى الأمر !» : قالت آمو للممرضة: «لقد خرجت»، ومدت أمامها منديلها المتجعد، لم تفهم الممرضة ما الذى تقصده.

«كل شيء أصبح على ما يرام. سنغادر» : قالت آمو: «لقد خرجت الخرزة».

«التالى» : قالت الممرضة، وهى تغلق عينيها وراء مصفاة الفأر التى على نظارتها.

(إنها تتناول كل الأنواع : قالت لنفسها)، «س. ف. كوروب !».

وعوى الصبى المستخف، عندما دفعته أمه إلى داخل حجرة الطبيب.

غادرت راهيل وإستا العيادة وهما يحسان بالانتصار، لينين الصغير ظل وراءهما حتى يفحص الدكتور فرغيس فرغيس منخاره بواسطة أدوات من صلب بارد، ويفحص أمه بأدوات أكثر طراوة.

كان ذاك هو لينين حينذاك.

الآن لديه منزل ودراجة باجاج. زوجة وذرية.

ناولت راهيل الرفيق بيلاى كيس الصور الفوتوغرافية محاولة المغادرة.

«دقيقة واحدة» : قال الرفيق بيلاى. كان مثل آلة تبرق ضوءاً داخل سياج يغرى الناس بحلمتى ثدييه ثم يفرض عليهم صور ابنه، قلب حزمة الصور (مرشد مصور لحياة «لينين» فى دقيقة) حتى وصل إلى الصورة الأخيرة «أوركونوندو؟» (٧٨) .

كانت صورة قديمة أبيض وأسود، صورة أخذها شاكو بآلة التصوير «الروليفلكس» التى أهدتها له مرجريت كوشاما فى عيد الميلاد، كان أربعتهم فى الصورة : لينين، إستا، صوفى ، مول ، وهم جالسين فى الشرفة الأمامية لمنزل أيميمم، ومن خلفهم زخارف عيد الميلاد التى أعدتها بيبى كوشاما، وقد علقت فى ليات وحلقات من السقف، ونجمة من ورق مقوى مربوطة فى مصباح، كان لينين وراهيل وإستا مثل حيوانات خائفة أُمسك بها فى الضوء الأمامى لسيارة ما، الركَب مضغوطة معًا، والابتسامات مجمدة على الوجوه، والأذرع مثبتة إلى الجنوب، والصدور استدارت لتواجه الصورة، وكأن الوقوف بشكل جانبى إثم وخطيئة.

كانت صوفى مول فقط هى التى أعدت نفسها، بتعالى «العالم الأول»، للصورة الفوتوغرافية التى سيصورها والدها البيولوچى، أعدت وجهها، وقلبت جفونها من الداخل إلى الخارج بحيث بدت عيناها مثل ورقة شجر لحمية وردية العروق الدموية (والتى بدت رمادية فى الصورة الفوتوغرافية البيضاء والسوداء)، كانت تضع فى فمها مجموعة من الأسنان الصناعية البارزة مقطوعة من قشر ليمون حلو، كان لسانها يندفع عبر مصيدة أسنانها وقد ثبتت على طرفه «كستبان» ماماشى الفضى، (وكانت

قد سطت عليه يوم وصولها، وتعهدت بأن تقضى إجازتها لا تشرب إلا فى الكستبان). كانت تحمل شمعة مشتعلة في كل يد، كانت رجل واحدة فى سروالها بمؤخرته الواسعة المتوهجة، بشرائطه المائلة الملونة مطوية لتكشف عن ركبة بيضاء عظمية مرسوم عليها وجه، كانت قد انتهت من شرح صبور لإسثا وراهيل، فى الدقائق السابقة على أخذ هذه الصورة (مفندة أى دليل على نقيض ما تقول، بالصور والذكريات) حول وجود فرصة مواتية تماماً لأن يكونا أبناء زنا، وماذا تعنى كلمة أبناء زنا فى الحقيقة، وقد اقتضى ذلك وصفًا للجنس، رغم أنه كان وصفًا غير دقيق بصورة ما. «انظروا إن ما يفعلونه هو ...».

كان ذلك قبل أيام فقط من موتها.

صوفى مول.

«الشاربة فى الكستبان».

«تابوت – به عملة معدنية كبيرة».

لقد وصلت على خط طيران «بومباى – كوشين» مكروهة، ترتدى قبعة وسروالاً متوهجًا واسع المؤخرة ، محبوبة منذ البداية.

الفصل السادس

قنغر كوشين

كان سروال راهيل القصير الجديد، من مطار كوشين، منقطًا بطريقة منظمة، وكان ما يزال مجعداً، كانت تدريبات الأداء قد تم التدرب عليها ،كان اليوم هو يوم التمثيلية، ذروة أسبوع، "ما الذى سوف تعتقده صوفى مول؟"

فى الصباح، فى «فندق ملكة البحر»، ساعدت آمو- التى حلمت أثناء الليل بالدرافيل والأزرق العميق - راهيل على ارتداء فستانها الخفيف كالزبد، فستان المطار، وشال من دانتيلا صفراء مع قطع معدنية فضية دقيقة براقة، وانحناءة على كتف، كان الشال واحداً من انحرافات ذوق آمو المحيرة، كان الجلد المزوق مدعوما ببوكرام (٧٩) حتى يتوهج، كانت راهيل قلقة ألا يساير -بحق- نظارتها الشمسية.

أمسكت آمو لها بالسروال القصير المجعد المناسب، رفعت راهيل نفسها، وقد وضعت يديها على كتف أمها، كى تدخل فى السروال الجديد: (الرجل اليسرى، الرجل اليمنى) ، ومنحت آمو قبلة على كل غمازة(الخد الأيمن، الخد الأيسر) ، وأمسك الحزام المرن بليونة ببطنها.

«شكراً آمو»: قالت راهيل.

«شكراً ؟ » : قالت آمو.

«من أجل فستانى وسروالى الجديدين»: قالت راهيل.

ابتسمت آمو، «مبارك عليك حبيبتى»: قالت آمو، ولكن بحزن.

«مبارك عليك حبيبتى».

ورفعت الفراشة التى على قلب راهيل رجلاً وبرية ناعمة، ثم أعادتها، كانت رجلها باردة، «أحيتها أمها أقل قليلاً».

كانت رائحة حجرة «ملكة البحر» رائحة بيض وقهوة مصفاة.

حمل إسثا، وهو فى الطريق إلى السيارة، قارورة نسر محاطة بفراغ تام، وبها ماء مغلى، قوارير النسر المحاطة بفراغ تام هى قوارير عليها نسور فارغة تماما وقد فردت أجنحتها، والكرة الأرضية بين مخالبها، النسور الفارغة، كما يعتقد التوأمان، تراقب العالم طوال النهار، وتطير حول قواريرها طوال الليل، إنها تطير فى صمت مثل البوم، والقمر على أجنحتها.

كان إسثا يرتدى قميصًا أحمر طويل الأكمام له ياقة مدببة، وسروالا أسود كأنابيب الصرف، بدت لفة شعره مجعدة وعجيبة مثل بياض بيضة مضروبة ضربًا جيداً.

قال إسثا - ويجب الاعتراف بأن هنالك بعض الأسس التى يقوم عليها قوله - : إن راهيل بدت غبية فى رداء المطار الذى ترتديه، فلطمته راهيل ورد هو اللطمة لها.

لم يكونا يكلمان بعضهما فى المطار.

كان شاكو، وهو عادة ما يرتدى الموندو، يرتدى حلة مشدودة مضحكة وابتسامة لامعة، سوّت له آمو رباط عنقه الذى كان غريبًا وجانبيًا، كان قد تناول إفطاره ولديه إحساس بالرضا عن ذاته.

قالت آمو: «ما الذى حدث فجأة لرجلنا رجل الجماهير؟»

لكنها قالتها بغمازتيها حيث كان شاكو متفجراً للغاية، سعيداً للغاية.

لم يصفعها شاكو،

ولذا لم ترد الصفعة له.

كان شاكو قد اشترى من بائع الزهور فى الفندق وردتين حمراوين، كان يحملهما بعناية.

مغتبطًا.

معتزاً.

كانت شركة «كيرالا لتنمية السياحة»، والتي تدير متجر المطار، مليئة تمامًا بمهراجات «الهند للطيران» (صغيرة، متوسطة ،كبيرة)، أفيال من خشب الصندل (صغيرة، متوسطة ،كبيرة)، أقنعة من عجينة قوية خفيفة من الورق التالف لراقصات الكاثا كالي (صغيرة، متوسطة ،كبيرة)، ورائحة خشب الصندل ونسيج القطن الماص الخاص بإبط الذراع (صغيرة، متوسطة ،كبيرة) تعلق في الجو، مثيرة للغثيان.

كانت هنالك في قاعة الوصول أربعة حيوانات أسمنتية من «القنغر» بحجمها الطبيعي ذات أكياس أسمنتية مكتوب عليها «استخدمني»، وكانت توجد في أكياسها، أعقاب سجائر، أعواد كبريت مستعملة، أغطية زجاجات، قشر فول سوداني، أكواب ورقية مجعدة ، صراصير، بدلا من أطفال القنغر الصغار الأسمنتية.

بقع بصقات مضغة أوراق التانبول[٨٠] الحمراء تلطخ بطون حيوان القنغر مثل جروح طازجة.

كانت لحيوانات قنغر المطار ابتسامات وأفواه حمراء.

وآذان ذات أطراف وردية.

تبدو كأنك إن ضغطتها يمكن أن تقول: «ماما»، بأصوات جوفاء هجومية.

عندما ظهرت طائرة صوفي مول في سماء بومباي - كوتشي الزرقاء، اندفع الحشد على الحاجز الحديدي ليرى كل شيء بصورة أكثر قربًا.

كانت صالة الوصول مفعمة بالحب والشوق إذ أن رحلة الطيران بومباي ــ كوشين كانت رحلة الطيران التي يجيء عليها كل العائدين الأجانب إلى الوطن.

لقد جاءت أسرهم للقياهم، من كل أنحاء كيرالا، عبر رحلات طويلة بسيارات الركاب، من «راني»، من «كوميلي»، من «فيزهينجام»، من «أوزهافور» البعض

منهم عسكر طوال الليل فى المطار، وقد أحضروا معهم طعامهم، وشرائح التبيوكة و«الشاكا ڤيلايشاتو» (٨١) من أجل الطريق خلال العودة.

كانوا هناك جميعًا - «الأموماس» (٨٢) المصابات بالطرش و«الأبويانس»(٨٣) الشكسين المصابون بالنقرس، الزوجات الناحلات اللاتى أضناهن الشوق،والأخوال مدبرو المكائد والأطفال مع الهارعين، الخطيبات يُعاد تقييمهن، وزوج المدرسة الذى ما زال فى انتظار التأشيرة السعودية على جواز سفره، وشقيقات زوج المدرسة فى انتظار بائناتهن ، وزوجة عامل ثنى الأسلاك الحبلى.

قالت بيبى كوشاما- فى تجهم وهى تنظر بعيداً- : «إنهم فى الغالب من طبقة الكناسين»، بينما وجهت أم، ليست على استعداد للتخلى عن موقعها الجيد قرب الحاجز، العضو الذكرى لطفلها اللاهى إلى زجاجة فارغة بينما هو يبتسم ويلوح للناس حوله.

«س س س س س»، هسهست أمه، باستماله وإقناع فى البداية ثم بحدة، غير أن طفلها اعتقد أنه البابا، كان يبتسم ويلوح، ويبتسم ويلوح - وعضوه الذكرى فى الزجاجة.

قالت بيبى كوشاما لراهيل وإستا: "لا تنسيا أنكما سفراء الهند، سوف تشكلان الانطباع الأول عن بلدكما".

سفيران توأما بيضتين، صاحبا الفخامة السفير أ(الفيس). بلفيس، والسفيرة س(تيك). إنسكت.

بدت راهيل فى ثوبها متيبس النسيج ونافورتها التى فى "حب فى طوكيو"، بدت مثل جنية مطار فظة الذوق، أطُبقت عليها أردافُ رطبة (كما سيحدث لها مرة أخرى أثناء جنازة فى الكنيسة الصفراء) وشوق قاسٍ، كانت فراشة جدها تجثم فوق قلبها. استدارت بعيداً عن الطائر الصلب الصارخ فى السماء الزرقاء حيث توجد ابنة خالها، وكان ما رأته هو:حيوانات القنغر بأفواه حمراء ، وابتسامات من ياقوت تتحرك متماسكة عبر أرضية المطار.

كعب القدم وأصبعه.

كعب القدم وأصبعه.

أقدام مسطحة طويلة.

نفاية مطار في مهد[٨٤] صغارها.

مدت صغارها رقابها مثلما يفعل الناس فى الأفلام الإنجليزية عندما يحلون رابطات أعناقهم بعد خروجهم من المكاتب، ونبشت المتوسطة كيسها بحثًا عن عقب سيجارة طويل كى تدخنه، وجدت واحدة من «كاد هندى»[٨٥] فى حقيبة بلاستيكية قاتمة، فضمتها بأسنانها الأمامية مثل حيوان قارض، رجرجت كبراهن اللوحة القائمة المكتوب عليها: إن «شركة "كيرالا للتنمية السياحية ترحب بكم»، مع راقصة «كاثا كالى» تؤدى «الناماستية»[٨٦]، ولوحة أخرى يثبتها"قنغر" تقول: ا ب ح ر م   م ك ب
ى ف ل ح ا س ل ب ا ت   د ن هـ ل ا[٨٧].

سرعان ما شقت السفيرة راهيل طريقها بين الناس الحاضرين إلى أخيها السفير وشريكها.

«إسثا انظر! انظر إسثا انظر !»

السفير إسثا لا ينظر، إنه لا يريد النظر، إنه يراقب الهبوط غير المستوى وقد علق قارورة النسر وبها ماء صنبور حوله، وشعور لا يدرك غوره - عميق الغور: رجل شراب البرتقال وشراب الليمون، يعرف أين يجده : فى المصنع فى أيمينم، على ضفاف الميناشال.

كانت آمو تراقب وهى تحمل حقيبة يدها.

وشاكو ممسكًا بوردتيه.

وبيبى كوشاما بشامة رقبتها الناتئة.

ثم بدأ أناس بومباى - كوشين الخروج، من الهواء البارد إلى الهواء الساخن - أناس مجعدون يسيرون مغرورين فى طريقهم إلى صالة الوصول.

هنالك كان العائدون الأجانب، يرتدون حللا من نوع تلك التى يجرى غسلها وارتداؤها دون كيها ونظارات قوس قزح شمسية، مع نهاية لفقرهم الطاحن فى حقائبهم الأرستقراطية، وأسقف أسمنتية لمنازلهم المغطاة بالقش والبوص، وأجهزة لتسخين مياه حمامات آبائهم، مع أنظمة لكسح قاذورات البلاليع والصهاريج المتعفنة، وخلاطات وفلاشات آلية لكاميراتهم، مع مفاتيح للعد، ودواليب لإغلاقها، جوعى «للكابا و«للمين ڤيڤيشاتو»[٨٨] التى لم يأكلوها منذ زمن بعيد، إنهم يحسون بحب ولمحة خجل من أن عائلاتهم التى جاءت لمقابلتهم كانت ... عائلات تتسم بالغفلة وقلة الخبرة ... هكذا. «انظرى إلى الطريقة التى يرتدون بها ثيابهم ! لابد من أن لديهم ملابس أكثر مناسبة للمطار ! لماذا للمالاياليين مثل هذه الأسنان الفظيعة؟»

والمطار ذاته ! أكثر شبهًا بموقف سيارات ركاب محلى ! فضلات الطيور على البناء ! أوه .. وبقع البصق على الأرض.

أوهو ! الهند حل بها الخراب والدمار.

عندما تقابل رحلات سيارات الركاب الطويلة، والإقامة طوال الليل فى المطار، بالحب ولمحة خجل، فإن الشروخ الصغيرة تبدأ فى الظهور، ثم تتسع وتتسع، وقبل أن يعرفوا بها، يكون العائدون الأجانب قد وقعوا فى الشرك خارج «منزل التاريخ»، وقد عادوا يجترون أحلامهم.

كانت صوفى مول هنالك، بين لابسى الحلل من ذلك النوع الذى يجرى غسله وارتداؤه دون كيّه، والحقائب اللامعة.

الشابة من الكستبان.

صاحبة العملة الكبيرة - فى التابوت.

سارت عبر مدرج الطائرات، ورائحة لندن فى شعرها، وسروال أصفر متوهج واسع المؤخرة يرفرف إلى الوراء حول كعبيها، شعر طويل يتطاير أسفل قبعتها المصنوعة من القش، يد فى يد أمها، والأخرى تتطوح مثل يد جندى (شمال، شمال، شمال، يمين شمال).

كانت هنالك

فتاة

طويلة و

نحيلة و

ظريفة

وكان شعرها

شعرها

رقيق اللون

مثل الزن - ن ن ن - جبيل[٨٩] (يسار ، يسار، يمين)

كانت هنالك

فتاة

وطلبت منها بيبى كوشاما أن تتوقف ،

وتوقفت

قالت آمو: «راهيل، هل تستطيعين رؤيتها ؟»

واستدارت حولها لتجد ابنتها بسروالها المجعد تتحدث مع الحيوانات الأسمنتية ذات الجراب الذى تضع فيه صغارها: ذهبت وأحضرتها، وهى تزجرها وتعنفها، قال شاكو : إنه لا يستطيع أخذها فوق كتفيه ؛ لأنه بالفعل يحمل شيئًا يحمل وردتين حمراوين.

مغتبطًا.

معتزاً.

عندما دخلت صوفى مول، قرصت راهيل إسثا، وقد سيطر عليها الانفعال والغضب، قرصته قرصة قاسية، كان جلده بين أظفارها، وردها إسثا لها «سواراً صينيا»، لاويًا جلدها فوق المعصم فى اتجاهات مختلفة مستخدمًا راحتيه، مما أثر فى جلدها وآلمها، وعندما لعقته أحست بطعمه مالحًا، كان اللعاب بارداً ومريحًا فوق معصمها.

لم تلاحظ آمو ذلك ألبتة.

عبر الحاجز الحديدى الطويل، الذى يفصل المستقبلين عمن هم فى استقبالهم، والمرحبين عمن يرحبون بهم، كان شاكو - الذى يتهلل ويتفجر داخل حلته ورباط عنقه الجانبى - ينحنى لابنته الجديدة وزوجته السابقة.

قال إسثا لنفسه: «بو»[(٩٠)].

«هالو، أيتها السيدتين»: قال شاكو بصوته المرتفع الذى يقرأ به (صوت الليلة الماضية والذى قال به: الحب، الجنون، الأمل، مرح لا نهائى)، و«كيف كانت رحلتكم؟»

امتلأ الجو بما يُقال من أفكار وأشياء، الأشياء الصغيرة فقط هى التى تقال دومًا فى مثل تلك الأوقات، الأشياء الكبيرة تقبع فى الداخل لا تقال.

«قولى: هالو، كيف حالكم؟»: قالت مرجريت كوشاما لصوفى مول.

«هالو، كيف حالكم؟»: قالت صوفى مول، لكل بشكل خاص، عبر الحاجز الحديدى.

«واحدة لك، وواحدة لكَ»: قال شاكو وهو يقدم وردتيه.

«وأشكرك؟»: قالت مرجريت كوشاما لصوفى مول.

«وأشكرك؟»: قالت صوفى مول لشاكو، مقلدة علامة استفهام أمها.

وهزتها مرجريت كوشاما قليلا لوقاحتها.

«أهلا بكما وسهلا»: قال شاكو، «والآن دعونى أقدمكم لبعضكم»، ثم بصوت أعلى، حتى يستفيد النظارة ومن يسترقون السمع، حيث لم تكن مرجريت كوشاما حقًا فى حاجة إلى تقديم: «زوجتى مرجريت».

ابتسمت مرجريت كوشاما وحركت وردتها فى ذبذبة نحوه، «الزوجة السابقة، شاكو !» شكلت شفتاها الكلمات دون أن ينطقها ألبتة صوتها.

كان فى وسع أى امرئ رؤية شاكو الرجل الفخور السعيد ؛ لأن له زوجة مثل مرجريت بيضاء، فى فستان طُبعت زهور عليه، وهناك ساقان أسفله، نمش - ظَهْر بُنى على ظهرها، ونمش - ذراع على ذراعها.

غير أنه كان يحيط بها، على نحو ما، جو حزين، كان الحزن طازجًا، يلمع أزرق، خلف ابتسامة عينيها، كان ذلك بسبب صدمة فاجعة لسيارة، بسبب ثقب فى الكون أشبه بجُو.

قالت: «هالو، جميعًا، أشعر وكأنى أعرفكم منذ أعوام».

هالو جميعًا.

«ابنتى - صوفى»: قال شاكو، وضحك ضحكة قصيرة، ضحكة عصبية، كان يمكن أن تكون ضحكة قلقة إن قالت مرجريت كوشاما، «ابنة سابقة»، غير أنها لم تقل ذلك. كان من السهل فهم الضحك هنا ليس مثل ضحك رجل شراب البرتقال وشراب الليمون، الذى لم يفهمه إستا.

«لو»(٩١): قالت صوفى مول.

كانت أطول من إستا، وأكبر، كانت عيناها زرقاوان - زرقاوان رماديتان، كان لون جلدها الشاحب فى لون رمال الشاطئ، غير أن شعرها المزود بقبعة كان جميلا بنيًا - أحمر غامقا، وكانت لها، حسنًا (أوه حسنًا !) أنف باباشى قابعة داخل أنفها، أنف عالم حشرات جليل داخل أنف ما، أنف محب الفراشات، كانت تحمل حقيبتها الجو - جو المصنوعة فى إنجلترا والتى تحبها.

«آمو، أختى»: قال شاكو.

وقالت آمو، لمرجريت كوشاما: «هالو» التى تقال للبالغين، وقالت لصوفى مول، «هالو» التى تقال للصغار، وكانت راهيل تراقب بعين كعينى الصقر، محاولة معرفة وتخمين كم تحب آمو صوفى مول، لكنها فشلت.

طافت الضحكات عبر قاعة الوصول مثل نسمة مفاجئة، لقد وصل للتو «إدور باسى» (بومباى - كوشين)، وهو الممثل الكوميدى المحبوب والأكثر شعبية فى السينما المالايالامية، كان مثقلا بعدد من اللفافات الصغيرة التى لا يمكن التحكم فيها، ومثقلاً أيضًا بنفاق وتملق عام لا خجل فيه، فأحس بأنه يتوجب عليه تمثيل دور ما، فأخذ يسقط لفافاته ويقول: «إندى ديڤوماى إ إى سادها نانجال»(٩٢).

ضحك إستا عاليًا ضحكة مبتهجة.

«انظرى آمو ! إن إدور باسى يسقط حاجيّاته !» : قال إستا، «إنه عاجز حتى عن حمل حاجياته !».

«إنه يفعل ذلك عمداً»، قالت بيبى كوشاما فى لهجة بريطانية جديدة وغريبة.

«إنه ممثل سينمائى». قالت موضحة لمرجريت كوشاما وصوفى مول، وكأن إدوار باسى أستاذ فى الفنون يصنع فيلمًا من حين لآخر، «إنه فقط يحاول جذب الانتباه»، قالت بيبى كوشاما، رافضة فى عزم وثبات أن ينجذب انتباهها.

غير أن بيبى كوشاما كانت مخطئة، لم يكن إدور باسى يحاول جذب الانتباه، كان يحاول فقط أن يكون مستحقًا للانتباه الذى جذبه بالفعل.

«عمتى الصغيرة»: قال شاكو.

وأصابت الحيرة صوفى مول، نظرت إلى بيبى كوشاما باهتمام عينين من خرز، نعم كانت تعرف عن صغار البقر وصغار الكلاب، وصغار الدببة (وسوف تُظهر لراهيل، فى القريب، صغير وطواط)، غير أن صغار العمات تلك بلبلتها.

قالت بيبى كوشاما: «هالو مرجريت» و «هالو صوفى مول»، قالت : إن صوفى مول جميلة إلى حد أنها تذكرها بجنى الغابة، بآريل.

«هل تعرفين من كان آريل؟» سألت بيبى كوشاما صوفى مول، «آريل فى العاصفة؟».

قالت صوفى مول : إنها لا تعرفه .

«حين تمتص النحلة أمتص أنا؟» : قالت بيبى كوشاما.

قالت صوفى مول إنها لم تمتص شيئًا.

«أرقد فى تويج زهرة الأقحوان الأصفر».

قالت صوفى : إنها لم ترقد.

«العاصفة لشكسبير»، أصرت بيبى كوشاما.

كان كل ذلك بالطبع لتعلن بصورة أولية، أوراق اعتمادها لمرجريت كوشاما، لتضع نفسها بعيداً عن طبقة الكناسين.

«إنها تحاول التباهى»، همس السفير أ. بلفيس فى أذن السفيرة . إنسكت. وأفلتت ضحكة السفيرة راهيل الباهتة فى فقاعة خضراء تميل إلى الزرقة (لون ذبابة الجاك فروت)[٩٣] ؛ لتتفجر فى هواء المطار الجاف، بيفى ! كان الصوت الذى صدر عنها.

رأتها بيبى كوشاما، وأدركت أن إستا هو الذى بدأ هذه العملية.

«والآن، فيما يتعلق بالشخصيات الهامة للغاية»: قال شاكو (وهو مايزال يستخدم صوت القراءة المرتفع).

«أين أختى، إستابن».

«ألفيس بريسلى»: قالت بيبى كوشاما انتقامًا منه ، «أخشى أن نكون متخلفين عن الأزمان»، نظر الجميع إلى إستا وضحكوا.

ارتفع من نعليّ حذاء السفير إسثا البيج مدبب الطرف شعور بالغضب، توقف حول قلبه.

«كيف حالك، إسثابن؟» : قالت مرجريت كوشاما.

«حسنًا شكراً لك»، كان صوت إسثا كثيبًا.

«إسثا»: قالت آمو في ود ومحبة، «عندما يقول لك أحدهم، كيف حالك؟ فالمفترض أن ترد عليه قائلا ، كيف حالك؟ وليس "حسنًا، شكراً لك"؛ هيا، قل كيف حالك؟»

نظر السفير إسثا إلى آمو.

«هيا»: قالت آمو لإسثا: «كيف حالك؟»

كانت عينا إسثا النائمتان عنيدتين شكستين.

قالت آمو بالمالايالامية، «هل سمعت ما قلت؟»

أحس السفير إسثا بعينين زرقاوين زرقة رمادية مثبتتين عليه، وكذا أنف عالم حشرات.

لم تكن هنالك بداخله «كيف حالك؟» تلك.

«إسثابن !» : قالت آمو، وارتفع شعور غاضب داخلها، توقف حول قلبها، غضب أكثر بكثير من الشعور الضروري، أحست أنها قد أهينت، بصورة ما، بهذا التمرد العلني في منطقة سلطتها وولايتها، كانت تود أداءً سلسًا. جائزة لأطفالها في المنافسة حول السلوك الهندي - البريطاني.

قال شاكو لآمو بالمالايالامية : «أرجوك، فيما بعد، ليس الآن».

وقالت عينا آمو الغاضبتان وهما تنظران إلى إسثا: «حسنًا، فيما بعد».

وغدت «فيما بعد» كلمة بشعة، محملة بالتهديد والوعيد، غبية - كالنتوء.

فيما بعد.

مثل جرس عميق الصدى فى بئر يغطيه الطحلب.

لقد سارت اللعبة فى الطريق الردىء، مثل المخلل فى الرياح الموسمية.

«وابنة أختى»: قال شاكو «أين راهيل؟» ونظر حوله غير أنه لم يجدها، كانت السفيرة راهيل عاجزة عن مواجهة التغيرات القاطعة كالمنشار فى حياتها والتى تراها أمامها فعقدت نفسها مثل قطعة سجق فى ستارة المطار القذرة، عقدت نفسها فى عقدة لا تحل، قطعة سجق فى صندل من باتا.

«فقط تجاهلها»: قالت آمو، «إنها تحاول جذب الانتباه فقط».

كانت آمو مخطئة أيضًا، كانت راهيل تحاول ألا تجذب الانتباه الذى تستحقه.

«هالو راهيل»: قالت مرجريت كوشاما لستارة المطار القذرة.

«كيف حالك؟» أجابت الستارة القذرة مغمغمة.

«ألن تخرجى وتقولى هالو؟» : قالت مرجريت كوشاما فى صوت مُدرسة المدرسة الحنون (مثل صوت ميس ميتن قبل أن ترى الشيطان فى عينيهما).

السفيرة راهيل لن تخرج من الستارة؛ لأنها لا تستطيع ذلك، وهى لم تستطع فعل ذلك، لأنها لا تستطيع ذلك، لأن كل شىء قد سار فى الطريق الخطأ، وقريبًا سوف يكون هنالك «فيما بعد» لها ولإستا.

مليئة بالفراشات ذات الفراء وأبو دقيق كالثلج، وأجراس لها أصداء عميقة، وطحلب.

«فيما بعد» ليست جديدة.

كانت ستارة المطار القذرة سلوى عظيمة وظلامًا ودرعًا.

«فقط تجاهلها»: قالت آمو وهى تبتسم ابتسامة مزمومة.

كان عقل راهيل مليئًا بطواحين ذات عيون زرقاء زرقة رمادية.

إن آمو تحبها الآن أقل، وقد وصل الأمر مع شاكو إلى تفاصيل ذات أهمية عملية مباشرة.

«ها هى ذى أمتعة السفر قد جاءت»: قال شاكو مبتهجًا سعيداً بالانصراف.

«تعالى، صوفى كينز[٩٤]، دعينا نأتى بحقائبك».

صوفى كينز.

كان إسثا يراقب وهم يسيرون على امتداد الحاجز، يدفعون أنفسهم عبر الحشود التى تتحرك إلى جانب، تفزعهم حلة شاكو ورباط عنقة المائل إلى جانب، وسلوكه المتفجر بصورة عامة، وحمل شاكو نفسه، بسبب حجم كرشه، بطريقة جعلته يبدو كأنه يصعد طوال الوقت تلاً، يتغلب بالتفاؤل على منحدرات الحياة الزلقة حادة الميل، سار على هذا الجانب من الحاجز، وسارت مرجريت كوشاما وصوفى مول على ذاك الجانب الآخر.

صوفى كينز.

الرجل الجالس الذى يرتدى كابًا وزينة من شريط مقصب على كتفيه، أفزعته أيضًا حلة شاكو، ورابطة عنقه الجانبية، فسمح له بدخول قسم المطالبة لاستلام العفش.

عندما لم يعد هنالك حاجز فيما بينهم، قبل شاكو مرجريت كوشاما ،وحمل صوفى مول.

«آخر مرة فعلت فيها هذا ابتل قميصى عقابًا لى»: قال شاكو وضحك، وضمها إلى صدره، احتضنها، احتضنها، قبل عينيها الزرقاوين زرقة رمادية، وأنفها أنف عالم الحشرات، وشعرها المائل للحمرة وقد غطته قبعة.

قالت صوفى مول لشاكو: «أ م م م... لو سمحت؟ هل يمكن أن تنزلنى الآن إلى أسفل؟ إننى أ م م م... غير معتادة حقًا على أن يحملنى أحد».

وهكذا أنزلها شاكو.

رأى السفير إسثا بعينين عنيدتين أن حلة شاكو قد غدت فجأة أكثر فضفضة وأقل انفجاراً.

وبينما كان شاكو يتسلم الحقائب، عند الشباك قذر الستارة، تحولت «فيما بعد» إلى «الأبد».

رأى إسثا كيف أن شامة عنق بيبى كوشاما قد لعقت شدقيها وهى تنبض فى توقع لذيذ، در - دهوم در دهوم، تغير لونها كالحرباء من الأخضر إلى الأسود المائل للزرقة إلى لون الخردل الأصفر.

توأمان يشربان الشاى معًا

هذا ما يجب أن يكون.

«حسنًا» : قالت آمو: «هذا يكفى، من كليكما، تعالي من هناك يا راهيل !»

أغلقت راهيل عينيها فى داخل الستارة، وفكرت فى النهر الأخضر، والسمك السابح فى العمق الساكن، وأجنحة الذباب الفارسى (الذى يمكن أن يُرى ما وراءها) الرقيقة كغزل العنكبوت فى الشمس، فكرت فى قصبة الصيد المحظوظة أكثر من غيرها، والتى صنعها ڤيلوتا لها، بامبو أصغر وعوامة تغطس كلما تفحصتها سمكة غبية، فكرت فى ڤيلوتا وتمنت لو كانت معه.

خلصها إسثا، حل عقدتها. كانت حيوانات القنغر الأسمنتية تراقب.

ونظرت آمو إليهما، كان الجو هادئًا باستثناء صوت شامة رقبة بيبى كوشاما وهى تنبض.

«وماذا إذن؟»: قالت آمو.

كان حقًا سؤالاً، «وماذا إذن؟»

ولم يكن لهذا السؤال جواب.

نظر السفير إسثا إلى أسفل، رأى أن حذاءه (من حيث بدأ الشعور بالغضب) كان بيج اللون مدببًا، ونظرت السفيرة راهيل إلى أسفل فرأت أصابع قدميها فى صندلها، صندل باتا، تحاول أن تنفصل، تنتفض لتلحق بقدمى شخص آخر. وهى عاجزة عن وقفها، وسرعان ما ستصبح بلا أصابع فى قدميها، وتصبح ذات ضمادة، مثلها مثل الرجل المجذوم عند المزلقان.

قالت آمو: «إن حدث فى أى وقت، وأنا أعنى فى أى وقت هذه، فى أى وقت، أن خالفتمانى علنًا مرة أخرى، فإننى سوف أعمل على إرسالكما بعيداً، إلى مكان ما، حيث تتعلمان بطريقة حسنة للغاية كيفية السلوك، هل ذلك واضح لكما؟»

عندما تكون آمو غاضبة للغاية فإنها تقول «حسنًا للغاية»، كانت «حسنًا للغاية» تلك عميقة الحسن، بها أموات يضحكون.

«هل ذلك واضح لكما؟» : قالت آمو مرة أخرى.

عينان خائفتان ونافورة كانت تنظر إلى آمو.

عينان نائمتان ولفة شعر مندهشة كانت تنظر إلى آمو.

رأسان أومأتا مرات ثلاث.

نعم، ذلك، واضح.

غير أن بيبى كوشاما كانت مستاءة من حالة الإخفاق المليئة بالاحتمالات الكامنة. رفعت رأسها فى حركة مفاجئة.

قالت: «كما أنه!»

كما أنه!

واستدارت لها آمو، وكانت استدارة رأسها سؤالاً.

«لا جدوى من ذلك»، قالت بيبى كوشاما: «إنهما ماكران - إنهما أخرقان مخادعان، إنهما يزدادان شراسة، وليس فى وسعك التحكم فيهما».

واستدارت آمو إلى إسثا وراهيل وقد غدت عيناها جوهرتان ضبابيتان.

«كل امرئ يقول : إن الأطفال يحتاجون إلى بابا، وأنا أقول كلا ، ليس طفلىّ»، هل تعرفان لماذا ؟

وأومأت رأسان.

«لماذا ؟ أخبرانى»: قالت آمو.

وقال إسثابن وراهيل، ليس معًا ، ولكن يكادان يكونان معًا ، «لأنك أنت أمنا وأبونا ، ولأنك تحبيننا حبًا مضاعفًا».

«أكثر من الضعف»: قالت آمو، «لذا تذكرا ما أقول: مشاعر الناس مسألة ثمينة. وعندما تعصيانى علنًا ، فإن كل امرئ يخرج بانطباع خاطئ»

«أى سفير ونصف كنتما !» : قالت بيبى كوشاما.

وتدلت رأسا السفير أ. بلفيس ، والسفيرة س. إنسكت.

«والشيء الآخر يا راهيل»: قالت آمو: «اعتقادى أنه قد حان الوقت كى تعرفى الفرق بين ما هو نظيف وما هو قذر، خاصة فى هذا البلد».

وأطرقت السفيرة راهيل برأسها.

«رداؤك النظيف - كان نظيفًا»: قالت آمو: «تلك الستارة "قذرة" ، حيوانات القنغر تلك "قذرة"، يداك "قذرتان"».

فزعت راهيل من الطريقة التى قالت بها آمو «نظيف» و«قذر» بمثل هذا الصوت المرتفع وكأنها تتحدث إلى شخص أصم.

«الآن، أود منكما أن تذهبا وتقولا هالو بطريقة صحيحة»: قالت آمو: «هل ستفعلان ذلك أم لا ؟»

وأومأت رأسان مرتين.

سار السفير إسثا والسفيرة راهيل نحو صوفى مول.

سأل إسثا راهيل همسًا: «إلى أين تظنين يُرسل الناس حتى يسلكوا سلوكًا حسنًا للغاية؟».

«إلى الحكومة»: همست راهيل رداً عليه؛ لأنها كانت تعلم.

«كيف حالك؟»: قال إسثا فى صوت مرتفع بما يكفى كى تسمعه آمو.

«تماما مثل «لادو»(٩٥)، قطعتان منها «ببايس»(٩٦) واحد»، همست صوفى مول لإسثا، لقد تعلمت هذا فى المدرسة من زميل لها باكستانى.

نظر إسثا إلى آمو.

قالت نظرة آمو: «لا تبالى بها، طالما قمت أنت بما هو صواب».

زحف الجو الحار، وهم فى طريقهم عبر موقف سيارات المطار، فى ملابسهم فبلل سراويلهم المجعدة بالرطوبة، كان الأطفال يتلكأون متأخرين، يسيرون بطريقة متعرجة بين السيارات وعربات الأجرة الواقفة.

«هل تضربكما أمكما؟»: سألت صوفى مول.

لم يقل إسثا وراهيل شيئًا إذ لم يكونا متيقنين مما يجب أن يقال رداً على هذا.

«أمى تفعل»: قالت صوفى مول مشجعة، «بل إنها تصفع أيضًا».

«أمنا لا تفعل ذلك»، قال إسثا بإخلاص وولاء.

«أنتما محظوظان»: قالت صوفى مول.

صبى ثرى محظوظ معه مصروف جيب، ومصنع مملوك للجدة سوف يرثه. ولا هموم.

ومروا أمام الإضراب الرمزى عن الطعام ليوم واحد لاتحاد عمال الدرجة الثالثة بالمطار، وأيضًا عبر الناس الذين يراقبون الإضراب الرمزى عن الطعام ليوم واحد لاتحاد عمال الدرجة الثالثة بالمطار.

وعبر الناس الذين يراقبون من يراقبون الناس.

لوحة صغيرة من صفيح على شجرة تين هندى كبيرة ،كتب عليها: من أجل شكاوى الأمراض التناسلية، اتصل بالدكتور أو. كى. جو.

سألت راهيل صوفى مول: «من فى العالم تحبينه أكثر من غيره؟»

قالت صوفى مول بلا تردد: «جو . أبى. لقد مات منذ شهرين مضيا، لقد جئنا إلى هنا للتخلص من صدمة وفاته».

قال إستا: «لكن شاكو هو والدك».

«إنه فقط والدى الحقيقى»: قالت صوفى مول: «لكن جو هو أبى، إنه لا يضرب أبداً. لا يكاد يفعل ذلك».

«كيف يمكنه أن يضرب، إن كان ميتا؟» سأل إستا، وكان على صواب.

«أين والدكما؟» : أرادت صوفى مول أن تعرف.

«إنه ...» ونظرت راهيل إلى إستا طلبًا للعون.

«... ليس هنا»: قال إستا.

«هل أخبرك بقائمتى؟» :سألت راهيل صوفى مول.

«إن أردت ذلك»: قالت صوفى مول.

كانت قائمة راهيل هى محاولة منها لترتيب الأشياء التى فى حالة من الفوضى والاضطراب. إنها تراجعها مراراً وتكراراً، ممزقة على الدوام بين الحب والواجب، كانت بالقطع معياراً حقيقيًا لمشاعرها.

«أولا آمو وشاكو»: قالت راهيل، «ثم تجيء ماماشى».

«جدتنا»، أوضح إستا.

«أكثر من أخيك؟» : سألت صوفى مول.

«إننا لا ندخل فى الحسبان»: قالت راهيل، «وهو، على أى حال، قد يتغير كما تقول آمو».

«كيف يتغير كما تعنين؟ يتغير إلى ماذا؟» سألت صوفى مول.

«إلى ذكر خنزير شوفينى»: قالت راهيل.

«إن احتمال حدوث هذا بعيد كل البعد»؛ قال إستا.

«إن ڤيلوتا، على كل حال، يجيء بعد ماماشى، ثم...»

«من هو ڤيلوتا؟» : أرادت صوفى مول أن تعرف.

«إنه رجل نحبه»: قالت راهيل، «وأنت بعد ڤيلوتا»: قالت راهيل.

«أنا؟ وما الذى تحبيننى من أجله؟» : قالت صوفى مول.

«إننا أبناء خؤولة من الدرجة الأولى، لذا يجب علىّ أن أحبك»: قالت راهيل بتقوى مصطنعة.

«لكنك لا تعرفيننى؟» : قالت صوفى مول، «وأنا، على كل حال لا أحبك»

«لكنك ستحبيننى، عندما تعرفيننى»: قالت راهيل بثقة.

«أشك فى ذلك»: قال إستا.

«لماذا؟» :قالت صوفى مول.

«لأنها، على كل حال، سوف تصبح، فى الغالب الأعم، قزعة»: قال إستا.

وكأن حب القزعة مسألة مستبعدة تمامًا.

«إننى لست كذلك»: قالت راهيل.

«أنت كذلك»: قال إسثا.

«لست كذلك».

«أنت كذلك».

«لست كذلك».

«أنت كذلك، إننا توءمان،» أوضح إسثا لصوفى مول، «انظرى فقط كم هى أقصر منى كثيراً».

وأخذت راهيل، مرغمة نفسًا عميقًا، ودفعت بصدرها إلى الأمام، ووقفت ظهراً لظهر هى وإسثا، فى موقف سيارات المطار، لا لشىء إلا لكى ترى صوفى مول كم كانت راهيل أقصر كثيراً.

«ربما تصبحين قزعة»، قالت صوفى مول، «أطول من القزم وأقصر من ..... الإنسان».

لم يكن الصمت على يقين من هذا الحل التوفيقى.

لوحت، فى مدخل قاعة الوصول، صورة ظلية «شبحية» حمراء الفم على شكل قنغر بكف أسمنتية ذات مخالب لراهيل فقط، وطنّت عبر الهواء قبلات أسمنتية مثل هليوكوبترات صغيرة.

«هل تعرفان كيف تخطوان خطوات متكلفة الأناقة؟»، أرادت صوفى مول أن تعرف.

«كلا، إننا لا نسير فى خطوات متكلفة الأناقة» قال السفير إسثا.

«حسنًا، إننا نفعل ذلك فى إنجلترا» . قالت صوفى مول : «كل الموديلات يفعلن ذلك، فى التلفاز، انظر... إنها سهلة».

وأخذ ثلاثتهم يسيرون، بقيادة صوفى مول، فى خطوات متكلفة الأناقة، عبر موقف سيارات المطار، يتمايلون مثل الموديلات اللائى يعرضن الأزياء الحديثة، فتتصادم قوارير النسر وحقائب الجو - جو المصنوعة فى إنجلترا حول أردافهن، قزعات مبللات بالرطوبة، يصرن أطول وهن سائرات.

الظلال تتبعهن، نفاثات فضية فى سماء كنيسة زرقاء، مثل فراشات فى شعاع الضوء.

ابتسمت البليموث الزرقاء بلون السماء وزعانف ذيل السمكة لصوفى مول. ابتسامة قرش مترعة بلون الكروم.

ابتسامة سيارة مخللات الفردوس.

عندما رأت مرجريت كوشاما، الحامل وقد رسمت عليه قوارير المخللات وقائمة منتجات الفردوس، قالت : «أوه، يا عزيزى ! أحس كأننى داخل إعلان ما !»، ثم قالت : أوه يا عزيزى ! مرات عديدة.

أوه يا عزيزى ! أوه يا عزيزى أوه يا عزيزى !

قالت: «لم أعرف أنك تصنع شرائح الأناناس، إن صوفى تحب الأناناس، أليس كذلك صوفى؟»

«أحيانًا»: قالت صوفى؛ «وأحيانًا لا».

صعدت مرجريت كوشاما إلى داخل الإعلان بنمش ظهرها البنى ونمش ذراعيها، وثوبها المزين بالزهور ورجليها من أسفل.

جلست صوفى مول أمامًا بين شاكو ومرجريت كوشاما، فقط كانت تطل قبعتها من فوق كرسى السيارة؛ لأنها كانت ابنتهما.

جلست راهيل وإستا فى الخلف.

وكان العفش فى «صندوق السيارة».

كانت كلمة «صندوق السيارة» كلمة محببة، غير أن كلمة «ستيردى» كانت كلمة مرعبة.

عبروا قرب «إتومانور»، أمام فيل ميت من أفيال المعبد، صعقه سلك تيار عالٍ كان قد سقط على الطريق، وكان مهندس فى بلدية إتومانور يشرف على التخلص من الجيفة، كان يجب عليهم أن يكونوا حريصين إذ أن القرار يمكن أن يكون سابقة لكل حكومات المستقبل عند التخلص من جيفة حيوان سميك الجلد، وهو أمر لا يمكن الاستخفاف به، كانت هنالك ماكينة إطفاء، وبعض رجال الإطفاء المضطربين، كان مع موظف البلدية ملفٌ وكان كثير الصياح، كانت هنالك عربة كارو تبيع «أيس كريم جوى» ورجل يبيع السودانى فى قراطيس ورقية ضيقة مصممة بذكاء بحيث لا يحتوى القرطاس على أكثر من ثمانٍ أو تسع حبات من الفول السودانى.

قالت صوفى مول: «انظروا، فيل ميت».

توقف شاكو ليسأل، إن كان هنالك أى احتمال أن يكون هذا الفيل هو «كوشو ثوميان» (ذو الأنياب القصيرة)، فيل معبد أيمينم، الذى جاء إلى «منزل أيمينم» ذات مرة منذ شهر من أجل جوز الهند لكنهم قالوا له إنه ليس هو.

وعادوا إلى سواقة السيارة، بعد أن اطمئنوا إلى أنه كان فيلاً غريبًا، وليس الفيل الذى عرفوه.

«شقراً لله»[٩٧]، قال إسثا.

«شكراً لله[٩٨] إسثا»: صححت له بيبى كوشاما.

وتعلمت صوفى مول فى الطريق، كيفية التعرف على الرائحة الكريهة المقتربة منهم، رائحة المطاط الذى لم يصنع بعد، وأن تغلق منخاريها حتى بعد أن تعبرهم سيارة الشحن بمدة طويلة.

واقترحت بيبى كوشاما أداء أغنية للسيارة.

كان على إسثا وراهيل أن يغنيا بالإنجليزية فى أصوات مطيعة ممتثلة، خفيفة الروح، وكأنهما لم يستعدا مسبقًا لأدائها مدة أسبوع كامل، السفير أ. ألفيس، والسفيرة س. إنسكت.

افرحوا بالرب دوما

وافرحوا هأنذا أقولها ثانية.

كان ن ط ق هـ م ا [٩٩] متقنًا.

واندفعت البليموث عبر حرارة منتصف النهار الخضراء، تروج للمخللات على سطحها، والسماء الزرقاء فى زعانف ذيلها.

اندفعوا وهم خارج أيمينم بالضبط فى اتجاه فراشة خضراء فى لون الكرنب (أو ربما هى التى اندفعت فى اتجاههم).

الفصل السابع

دفاتر ممارسة الحكمة

تحلل أبو دقيق والفراشات المعروضة فى حجرة مكتب باباشى إلى أكوام صغيرة من تراب قزحى الألوان ملأت بالمسحوق قاع علب العرض الزجاجية، تاركة الدبابيس التى كانت تثبتها عارية خالية، قسوة. كانت الحجرة مليئة بالفطر والإهمال، كانت هنالك حلقة «هولاهوب» قديمة خضراء فى لون النيون تتدلى من مشجب خشبى على الحائط، هالة قديس ضخمة منبوذة، طابور نمل أسود لامع يسير عبر عتبة النافذة، وقد اتجهت مؤخراته إلى أعلى، مثل صف فتيات جوقة يتبخترن فى موسيقا «بوسبى بيركلى»، صورة ظلية فى مواجهة الشمس، مصقولة وجميلة.

راهيل (فوق مقعد حمام فوق قمة منضدة) تنقب فى دولاب كتب ألواحه الزجاجية قذرة معتمة، كانت آثار أقدامها العارية واضحة فى تراب الأرضية، كانت تتجه من الباب إلى المنضدة (التى تم جرها إلى أرفف الكتب)، إلى مقعد الحمام (الذى تم جره إلى المنضدة ورفعه فوقها)، كانت تبحث عن شىء ما، غدا لحياتها الآن شكلا وحجماً. كان لديها أشكال هلالية أسفل عينيها ومجموعة من الإغراءات تلوح فى أفقها.

كان هناك فى الرف العلوى، الجلد المستخدم فى تجليد مجموعة باباشى عن «ثروة الهند الحشرية» وقد نُزع من كل كتاب واعوج مثل اسبستوس مجعد، والعتة الفضية(١٠٠) شقت أنفاقًا عبر الصفحات، أنفاقًا حُفرت بطريقة اعتباطية تختلف من نوع إلى آخر، مما حول المعلومات المنظمة إلى مخرمات صفراء كالدانتيلا.

تحسست راهيل ما وراء صف الكتب وأخرجت الأشياء المخفاة:

محارة بحرية ناعمة وأخرى شائكة؛

علبة بلاستيكية للعدسات اللاصقة، وماصة برتقال.

صليب فضى على خيط من خرز، ومسبحة بيبى كوشاما.

أمسكتها فى مواجهة الضوء، اختطفت كل خرزة شرهة نصيبها من الشمس.

سقط ظل عبر مستطيل ضوء الشمس، على أرضية غرفة المكتب، استدارت راهيل ناحية الباب ومعها خيط ضوئها.

«تصور: إنها مازالت هنا، لقد سرقتها، بعد أن تمت إعادتك».

انزلقت كلمة، إعادتك، فى يسر، وكأن ذلك كان هو المقصود بالتوأمين. أن تتم إعارتهما ثم إعادتهما. مثل كتب المكتبة.

ما كان لإستا أن ينظر إلى أعلى، كان عقله مليئًا بالقطارات، كان قد حجب الضوء عن الباب، ثقب على شكل إستا فى الكون، واصطدمت أصابع راهيل الحائرة خلف الكتب بشىء آخر، ثرثار صاخب يحمل ذات الفكرة، فأخرجته ومسحت عنه الغبار بكُم قميصها، كان ربطة مسطحة ملفوفة فى بلاستيك نقى خالص وملصق بشريط من السيلوتيب، وقصاصة بيضاء فى داخله مكتوب عليها، بخط يد آمو: إستابن وراهيل.

كان هنالك أربعة دفاتر بالية رثة، وكان مكتوبًا على غلافها: «دفاتر ممارسة الحكمة»، مع وجود مكان لـ: الاسم، المدرسة، الكلية، الفصل، الموضوع، كان اسمها على اثنين منها، واسم إستا على الآخرين.

وكان فى داخل الغلاف الخلفى لأحدهم شىء ما مكتوب بخط طفولى، الشكل الذى تحقق بعد عناء لكل حرف، والمساحات غير المنتظمة بين الكلمات كانت مشبعة بالجهد المبذول للتحكم فى القلم الشارد بإرادته الذاتية، كانت العاطفة المتناقضة واضحة متألقة: «إننى أكره ميس ميتن وأعتقد أن سراويلها التحتية ممزقة (١٠١)».

كان إستا قد محا لَقَبَه من صدر الكتابة بلعابه، وأضاع نصف الصفحة معه. وكان قد كتب فوق كل هذه الفوضى بالقلم الرصاص «مجهول»، إستابن مجهول، (لقبه

مؤجل فى «الوقت الحالى»، بينما كانت آمو ماتزال حائرة بين اسمها واسم والده). كتبت بعد كلمة الفصل: ٦ سنوات، وكتبت بعد كلمة الموضوع: كتابة القصص.

وجلست راهيل متقاطعة الساقين (فوق مقعد الحمام فوق المنضدة).

قالت: «إستابن مجهول»، وفتحت الكتاب وقرأت بصوت مرتفع.

«عندما عاد أوليسيس إلى منزله جاء ابنه وقال لقد اعتقدت يا أبى أنك لن تعود. لقد جاء العديد من الأمراء وكل منهم يود الزواج من بنلوب، غير أن بنلوب قالت: إن الرجل الذى يستطيع إطلاق السهم عبر الأطواق الاثنى عشر هو الذى يتزوجنى، وفشل الجميع، وجاء أوليسيس إلى القصر مرتديًا مثل شحاذ وسأل إن كان فى وسعه المحاولة، وسخر الجميع منه قائلين : إن كنا نحن قد عجزنا فإنك لابد من أن تعجز أيضًا ، وأوقفهم ابن أوليسيس قائلاً دعوه يحاول فتناول القوس وأطلق السهم مباشرة عبر الأطواق الاثنى عشر».

وأسفل هذا كانت هنالك تصحيحات من درس سابق.

فيروس	تعلم	لا هذا ولا ذاك	عربات	كوبرى	جمال	مثبت
فيروس	تعلم	لا هذا ولا ذاك	عربات	كوبرى	جمال	مثبت
فيروس	تعلم	لا هذا ولا ذاك				
فيروس	تعلم	لا هذا ولا ذاك				

وتلوى الضحك حول أطراف صوت راهيل، «السلامة أولاً»، أعلنت، كانت آمو قد رسمت خطًا متموجًا على امتداد طول الصفحة بقلم أحمر وكتبت، «هامش؟ وكتابة متصلة، في المستقبل، لو سمحت !»

«عندما سرنا على الطريق فى المدينة»، بدأت قصة إستا الحريص الحذر، «كان علينا أن نسير دومًا فوق الرصيف، عندما نسير فوق الرصيف ليس هنالك مرور بسبب الحوادث، غير أن هنالك على الطريق الرئيسى حركة مرور خطرة أكثر بكثير حيث فى

إمكانها أن تصدمك وأن تجعلك فاقد الحس أو قعيداً، إنك إن حطمت رأسك أو عمودك الفقرى، فإنك سوف تكون منحوساً سيِّيء الحظ للغاية، إن فى وسع الشرطى أن يوجه حركة المرور بحيث لا يكون هنالك العديد للغاية من العاجزين ليذهبوا إلى المستشفى. يجب علينا عندما نغادر سيارة الركاب ألا نفعل ذلك إلا بعد أن نسأل الكمسارى أو فإننا سنصاب ونشغل وقت الأطباء . إن وظيفة السائق وظيفة خطيرة للغاية، يجب أن تكون أسرته فى قلق شديد، لأن السائق يمكن أن يموت بسهولة».

«صبى سوداوى» : قالت راهيل لإستا، ووصل، عندما أدارت الصفحة، شيء ما إلى حلقها اقتلع صوتها، هزه ونفضه ثم أعاده دون أطرافه الضاحكة، كان اسم قصة إستا التالية هو «آمو الصغيرة».

القصة مكتوبة بالكتابة المتصلة، وكانت ذيول حرفى «الواى» و«الجى» مجعدة معقدة، ووقف الشبح الظل فى مدخل الباب ساكنًا للغاية.

«ذهبنا يوم السبت إلى مكتبة فى كوتايام لشراء هدية لآمو إذ كان عيد ميلادها فى ١٧ نوفمبر، اشترينا لها مفكرة يوميات، أخفيناها فى الدولاب ثم بدأ هبوط الليل، قلنا لها : هل تريدين رؤية هديتك،؟ قالت : نعم أود رؤيتها، وكتبنا على الورقة «من أجل آمو الصغيرة مع حب إستا وراهيل» وأعطيناها لآمو فقالت : إنها هدية بديعة وإنها بالضبط ما كنت أريده، ثم تحدثنا برهة قصيرة وتحدثنا عن مفكرة اليوميات ثم قبلناها وذهبنا إلى السرير.

تحدثنا معًا وسرنا منطلقين إلى النوم، وحلمنا حلمًا صغيراً.

استيقظت بعد قليل، كنت ظمآ للغاية فذهبت إلى حجرة آمو وقلت لها : إنى ظمآن، أعطتنى آمو ماءً وكنت على وشك الذهاب إلى سريرى عندما نادتنى آمو قائلة تعالَ ونم معى، رقدت عند ظهر آمو وتحدثت مع آمو ونمتُ، استيقظت بعد فترة قصيرة وتحدثنا ثانية، وتناولنا وليمة منتصف الليل، تناولنا برتقالاً وقهوة وموزاً، ثم جاءت راهيل فيما بعد وأكلنا موزتين أخريين وقبلنا آمو لأن اليوم كان عيد ميلادها ثم غنينا فيما بعد

أغنية عيد ميلاد سعيد، وحصلنا فى الصباح على ملابس جديدة من آمو كهدية رداً على هديتنا ، كانت لراهيل ملابس «ماهارانى» ولى أنا ملابس «نهرو» صغير.

كانت آمو قد صححت الأخطاء الإملائية، وكتبت أسفل المقالة: «إن كنت أتحدث أنا إلى شخص ما، فإنه يمكنك مقاطعتى إن كان الأمر عاجلا للغاية. فإن فعلت ذلك أرجو أن تقول: عذراً، سوف أضربك بقسوة شديدة إن خالفت تلك التعليمات، أكمل لو سمحت تصحيحاتك».

آمو الصغيرة.

التى لم تكمل قط تصحيحاتها.

والتى كان عليها أن تحزم حقائبها وتغادر، حيث لا ركيزة لها تستقر عليها، ولأن شاكو قال : إنها قد دمرت ما يكفى بالفعل، وهى التى عادت إلى أيمينم مصابة بالأزمة وخشخشة فى صدرها لها صوت مثل صوت رجل يصرخ من بعد سحيق.

لم يرها إستا هكذا ألبتة .

مهتاجة. مريضة. حزينة.

المرة الأخيرة التى جاءت فيها آمو إلى أيمينم، كانت راهيل قد فصلت لتوها من دير راهبات «نازارث» ؛ (لتزيينها الروث وتنديدها بمن هم أكبر منها سنا)، كانت آمو قد فقدت آخر وظائفها المتعاقبة – كعاملة استقبال فى فندق رخيص – لأنها كانت مريضة وكانت قد انقطعت عن العمل لعدة من الأيام، ولم يستطع الفندق تحمل ذلك، هكذا أخبروها، كانوا فى حاجة إلى عاملة استقبال أفضل صحة.

فى تلك الزيارة الأخيرة قضت آمو الصباح مع راهيل فى حجرتها، كانت قد اشترت لابنتها بآخر مرتب هزيل لها هدايا صغيرة ملفوفة فى ورق بنى ملصوق عليه : قلوب رقيقة ملونة، ربطة سجائر حلوى، صندوقًا من صفيح لأقلام «الفانتوم» و«بول بوتيان» – قصة كلاسيكية هزلية مصورة للصغار، كانت كلها هدايا لمن هم فى سن السابعة، وكانت راهيل فى حوالى الحادية عشرة، كان الأمر وكأن آمو تؤمن بأنها إن

رفضت الإقرار بمرور الزمن، إن أرادت له أن يقف ساكنًا، فى حياة توأمها معًا، فإنه سيفعل ذلك، وكأن مجرد قوة الإرادة كافية لإيقاف طفولة طفليها مؤقتًا حتى تستطيع جعلهما يعيشان معها، ثم يكون فى وسعهما شق طريقهما من حيث توقفت هى، البداية ثانية من السابعة، أخبرت آمو راهيل أنها قد اشترت أيضًا قصة هزلية لإستا، لكنها احتفظت بها له حتى تحصل على وظيفة أخرى، وتستطيع كسب ما يكفى لتأجير غرفة لثلاثتهم ليظلوا معًا فيها، ثم تذهب إلى كلكتا وتحضر إستا، ويكون قادرًا على أخذ قصته الهزلية، إن هذا اليوم ليس ببعيد قالت آمو : يمكن أن يحدث فى أى يوم - ما إن يتم الإيجار حتى لا تكون هنالك أية مشكلة. قالت : إنها قد تقدمت لوظيفة فى الأمم المتحدة، وإنهم جميعًا سوف يعيشون فى «الهايج» مع خادمة هولندية تعتنى بهم. وقالت آمو : إنها قد تظل، من ناحية أخرى، فى الهند وتنفذ ما كانت تخطط له طوال الوقت، أن تنشئ مدرسة، كما قالت : إن الاختيار بين التعليم كمستقبل لها ووظيفة فى الأمم المتحدة ليس بالأمر السهل، لكن الشىء الذى يجب تذكره هو حقيقة أن وجود فرصة أمامها للاختيار كانت ميزة عظيمة.

غير أنها سوف تحتفظ لإستا، فى الوقت الراهن، كما قالت، وحتى تتخذ قرارها، تحتفظ له بهداياه.

طوال ذلك الصباح وآمو تتحدث بلا انقطاع، سألت «راهيل» أسئلة ، لكنها لم تسمح لها بالإجابة عليها ألبتة، وإن حاولت راهيل قول شىء، قاطعتها آمو بفكرة أو سؤال جديد، بدت مرعوبة من الأشياء الناضجة التى يمكن أن تقولها ابنتها فتذيب «الزمن المتجمد»، لقد جعلها الخوف كثيرة الكلام، لقد أوقفت ثرثرتها الخوف عند حده.

كانت قد تورّمت من الكورتيزون، استدار وجهها كالقمر، لم تعد الأم النحيلة التى عرفتها راهيل، كان جلدها مشدودًا فوق خديها المنتفختين أشبه بنسيج ندبة يغطى علامات تطعيم قديم، كانت عندما تبتسم تبدو غمازتاها وكأنهما توجعانها، وفقد شعرها المفلفل بريقه ولمعانه وتدلى حول وجهها المتورم كستارة قبيحة، كانت تحمل أنفاسها فى منشقة زجاجية فى حقيبة يدها الرثة، أبخرة بنية، كل نفس تأخذه مثل

حرب تكسبها ضد القبضة الحديدية التى تحاول عصر الهواء من رئتيها. راقبت راهيل أنفاس والدتها، كانت فى كل مرة تستنشق فيها نفسًا تصبح التجاويف قرب عظمة الترقوة أكثر انحدارًا وامتلاء بالظلال.

سعلت آمو قدرًا كبيرًا من البلغم فى منديلها وأرته لراهيل.

«يجب أن تفحصيه دومًا»، همست بصوت أجش، وكأن البلغم كان ورقة إجابة فى علم الحساب يجب مراجعتها قبل تسليمها، «عندما يكون أبيض فإن ذلك يعنى أنه ليس ناضجًا، وعندما يكون أصفر، عفن الرائحة، فإنه يكون ناضجًا جاهزًا للبصق، والبلغم مثل الفاكهة، ناضج نيّئ. وعليك أن تكونى قادرة على معرفة ذلك».

تجشأت أثناء الغداء مثل سائق شاحنة وقالت «اعذرينى»، فى صوت عميق غير طبيعى – لاحظت راهيل نمو شعرات جديدة غليظة فى حاجبيها، شعرات طويلة – مثل عضو اللمس فى فم الحشرة. ابتسمت آمو للصمت حول المنضدة وهى تجذب سمك الإمبراطور المقلى من عظامه، قالت : إنها تحس وكأنها علامة طريق عليها فضلات الطيور، وكان هنالك وميض محموم غريب فى عينيها.

سألتها ماماشى إن كانت تشرب الخمر، وطلبت منها أن تزور راهيل أقل قدر ممكن من الزيارات.

نهضت آمو من المنضدة وغادرت دون أن تنطق كلمة، ولاحتى أستودعكم الله.
«اذهبى وودعيها» : قال شاكو لراهيل.

تظاهرت راهيل بأنها لم تسمعه، واستمرت تأكل سمكتها، وفكرت فى البلغم وكادت تتقيأ، كرهت حينذاك أمها، كرهتها.

ولم ترها مرة أخرى ألبتة .

ماتت آمو فى حجرة قذرة فى «مأوى البهار» (١٠٢) فى «أليبى» حيث ذهبت إلى مقابلة بحثًا عن وظيفة كسكرتيرة لشخص ما، ماتت وحيدة، كانت برفقتها مروحة سقف ذات ضجيج، لم يكن هنالك إستا راقدًا عند ظهرها يتحدث إليها، كانت فى

الواحدة والثلاثين.. ليست عجوزاً، ولا شابة، لكنها كانت فى السن التى يمكن أن يموت فيها الإنسان.

استيقظت فى الليل هرباً من حلم معتاد متكرر، يقترب منها فيه رجل شرطة ومعه مقص يقرقع ، يود أن يجز شعرها، إنهم يفعلون ذلك فى كوتايام، للمومسات اللاتى يقبضون عليهن فى البازار - ويوسمونهن بوصمة عار حتى يعرف كل امرئ بأمرهن، فيشياس، حتى لا يجد شرطياً جديداً فى الدرك صعوبة فى التعرف على من يتوجب عليه مضايقتهن، لقد كانت آمو تراهن دومًا فى السوق، نسوة ذوات عيون فارغة ورؤوس محلوقة فى الأرض بالإكراه حيث كان الشعر الطويل المدهون بالزيت للمستقيمات خلقياً فقط.

جلست آمو، فى تلك الليلة، فى المأوى، منتصبة فى الفراش الغريب، فى الحجرة الغريبة، فى المدينة الغريبة، لم تكن تدرى أين هى، لم تكن تعرف شيئًا عما حولها، فقط كان خوفها هو الخوف المعتاد، الرجل النائى فى داخلها بدأ فى الصراخ، لم تخفف اليد الحديدية، فى هذه المرة قبضتها، تجمعت الظلال مثل الخفافيش فى التجاويف شديدة الانحدار قرب عظم الترقوة.

وجدها من يقوم بالكنس فى الصباح. أوقف المروحة.

كان هناك كيس أزرق عميق تحت إحدى عينيها، كيس منتفخ مثل فقاعة، وكأن عينها حاولت أن تفعل ما عجزت رئتيها عن فعله. توقف الرجل النائى الذى عاش فى صدرها عن الصراخ، فى وقت ما، قرب منتصف الليل، حملت شرذمة نمل صرصاراً ميتًا فى رزانة ورصانة عبر الباب، كعملية إيضاح لما يجب أن يُفعل مع الجثث.

رفضت الكنيسة دفن آمو لعدة أسباب، لذا استأجر شاكو شاحنة مغلقة لنقل جثمانها إلى محرقة أجساد الموتى الكهربية، لفها فى ملاءة سرير قذرة وأرقدها فوق نقالة، وفكرت راهيل أنها تشبه سيناتور رومانى، «حتى أنت يا آمو !»، فكرت وابتسمت، متذكرة إستا.

كانت سواقة غريبة عبر شوارع مشرقة مزدحمة ومعها سيناتور رومانى ميت على أرضية الشاحنة، لقد جعل ذلك السماء الزرقاء أكثر زرقة، وكان الناس خارج نوافذ الشاحنة، مثل دمى من ورق مقصوص، يمضون حياة كحياة الدمى الورقية، الحياة الحقيقية كانت داخل الشاحنة، حيث كان الموت الحقيقى - جسد آمو يتنطط فوق النتوءات والحفر الرجراجة فى الطريق وينزلق من النقالة، وخبط رأسها مسمار قلاووظ حديدى فى الأرضية. لم تجفل ولم تستيقظ. كان هنالك طنين فى رأس راهيل، وكان على شاكو أن يصرخ فيها، بقية اليوم، إن أراد أن تسمعه.

كان هواء محرقة أجساد الموتى هو نفس الهواء النتن الخائر الذى يوجد فى محطة السكة الحديدية، باستثناء أن المحرقة مهجورة، لا قطارات ولا زحام، ولا أحد ماعدا الشحاذين، والمنبوذين والموتى الذين تحت تحفظ الشرطة، والذين كانت تحرق جثثهم هنالك، الناس الذين يموتون ولا أحد يرقد إلى جوار ظهورهم يتحدث إليهم، وعندما جاء دور آمو أمسك شاكو بقوة بيد راهيل، لم تكن ترغب فى أن تُمسك يدها. استخدمت نعومة عرق المحرقة لتزحلق يدها من قبضته، لم يكن هناك أحد آخر من العائلة.

ارتفع باب أتون المحرقة المصنوع من الصلب، غدا الطنين الأبكم للنار الأبدية زئيراً أحمر، النار تندفع نحوهم مثل وحش يتضور جوعًا. وقُدمت آمو راهيل طعامًا لها: شعرها، جلدها، ابتسامتها، صوتها، الطريقة التى استخدمت بها كيبلينج لتحب هى أطفالها قبل أن تضعهم فى الفراش: «إننا من دم واحد، أنت وأنا». قُبْلتها التى تقبلها قبل النوم، الطريقة التى تمسك بها وجهيهما ثابتين بيد (محشورين، ملجمين، بفم كفم السمكة) بينما تَفْرِق شعرهما وتمشطه باليد الأخرى، الطريقة التى تمسك بها السراويل لراهيل لتصعد تُدخل فيها الرجل اليسرى، الرجل اليمنى، كل هذا يقدم للوحش، الذى كان راضياً.

كانت أمهما وأباهما وأحبتهما حبًا مضاعفًا.

ودوى صوت باب الفرن وهو يُغلق، لم تكن هنالك دموع.

كان المسئول عن محرقة أجساد الموتى قد ذهب إلى الطريق بحثًا عن كوب شاى، ولم يعد مدة عشرين دقيقة، تلك هى المدة التى كان على شاكو وراهيل انتظارها للحصول على الإيصال الوردى الذى يسمح لهما بجمع بقايا آمو. رمادها، الأجزاء الصلبة من عظامها، الأسنان من ابتسامتها، كل ما يمكن أن يوضع منها حشواً فى إناء فخارى صغير، إيصال رقم «كيو ٤٩٨٦٧٣».

سألت راهيل شاكو كيف يمكن لإدارة المحرقة أن تعرف أشلاء من هذه ؟ قال شاكو : إنه لابد من وجود نظام لديهم لمعرفة ذلك الأمر.

لو كان إستا موجوداً معهما لاحتفظ بالإيصال، كان هو حافظ السجلات، الحارس الأمين الطبيعى لتذاكر سيارة الركاب، لإيصال البنك، لمذكرات الأوراق المالية، لكعوب دفتر الشيكات. الرجل الصغير، الذى عاش فى كرافان، دوم دوم.

غير أن إستا لم يكن معهما، وقد قرر الكل أن ذلك هو الوضع الأفضل، كتبوا له بدلا من حضوره، قالت ماماشى يجب على راهيل أن تكتب أيضًا، تكتب ماذا؟ عزيزى إستا، كيف حالك؟ إننى بحال طيبة، آمو توفيت بالأمس.

لم تكتب راهيل إليه ألبتة، هنالك أشياء لا يمكنك فعلها – كأن تكتب لجزء منك، لقدميك . أو شعرك، أو قلبك.

فى حجرة مكتب باباشى رفعت راهيل (التى لم تكن عجوزًا ولا شابة) رأسها ، وتراب الأرضية على قدميها، رفعت رأسها من دفاتر ممارسة الحكمة ووجدت أن «إستابن المجهول» قد مضى.

هبطت (من فوق مقعد الحمام، من فوق المنضدة) وسارت خارجة إلى الشرفة، رأت ظهر إستا يختفى عبر البوابة.

كان الوقت منتصف الصباح والسماء توشك أن تمطر ثانية، كان الأخضر الوحشى – من اللحظات الأخيرة لضوء ما قبل هطول المطر المتوهج الغريب.

وصاح ديك في البعد وانقسم صوته إلى جزءين، مثل أخمص قدم ينسلخ من حذاء قديم.

وقفت راهيل هنالك بدفاترها المهترئة، نوتات الحكمة، في الشرفة الأمامية لمنزل عتيق، أسفل رأس ثور برى له عينان أشبه بالأزرار، حيث كان هنالك، منذ سنوات مضت ، يوم مجيء صوفي مول ، إعلان يقول : «مرحبًا بك في منزلك ، عزيزتنا صوفي مول» .

يمكن للأشياء أن تتغير في يوم.

الفصل الثامن

مرحبا بك فى منزلك عزيزتنا صوفى مول

كان منزل أيمينم منزلاً كبيرًا عتيقًا، غير أنه كان يبدو منعزلاً، وكأن علاقته بالناس الذين يعيشون فيه علاقة محدودة، مثل رجل عجوز دامع العينين يراقب أطفالاً يلعبون، فلا يرى غير الزوال السريع فى ابتهاجهم المتدفق وارتباطهم القلبى بالحياة.

غدا السقف المنحدر المغطى بالقرميد أكثر قتامة وقد غشاه الطحلب مع الكبر والمطر ، الأطر المستطيلة الخشبية المثبتة فى الجمالونات كانت مشروخة بطريقة معقدة، والضوء الذى ينحدر عبرها ويسقط فى نماذج ورسوم على الأرض كان مليئًا بالأسرار: ذئاب ، أزهار ، «إيجوانا» [١٠٣] ، يتغير الشكل مع حركة الشمس عبر السماء. ثم تموت وتتلاشى فى موعدها مع الغسق.

لم يكن لكل باب درفتا شباك ولكن أربع درفات مزينة بخشب «التك »[١٠٤]، حتى يمكن للنساء، فى الأيام الماضية، الاحتفاظ بالنصف السفلى مغلقًا، والاتكاء على مرافقهن يساومن الباعة الجائلين دون أن يكشفن أنفسهن فيما تحت الوسط ، كان فى وسعهن من الناحية الفنية شراء السجاجيد، أو الأساور، وقد غطين صدورهن، وعرين أسفلهن، فنيًا.

تسع درجات منحدرة تقود من الطريق الخاص إلى الشرفة الأمامية ، وقد أسبغ عليها إرتفاعها جلالاً ووقاراً مسرحيًا، وقد كان لكل ما حدث هناك روعة العرض ودلالته، كانت تطل على حديقة الزينة، حديقة بيبى كوشاما، ويلف حولها الطريق الخاص بما فيه من حصى، منحدراً أسفل التل الضئيل الذى يقف المنزل عليه.

كانت شرفته عميقة، رطبة لطيفة حتى عندما تكون الشمس شديدة اللفح فى منتصف النهار.

عندما وُضعت الأرضية الأسمنتية الحمراء، أُضيف إليها بياض قرابة تسعمائة بيضة مما أضفى عليها لمعانًا شديداً

جلست ماماشى على كرسى منخفض مصنوع من أغصان مجدولة ومنضدة من أغصان مجدولة، عليها فازة زجاجية خضراء بها ساق أوركيديا أرجوانية واحدة مائلة، جلست أسفل رأس الثور البرى المحنطة بعينيه الأشبه بالأزرار ، وصورة والد زوجها، وصورة والدة زوجها على جانبيه.

كان ما بعد الظهيرة ساكنًا. وكان الهواء متأخراً متمهلاً.

أمسكت ماماشى بكمان لامعة أسفل ذقنها، كانت نظارتها الشمسية الخمسينية المعتمة سوداء مائلة، بها ماس مقلد فى أركان إطارها، وكان ساريها منشياً معطراً ، أبيض رمادياً ذهبيًا، وقرطاها الماسيان يلمعان فى أذنيها مثل شمعدانين دقيقين. كانت خواتمها الياقوتية سائبة، وجلدها الشاحب الناعم متغضنًا أشبه بالقشدة فوق لبن بارد وقد رش بشامات حمراء دقيقة ، كانت جميلة. ، عجوز، نادرة، ملوكية فاخرة.

الأم الأرملة الضريرة ومعها كمان.

جمعت ماماشى، فى سنوات عمرها الأكثر شبابًا ببصيرتها، وإرادتها الجيدة، جمعت شعرها المتساقط فى كيس صغير مطرز واحتفظت به فى تسريحتها ، وعندما كان يتوافر لديها قدر كافٍ منه، كانت تصنع منه قرصًا داخل شبكة تحتفظ به مختبأ مع مجوهراتها فى صندوق يُقفل، كانت منذ بضع سنوات سابقة على ذلك، عندما بدأ شعرها فى التحول فخفت غزارته وغدا فضيًا، كانت ترتدى قرصها الأسود الحالك وقد دبسته فى رأسها الصغير الفضى، حتى تعطى لشعرها شكله وهيئته ، كان ذلك بالنسبة لسجلها أمراً مقبولاً تمامًا، حيث كان كل الشعر شعرها ، كانت فى الليل، عندما تخلع قرصها، تسمح لحفيديها أن يضفرا شعرها المتبقى فى ذيل فأر رمادى متماسك مدهون بالزيت به شريط من المطاط عند نهايته ، كان يقوم أحدهما بتضفير شعرها، بينما يحصى الآخر شاماتها التى لا يمكن إحصاؤها، ثم يتبادلان الأدوار.

كانت تبرز فوق فروة رأس ماماشى نتوءات هلالية الشكل مخفاة بعناية تحت شعرها القليل ، ندوب علقات قديمة من زواج قديم – ندوب فازتها النحاسية.

عزفت «رويدا» – وهي حركة من «الحاشية (١) في دي/جي» «الواترميوزيك» – «لهاندل». كانت عيناها خلف نظارتها الشمسية، بلا قيمة، مغلقة، لكنها كانت قادرة على رؤية الموسيقى عندما تصدر عن كمانها وتصعد فيما بعد الظهر كالدخان.

كان داخل رأسها مثل حجرة بها أغطية داكنة مسحوبة عبر يوم مشرق.

عندما لعبت كان عقلها يهيم إلى الوراء عبر السنوات حتى أول كمية من مخللاتها كمحترفة ، كيف بدت جميلة ! في قوارير سُدت بإحكام، منتصبة على منضدة قرب رأس سريرها حتى تكون أول شيء تلمسه عندما تستيقظ في الصباح ، ذهبت إلى السرير مبكراً في تلك الليلة، غير أنها استيقظت بعد منتصف الليل بقليل ، تحسست القوارير فخرجت أصابعها القلقة بطبقة رقيقة من الزيت ، كانت قوارير المخللات تنتصب في بركة من الزيت. كان هنالك زيت في كل مكان ، في حلقة أسفل القارورة المحاطة بفراغ تام ، تحت إنجيلها . على كل منضدتها الموضوعة إلى جانب السرير، كان المانجو المخلل قد شرب الزيت وتمدد، مما جعل الزيت يسيل من القوارير.

ورجعت ماماشي إلى الكتاب الذي اشتراه لها شاكو تسترشد به بخصوص «المقادير المنزلية اللازمة للحفظ » ، غير أن الكتاب لم يقدم أية حلول. فكتبت خطابا إلى صهر «أناما شاندي»، الذي كان، «المدير الإقليمي» لمخللات «بادما» في «بومباي». فاقترح عليها زيادة نسبة المادة الحافظة التي تستخدمها، والملح، وقد ساعد ذلك غير أنه لم يحل المشكلة كلية ، وحتى، بعد كل تلك السنوات ، فإن قوارير مخللات الفردوس مازالت تنضح قليلاً ، كان التسرب طفيفاً، غير أنها مازالت تنضح ، وتصبح بطاقاتها خلال الرحلات الطويلة مشبعة بالزيت وشفافة ، وواصلت المخللات ذاتها كونها قليلة الملح.

وأصابت ماماشي الحيرة فيما إذا كانت تستطيع التمكن من الحفظ المتقن، وفيما إذا كانت صوفي مول ستحب بعضاً من عصير العنب المثلج، بعضاً من العصير الأرجواني البارد المعبأ في زجاجة.

ثم فكرت في مرجريت كوشاما ، وغدت حواشي موسيقا هاندل المسترخية السلسلة حادة غاضبة.

إن ماماشي لم تقابل مرجريت كوشاما ألبتة، لكنها تحتقرها على أي حال. «ابنة البقال» – هكذا كان تصنيف مرجريت كوشاما في عقل ماماشي، كان عالم ماماشي

منظمًا على ذلك النحو ، إن هى دُعيت لزيجة ما فى كوتايام، فإنها كانت تقضى كل الوقت تهمس لكل من تصادقه «إن جد العريس من ناحية الأم، كان نجار أبى. كونجوكوتى أيبن ؟ إن شقيقة جدته الكبرى كانت قابلة فى تريڤاندروم ، إن عائلة زوجى اعتادت امتلاك هذا التل».

كانت ماماشى، بالطبع، سوف تحتقر مرجريت كوشاما حتى لو كانت وريثة العرش الإنجليزى ، لم يكن أصلها الذى يمت إلى الطبقة العاملة هو الذى يثير امتعاض ماماشى ، لقد كرهت مرجريت كوشاما ؛ لأنها أصبحت زوجة شاكو، وكرهتها لأنها تركته ، لكنها كانت ستكرهها أكثر إن هى ظلت معه.

لقد حزمت ماماشى متاعها كزوجة واستودعته عناية شاكو، فى اليوم الذى منع فيه شاكو باباشى من ضربها (فقام باباشى بتحطيم أحد الكراسى بدلاً من ذلك)، ومنذ ذلك الوقت وما بعده، أصبح هو المؤتمن على مشاعرها النسائية، «رجلها»، «حبها» الوحيد.

كانت على دراية بعلاقاته الفاسقة مع نساء المصنع، لكنها كفت عن التضرر من تلك الأفعال، وعندما كانت بيبى كوشاما تثير الموضوع، كانت ماماشى تتوتر وتزم شفتيها.

«إنه لا يستطيع مقاومة احتياجات الرجل» : قالت متكلفة الجدية.

والمثير للدهشة أن بيبى كوشاما قبلت هذا التفسير، واكتسبت الفكرة الغامضة المثيرة بصورة سرية «لاحتياجات الرجل» قبولاً ضمنيًا فى «منزل أيمينم»، لم ترى أى من ماماشى أو بيبى كوشاما أى تناقض بين عقلية شاكو الماركسية، والشهوة الجنسية الإقطاعية، كان النكساليون فقط هم من يثيرون قلقهما، إذ عرف عنهم أنهم يفرضون على الرجال الابتعاد عن الله، ويفرضون على أبناء العائلات الزواج من الفتيات الخادمات اللاتى كانوا سببًا فى حبلهن. لم يشكا بالطبع، ولو من بعيد، فى أن الصاروخ الذى سيطلق عليهم والذى يمكن أن يمحو اسم العائلة الطيب إلى الأبد، سوف يجىء من ناحية غير متوقعة على الإطلاق.

شيّدت ماماشى مدخلاً مستقلاً لحجرة شاكو، عند النهاية الشرقية للمنزل، حتى يمكن «لأشياء» (١٠٥) حاجياته ألا تسير متصعلكة عبر المنزل ، كانت تدس لهن نقوداً حتى تدخل السعادة عليهن ، كن يأخذنها لأنهن فى حاجة إليها، كان لديهن أطفال

صغار ووالدان عجوزان - أو أزواج يصرفون كل دخولهم فى بارات خمر النخيل ، كان هذا الترتيب يناسب ماماشى، لأنها كانت ترى بعقلها أن أجراً ما يمكن أن يجعل الأمور واضحة ، كانت تفصل الجنس عن الحب ، والحاجة عن المشاعر.

مرجريت كوشاما كانت، على أى حال، شيئًا آخر مختلفًا كل الاختلاف، لم يكن لدى ماماشى أية وسيلة للمعرفة (رغم أنها حاولت ذات مرة أن تجعل كوشوماريا تفحص ملاءات السرير بحثًا عن بقع)، كانت تأمل فقط ألا يكون فى نية مرجريت كوشاما استئناف علاقتها الجنسية بشاكو ، وبينما كانت مرجريت كوشاما فى أيمينم عملت ماماشى على توجيهها، فى غير المشاعر التى يصعب التحكم فيها، بدس نقود فى جيوب الأردية التى تتركها مرجريت كوشاما فى صندوق الغسيل ، غير أن مرجريت كوشاما لم تُعِد تلك النقود قط ؛ لأنها لم تجدها ألبتة. حيث كان «أنييان الدهوبى» [١٠٦] يفرغ جيوبها كمسألة روتينية ، وكانت ماماشى تعرف هذا، غير أنها فضلت تأويل صمت مرجريت كوشاما باعتباره قبولاً ضمنيًا للدفع مقابل الأفضال التى تتصور ماماشى أنها قد منحتها لابنها.

وبذا أرضت ماماشى نفسها بالنظر إلى مرجريت كوشاما باعتبارها مجرد عاهرة أخرى، وكان أنييان الدهوبى سعيداً بمكافأته اليومية، وبقيت مرجريت كوشاما بالطبع فى نعيم عدم الوعى بكل ذلك الترتيب.

صاح «كوكال»[١٠٧] مهمل قذر من موقعه الذى حط عليه فوق البئر «هووب هووب»، ثم حرك جناحيه الأحمرين الصدئين.

سرق غراب بعضاً من صابون بقبق فى منقاره

وقفت كوشوماريا القصيرة، فى المطبخ المظلم الملىء بالدخان، على أصابع قدميها وثلجت الكعكة الطويلة المكونة من طابقين، كعكة «مرحبا بك فى منزلك عزيزتنا صوفى مول» ، ورغم أن غالبية النساء المسيحيات السريان كن فى تلك الأيام قد بدأن ارتداء السارى، فإن كوشوماريا كانت ماتزال ترتدى «الشاتا»[١٠٨] الأبيض الناصع بنصف الكم ورقبة حرف ٧ والماندو الأبيض الخاص بها، والذى يطوى فى مروحة قماشية مجعدة على خلفيتها، كانت مروحة كوشوماريا مخفاة - إلى حد ما - بوساطة مريلتها كخادمة، مريلة زرقاء وبيضاء شطرنجية، مزركشة الحواشى، سخيفة نابية، مريلة أصرت ماماشى على أن ترتديها كوشو ماريا، داخل المنزل.

كان أصبعاها السبابتان قصيرين غليظين مثل سجق كوكتيل، وكان أنفها لحمياً عريضاً ذى منخارين متوهجين، كانت هنالك طيات جلد عميقة تربط أنفها بجانبى ذقنها، وتفصل هذا القسم من وجهها عن بقيته، مثل الزلومة ، كانت رأسها كبيرة قياساً بجسدها ، كانت تبدو مثل جنين فى قارورة هرب من برطمانه بما فيه من «فورمالدهايد» فى معمل بيولوچى، جنين لم يعد مجعداً، وإن غدا غليظاً بفعل العمر.

كانت تحتفظ فى صدرها بقطع نقد رطبة تربطها بشدة حول صدرها حتى تستطيع تسطيح ثدييها غير المسيحيين ، وكان قرطها «الكونوكو» سميكًا ذهبيًا، وكانت حلمتا أذنيها المتمددتان فى حلقات ثقيلة تتطوحان حول رقبتها، حيث يقبع قرطها فيهما مثل طفلين جذلين فرحين يركبان (ليس دوما) أرجوحة الخيل الخشبية ، كانت حلمة أذنها اليمنى قد انشقت مفتوحة ذات مرة ، وقام د. فرغيز فرغيز بتخييطها مرة أخرى، لم تستطع كوشوماريا وقف ارتداء قرطها الكونولو ؛ لأنها إن فعلت ذلك، فكيف يمكن للناس أن يعرفوا أنها ، رغم وظيفتها المتواضعة كطباخة (خمسة وسبعون روبية فى الشهر) «مسيحية سريانية، مارثوميتية؟» ليست «بيلايا» أو «بولايا» أو «باراڤان». إنها من غير المنبوذين، مسيحية من الطبقة العليا(من الذين رشحت فيهم المسيحية مثل الشاى من كيس الشاى). كانت فكرة خياطة الحلمات فكرة أفضل بكثير للغاية.

لم تكن كوشوماريا واعية بإدمان التلفاز الذى يقبع داخلها، إدمان «الهولك هوجان» ، لم تكن قد رأت حتى الآن تلفازاً، وماكانت لتؤمن بوجود التلفاز ، ولو حدث وقال أحدهم بوجوده، لزعمت كوشوماريا أنه أو أنها تهين ذكاءها ، كانت كوشوماريا حذرة من تفسير الآخرين للعالم الخارجى ، كانت فى الغالب الأعم تنظر إلى هؤلاء باعتبار أنهم يهينونها عمداً وجهراً بسبب افتقادها للتعليم وسهولة خداعها (كان ذلك منذ فترة أكثر تبكيراً). وفى تصميم معاكس لطبيعتها الموروثة، غدا من الصعب على كوشوماريا الآن أن تصدق، كسياسة، أى شىء يقوله أى أحد، لقد ضحكت ساخرة منذ شهور قليلة مضت، فى يوليو، عندما أخبرتها راهيل أن رائد فضاء أمريكى يدعى نيل أرمسترونج قد سار فوق القمر، وقالت : أن أكروباتا مالاياليا يدعى « أ. موثاشن» قد قام بوثبات فوق الشمس وهو مرتكز على يد واحدة مع رفع الرجلين فوق الرأس ، وقد وضع أقلاماً على أنفه ، كانت مستعدة للتسليم بأن الأمريكيين موجودون بالرغم

من أنها لم تر واحداً منهم ألبتة ، وكانت مستعدة أيضًا للإيمان بأن «نيل أومسترونج» يمكن حتى أن يكون بطريقة مفهومة نوعًا سخيفًا من الأسماء ، لكن السير فوق قطعة صغيرة من القمر؟ كلا سيدى. كما أنها لم تثق بأية من الصور الرمادية الغامضة التى ظهرت فى الـ «مالايالامانوراما» التى لم تستطع قراءتها.

ظلت على ثقة بأن إستا عندما قال لها، «حتى أنت يا كوشوماريا » كان يهينها بالإنجليزية ، اعتقدت أن ذلك يعنى شيئًا ما مثل «كوشوماريا، أيتها القزعة السوداء القبيحة » ، كانت تتربص، تنتظر الفرصة المناسبة لتشكوه.

انتهت من وضع غطاء سكرى فوق الكعكة الطويلة ، ثم أمالت رأسها إلى الخلف وعصرت ما تبقى من المادة السكرية فوق لسانها. لَفَّاتُ لا نهائية من الشكولاتة الأشبه بمعجون الأسنان على لسان كوشوماريا الوردى ، وعندما نادت ماماشى من الشرفة (كوشومارى إننى أسمع السيارة !) كان فمها مليئًا بالمادة السكرية فلم تستطع الإجابة ، وعندما أنهت جرت بلسانها فوق أسنانها، ثم قامت بسلسلة من أصوات التلمظ القصيرة بفمها فى مواجهة سقف حلقها، وكأنها قد أكلت للتوّ شيئًا حامضًا.

أصوات بعيدة لسيارة زرقاء فى لون السماء (تمر عبر موقف سيارات الركاب، عبر المدرسة، عبر الكنيسة الصفراء إلى الطريق الأحمر الملىء بالنتوءات عبر أشجار المطاط)، أرسلت همهمة عبر العقار القاتم المعتم لمخللات الفردوس.

التخليل ، (العصر، التقطيع إلى شرائح، الغلى، التعليب والتقليب، البشر، التلميح، التجفيف، الوزن وتشميع القوارير) توقف.

«شاكو سرڤانو(١٠٩) » بدأ الهمس ينتقل متجولاً ، وُضعت جانبا سكاكين التقطيع. تُركت الخضراوات، نصف مقطوعة فوق قصعات هائلة من صلب ، القرعُ المرُ تُرِكَ مهجوراً ، والأناناس غير مكتمل ، خُلعت واقيات الأصابعِ المطاطية (لامعة مثل كبابيت مرحة سميكة) ، الأيدى المنقوعة في التخليل غُسلت ومُسحت فى مرايل زرقاء بلون الكوبلت ، خصلات شعر كان يُمسك بها وتُعاد إلى ندوب الرأس البيضاء ، الموندوات المشمرة تحت المرايل أرخيت ، أبواب المصنع المكونة من أسلاك معدنية منسوجة بصلابة، ذات مفصلات ناتئة، تغلق فى ضجة شديدة على مسئوليتها الخاصة.

وعلى أحد جانبى الطريق الخاص، إلى جوار البئر القديمة، فى ظلال شجرة «الكودام بولى» (١١٠) احتشد جيش صامت فى مرايل زرقاء، فى الحرارة الخضراء،

يراقب، جيش يرتدى المرايل الزرقاء، وغطاء الرأس الأبيض، مثل كتلة أعلام زرقاء وبيضاء طريفة أنيقة.

«أكو چوسى، ياكو، أنيان، ألايان، كوتان، فيجايان، ڤاوا، جوى، سوماتى، آمال، أناما، كاناكاما، لاثا، سوشيلا، فيجاياما، جولى، كوتى، مولى كوتى، بيناامول» (فتيات بأسماء سيارات الركاب) ، هجمات الضجر والتبرم المبكرة كانت تختفى تحت طبقة سميكة من الولاء.

استدارت البليموث الزرقاء فى لون السماء عند البوابة، وسارت تقرقش فوق حصى الطريق الخاص تطحن الصدف الصغير ، وتكسر الحصباء الصغيرة الحمراء والصفراء. هرول الأطفال.

انهارت النافورات.

تسطحت لَفّاتُ الشعر.

سراويل صفراء مجعدة ذات مؤخرات واسعة متوهجة وحقيبة «جو – جو» التى كانت محبوبة. النافورة تلكأت، بالكاد استيقظت ، ثم البالغون بكعوبهم المتورمة ، البطيئون من كثرة الجلوس.

«هل وصلتم؟» سألت ماماشى، وهى تدير نظارتها المائلة القاتمة نحو الأصوات الجديدة: صوت أبواب السيارة وهى تقفل بعنف ، وخفضت صوت كمانها .

«ماماشى !» : قالت راهيل لجدتها العمياء الجميلة ، « لقد تقيأ إستا ! فى منتصف صوت الموسيقى ! و...».

لست آمو ابنتها برقة– على كتفها – وكانت لمستها تعنى ش هـ هـ.... ونظرت راهيل حولها ورأت أنها فى تمثيلية غير أن دورها كان دوراً صغيراً فقط.

كانت مجرد منظراً طبيعياً ريفياً . ربما وردة أو شجرة.

وجه فى الزحام ، واحدة من أناس المدينة.

لم يقل أحد لراهيل هالو، ولاحتى الجيش الأزرق الواقف فى الحرارة الخضراء.

«أين هى؟» سألت ماماشى أصوات السيارة ، «أين عزيزتى صوفى مول؟ تعالى هنا ودعينى أراك».

بينما كانت تتحدث تداعى وتساقط برفق مثل التراب «لحن الانتظار» الذى كان يحلق فوقها مثل مظلة معبد فيل تتلألأ.

شاكو، في حلته، حلة : « ماذا حدث لرجلنا رجل الجماهير؟» ورباط عنقه الذى اعتنى به عناية جيدة، قاد مرجريت كوشاما وصوفى مول منتظراً صاعداً الدرجات الحمراء التسع، وكأنهما زوج من غنائم التنس التى كسبها مؤخراً.

مرة أخرى، لم يقل أحد غير «الأشياء الصغيرة» فقط ، وقبعت الأشياء الكبيرة فى الداخل لاتقال «هالو ماماشى» : قالت مرجريت كوشاما فى صوت المدرسة الحنون (والذى يصفح فى بعض الأحيان) ، «شكراً لك لاستضافتنا. كنا فى حاجة شديدة للإفلات والفرار».

شمت ماماشى نفحة عطر ثمين غدا حمضيًا عندما انتهى بسبب عرق السفر الجوى ، (هى ذاتها لديها قارورة من «ديور» فى كيس جلدى ناعم أخضر، موضوع فى خزانتها الحديدية).

أخذت مرجريت كوشاما يدَ ماماشى، كانت الأصابع لينة. والخواتم الياقوتية صلبة.

« هالو ، مرجريت » : قالت ماماشى (ليست وقحة ، وليست مهذبة) ، نظارتها القاتمة على عينيها «مرحبًا بك فى أيمينم ، آسفة إننى لا أستطيع رؤيتك ، إننى أكاد، كما تعلمين ، أكون ضريرة» ، تحدثت بطريقة بطيئة متعمدة.

«أوه، ذلك حسن»، قالت مرجريت كوشاما ؛ «إننى على ثقة بأننى أبدو بشعة على أى حال» ، وضحكت فى تردد وهى غير واثقة إن كان ذلك هو رد الفعل الصحيح.

«خطأ»: قال شاكو، استدار إلى ماماش ، وهو يبتسم ابتسامة فخار لم تستطع أمه رؤيتها، «إنها جميلة كما انت دوماً».

«لقد أسفت أسفًا شديداً عندما سمعت بما حدث ... لچو » ، قالت ماماشى. كان صوتها يحمل فقط رنة أسف ضئيلة، وليس أسفًا شديداً.

كانت هنالك لحظة صمت قصيرة حزنًا على چو.

«أيـن عزيزتـي صـوفى مـول؟» ، قـالت مـامـاشى : «تعـالى هنا ودعى جـدتك تنظر إليك».

أُقتيدت صوفى مول إلى مـاماشى ، دفعت مـاماشى بنظارتها الشـمسيـة القاتمة إلى أعلى فى شعرها، بدت مثل عينى قطة مائلتين عند رأس الثور البرى المتعفنة ، قال الثور البرى المتعفن، بلغة الثور البرى المتعفنة : « كلا، كلا، على الإطلاق».

لم يكن فى وسع ماماشى، حتى بعد زرع القرنية لها، أن ترى غير الضوء والظل. فإن وقف أحـد فى المدخل، ففى وسـعها القول : ، إن هـنالك أحداً واقفًـا فى المدخل. لكنها لا تعرف من هو. إن فى وسـعها أن تقرأ شيكا، أو إيصـالاً، أو ورقـة مالية فقط إن كانت قريبة بما يكفى كى تلمسـها أهداب عينيها، إنها حينذاك تثبتـها وتحرك عينها على امتدادها ، تسير بها من كلمة إلى كلمة.

رأى أهل البلدة ماماشى (فى فسـتانـها البديع) تقرب صـوفى مـول من عينيها كى تراها ، لتقرأها كما تقرأ الشيك. لتفحصـها كما تفحـص ورقة مالية ، رأت مـاماشى (بعينيها الأفضل) شعراً بنيًا يميل إلى الحمرة (لـ ... لـ (١١١) تكاد تكون شـقـراء)، انحناءة وجنتين سـمينتين بهما نمش (لـ لـ لـ لـ ... تكاد تكون ورديّة)، عينَيْن زرقاوين زرقة رمادية.

«أنف باباشى » : قالت ماماش ،. « أخبرينى، هل أنت فتاة جميلة؟» سألت صوفى مول.

«نعم » : قالت صوفى مول.

«وطويلة؟»

«طويلة بالنسبة لعمرى» : قالت صوفى مول.

«طويلة للغاية» : قالت بيبى كوشاما، « أطول بكثير من إستا ».

«إنها أكبر منه سنًا » ، قالت أمو.

«ولو...» : قالت بيبى كوشاما .

قطع ڤيلوتا الوصلة المباشرة المختصرة، من الطريق الذى يبعد قليلاً، عبر أشجار المطاط ، كان عارى الجسد ولفة سلك كهربائى معزول ملفوفة فوق أحد كتفيه ، كان يرتدى الموندو المطبوع بالأزرق القاتم والأسود، والمطوى طيات سائبة إلى ما فوق

ركبتيه ، وعلى ظهره كانت ورقته الميمونة من الشجرة التى تترك علامة عند الميلاد (والتى تجعل الرياح الموسمية تجىء فى موعدها) ، ورقة خريفية أثناء الليل.

رأته راهيل قبل أن يظهر عبر الأشجار ويخطو فى الطريق الخاص، فانسلت من «التمثيلية» وذهبت إليه.

رأتها آمو ذاهبة.

رأتهما يؤديان، بعيداً عن المسرح، «تحيتهما الرسمية» بإتقان ، ڤيلوتا يطأطئ الرأس تحية واحتراماً كما علموه، وانتشر الموندو الخاص به مثل تنورة، مثل عاملة إنجليزية فى معمل ألبان فى «إفطار الملك». انحنت راهيل (وقالت بو). ثم شبّكا الأصبعين الصغيرين وهزّا اليدين بوقار مثلما يفعل رجال البنوك فى مؤتمر ما.

رأت آمو، فى ضوء الشمس، الأرقط الراشح عبر الأشجار الخضراء القاتمة، ڤيلوتا وهو يرفع ابنتها دون جهد وكأنها طفلة منفوخة، مصنوعة من هواء ، ورأت آمو، على وجه راهيل، وهو يطوحها إلى أعلى لتستقر فى ذراعيه، رأت الفرحة الكبرى للصغار المحمولين فى الهواء.

رأت خطوط العضلات على معدة ڤيلوتا وقد غدت صلبة ترتفع تحت جلده مثل تقسيمات على لوح شكولاتة ، اندهشت لقدر التغيير الذى حل بجسده – بهذا الهدوء الشديد، فى جسد صبى مسطح العضلات إلى جسد رجل ، جسد سباح، جسد نجار سباح مصقول بشمع يصقل الجسد صقلاً شديداً.

كانت له عظمتا وجنتين مرتفعتين وابتسامة بيضاء فجائية.

ابتسامته التى ذكرت آمو بڤيلوتا الصبى الصغير. يساعد ڤيليا بابن فى عد ثمار جوز الهند ، ويقدم هدايا صغيرة صنعها من أجلها، مبسوطة على كف راحته حتى يمكنها أخذها دون أن تلمسه ، قوارب ، صناديق، طواحين هواء صغيرة ، كان يدعوها آمو كوتى ، آمو الصغيرة ، رغم أنها كانت أصغر منه بالكثير جداً، إنها وهى تنظر إليه الآن، لا تستطيع أن تمنع نفسها من التفكير فى أن الرجل الذى أحبه يحمل القليل للغاية من الصبى الذى كانه ، ابتسامته كانت القطعة الوحيدة من المتاع الذى حمله من صباه إلى رجولته.

وفجأة ودت آمو لو كان هو الذى رأته راهيل فى المسيرة ، ودت لو كان هو الذى رفع علمه وذراعه المعقد فى غضب ، ودت أن يأوى تحت عباءة بشاشته التى يحرص عليها، غضباً حياً يتنفس ضد العالم المرتب المختال المأمون التى هى ثائرة للغاية ضده.

ودت لو كان هو هذا الشخص.

كانت مندهشة لمدى الاستكانة البدنية لابنتها معه ، مندهشة إذ بدا أن لابنتها شبه - عالم يستبعدها هى كلية ، عالم ملموس من الابتسامات والضحك ليس لها، هى أمها، مكان فيه ، وأدركت آمو بطريقة مبهمة أن غشاوة رقيقة أرجوانية من الحسد قد صبغت أفكارها ، لم تسمح لنفسها بأن تتأمل من ذاك الذى تحسده ، الرجل أم طفلتها ، أم فقط عالمهما عالم الأصابع المتشابكة والابتسامات الفجائية.

الرجل الواقف فى ظل أشجار المطاط ودوائر من ضوء الشمس كالعملات تتراقص على بدنه، يحمل ابنتها فى ذراعيه، نظر إلى أعلى وأمسك بآمو ترمقهما، مئات السنين تداخلت فى بعضها فى لحظة واحدة متلاشية، التاريخ سار فى الطريق الخطأ، أمسك به بعيداً عن الحراس ، سلِخ مثل جلد حية عجوز ، علاماته، ندوبه، جراحه فى حروب قديمة ، وكل الأيام السائرة إلى وراء تساقطت ، لقد ترك وراءه فى غيابه دغدغة، وميضاً محسوساً يمكن رؤيته بوضوح مثلما يمكن رؤية الماء فى النهر أو الشمس فى السماء. يمكن الإحساس به بوضوح مثلما يمكن الإحساس بالحرارة فى يوم حار، أو جذبة سمكة فى خيط مشدود ، كان واضحاً إلى حد أن أحداً لم يلحظه.

فى تلك اللحظة الموجزة، نظر ڤيلوتا إلى أعلى ورأى أشياء لم يرها من قبل ، أشياء كانت ممنوعة إلى هذا الحد، معتمة بغمامات[١١٢] التاريخ.

أشياء بسيطة.

مثال ذلك : رأى أن والدة راهيل امرأة.

وأن لها، عندما تبتسم، غمازتين عميقتين، وأنهما تظلان طويلاً بعد أن تغادر الابتسامة عينيها ، رأى أن ذراعيها البنيين كانا مستديرين وقويين ومتقنين ، وأن كتفيها يبرقان، غير أن عينيها كانت فى مكان آخر، رأى أنه عندما يعطيها هدايا لم يعد من الضرورى تقديمها الآن منبسطة على راحتى يديه حتى لا تلمسه ، قواربه

وصناديقه ، طواحين الرياح الصغيرة التى كان يصنعها ، رأى أنه ليس عليه أن يكون هو المانح الوحيد للهدايا ، كانت أيضاً لديها هدايا تعطيها له.

انسابت هذه المعرفة داخله فى نقاوة وصفاء، أشبه بطرف سكين حاد بارد وساخن فى ذات الوقت ، لم يستغرق كل ذلك غير لحظة فقط.

ورأت آمو أنه قد رأت ، نظرت بعيداً، وفعل هو كذلك أيضاً ، عادت شياطين التاريخ تقاضيهم ، تعيد لفهما فى جلدهما القديم الملىء بالندوب وتجرهما إلى وراء إلى حيث عاشا بالفع، حيث نضع «قوانين الحب» من الذى يجب أن يُحب، وكيف، وإلى أى مدى،

سارت آمو إلى الشرفة، عائدة، تنتفض، إلى داخل التمثيلية .

نظر ڤيلوتا إلى أسفل إلى السفيرة س، إنسكت وهى فى ذراعيه ، أنزلها ، وهو ينتفض أيضاً .

«وانظر إليك !» : قال وهو ينظر إلى فستانها الواهن المضحك ، « جميل للغاية ! هل ستتزوجين ؟ » ووخزته راهيل فى إبطيه، ودغدغته بلا رحمة ، « إيكيلى إيكيلى إيكيلى» (١١٣)!

«لقد رأيتك بالأمس» : قالت .

«أين؟» رفع ڤيلوتا صوته مندهشاً .

«كذاب»، قالت راهيل : «كذاب ومُدعى ، لقد رأيتك بالفعل ، كنت شيوعيا وكنت ترتدى قميصاً ومعك علم ، وأنت تجاهلتنى» .

«أبيو كاشتام» (١١٤)، قال ڤيلوتا ، «هل أنا أفعل ذلك؟ قولى أنت لى. هل يفعل ڤيلوتا ذلك أبداً؟ لابد من أنه شقيقى توأمى المفقود منذ زمن طويل» .

«أى شقيق توأم لك فُقد منذ زمن بعيد؟» .

«أوورومبان الأحمق،،، ذلك الذى يعيش فى كوشى» .

«من أوورومبان هذا؟» ثم رأت طرفة عينه، «أنت كاذب ليس لك أخ توأم معك ! لم يكن أوورومبان، كنت أنت !» .

ضحك ڤيلوتا، ضحكة يعنيها بحق، كانت له ضحكة عذبة .

« لم أكن أنا » قال : « كنت أرقد مريضاً » .

«انظر، أنت تبتسم !» قالت راهيل: «إن هذا يعنى أنك أنت من كان بالأمس، الابتسام يعنى، أنك أنت من كان بالأمس» .

«هذا فى الإنجليزية فقط !» : قال ڤيلوتا: «أما فى المالايالامية فقد كان مدرسى دوماً يقول» : «الابتسامة تعنى أنه لم يكن أنا».

احتاجت راهيل للحظة لفرز هذه من تلك، ثم وخزته مرة أخرى إيكيلى إيكيلى إيكيلى .

دقق ڤيلوتا النظر، وهو مازال يضحك، فى التمثيلية بحثاً عن صوفى «أين عزيزتنا صوفى مول؟ دعينا نلقى عليها نظرة، هل تذكرت إحضارها، أم أنك تركتها وراءك؟»

«لا تنظر هناك» : قالت راهيل بسرعة .

وقفت منتصبة على الحاجز الأسمنتى الذى يفصل أشجار المطاط عن الطريق الخاص، وصفقت يديها على عينى ڤيلوتا .

«لماذا؟» سأل ڤيلوتا .

«لأننى» : قالت راهيل : «لا أود أن تنظر» .

«أين إستامون؟» : قال ڤيلوتا، وهنالك سفيرة (متنكرة فى حشرة لاصقة، متنكرة فى صورة جنية مطار) تتعلق بظهره لافة ساقيها حول وسطه ، وقد عصبت عينيه بيديها الصغيرتين اللزجتين، «أنا لم أره» .

«أوه لقد بعناه فى كوشين»، قالت راهيل باستخفاف، «فى مقابل كيس أرز ومشعل» .

كان زبد فستانها المتيبس يضغط زهوراً مخرمة فى ظهر ڤيلوتا، زهوراً مخرمة ووردة ميمونة تزهر فوق ظهره الأسود .

غير أن راهيل عندما بحثت عن إستا فى التمثيلية، لم تجده هناك .

عودة إلى داخل التمثيلية، حيث وصلت كوشوماريا، قصيرة، وراءها كعكة طويلة.

«وصلت الكعكة»: قالت لماماشى فى صوت مرتفع بعض الشىء، إذ افترضت أن ضعف البصر يؤثر آلياً فى باقى الحواس .

«كـــاندو[١١٥]، كوشوماريا؟» : قالت ماماشي : «هل تستطيعين رؤية عزيزتنا صوفي مول؟» .

«كاندوو، كوشاما» : قالت كوشي ماريا بصوت أكثر ارتفاعا، «أستطيع رؤيتها» .

وابتسمت لصوفي ابتسامة أكثر اتساعًا، كانت في طول صوفي تمامًا، أكثر قصرًا من المسيحيين السريان، رغم أعمالها الطيبة.

«إن لها لون أمها»: قالت كوشوماريا .

«وأنف باباشي»، أصرت ماماشي .

«إنني لا أعرف هذه المسألة، لكنها جميلة للغاية»، صرخت كوشوماريا، «سوندآريكوتي[١١٦]، إنها ملاك صغير» .

كانت الملائكة الصغيرة في لون الشاطئ ويرتدين السراويل ذات المؤخرات الواسعة المتوهجة .

وكانت الشياطين الصغيرة في لون الطين البني ويرتدين فساتين جنيات المطار وفي جباههن نتوءات يمكن أن تتحول إلى قرون، ولديهن نافورات في «الحب في طوكيو»، وعادات قراءة متخلفة .

وفي وسعك، إن دققت النظر، أن ترى إبليس في عيونهن .

أخذت كوشوماريا يديّ صوفي في يديها، وقد جعلت راحتيها إلى أعلى، ورفعتهما إلى رأسها واستنشقت في عمق .

«ماذا تفعل؟» أرادت صوفي مول أن تعرف، اليدان اللندنيتان الرقيقتان أمسكتا بشدة باليدين الأيمينميتين الصلبتين، «من تكون، ولماذا تشتم راحتي؟»

«إنها الطباخة»: قال شاكو، «وتلك هي طريقتها في تقبيلك» .

«تقبيلي؟» لم تكن صوفي مول مقتنعة، لكنها كانت مهتمة .

«أمر مدهش ومذهل للغاية !» قالت مرجريت كوشاما، «إنه نوع من الاستنشاق، هل يفعل الرجال والنساء هذا الفعل ببعضهم البعض أيضاً؟»

لم تكن تقصد أن يكون صدى ما قالت هكذا تمامًا، واحمرت خجلاً ، ثقب فى الكون على هيئة مدرسة مرتبكة .

«أوه، طوال الوقت !» قالت آمو، وجاء الصوت أعلى قليلاً من الغمغمة الساخرة التى كانت تقصدها، «إننا هكذا نصنع الأطفال» .

لم يصفعها شاكو .

وبالتالى فإنها لم ترد له الصفعة .

غير أن الهواء العالق غدا غاضبًا .

«أعتقد أنك، آمو، مدينة بالاعتذار لزوجتى » : قال شاكو فى جوٍّ وقائىٍّ تملكى (آملا ألا تقول له مرجريت كوشاما، «الزوجة السابقة يا شاكو ! وتهز وردة نحوه).

«أوه، كلا !» قالت مرجريت كوشاما. «لقد كانت الغلطة غلطتى ! إننى لم أقصد أن يكون لما قلت مثل ذاك الصدى ألبتة ... إن ما قصدته هو - أقصد أن الأمر فاتن ساحر إذا فكر المرء أن ... »

«لقد كان سؤالك سؤالاً مشروعًا تمامًا»، قال شاكو ، وأعتقد أنه يجب على آمو أن تعتذر».

«هل يجب علينا أن نتصرف مثل قبيلة ملعونة تخلى الله عنها، وقد تم للتو اكتشافها؟» تساءلت آمو.

«أوه، عزيزتى !» : قالت مرجريت كوشاما .

عادت آمو، فى صمت التمثيلية الغاضب (والجيش الأزرق الواقف فى الحرارة الخضراء مازال يراقب) عادت إلى البليموث وأخذت حقيبتها، صفعت الباب، وسارت مبتعدة إلى حجرتها وكتفاها يلمعان ، تاركة الكل يتساءل من أين تعلمت جرأتها ووقاحتها تلك ؟!

والحق يقال : لم يكن الأمر الذى يثير التساؤل بالأمر الهين ؛ لأن آمو لم تكن قد تلقت نوع التعليم، أو قرأت أنواع الكتب، أو التقت بأصناف الناس، الذين يمكن أن يكونوا قد أثروا فيها حتى تفكر بالطريقة التى فكرت بها .

كانت مجرد هذا الصنف من الحيوان.

لقد تعلمت بسرعة شديدة، وهى طفلة، آلا تكترث بحكايات الدّب الأب والدبة الأم التى كانت تُعطى لها لتقرأها، كان الدّب الأب، فى نسختها هى، يضرب الدّبة الأم بالفازات النحاسية ، وقد عانت الدّبة الأم من تلك العلقات فى استسلام صامت.

وراقبت آمو أباها، خلال سنوات نموها، وهو يحيك نسيجه البشع الشنيع. كان ساحراً ظريفًا مع الزُّوار، لا يتوقف إلا قليلاً عن تملقهم إن كانوا من البيض، كان يهب المال للملاجئ الأيتام وعيادات الجذام. عمل جاهداً على أن تكون صورته العامة صورة رجل محنك، نابغة، أخلاقى، لكنه كان يتحول، عندما ينفرد بزوجته وطفليه إلى بلطجى فظيع مرتاب، مع لمحة خبث شرير، كان يضربهم ويهينهم ويفرض عليهم معاناة حسد الأصدقاء والأقارب بأن لهم مثل ذلك الزوج والأب الرائع .

وقد عانت آمو من ليالى الشتاء الباردة فى دلهى مختفية فى سياج «الميهوندى» حول منزلهم (حتى لا يراهما أحد من «العائلات الطيبة») ، لأن باباشى عاد من عمله منحرف المزاج فضربها هى وماماشى وطردهما من منزلهما .

وفى واحدة من مثل تلك الليالى، وكانت آمو فى التاسعة من عمرها، مختفية هى وأمها فى السياج، يراقبان الصورة الظلية الأنيقة «لباباشى» فى النوافذ المضاءة، وهو يمرق من حجرة إلى حجرة، غير قانع بضرب زوجته وابنته (كان شاكو بعيداً فى المدرسة) يمزق الستائر، يركل الأثاث ويحطم مصباح إحدى المناضد، بعد ساعة من انطفاء الأضواء قامت آمو الصغيرة بالزحف، مزدرية خوف ماماشى ونزيفها، عائدة إلى المنزل عبر جهاز تجديد الهواء لإنقاذ أحذيتها المطاطية التى كانت تحبها أكثر من أى شىء آخر، ووضعتها فى كيس ورقى وزحفت عائدة إلى غرفة الاستقبال عندما أُضيئَتْ الأنوار فجأة .

كان باباشى يجلس، على الدوام، فى كرسيه الهزاز الماهونى، يهز نفسه فى الظلام فى صمت، عندما أمسك بها لم ينطق بكلمة، ضربها ضرباً شديداً بعصاه القصيرة ذات المقبض العاجى والجلدة فى رأسها (العصا التى كان يضعها على حجره فى صورته الفوتوغرافية التى أخذها فى الأستوديو)، لم تبك آمو، وعندما انتهى من ضربها فرض عليها إحضار مقص ماماشى الكبير الذى تستخدمه فى القصقصة من دولاب الحياكة، وقام عالم الحشرات الجليل، بينما آمو تراقب، بتمزيق أحذيتها

المطاطية الجديدة بمقص أمها الذى تستخدمه فى القصقصة، وسقطت سلخات المطاط الأسود على الأرض، والمقص يُصدر أصوات المقص المكتومة، وقد تجاهلت آمو وجه أمها المرسوم الخائف الذى ظهر فى النافذة، استغرق الأمر عشر دقائق لتمزيق أحذيتها المطاطية المحبوبة كلية، وعندما تماوجت فوق الأرضية آخر سلخة من المطاط نظر والدها إليها بعينين باردتين مسطحتين، وهو يهز ويهز ويهز نفسه، يحيط به بحر من حيات مطاطية تتلوى .

وتعلمت آمو أن تعيش، وهى تكبر سنًا، بهذه القسوة المحسوبة، ونما فى داخلها إحساس رفيع بالظلم، وتلك اللمحة العنيدة اللامبالية التى تنمو فى شخص ما صغير عندما يهدد حياته كلها ويستبد بها شخص ما كبير، إنها تحديداً لم تفعل أى شىء لتجنب الخناقات والصدامات ويمكن، فى الحقيقة ، القول : إنها سعت إليها، بل ربما استمتعت بها .

«هل ذهبت ؟» : سألت ماماشى الصمت المحيط بها .

«لقد ذهبت»، قالت كوشوماريا فى صوت مرتفع .

«هل مسموح لكم قول "اللعنة" فى الهند ؟ » : سألت صوفى مول .

«من الذى قال اللعنة ؟ » : سأل شاكو .

«هى التى قالت » : قالت صوفى مول، «عمتى آمو»، لقد قالت "قبيلة ملعونة تخلى الله عنها » .

« اقطعى الكعكة وأعطى كل امرئ قطعة » : قالت ماماشى .

«من غير المسموح لنا قولها فى إنجلترا» قالت صوفى مول لشاكو .

«غير مسموح لكم بماذا؟» قال شاكو .

«غير مسموح بقول الـ لـ ع ن هـ» قالت صوفى مول .

بدت ماماشى ضريرة فى ما بعد الظهر المتألق، «هل الكل هنا؟» سألت .

«نعم، كوشاما»، : قال الجيش الأزرق الواقف فى الحرارة الخضراء، «إننا جميعًا هنا» .

قالت راهيل لڤيلوتا خارج التمثيلية: «إننا لسنا هنا؟ هـل نحـن هـنا ؟ إننا حتى لا نشارك فى التمثيلية» .

«هذا صحيح تماما » : قال ڤيلوتا، « إننا حتى لا نشـارك فى التمثيـلية، غيـر أن ما أود أن أعرفه هو، أين عزيزنا إسثابابى شاشين كوتابن بيترمون؟» .

وغدا ذلك أشبه برومبلستيلتسكين(١١٧) مسرورة مبهورة ترقص بين أشجار المطاط.

أوه إسثابابى شاشين كوتابن بيترمون .

أين ؟ أوه .. إلى أين ذهبت؟

وتدرج الأمر من رومبلستيلتسكين إلى نبات كزبرة الثعلب القرمزية.

إننا نبحث عنه هنا، إننا نبحث عنه هناك.

هؤلاء الفرنسيون يبحثون عنه فى كل مكان .

هل هو فى السماء؟ هل هو فى الجحيم؟

ذلك الشيطان الملعون الذى بلا نفع إسثابن؟

قطعت كوشوماريا قطعة من الكعكة كَعَيِّنة حتى تحظى بموافقة ماماشى.

«كل شخص قطعة واحدة»، أكدت ماماشى لكوشوماريا، وهى تلمس القطعة لمسًا خفيفًا بأصابعها ذات الخواتم المحلاة بالياقوت لترى إن كانت صغيرة بما يكفى.

ونشرت كوشوماريا بقية الكعكة بطريقة مرتبكة مجهدة وهى تتنفس من فمها، وكأنها تقطع كتلة من حمل مشوى ، ووضعت القطع فوق صينية كبيرة فضيةً، وعزفت لماماشى على كمانها لحنَ «مرحبًا بك فى منزلك، عزيزتنا صوفى مول». لحنًا من شكولاته تَصُدُّ الشهية ، من حلوى لزجة، بنية ذائبة – موجات من شكولاتة على شاطئ من شكولاتة .

رفع شاكو، فى وسط الأغنية، صوته فوق صوت الشكولاتة ، «ماما» : قال (فى صوته صوت القراءة المرتفع). «ماما ! ذاك يكفى ! كفى كمانًا» !.

أوقفت ماماشى العزف ونظرت فى اتجاه شاكو. توازنت الانحناءة فى منطقة من الهواء ليست قرب الأرض مباشرة.

«كفى؟ هل تعتقد أن ذلك يكفى، شاكو؟»

«أكثر من كافٍ »، قال شاكو.

«ما يكفى يكفى » : تمتمت ماماشى لنفسها، «أعتقد أننى سأتوقف الآن » ، وكأن الفكرة قد واتتها فجأة.

وضعت الكمان فى صندوقها الأسود الذى على هيئة كمان ، كان يغلق مثل حقيبة. وأُغلق على الموسيقى معها.

تكتكة، وتكتكة .

ارتدت ماماشى نظارتها القاتمة مرة أخرى، وسحبت الأقمشة الجوخية عبر اليوم الحار .

خرجت آمو من المنزل ونادت على راهيل .

«راهيل أريد منك أن تنامى إغفاءة ما بعد الظهيرة ! تعالى بعد أن تنالى كعكتك !»

وغطس قلب راهيل، إغفاءة ما بعد الظهيرة، إنها تكره تلك الأشياء .

وعادت آمو إلى داخل المنزل .

أنزل ڤيلوتا راهيل، فوقفت مخذولة على حد الطريق الخاصة، عند طرف التمثيلية، «إغفاءة» تلوح فى أفقها جسيمة وكريهة .

«وكُفى لو سمحت عن أن تكون بينك وبين ذلك الرجل أُلفَةٌ زائدةٌ هكذا !» قالت بيبى كوشاما لراهيل .

«ألفة زائدة؟» : قالت ماماشى : « ما هى هذه الألفة الزائدة يا شاكو؟ ومع من هنالك ألفة زائدة؟»

«راهيل»: قالت بيبى كوشاما .

«ألفة زائدة مع من (١١٨)»

«مع من (١١٩) ؟» صحح شاكو .

«حسنًا، مع من هى فى ألفة زائدة؟» : سألت ماماشى .

«مع محبوبك ڤيلوتا – من يكون غيره؟» : قالت بيبى كوشاما، ثم لشاكو «اسأله أين كان بالأمس، دعنا نضع الجرس فى عنق القط مرة وإلى الأبد» .

«ليس الآن » ، قال شاكو .

«ما الألفة الزائدة؟» : سألت صوفى مول مرجريت كوشاما، ولم ترد عليها .

«ڤيلوتا؟ هل ڤيلوتا هنا؟ هل أنت هنا؟» سألت ماماشى بعد الظهيرة .

«نعم، كوشاما»، خطا ڤيلوتا من بين الأشجار إلى التمثيلية .

«هل عرفت ما الخلل؟» : سألت ماماشى .

«الغسال فى الصمام السفلى»، قال ڤيلوتا «لذا استبدلته وهو يعمل الآن» .

«إذن اجعله يدور»، قالت ماماشى : «فالخزان فارغ» .

«ذلك الرجل سوف يكون عدونا اللدود»: قالت بيبى كوشاما، ليس لقدرتها على كشف الغيب وقد حلت بها فجأة لمحة من رؤية تنبؤية، فقط حتى تسبب له المتاعب، ولم يلتفت أى أحد إليها .

«انتبهوا لكلماتى » : قالت فى مرارة .

«انظروا لها؟» قالت كوشوماريا عندما وصلت إلى راهيل ومعها صينية الكعكة، كانت تقصد صوفى مول، «عندما تكبر فإنها سوف تكون كوشاما، وترفع أجورنا، وتمنح كل منا ساريا من النيلون بمناسبة "الأونام" » (١٢٠)، كانت كوشوماريا تجمع الساريات، رغم أنها لم ترتد واحداً منها ألبتة ، والمحتمل ألا ترتديه أبداً .

«وماذا بعد؟» : قالت راهيل، «وسوف أكون حينذاك عائشة فى أفريقيا» .

«أفريقيا؟» ضحكت كوشوماريا مستهزئة، «إن أفريقيا مليئة بالناس وبأناس سود دميمين»،

«أنت فقط الدميمة الوحيدة » : قالت راهيل، وأضافت (بالإنجليزية):« أيتها القزعة الغبية!» .

«ماذا قلت ؟» : قالت كوشوماريا مهددة متوعدة، «لا تقولى فأنا أعرف، لقد سمعت وسوف أخبر ماماشى، فقط انتظرى !»

وسارت راهيل إلى البئر القديمة حيث كان هنالك على الدوام نملٌ يمكن قتله، نمل أحمر له رائحة كالفساء حمضية عندما يُعصر، وتبعتها كوشوماريا بصينية الكعكة .

قالت لها راهيل أنها لا تريد أية قطعة من تلك الكعكة الخرقاء .

«كوشومبى» (١٢١) : قالت كوشوماريا: « إن الناس الذين يحسون الغيرة من غيرهم يذهبون إلى جهنم مباشرة» .

«من ذا الذى يحس الغيرة؟» .

«لا أعرف أنا، قولى أنت؟» قالت كوشوماريا بمريلتها المزركشة وقلبها الممرور .

لبست راهيل نظارتها الشمسية وعادت تنظر إلى التمثيلية، كل شيء تلون بلون الغضب، صوفى مول تقف بين مرجريت كوشاما وشاكو، بدت وكأنه يجب صفعها، وجدت راهيل طابوراً كاملاً من النمل المليء بالعصير، كان فى طريقه إلى الكنيسة، وقد ارتدى كله أردية حمراء، كان يجب قتله قبل أن يصل إلى هناك، عُصِرَ بالحجر وهُرِس، لا يمكن أن يكون هناك نمل نتن الرائحة فى الكنيسة .

صدر عن النمل، والحياة تغادره، صوت قرقشة ضئيل مثل جنية تأكل خبزاً محمصاً أو بسكويتاً هشاً مقرمشاً .

كنيسة النمل لابد من أن تكون خالية وأسقف النمل لابد من أن ينتظر فى ملابس النمل الأسقفية المضحكة يؤرجح البخور فى وعاء فضى ولا أحد يجيء، وبعد أن ينتظر قدراً من وقت النمل معقولاً تتشكل على جبهته تقطيبة نمل أسقفية هزيلة مضحكة، ويهز رأسه فى حزن، إنه لابد من أن ينظر إلى زجاج النوافذ المتوهج المبقع ببقع النمل، وعندما ينتهى من النظر إليه فإنه سوف يغلق الكنيسة بمفتاح ضخم ويجعلها مظلمة، ثم يذهب إلى زوجته (إن لم تكن قد ماتت) ويحظيان بإغفاءة النمل فيما بعد الظهيرة .

كرهت صوفى مول السراويل ذات المؤخرات الواسعة المتوهجة، وأحبت منذ البداية الخروج من التمثيلية لترى ماذا تفعل راهيل وراء البئر، إلا أن التمثيلية ذهبت معها، سارت عندما سارت هى، ووقفت عندما توقفت هى، تبعتها ابتسامات الإعجاب، حركت «كوشوماريا» صينية الكعكة بعيداً عن طريق معبودتها بابتسامتها التحتية، بينما

قرفصت صوفى حيث سُحق النمل إلى جوار البئر (غدت مؤخرات السراويل الصفراء الآن طينية مبتلة) .

فحصت صوفى مول القطع المشوهة التى مُثل بها، برائحتها النتنة، بتجرد إكلينكي، كان الحجر مغطى بجثث حمراء مسحوقة وبعض الأرجل القليلة التى تهتز فى وهن .

كانت كوشوماريا تراقب ومعها كسرات كعكتها .

الابتسامات المولعة تراقب بإعجاب .

الفتيات الصغيرات يلعبن.

واحدة بلون الشاطئ.

وواحدة بنّية.

واحدة محبوبة.

وواحدة محبوبة حبًا أقل.

«دعنا نترك واحدة حية حتى يمكنها أن تكون وحيدة » : اقترحت صوفى مول.

تجاهلتها راهيل وقتلتها كلها، ثم جرت فى «فستانها الواهن فستان المطار» مع سراويل قصيرة ملائمة (لم تعد مجعدة) ونظارات شمس لا مثيل لها، واختفت فى الحرارة الخضراء.

ظلت «ابتسامات الإعجاب» موجهة إلى صوفى مول، مثل بقعة ضوء، تفكر ربما أن ابنتي الخال والعمة الظريفتين تلعبان «الاستغماية» معًا، مثلما تفعل، فى الغالب بنات الخئولة والعمومة.

الفصل التاسع

السيدة "بيلاى"، السيدة "إيبن"، السيدة "راجاجوبالان"

تسرب - اليوم - اللون الأخضر من الأشجار، أوراق النخيل الداكنة ترتد مثل أمشاط متدلية فى مواجهة سماء الرياح الموسمية، انزلقت الشمس البرتقالية عبر أسنانها المنحنية القابضة .

سرب من خفاش الفاكهة [١٢٢] ينطلق فى سرعة عبر العتمة .

كانت راهيل فى حديقة نباتات الزينة المهجورة، يراقبها الأقزام المتدلون وشاروبيم منبوذ، تجثم عليها البركة الآسنة، وتراقب هى ضفادع تحجل من حجر إلى حجر يكسوه الزبد، ضفادع جميلة قبيحة .

لزجة، ذات زوائد جلدية، تنق نقيقًا .

أمراء فى شوق وحنين ولا أحد يُقَبِلهم وقد اصطيدوا داخلها، طعامًا للحيات التى تكمن فى عشب يونيو الطويل، خشخشة وحفيف، طعنة ووخزة، لم تعد هنالك ضفادع تقفز من حجر إلى حجر يكسوه الزبد، ولم يعد هنالك أمير يُقَبِّله أحد .

كانت الليلة الأولى التى لم تمطر فيها السماء منذ جاءت .

وفكرت راهيل، «لو كانت» تلك هى واشنطن لكان علىّ الذهاب إلى عملى، ركوب سيارة الركاب، وأضواء الشارع، وأبخرة الغاز، وأشكال أنفاس الناس على زجاج قمرتى الذى لا ينفذ منه الرصاص، صليل العملات التى تدفع نحوى فى الصينية المعدنية، رائحة النقود على أصابعى، والثمل الذى يحافظ على المواقيت بعينيه الوقورتين والذى يصل بالضبط فى العاشرة صباحًا: «هاى، أنت! أيتها العاهرة السوداء !»

إنها تمتلك سبعمائة دولار، وسواراً ذهبياً له رؤوس حيات، غير أن بيبى كوشاما سألتها الآن عن المدة التي خططت لبقائها، وما الذي خططت لفعله من أجل إستا .

لم يكن لديها أية خطط .

لا خطط .

لا مرتكز أساسى تستند إليه .

نظرت مرة أخرى إلى الثقب الذي يلوح في الكون والذى يشبه منزلاً هرمىّ السقف، وتصورت الحياة فى السلطانية الفضية التى أقامتها بيبى كوشاما على السطح، والتي بدت كبيرة بما يكفى ليعيش الناس فيها، يقينا كانت أكبر من بيوت كثير من الناس، أكبر، مثلا، من مساكن كوشوماريا المضغوطة .

ما الذى في وسع «هولك هوجان» و«يام بام بيجيلو» أن يفعلاه، إن ناما هنالك، هى وإستا، متكورين معًا مثل جنينين فى رحم ضحل من صلب؟ وإلى أين يذهبان إن كان هنالك من يحتل «الديش»؟ هل يجب عليهما أن ينزلقا عبر المدخنة إلى حياة بيبى كوشاما وتلفازها؟ هل يهطان على الفرن القديم في صوت يقول «هـ ى ى ا ا غ»! فى عضلاتهما وملابس تبرق مبرقشة؟ هل ينزلق البشر النحاف - ضحايا المجاعة واللاجئون عبر شقوق الباب؟ هل تندس الإبادة الجماعية العرقية بين بلاطات القرميد؟

كانت السماء مكتظة بمواد التلفاز، كان في وسعك إن أنت ارتديت نظارة خاصة أن تراها تدور كالمغزل عبر السماء بين الخفافيش والطيور الزاجلة - الشقراوات، والحروب، والمجاعات، وكرة القدم، وعروض الطعام، والانقلابات، وتسريحات الشعر مثبتة بالرذاذ الذى يرش به الشعر، والذين يصممون كل ما له علاقة بالصدور، ينزلقون نحو أيمينم مثل غواصي السماء، يشكلون أنماطًا فى السماء، عجلات - طواحين، هواء، أزهار متفتحة ، وأخرى غير متفتحة .

«هـ ى ى ا ا غ»!

عادت راهيل إلى الضفادع التى تثير التأمل .

بدينة، صفراء، من حجر إلى حجر يكسوه الزبد، لمست واحدة منها برقة، حركت جفنيها إلى أعلى، بطريقة مضحكة، واثقة بذاتها .

الجفن المختلج (١٢٣)، تذكرت أنها وإستا قضيا، ذات مرة، يوما بكامله يقولان تلك العبارة، هى وإستا وصوفى مول،

المختلج

لمختلج

مختلج

ختلج

تلج

لج

كان ثلاثتهم، فى ذلك اليوم، يرتدون السارى(أردية قديمة قسمت إلى نصفين)، وكان إستا هو خبير الملابس، ثنى طيات «صوفى مول»، أعد «بالو» (١٢٤) راهيل و«البالو» الخاص به، وضع كل واحد من ثلاثتهم بيندى (١٢٥) حمراء على جبهته، وخلال عملية غسل كحل آمو الممنوع لطخوا به كل عيونهم، فبدوا بشكل عام وكأنهم راكونات (١٢٦) ثلاث، تحاول الظهور بمظهر سيدات هنديات، حدث ذلك بعد وصول صوفى مول بأسبوع وقبل أسبوع من وفاتها، كانت حتى ذلك الوقت تعمل بلا تردد طبقا لرؤية التوأمين الفاحصة الواضحة، وكانت قد أربكت كل توقعاتهما،

كانت قد:

(أ) أخبرت شاكو أنه ، حتى وإن كان هو «أباها الحقيقى»، غير أنها تحبه أقل من جو (مما جعله متاحًا - وإن لم يكن هو ميالاً إلى ذلك - كى يكون أبًا بالنيابة لتوأمين من بيضتين شديدى التوق إلى عاطفته) .

(ب) رفضت عرض ماما شى أن تحل محل إستا وراهيل باعتبارهما المفضلين للقيام بعملية التضفير الليلى لشعر ماما شى فى صورة ذيل فأر، وكذلك باعتبارهما من يقوم بِعَدّ شاماتها .

(ج) (والأكثر أهمية) قدرت بذكاء المزاج السائد، ولم تقف عند حد رفضه، لكنها رفضت كلية وبوقاحة مفرطة كل عروض بيبى كوشاما للصداقة وكذا إغراءاتها الصغيرة، و كأن ذلك لم يكن كافيًا فكشفت عن نفسها كإنسانة،

فقد عاد التوأمان ذات يوم من رحلة سرية إلى النهر(استبعدت منها صوفى مول) ووجداها فى الحديقة تبكى، جالسة على أعلى نقطة التفاف لعشب بيبى كوشاما، "كانت تحس بالوحدة"، كما قالت، وقد اصطحبها إستا وراهيل فى اليوم التالى لزيارة ڤيلوتا .

زاروه وهم يرتدون السارى ويسيرون فى تثاقل وبلا رشاقة عبر الطين الأحمر والعشب الطويل (المختلج، لمختلج، مختلج، ختلج، تلج، لج) وقدموا أنفسهم باعتبارهم «السيدة بيلاى»، و«السيدة إيبن» و«السيدة راجاجو بالان»، وقدم ڤيلوتا نفسه وأخاه المشلول «كوتابن» (رغم أنه سرعان ما نام)، وقد حياهم ڤيلوتا بأقصى درجة من (اللطف والكياسة)، خاطبهم جميعاً باعتبارهم كوشاما، وقدم لهم ماء جوز هند طازج كى يشربوه، وتحدث معهم بلا كلفة حول الطقس وحول النهر، وحول حقيقة رؤية أن أشجار جوز الهند قد غدت أقصر طولاً هذا العام، كما حدث لنساء أيمينم، وقدمهم إلى دجاجته الفظة المكفهرة، وأراهم عدة النجارة الخاصة به، ونحت لكل منهم ملعقة خشبية صغيرة .

أدركت راهيل الناضجة، الآن فقط، بعد كل تلك السنوات، أدركت طبيعة ما حدث وعنوبة تلك اللمحة، رجل بالغ يستضيف ثلاث راكونات، ويعاملهم كأنهم سيدات حقيقيات، يتواطأ غريزياً مع حكايتهم التآمرية، ملتفتاً إلى عدم إتلافها بلا مبالاة البالغين، أو عواطفهم .

من السهل، على أى حال، بعثرة حكاية وتحطيمها، كسر سلسلة أفكار - تحطيم جزء من حلم محمول بعناية مثل قطعة من «البورسلين» .

إن أصعب ما يمكن فعله هو ترك الحكاية كما هى، أو السفر مثلما فعل ڤيلوتا .

لقد جعلهم، قبل ثلاثة أيام من «الرعب»، يدهنون أظفاره بطلاء أظفار أحمر لم تعد «أمو» تستخدمه، كان ذلك حاله يوم أن زارهم «التاريخ» فى الشرفة الخلفية، نجار بأظفار مزوقة مبهرجة، وقد نظرت إليها جماعة من الشرطة غير المنبوذين وضحكوا .

« ما هذا ؟» قال أحدهم : « إيه سى- دى سى؟» (١٢٧) .

ورفع آخر حذاءه وقد التفت فى ثنايا نعله دودة ذات ألف رجل، لونها بنى صدئ غامق، ذات مليون رجل .

انزلق آخر شريط ضوء من فوق جناح الشاروبيم، وابتلعت العتمة الحديقة كلها، مثل أصلة (١٢٨)، وظهرت الأنوار فى المنزل .

كان فى وسع راهيل رؤية إستا فى حجرته، جالسًا على سريره المرتب، كان ينظر إلى الظلام عبر النافذة المسيجة بالقضبان، لم يكن فى وسعه رؤيتها وهى جالسة فى الخارج فى الظلام، تنتظر إلى الضوء .

ممثلان سقطا فى مصيدة تمثيلية مبهمة عويصة، دون لمحة حبكة أو حكاية، يتعثران عبر دوريهما، يحتضنان أسى شخص آخر، يحزنان لحزن شخص ما،

عاجزان، بصورة ما، عن تغيير الأدوار، أو شراء ، فى مقابل رسم أو جُعْل، وشم ما، رخيص، لرقية أو تعويذة من محام يحمل درجة خيالية، يجلسهما ويقول لهما، بواحد من طرق عديدة « أنتما لستما الآثمين، أنتما من ارتكب الإثم فى حقه، لم تكونا غير طفلين، لم تكونا المتحكمين، كنتما "الضحية"، ولم تكونا مقترفى الخطيئة» .

كان يمكن توفير المساعدة، لو كان فى وسعهما القيام بذلك العبور، لو كان فى وسعهما أن يرتديا فقط، ولو مؤقتًا، غطاء الرأس والعنق التراچيدى للوقوع ضحية، كان ذلك سيمكنهما من تقطيب وجهيهما، واستدعاء الغضب لما حدث، أو أن يسعيا للتعويض والترضية – وربما أخيرًا، طرد الذكريات التى تعاودهما .

غير أن الغضب لم يكن متاحًا لهما، ولم يكن هنالك وجه حتى يوضع عليه ذلك «الشىء الآخر» الذى يحملانه فى أيديهما الأخرى اللزجة، مثل برتقالة خيالية، لم يكن هنالك مكان توضع فيه، كان يجب أن تُحْملَ، بعناية وإلى الأبد،

كان إستابن وراهيل يعرفان أنه كان هنالك جناة آخرون عديدون (بالإضافة إليهما) فى ذلك اليوم، ولكن كانت هنالك ضحية واحدة فقط، وكان لهذه الضحية أظفار حمراء كالدم وورقة شجر بنية على ظهره تجعل الرياح الموسمية تجىء فى حينها .

لقد ترك وراءه فى الكون ثقبًا ، ينسكب منه الظلام مثل قارٍ سائل، سارت أمهما عبره تتبعه دون أن تستدير لتقول وداعًا، تركتهما وراءها يدوران كالمغزل فى الظلام، دون مرساة أو وسيلة أمان، فى مكان بلا أساس .

بعد ساعات ظهر القمر مما جعل الأصلَة الكئيبة تتخلى عما ابتلعته، وعادت الحديقة إلى الظهور، عادت كلها مندفعة، وراهيل جالسة فيها .

تغير اتجاه النسيم حاملاً لها أصوات الطبول، هدية، وعد بقصة، كانت تقول: «حدث ذات مرة، أن كان يعيش ..» .

رفعت راهيل رأسها واستمعت .

فى الليالي الصافية، كان صوت «الشيندا» (١٢٩) يصل إلى أبعد من أيمينم بكيلومتر، معلنًا عن استعراض للكاثاكا .

ذهبت راهيل، تشدها ذكرى أسقف شديدة الانحدار وجدران بيضاء، ذكرى مصابيح نحاسية مضيئة ومعتمة، وخشب مشبع بالزيت، ذهبت بأمل أن تلتقى بفيل عجوز لم تقتله الصدمة الكهربائية على طريق كوتايام - كوشين السريع، ودخلت المطبخ كى تأخذ جوزة هند .

ولاحظت عند خروجها، أن واحداً من أبواب المصنع رقيقة النسيج قد انخلع عن مفصلاته، واستند إلى المدخل، أزاحته جانبًا ودخلت، كان الهواء مثقلاً بالرطوبة، مُبللاً بما يكفى كى يسبح السمك فيه .

كانت الأرضية تحت زلقة برغوة الرياح الموسمية، ورفرف خفاش صغير قلق بين شعاعات السقف .

دنان المخلل الأسمنتية الواطئة التى تشبه صوراً ظلية فى العتمة جعلت أرضية المصنع تبدو كمقبرة بيتية لموتى أسطوانيِّى الشكل .

البقايا الأرضية «لمخللات ومربات الفردوس» .

منذ زمن طويل مضى، يوم أن جاءت صوفى، قلب السفير أ. بلفيس وعاء مربى قرمزية «وفكر فى فكرتين»، حيث خَلِّل سِرّ كان أشبه بمانجو رقيق أحمر، وبُرشم ووُضع بعيداً .

حقًا، يمكن للأشياء أن تتغير خلال يوم .

الفصل العاشر

النهر فى القارب

بينما كانت تمثيلية "مرحبًا بك في منزلك عزيزتنا صوفى مول" تؤدى على الشرفة الأمامية وكوشوماريا توزع كعكتها على جيش أزرق فى الشمس الخضراء، دفع "السفير أ . الفيس/ س . بيمبرنل [١٣٠] (بِلَفّة شعره) صاحب الحذاء البيج المدبب الأبواب رقيقة النسيج ففتحها إلى مبنى "مخللات الفردوس" الرطب الذى تفوح منه رائحة المخللات، سار وسط دنان المخلل العملاقة الأسمنتية ليجد مكانًا "يفكر فيه، وقد راقبته "أوسا" "بومة مخزن الغلال" والتى عاشت على شعاع يميل إلى السواد قرب ضوء الشمس (والتى أضافت مرارًا نكهة إلى نكهة بعض منتجات الفردوس) راقبته وهو يسير .

سار عبر الليمون الحامض السابح فى ماء أجاج يلزمه النخس من وقت لآخر (وإلا تكونت جزر من فطر أسود لها شكل عش غراب ذى أهداب فى حساء خال من الشوائب) .

عبر حبات المانجو الخضراء المقطعة والمحشوة بالكركم ومسحوق الفلفل الأحمر الحار والمربوطة جميعًا بخيط من قنب، (ولا تحتاج متابعة فترة من الوقت) .

عبر براميل خل زجاجية ذات سدادات من فلين .

عبر أرفف البكتين [١٣١] والمواد الحافظة .

عبر صوانى القرع العسلى، وسكاكين وواقيات الأصابع الملونة .

عبر أكياس الخيش المنتفخة بالثوم والأبصال الصغيرة .

عبر أكياس من حب الفلفل الأخضر الطازج .

عبر دولاب البطاقات الملىء بالبطاقات .

عبر الغراء .

عبر فرشة الغراء .

عبر حوض حديدى به زجاجات فارغة تطفو فى ماء ملىء بفقاعات الصابون .

عبر عصير الليمون .

عبر عصير العنب .

والعودة ثانية،

كان هناك ظلام فى الداخل، لا ينيره غير ضوء يرشح عبر الأبواب رقيقة النسيج المتلبد، وشعاع مترب من ضوء الشمس (لا تستخدمه أوسا) من ضوء السماء، لدغت رائحة الخل والحلتيت [١٣٢] منخرى إستا، غير أنه كان معتاداً عليها ويحبها، كان المكان الذى عثر عليه ليفكر فيه يقع بين الجدار والمرجل الكبير الحديدى والذى كانت توجد به كمية من مربى الموز المغلى حديثًا (بطريقة غير شرعية) والمتروكة لتبرد فى بطء .

كانت المربى ما تزال ساخنة، وكان على سطحها اللزج القرمزى، رغوة حمراء وردية كثيفة تتلاشى فى بطء، فقاقيع موز صغيرة تغرق عميقًا فى المربى ولا أحد يمد يد المساعدة،

إن رجل شراب البرتقال وشراب الليمون يمكنه أن يجىءَ فى أية دقيقة، إنه يأخذ سيارة ركاب كوشين ـ كوتايام ويجىء إلى هناك، وسوف تقدم آمو له كوباً من الشاى، أو ربما عصير أناناس، بالثلج، أصفر فى كوب زجاجى،

حرك إستا المربى الكثيفة الطازجة، بالمحرك الحديدى الطويل، .

الرغوة المتلاشية صنعت أشكالاً رغوية متلاشية .

غراب مسحوق الجناح .

ظفر دجاجة يقبض بشدة .

بومة (ليست أوسا) مغروزة فى مربى سقيمة،

دوامة كئيبة،

ولا أحد يقدم يد العون والمساعدة .

وفكر إستا، وهو يقلب المربى الكثيفة، فكرتين، وكانت الفكرتان اللتان فكر فيهما، هما:

(أ) أى شيء يمكن أن يحدث لأى أحد .

(ب) من الأفضل أن تكون مستعداً .

أما وقد وصل إستا إلى هاتين الفكرتين، فإنه بمفرده كان سعيداً بهذا القدر الضئيل من الحكمة التى لديه .

غدا إستا، بينما المربى الساخنة بلونها الأحمر الضارب إلى الأرجوانى تدور، ساحراً مفعمًا بالحيوية والنشاط مع لفة شعر تالفة وأسنان غير مستوية، ثم "ساحرات ماكبث" .

النار تشتعل والموز يفور .

سمحت آمو لإستا بنسخ وصفة ماماشى لمربى الموز فى كتاب وصفاتها الجديد، كتابها الأسود بظهره الأبيض .

واستخدم إستا، وهو مدرك بالفعل للشرف الذى أسبغته عليه آمو، أفضل ما فى وسعه من خطوط .

مربى الموز (فى أفضل خطوطه القديمة)

اسحق الموز الناضج، أضف ماء لتغطيته وَاطْهُهُ على نار حارة للغاية حتى تصبح الفاكهة لينة طرية ،

استخرج العصارة بالتصفية والترشيح عبر موسلين خشن النسيج .

اوزن كمية مماثلة من السكر وضعها جانبًا .

اطهُ عصارة الفاكهة حتى تتحول إلى اللون القرمزى ويبخر حوالى نصف الكمية،

ومن ثم أعد الجيلاتين (البكتين) .

المقادير ١:٥

أى أربعة ملاعق من البكتين : ٢٠ ملعقة شاى من السكر .

كان إستا يفكر دومًا فى البكتين باعتباره أصغر أخوة ثلاث يحملون مطارقًا، "بكتين، هكتين، وأبدنيجو"، تخيلهم يشيدون سفينة خشبية فى ظل ضوء ورذاذ، مثل أبناء نوح، كان فى وسعه أن يراهم بوضوح فى عقله، يسابقون الزمن، صوت طرقهم يدوى بكآبة تحت السماء التى تحتضن عاصفة ـ قادمة، وفى الجوار، فى الغابة، فى ضوء العاصفة ـ القادمة المرعبة، اصطفت الحيوانات كل اثنين معًا .

فتاة وفتى

فتاة وفتى

فتاة وفتى

فتاة وفتى

أما التوائم فلم يكن مسموحًا لهم بالاصطفاف .

باقى الوصفة كُتبت بأفضل خط جديد لإستا، حروفه ناتئة وحادة، تستند إلى الوراء وكأن الحروف تقاوم تشكيل الكلمات، والكلمات تقاوم أن تصبح جملاً، .

أضف البكتين إلى العصارة المركزة، واطهُ لدقائق قليلة(٥) .

استخدم نارًا قوية، تشتعل بشدة حولها،

أضف السكر واطهُ حتى يتجانس القوام،

بّرد فى بطء،

آمل أن تستمتعى بهذه الوصفة،

بعيداً عن الأخطاء الإملائية، كان السطر الأخير – آمل أن تستمتعى بهذه الوصفة هو الإضافة الوحيدة التى قدمها «إستا» للنص الأصلى،

غلظت مربى الموز وبردت، تدريجيًا، بينما «إستا» يقلب، وصعدت «الفكرة الثالثة» من تلقاء ذاتها من حذائه البيج المدبب،

كانت الفكرة رقم ٣ هى :

(جـ) قارب،

قارب للتجديف عبر النهر، «أكارا»، إلى الجانب الآخر، قارب لحمل المؤونة، الكبريت، الملابس، الأوعية والأوانى، أشياء يحتاجون إليها ولا يمكن السباحة بها،

وقف شعر ذراع إستا منتصبًا ، غدا تقليب المربى تجديفًا بقارب الحركة الدائرية، غدت حركة إلى الأمام والخلف، عبر نهر قرمزى لزج، وملأت المصنع أغنية من أغانى سباق قوارب «أونام»، ثاى ثاى ثاكا ثاى ثاى ثوم !»

إندا دا كورانجاشا، شاندى إثرا ثنجادو ؟»

(هاى، أيها السيد الرجل القرد، لماذا مؤخرتك حمراء هكذا؟)

«بانديل ثوران بويا بول نيراكا موتين نيرانجى نجان»،

(لقد ذهبت إلى مدراس كى أتبرز، وحككت مؤخرتى حتى أدميتها)

طفا صوت راهيل فوق الأسئلة والأجوبة الفظة، بصورة ما، لأغنية القارب،

«إستا ! إستا ! إستا !»

ولم يرد إستا عليها، كان كورس أغنية القارب يجىء همسًا من المربى الغليظة،

ثييوم

ثيثوم

ثاراكا

ثيثوم

ثيم

زيق باب النسيج الرقيق، وأطلت على الداخل جنية المطار بنتوأى القرنين ونظارة شمسية من البلاستيك الأحمر ذات حافة صفراء، أطلت على الداخل والشمس خلفها، تلون المصنع بلون الغضب، كان الليمون الحامض المملح أحمر ، والمانجو الغض النضير أحمرَ، ودولاب البطاقات أحمر ، وشعاع الشمس المترب (والذى لم تستخدمه أوسا ألبتة) أحمرَ،

اغلق باب النسيج الرقيق،

وقفت راهيل فى المصنع الخالى بنافورتها فى «الحب فى طوكيو»، سمعت صوت راهبة تغنى أغنية القارب ، «سوبرانو» واضح يتدفق فوق أبخرة الخل ودنان المخلل،

استدارت إلى إستا المنحنى فوق المرق القرمزى فى القزان الأسود،

«ماذا تريدين؟» سأل إستا دون أن ينظر إلى أعلى،

«لاشىء»: قالت راهيل،

«إذن لماذا جئت إلى هنا؟»

لم تجب راهيل، كان هنالك صمت عدائى قصير .

«لماذا تجدف فى المربى؟» : سألت راهيل .

«الهند بلد حُر » : قال إستا .

لا أحد يستطيع مجادلة ذلك .

الهند كانت بلداً حُرّاً .

فى وسعك أن تضع ملحًا ، أن تجدف فى المربى، إن شئت .

وفى وسع رجل شراب البرتقال وشراب الليمون أن يسير عبر الأبواب رقيقة النسيج .

إن شاء فعل ذلك .

وسوف تقدم له آمو عصير الأناناس، بالثلج .

جلست راهيل فوق حافة دن أسمنتى (أطراف «بُكرام» (١٣٣) واهنة ونسيج مخرم، مغموس برقة فى مخلل المانجو الغض النضير) وجربت واقيات الأصابع المطاطية، ثلاث قوارير زرقاء تحارب بوحشية الأبواب رقيقة النسيج، ترغب فى السماح بالدخول، وأوسا بومة الجرن تراقب الصمت الذى له رائحة المخلل والذى يرقد بين التوأم مثل الكومة،

كانت أصابع راهيل : صفراء ، خضراء ، زرقاء ، حمراء ، صفراء .

وكانت مربى إستا تُقلب .

نهضت راهيل لتغادر، كى تنام إغفاءة ما بعد الظهيرة .

«إلى أين أنت ذاهبة؟»

«إلى مكان ما» .

خلعت راهيل أصابعها الجديدة، واستعادت أصابعها القديمة - أصابع الأصابع الملونة - إنها ليست صفراء، ليست خضراء، ليست زرقاء، ليست حمراء، ليست صفراء .

«إننى ذاهب إلى "أكارا" » : قال إستا وهو لا ينظر إلى أعلى، «إلى منزل التاريخ» .

توقفت راهيل واستدارت، وعلى قلبها فراشة غبراء ذات ذؤابات ظهرية كثيفة بصورة غير مألوفة، تُظهر للعيان جناحيها المفترسين .

بطيئة إلى الداخل .

بطيئة إلى الخارج .

«لماذا؟» : قالت راهيل .

«لأنه قد يحدث أى شىء لأى أحد»، قال إستا، «من الأفضل أن يكون المرء مستعداً» .

لا يمكنك مجادلة ذاك القول .

لم يعد يذهب أى أحد إلى منزل «كارى سايبو»، لقد ادعى فيليا بابن أنه آخر إنسان وقعت عليه عيناه، قال إنه كان مسكونًا، أخبر التوءمين بقصة صدامه مع شبح كارى سايبو، قال : إن ذلك قد حدث منذ عامين، كان يجوب النهر، بحثًا عن شجرة جوزة الطيب كى يصنع عجينة من جوزة الطيب والثوم الطازج لزوجته «شيلا»، إذ كانت راقدة تموت بسبب إصابتها بالسل، وفجأة شم رائحة دخان سيجار (عرفه فى الحال حيث إن باباشى كان معتاداً على تدخين ذات النوع)، ولف فيليا بابن مستديراً وطوح منجله ناحية الرائحة، ثبّت الشبح فى ساق شجرة مطاط، حيث مايزال، طبقًا لرواية فيليابابن، مايزال هناك، كان للمنجل، وقد أدمى بوضوح، رائحة دم عنبرى، يستجدى السيجار .

إن فيليا بابن لم يعثر على شجرة جوزة الطيب ألبتة ، وكان عليه أن يشترى لنفسه منجلاً جديداً، إلا أنه كان راضيًا بمعرفة أن ردود فعله السريعة كالبرق (رغم عينه المرهونة) وحضوره الذهنى هى التى وضعت نهاية للجولات الدموية لشبح محب الأطفال .

طالما أن أحداً لم يخضع لحيلته وخدعته ونزع المنجل منه بسيجار،

إن ما لم يعرفه فيليا بابن (وهو الذى عرف غالبية الأشياء) هو أن منزل كارى سايبو هو «منزل التاريخ» (والذى كانت أبوابه مغلقة ونوافذه مفتوحة) وأن خريطة حياة الأسرة ذات أظفار الأقدام الخشنة، والتى بالداخل قد همست للسحالى على الجدران أن التاريخ قد استخدم الشرفة الخلفية كى يتفاوض حول شروطه ويجمع عوائده ورسومه، وأن التقصير فى الأداء قد أدى إلى نتائج فاجعة، وأنه كان على إستا أن يحافظ، فى اليوم الذى انتقاه التاريخ ليسوى سجلاته، على إيصال المستحقات التى دفعها ڤيلوتا .

لم يكن لدى فيليابابن أدنى فكرة أن كارى سايبو كان هو من يمسك بالأحلام ويعيد الحلم بها مرة أخرى، كان يقتلعها من عقول الأطفال الذين يمرون فى الطريق يلتقطون عنب الثعلب من الكعكة، وأن الأحلام التى اشتهاها أكثر من غيرها، الأحلام التى أحب أن يحلم بها ثانية، كانت الأحلام الغضة لتوءمين جاءا من بيضتين .

لو كان فيليا بابن العجوز المسكين، قد عرف حينذاك أن التاريخ سوف يختاره نائبًا عنه، وأن دموعه وعبراته هى التى سوف تجعل الرعب يبدأ تموجه، فإنه ربما لم يكن يتبختر مثل ديك صغير فى بازار أيمينم، يتباهى كيف سبح فى النهر واضعًا منجله فى فمه (كان طعم الحديد مرًّا فوق لسانه) وكيف أنه وضعه للحظة فقط عندما ركع ليغسل رمال النهر عن عينه المرهونة (كانت هنالك رمال فى النهر فى بعض الأحيان، وخاصة فى الشهور المطرة)، وهنا التقط أول هبة من دخان السيجار، كيف التقط منجله، ولف دائرًا وأطلق المنجل على الرائحة فتبث الشبح إلى الأبد، كل ذلك فى حركة واحدة، إنسيابية، قوية نشطة .

وعندما أدرك دوره فى «خطط التاريخ»، كان الوقت متأخرًا للغاية كى ينقلب على عقبيه، كان قد كنس آثار أقدامه بنفسه، زاحفًا إلى الوراء بمكنسة .

خيم الصمت فى المصنع مرة أخرى وشدد قبضته حول التوءمين، غير أنه كان فى تلك المرة صمتًا من نوع مختلف، صمت نهر عجوز، صمت صيادى السمك وجنيات البحر الشمعية .

«غير أن الشيوعيين لا يؤمنون بالأشباح»، قال إستا، وكأنهما يواصلان بحثًا بتقصى حلول لمشكلة الشبح، كانت مناقشاتهما تتسطح وتتعمق مثل مجارى الجبال مسموعة للآخرين فى بعض الأحيان، وغير مسموعة فى أحيان أخرى .

«هل ستصبح شيوعيًا ؟» : سألت راهيل .

«ربما يجب أن أكون» .

إستا – الـ – عملى .

أصـوات الكعكة المفـتتة البـعـيدة وخطوات أقدام الجيش الأزرق المقـتربة جـعلت الرفيقين يبرشمان السر .

خُلل وبُرشم ووُضع بعيـداً، سر فى دن أشـبه بمانجـو غـض أحـمر، وقد أشـرفت بومة عليه .

لقد وضعت تفاصيل جدول الأعمال الأحمر وتمت الموافقة عليه:

الرفيقة راهيل تذهب لإغفاءة ما بعد الظهيرة، ثم ترقد مستيقظة حتى تنام آمو .

الرفيق إستا يجد العلم (الذى أُجبرت بيبى كوشاما على التلويح به) وينتظرها قرب النهر، وهنالك عليهما أن يستعدا لإعداد ما عليهما إعداده:

فسـتان جنية مـهمل، فسـتان طفلة (يكاد يكون مـخللا) وقد انتصب متصلبًا على مسئوليته فى وسط أرضية حجرة نوم آمو المظلمة .

كـان الهـواء فى الخـارج نشطًا وصـافـيًـا وحـاراً، رقـدت راهيل إلى جـانب آمـو، مستـيقظة تمامًا تـرتدى سـروالهـا القصـير المنـاسب للمطـار، كان فى وسـعـها أن ترى الأزهار المخاطة بطريقة متقاطعة فى اللحاف الأزرق بخياطته المتقاطعة فـوق خـد آمو، كـان فى وسـعـها أن تسـمع خيـاطة ما بعد الظـهيرة الخـياطة الزرقاء المتقاطعة .

مروحة السقف البطيئة، والشمس وراء الستائر .

الدبور الأصفر يزن فى مواجهة لوح زجاج النافذة فى دززززز خطيرة .

رمشة سحلية تأبى الإيمان .

دجاج عالى الخطى فى صحن الدار .

صوت الشمس وهو يجعد الغسيل، يفلفل ملاءات السرر البيضاء .

يصلب أردية السارى المنشّاة، البيضاء ، الرمادية ، والذهبية .

نمل أحمر فوق حجارة صفراء .

بقرة دافئة تشعر بالحرارة ، «أمهو»[١٣٤]، بعيداً .

ورائحة شبح إنجليزى ماكر، مُثبت بمنجل فى شجرة مطاط يطلب سيجاراً .

«أوم ،، عذراً؟ هل حدث وكان معكم أوم .. سيجار، هل حدث لكم ذلك؟»

فى صوت تعليم مدرسى رقيق .

أوه عزيزى .

وإستا فى انتظارها، إلى جانب النهر، تحت شجرة المنجستين التى جاء بها إلى الوطن المبجل ا، جون إيب خلال زيارته إلى «ماندالاى» .

ما الذى كان يجلس إستا عليه؟

ما الذى كان يجلسان عليه دوما تحت شجرة المنجستين ؟ شىء رمادى أشهب، يكسوه الطحلب وحشيشة البحر التى تغطيها السراخس، شىء طالبت به الأرض ، لم يكن كتلة خشبية، أو صخرة .

وقبل أن تكمل راهيل الفكرة نهضت وانطلقت تجرى ، عبر المطبخ ، عبر كوشو ماريا سريعة النوم، كثيفة التجاعيد مثل خرتيت يرتدى فجأة مريلة ذات أهداب .

عبر المصنع .

تتعثر عارية الأقدام عبر الحرارة الخضراء، يتبعها دبور أصفر .

كان الرفيق إستا هنالك تحت شجرة المنجستين، والعلم الأحمر مزروع فى الأرض إلى جانبه – «جمهورية متنقلة»، «ثورة توأم» مع «لفة» فى الشعر .

وما الذى كان يجلس عليه؟

شىء ما تكسوه الطحالب، تخفيه السراخس .

نقر عليه فصدر عنه صوت نقرات جوفاء .

الصمت انغمس وحلق وانقض وتلوى فى أرقام على شكل ثمانية .

يعاسيب ماسية ترفرف فى الشمس مثل أصوات أطفال صاخبة .

أصابع – الأصابع الملونة حاربت السراخس، أزاحت الأحجار، ومهدت الطريق، كان هنالك طرف مبتل بالعرق فيصعب الإمساك به، وطرف آخر للإمساك به .

يمكن للأشياء أن تتغير فى يوم .

كان قاربًا، « فالوما [١٣٥] » خشبيًا دقيقًا .

القارب الذى يجلس عليه إستا ووجدته راهيل .

القارب الذى يمكن أن تستخدمه آمو كى تعبر النهر، لتحب ليلاً الرجل الذى يحبه طفلاها نهاراً .

قارب عتيق إلى حد أن غدت له، على وجه التقريب، جذور .

نبات قارب عتيق رمادى به زهور قارب وثمار قارب، وتحته رقعة على شكل قارب من العشب الذابل، عالم قارب يفر مسرعا .

مظلم جاف بارد - بلا سقف، وأعمى .

نمل أبيض فى طريقه للعمل .

«دويبات» [١٣٦] بيضاء ذات نقط سوداء فى طريقها إلى دارها .

خنافس بيضاء تحفر بعيداً عن الضوء .

جنادب بيضاء معها كمانات من خشب أبيض .

موسيقى بيضاء حزينة .

دبور أبيض ميت .

جلد ثعبان أبيض هش، محفوظ فى الظلام، مفتت فى الشمس .

ولكن هل يمكن لذلك الفالوم الصغير أن يقوم بالمهمة؟ ربما كان عجوزاً للغاية؟ ميتاً تماماً ؟ هل كانت «أكارا» بعيدة تماماً بالنسبة إليه؟

توءمان من بيضتين تطلعا فى حذر عبر نهريهما .

الميناشال .

أخضر رمادى، فى داخله أسماك، فى داخله السماء والأشجار- فى داخله، فى الليل، القمر الأصفر وقد تهشم .

عندما كان باباشى صَبيًا ، سقطت، أثناء عاصفة، شجرة تمر هندى فى داخل النهر، إنها مازالت هناك، شجرة ملساء بلا لحاء، سودتها وفرة المياه الخضراء، أخشاب قذفها السيل على غير هدى،

كان الثلث الأول من النهر صديقهما، قبل أن يبدأ العمق الحقيقى، كانا يعرفان الدرجات الحجرية الزلقة (ثلاث عشرة درجة) قبل أن يبدأ الطين الموحل اللزج، كانا يعرفان عشب ما بعد الظهيرة الذى كان ينساب من مياه «كوماراكوم» الجارية فى اتجاه معاكس للنهر إلى الداخل، كانا يعرفان الأسماك الأصغر حجما، « البالاتى » (١٣٧) المفلطح الأحمق، «البارال» (١٣٧) الفضى، و«الكورى» (١٣٧) المراوغ ذو الشوارب وأحيانًا «الكاريمين» (١٣٧) .

هنا علمهما شاكو السباحة (يطرطشان الماء حول بطن خالهما الرصينة دون عون أو مساعدة)، هنا اكتشفا المسرات التى لا رابط بينها للإفساء تحت الماء .

هنا تعلما صيد السمك، تعلما وضع الديدان الأرضية الأرجوانية الملتفة فى صفانير قصبات صيد السمك التى صنعها ڤيلوتا من سيقان جوفاء ذات عقد من البامبو الأصفر .

هنا درسا الصمت (مثل أبناء صيادى السمك)، وتعلما اللغة المتألقة لليعاسيب .

هنا تعلما الانتظار، تعلما المراقبة، أن يفكرا فى أفكار لا يجهران بها، أن يتحركا مثل البرق عندما يتقوس البامبو الأصفر المنثنى إلى أسفل .

ومن ثم فإنهما يعرفان الثلث الأول من النهر معرفة جيدة، ويعرفان الثلثين التاليين معرفة أقل .

كان الثلث الثانى يقبع حيث يبدأ «العمق الحقيقى»، حيث الموجة سريعة ومؤكدة (فى اتجاه المجرى مع التيار عندما يكون المد منتهيًا، وضد التيار، ضد اتجاه المجرى، مندفعة من المياه الجارية فى اتجاه معاكس للنهر، عندما يكون المد فاعلاً) .

الثلث الثالث كان ضحلاً مرة أخرى، المياه بنية قاتمة، مليئة بالأعشاب وثعابين الماء المندفعة وطين بطىء يئز عبر أصابع الأقدام مثل معجون الأسنان .

كان فى وسع التوءمين أن يسبحا مثل فقمتين وكانا قد عبرا النهر مرات عديدة تحت إشراف شاكو، ثم يعودان بعدها يلهثان، وقد أصابهما الحول لما بذلاه من جهد، ومعهما حجر، غصن أو ورقة شجر من «الضفة الأخرى» كدليل على عملهما البارع، غير أن وسط نهر محترم، أو ضفته الأخرى، لم تكونا مكانا للأطفال كى يتلكأوا فيهما أو يتقاعسوا أو يتعلموا أشياء، لقد طابق إستا وراهيل الثلث الثانى والثلث الثالث من

الميناشال وكان الفرق ملحوظًا، لم تكن السباحة عبره هى المشكلة، كانت المسألة هى أخذ القارب وبه الأشياء حتى يمكنهما أن يستعدا لإعداد ما عليهما إعداده .

حلق فى الجو قلبان سعيدان مثل حدأتين ملونتين فى السماء الزرقاء، لكن النهر (وفى داخله الأسماك، وفى داخله السماء والأشجار) بقبق حينذاك وفار، فى همس أخضر متمهل .

بطيئا غاص القارب العجوز، واستقر عند الدرجة الحجرية السادسة .

وغاص قلبا توءمين جاءا من بيضتين، واستقرا عند الدرجة التى تعلو الدرجة السادسة .

غطت الأسماك السابحة فى العمق أفواهها بزعانفها وضحكت ضحكات جانبية من نظارة راهيل،

وطفت عنكبوتة - قارب بيضاء مع النهر فى القارب ، قاومت قليلاً ثم غرقت، تمزق كيس بيضها قبل نضجه، وغطت مئات العناكب الصغيرة (الخفيفة للغاية على الغرق، الصغيرة للغاية على السباحة) السطح الناعم للماء الأخضر مثل النمش، قبل أن تُجرف إلى البحر - إلى «مدغشقر» لتبدأ قبيلة جديدة من «العناكب المالايالية السبّاحة» .

وفى لحظة، وكأنهما قد ناقشا الأمر (رغم أنهما لم يناقشاه) بدأ التوءمان غسل القارب فى النهر، نسيج العنكبوت وبيوته، الطين، وطفا الطحلب وحشيشة البحر بعيدًا، عندما غدا نظيفًا قلباه ظهرا لبطن وحملاه على رأسيهما مثل قبعة مشتركة تقطر ماءً، واقتلع إستا العلم الأحمر .

موكب صغير (علم ودبور وقارب يسير على أرجل) سلك طريقه المعروف أسفل ممره الصغير عبر الشجيرات النامية تحت أشجار الغابة، تجنب الموكب دغلات حشيشة القريص، والأخاديد وقرى النمل المدرجة جانبيًا والمعروفة، وحاذى حرف الحفرة العميقة التى كان يُستخرج منها اللاتيريت [١٣٨]، والتى غدت الآن بركة ذات شطئان برتقالية شديدة الانحدار، والمياه اللزجة الكثيفة مغطاة بطبقة رقيقة واضحة من الزبد الأخضر، منطقة معشوشبة وافرة الخضرة، غير مأمونة، يتوالد فيها الناموس وتسمن الأسماك غير أنه لا سبيل للوصول إليها .

الممر الذى يجرى موازياً للنهر، يقود إلى فسحة صغيرة غنية بالعشب لا شجر فيها تكتنفها أشجار مزدحمة: جوز الهند، الكاد الهندى، المانجو، «البيليمبى» (١٣٩)، كان هنالك عند حافة الفسحة التى بلا أشجار، والتى يوجد النهر خلفها، كوخ منخفض، جدرانه من اللاتيريت البرتقالى يغطيه ملاط من طين وسقف من قش، وقد استقر قرب الأرض، كأنه يستمع إلى سر يجيء همساً من تحت سطح الأرض، كان لجدران الكوخ المنخفضة لون الأرض التى تقف عليها، بدت وكأنها قد نبتت من بذرة - منزل زرعت فى الأرض، فارتفعت منها أضلع من أرض قائمة الزوايا حوطت المكان، ونمت ثلاث أشجار موز دون نظام فى الحوش الصغير الأمامى والذى كان قد سُيج بحشوات من أوراق نخيل مضفورة .

اقترب القارب السائر على أقدام من الكوخ، تدلى إلى جوار الباب مصباح زيتى مطفأ وقد احترقت البقعة على الحائط خلفه حرقا خفيفا بالسناج الأسود، كان الباب مورويًا ، وفى الداخل كان هنالك ظلام، ظهرت دجاجة سوداء فى المدخل، ثم عادت إلى الداخل، غير مبالية كلية بزيارات القوارب .

لم يكن ڤيلوتا بالمنزل، ولا ڤيليا بابن، لكن كان هنالك شخص ما، انساب صوت رجل من الداخل، ودوى فى الفسحة الخالية من الشجر، كان لصوته صدى المتفرد المتوحد،

صاح الصوت بذات الشيء، مرة ومرة أخرى، وكان يزداد ارتفاعًا فى كل مرة، بصورة أكثر هستيرية، كان مناشدة لثمرة جوَافة نضجت أكثر مما يجب تكاد تقع من شجرتها مما يوسخ الأرض .

«بابيرا - بيرا - بيرا - بيراكا» .

السيد جوجا - جوج - جوج - جوافة)

«اندى مارامبيل ثورالى» .

(لا تتبرز هنا فى دوارى)

« شيتندى يا رامبيل توريكو»

(يمكنك التبرز فى البيت المجاور فى دوار أخى)

«بابيرا - بيرا - بيرا - بيراكا» .

(السيد جوجا - جوج - جوج - جوافة)

كان الصارخ هو كوتابن، شقيق ڤيلوتا الأكبـر ، كـان مـشـلـولا بدءًا من صـدره وما أسفله، كان كوتابن يرقد يوما بعد يوم، وشهراً بعد شهر، بينما يذهب أخوه بعيدًا، ويذهب أبوه إلى العمل، يرقد مسطحًا على ظهره، يرى شبابه يتهادى عبره دون أن يتوقف يبادله التحية، يرقد طوال اليوم يستمع إلى صمت الأشجار المزدحمة تصاحبه فقط دجاجة سوداء متغطرسة، إنه يفتقد أمه، شيلا، التى ماتت فى نفس ركن الحجرة الذى يرقد فيه الآن، لقد ماتت من السعال والبصاق والألم والبلغم، إن كوتابن يتذكر كيف ماتت رجلاها قبل أن تموت بزمن طويل، كيف أصبح الجلد رماديًا بلا حياة، كم كان مخيفًا مراقبة الموت وهو يزحف عليها من أسفل إلى أعلى، لقد ظل كوتابن سهرانًا على رجليه المخدرتين فى رعب متزايد، كان يتحسسهما فى أمل من حين لآخر بعصا كان يضعها مرتكزة إلى الركن حماية لنفسه من الحية التى تجىء للزيارة، لم يكن لديه كلية أى إحساس فى رجليه، فقط دليل بصرى يؤكد له أنهما مازالتا مرتبطتين بجسده، وأنهما رجلاه بحق .

بعد موت شيلا، نُقل إلى ركنها - الركن الذى تخيل كوتابن أنه الركن الذى احتجزه الموت فى منزله لإدارة شئونه القاتلة - ركن للعمل، ركن للملابس، ركن للفات فرش السرر، وركن للموت .

كان يتساءل : إلى متى يحتويه ركنه ؟ وماذا يفعل الناس، الذين لديهم فى منازلهم أكثر من أربعة أركان، بباقى أركانهم ، هل يقدم لهم ذلك خياراً لأكثر من ركن للموت فيه؟

لقد افترض، ليس دون أسباب، أنه سيكون الأول فى عائلته الذى سوف يقتفى أثر أمه، وإلا فإنه سوف يعرف قريبًا، قريبًا للغاية، إن كان هنالك ما هو خلاف ذلك،

كان كوتابن أحيانًا (بحكم العادة وبحكم افتقادها) يسعل كما اعتادت أمه أن تسعل، وكان الجزء السفلى من جسده يقفز مثل سمكة أمسك للتو بها، كان الجزء الأسفل من جسده يرقد كالرصاص، كأنه ينتمى إلى شخص آخر، شخص آخر مات وأمسك بروحه فى مصيدة فعجزت عن الإفلات .

كان كوتابن، على غير مثال ڤيلوتا، باراڤانًا جيداً مأمون الجانب، لم يكن فى وسعه أن يقرأ أو يكتب، كانت تتساقط عليه، وهو راقد على سريره القاسى العسير، قطع من

قش وحصى ورمل من السقف وتختلط بعرقه، وكان يسقط معها، أحيانًا، نمل وحشرات أخرى، وكانت الجدران البرتقالية تمد، فى الأيام الرديئة، أياديها وتنحنى فوقه تتفحصه، مثل أطباء حقودين خبثاء، ببطء، وعن عمد، يعتصرون منه أنفاسه، يدفعونه إلى الصراخ، كانوا أحيانًا يتراجعون من تلقاء أنفسهم، وتكبر الحجرة التى يرقد فيها بصورة مستحيلة، تثير رعبه بشبح تفاهته هو، وكان ذلك يدفعه إلى الصراخ أيضًا .

كان الجنون يحوّم قريبًا فى متناول اليد، مثل نادل متحمس فى مطعم فاخر (يشعل السجائر، يعيد ملأ الأكواب) كان كوتابن يحسد المجانين الذين فى وسعهم السير، لم يكن لديه شك فى عدالة الصفقة، جنونه فى مقابل رجلين قادرين على الخدمة،

وضع التوأم القارب على الأرض، وواجهت القرقعة صمتًا مفاجئًا من الداخل،

لم يكن كوتابن يتوقع وصول أحد،

دفع إستاين وراهيل الباب ففتحاه ودخلا، كانا صغيرين وكان عليهما أن ينحنيا قليلاً ليدخلا، انتظر الدبور فى الخارج فوق المصباح،

«إنه نحن»،

كانت الحجرة مظلمة ونظيفة، تفوح منها رائحة «كرى» السمك ودخان الخشب، التصقت الحمى بالأشياء مثل حمى بسيطة، غير أن الأرضية الطينية كانت رطبة تحت قدمى راهيل العاريتين، كان سريرا ڤيلوتا وفيليا بابن ملفوفين مرتكزين على الحائط، الملابس معلقة على دوبارة، وكان هنالك مطبخ منخفض عليه أوان فخارية مغطاة، ومغارف مصنوعة من قشور جوز الهند الصلبة، وأطباق ثلاثة مطلية بالمينا مشققة ذات حواف زرقاء غامقة، كانت مرتبة منظمة، كان فى وسع رجل بالغ النضج أن يقف منتصبا فى وسط الحجرة، ولكن ليس عند جوانبها، كان هنالك باب آخر منخفض يقود إلى حوش خلفى حيث كان يوجد المزيد من أشجار الموز التى يتلألأ النهر وراءها عبر أوراق الشجر، وقد انتصبت فى الحوش الخلفى قاعدة عمل يستخدمها نجار .

لم تكن هنالك مفاتيح أو دواليب لإغلاقها .

مرقت الدجاجة السوداء عبر الباب الخلفى، ونبشت وهى شاردة فى الحوش حيث نشارة الخشب التى تحملها الرياح فى كل اتجاه أشبه بخصلات شعر شقراء، بدت عند الحكم عليها، من شخصيتها وكأنها قد تربت على نظام غذائى من الفلزات: دلايات، مشابك، مسامير، ومسامير قلاووظ قديمة .

«أبيو [١٤٠] مون ! مول ! [١٤١] ما الذى يمكن بالضرورة أن تفكرا فيه؟ إن كوتابن إنما هو سلة تحت العلاج » : قال صوت مرتبك انفصلت روحه عن جسده، .

استغرق الأمر من التوءمين فترة حتى اعتادت أعينهما الظلام، ثم ذابت الظلمة وبدا كوتابن على سريره، جنى يتألق فى العتمة، كان بياض عينيه أصفر داكنا، بَطْنا قدميه (الطريان من كثرة الرقاد) تبرزان من تحت قطعة القماش التى تغطى رجليه، كانتا ماتزالان مصبوغتين باللون البرتقالى الباهت منذ سنوات السير حافيا فوق الطين الأحمر .

كان جلده فوق مفصل الكعب غليظًا متصلبًا رمادى اللون من احتكاك الحبل الذى يربطه الباراڤانيون حول أقدامهم عندما يتسلقون أشجار جوز الهند .

كان هنالك على الحائط خلفه نتيجة ، المسيح اللطيف الرقيق بشعره الناعم وأحمر الشفاه وحمرة الوجه، وقلب ممتقع مرصع بالجواهر يتوهج عبر ملابسه، كان الربع السفلى من النتيجة (الجزء الذى توجد به التواريخ) مكشكشًا مثل تنورة، وصورة المسيح مصغرة، اثنتا عشرة طبقة من التنورات لشهور العام الاثنى عشر، ولم تمزق منها أية طبقة .

كانت هنالك أشياء أخرى من منزل أيمينم، إما أن تكون قد أُعطيت لهم أو تكون قد استنقذت من صندوق القمامة، أشياء ثرية فى منزل فقير ، ساعة توقفت عن العمل ، سلة مهملات من صفيح مزين بالأزهار، حذاء باباشى القديم لركوب الخيل (بنى، له حلية خضراء) ومايزال به قالب الإسكافى، علب بسكويت عليها صور فاخرة لقلاع إنجليزية وسيدات ذوات شعر معقوص وأرداف صناعية .

ملصق صغير (تبرعت به بيبى كوشاما لأن به بقعة رطبة) معلق تاليًا للمسيح، كان هذا الملصق صورة طفلة شقراء تكتب خطابا والدموع تنساب على خديها، ومكتوب

أسفلها «إنني أكتب لأقول إنني افتقدك»، كانت تبدو وكأن شعرها قد قُص، وأن خصلاتها التي حصدت هي تلك التي تتطاير في حوش ڤيلوتا الخلفي .

أنبوبة بلاستيكية شفافة تمتد من الملاءة القطنية البالية التي تغطي كوتابن إلى زجاجة سائل أصفر يسقط عليها بصيص النور الداخل من الباب، ويقمع سؤالاً كان يثور داخل راهيل، أحضرت له ماءً من قدح صلب من «كوجاه » [١٤٢] فخارية، بدت عارفة بطريقها، رفع كوتابن رأسه وشرب، سالت قطرات منه على ذقنه .

قرفص التوءمان على ردفيهما، مثل عرابين بالغين محترمين في سوق أيمينم .

جلسا صامتين للحظة، كان كوتابن خجلاً، والتوءمان مشغولين، بأفكار القارب .

«هل جاءت مول شاكوسار [١٤٣] ؟ » سأل كوتابن .

«يجب أن تكون» : قالت راهيل في إيجاز .

«أين هي؟»

«من ذا الذي يعرف؟ ربما تكون في الجوار في مكان ما، إننا لا نعرف» .

«هل تحضرانها هنا لأراها؟»

«لا نستطيع » : قالت راهيل .

«لماذا لا تستطيعان؟»

«يجب أن تظل داخل المنزل ؛ إنها رقيقة للغاية، ستموت إن اتسخت» .

«لقد فهمت» .

« من غير المسموح لنا إحضارها إلى هنا ... وعلى أي حال، ليس هنالك ما يستحق الرؤية»، أكدت راهيل لكوتابن ، « إن لها شعراً، ورجلين وأسنان – كما تعرف – الأشياء المعتادة ... فقط هي طويلة بعض الشيء»، وكان ذلك هو التصريح الوحيد الذي أدلت به .

«هل ذلك هو كل شيء؟» قال كوتابن وقد أدرك القصد سريعًا «إذن أين تكمن المشكلة في رؤيتها؟» .

«ليس هنالك من مشكلة » : قالت راهيل .

«كوتابن، إذا تسرب الماء إلى فالوم، هل من الصعب جداً ترميمه وإصلاحه؟» : سأل إستا .

«ليس بالضرورة » : قال كوتابن : « إن ذلك يتوقف على الحالة، لماذا تسأل، من ذا الذى يتسرب الماء إلى فالومه؟»

«فالومنا - ذلك الذى وجدناه، ألا ترغب فى رؤيته؟»

خرجا وعادا بالقارب الرمادى إلى الرجل المشلول ليفحصه، حملاه فوقه مثل سقف ليراه، تساقط الماء منه فى قطرات .

«أولاً، علينا العثور على الأماكن التى يتسرب الماء منها» : قال كوتابن : « ثم علينا سدها» .

«ثم ورق السنفرة»: قال إستا: «ثم الصقل والتلميع» .

«ثم المجدافان»: قالت راهيل .

«ثم المجدافان»، وافق إستا .

«ثم الإبحار»: قالت راهيل .

«إلى أين؟» : سأل كوتابن،

«فقط هنا وهناك»: قال إستا بخفة ورشاقة .

« يجب أن تنتبها » : قال كوتابن : « هذا النهر نهرنا - وهو ليس دومًا بمثل ما يتظاهر به» .

«بماذا يتظاهر؟» سألت راهيل .

«أوه ... كنيسة صغيرة عتيقة ذهبت إلى «أموما»، ساكنة ونظيفة ... تتناول أبامس » (١٤٤) فى الإفطار، «كانجى» و«مين » (١٤٥) فى الغداء، نهر يهتم بما يخصه، لا ينظر يمينًا أو يسارًا .

«وهل هو حقًا ... ؟ »

«إنه حقًا شىء وحشى ... فى وسعى أن أسمعه فى الليل - يندفع قدماً فى ضوء القمر، إنه دومًا فى عجلة، يجب أن تكون حذراً منه» .

«وماذا يأكل حقًا ؟ »

«ماذا يأكل حقًا ؟ أوه ... « ستو » (١٤٦) ... و .... » وفكر فى شىء إنجليزى كى يأكله النهر الشرير .

«شرائح أناناس ... » : افترضت راهيل .

«ذلك حسن ! شرائح أناناس وستو، وهو يشرب الويسكى» .

«وبراندى» .

«وبراندى حقًا» .

«وينظر يمينًا ويسارًا» .

«حقًا»

« ويهتم بأمور الناس الآخرين ،،» .

ثبّت إستابن القارب الصغير على الأرضية الترابية غير المستوية بعدد قليل من كتل الخشب التى وجدها فى ورشة «ڤيلوتا» فى الحوش الخلفى، وأعطى لراهيل مغرفة طبيخ مكونة من مقبض خشبى ملتصق بالنصف المصقول من قشرة جوز هند،

تسلق التوءمان الفالوم وحدقا عبر لجة المياه الواسعة تصاحبهم أنغام ثايى ثايى ثاكا ثايى ثايى ثوم، ومسيح مرصع بالجواهر يراقبهما،

لقد سار فوق الماء - ربما، لكن، هل فى وسعه أن يسبح فوق الأرض؟

فى سراويل ونظارات ملائمة؟ بنافورته كما فى «حب - فى - طوكيو»؟ فى حذاء مدبب ولفة شعر؟ هل كان يمكن أن يتمتع بالتصور والخيال؟

عاد ڤيلوتا ليرى إن كان كوتابن فى حاجة إلى أى شىء، سمع الغناء الخشن الأجش، أصوات شابة، تؤكد بفرحة علم الدراسة البيولوچية للتبرز .

هاى أيها السيد الرجل القرد

لماذا مؤخرتك حمراء هكذا؟

لقد ذهبت للتبرز فى مدراس

وحككتها حتى أدمت !

مؤقتًا، وللحظات قليلة سعيدة، حجب رجل شراب البرتقال وشراب الليمون ابتسامته الصفراء وذهب بعيداً، غاص الخوف واستقر عند قاع المياه العميقة، نام نومة كلب مُستعدّ للنهوض وفرض الظلام على الأشياء دون إعطاء مهلة كافية .

ابتسم ڤيلوتا عندما رأى العلم الماركسى نضراً مزدهراً مثل شجرة خارج بابه، كان عليه أن ينحنى حتى يدخل منزله، إسكيمو استوائى، عندما رأى الطفلين أحس بشىء ينقبض بإحكام فى داخله، لم يستطع فهمه أو إدراكه، إنه يراهن كل يوم بحبهما دون أن يدرى بذلك، غير أن الأمر غدا فجأة أمراً مختلفًا، والآن، بعد أن انزلق التاريخ إلى حذى الحد السيىء لم يحس بقبضة تمسك من قبل بداخله،

طفلاها، همست له همسة مجنونة

عيناها، فمها، أسنانها .

جلدها الناعم اللامع .

دفع بالفكرة بعيداً فى غضب، عادت وقبعت خارج جمجمته، مثل كلب .

« ها !» قال لضيفيه الصغيرين : « ومن هما، أود أن أسأل، هذين الصيادين؟»

« إستا بابيشاشن كوتابن بيتر مون»، «مستر ومسز بليس توميت يو » ، (١٤٧) ومدت راهيل مغرفتها لتُهز فى ترحاب،

هُزت فى ترحاب، مغرفتها، ثم مغرفة إستا .

« وإلى أين، أود أن أسأل ، هما ذاهبان بالقارب؟»

« بعيداً إلى إفريقيا » : صرخت راهيل .

« كفى عن الصراخ » : قال إستا .

سار ڤيلوتا حول القارب، أخبراه أين وجداه .

«وبذا فإن أحدا لا يمتلكه» : قالت راهيل وهى تحس بقليل من الشك والريبة، حيث بدا لها فجأة أنه قد يكون مملوكًا لأحد، «هل كان يتوجب علينا إبلاغ الشرطة؟»

«لا تكونى غبية » : قال إستا .

طرق ڤيلوتا الخشب ثم نظف قطعة صغيرة منه بخدشها .

«خشب جيد» : قال .

«إنه يغرق»: قال إستا: «تسرب الماء» .

«هل يمكنك ترميمه لنا ڤيلوتا بابيشاشن بيتر مون؟» : سألت راهيل .

«سوف نرى ما يمكن عمله ، إننى لا أود أن تقوما بأية ألعاب سخيفة فوق هذا النهر» .

«إننا لن نفعل، نعدك بذلك ، سوف نستخدمه فقط عندما تكون معنا» .

«أولاً، علينا أن نجد أماكن التسريب ... » : قال ڤيلوتا .

«ثم علينا أن نحشوها » : صاح التوءمان، وكأن ذلك هو السطر الثانى فى قصيدة شعرية معروفة تماماً .

«كم سيستغرق ذلك الأمر؟» : سأل إستا .

«يومًا» : قال ڤيلوتا .

«يومًا واحداً ! كنت أعتقد أنك ستقول شهراً »

قفز إستا، وقد انفعل من الفرح بشدة، على ڤيلوتا، ولف رجليه حول وسطه وقبله .

قُسم ورق السنفرة إلى أنصاف متساوية بالضبط، وانكب التوءمان يعملان بتركيز غريب استبعد كل ما عداه .

تطاير غبار القارب حولهم فى الحجرة واستقر فوق الشعر والحواجب، فوق كوتابن مثل سحابة فوق المسيح مثل قربان وذبيحة، كان على ڤيلوتا أن ينتزع ورق السنفرة من أيديهما .

«ليس هنا» : قال بحسم : « فى الخارج» .

التقط القارب عاليًا وحمله إلى الخارج، تبعه التوءمان ، وعيونهما مثبتة على قاربهما بتركيز لا يتذبذب أو يتردد، جروان جائعان فى انتظار أن يُطعما .

رفع ڤيلوتا القارب لهما، القارب الذى جلس عليه إستا ووجدته راهيل، أوضح لهما كيفية متابعة حبيبات الخشب، جعلهما يبدآن بورق السنفرة، عندما عاد إلى الداخل تبعته الدجاجة السوداء، مصرة على أن تكون حيثما لا يوجد القارب .

غمس ڤيلوتا فوطة قطنية فى وعاء ماء فخارى، عصر الماء منها (بغلظة، وكأنها فكرة مرفوضة) وناولها لكوتابن ليمسح الرمل والحصى من وجهه ورقبته .

«هل قالا أى شىء؟» : سأل كوتابن «عن رؤيتهما لك فى المسيرة؟»

«كلا»، قال ڤيلوتا : «ليس بعد، وإن كانا سيقولان، إنهما يعرفان»،

«هل أنت متأكد؟»

هز ڤيلوتا كتفيه وأخذ الفوطة بعيداً ليغسلها، ويشطفها، ويدقها، ويعصرها، وكأنها عقله العاصى المثير للسخرية،

حاول أن يكرهها،

" إنها واحدة منهم" : قال لنفسه، مجرد واحدة أخرى منهم،

لم يستطع،

كانت لديها غمازتان عميقتان عندما تبتسم، كانت عيناها دوماً فى مكان آخر .

الجنون تسلل عبد شق فى التاريخ، استغرق فقط لحظة واحدة .

ساعة فى عملية السنفرة، وتذكرت راهيل إغفاءة بعد الظهيرة، نهضت وجرت تتعثر عبر حرارة ما بعد الظهر الخضراء، يتبعها أخوها ودبور أصفر .

آملة، تتضرع ألا تكون آمو قد استيقظت واكتشفت غيابها .

الفصل الحادى عشر

ربُّ الأشياء الصغيرة

أبحرت آمو، فى بعد ظهيرة ذاك اليوم، عبر حلم يعانقها فيه رجل مرح ذو يد واحدة، فى ضوء مصباح زيتى، لم يكن له ذراع آخر يحارب به الظلال التى كانت تختلج حوله على الأرض ، ظلال لا يراها أحد غيره .

ارتفعت نتوءات من عضلات بطنه أسفل جلده مثل تقسيمات على لوح من شكولاتة .

عانقها فى ضوء مصباح زيتى، بدا وكأنه قد صقل بمادة شمعية تصقل الأجساد صقلاً عاليًا .

كان فى وسعه أن يفعل شيئًا واحدًا فى وقت واحد .

فهو إن أمسك بها، لا يستطيع تقبيلها ، وإن قبلها لا يستطيع رؤيتها، إن رآها لا يستطيع الإحساس بها .

كان فى وسعها أن تلمس جسده بأصابعها لمسًا خفيفًا، وتحس جلده الناعم وقد تحول إلى قشعريرة، كان فى وسعها أن تدع أصابعها تضل طريقها إلى قاع بطنه المسطحة فى لامبالاة، فوق نتوءات الشكولاتة المصقولة تلك، وتترك آثار قشعريرة مثالية غير مستوية على جسده، مثل طباشير مسطح على سبورة، مثل هبة نسيم فى حقل أرز، مثل آثار نفاثة فى سماء أشبه بكنيسة زرقاء، كان فى وسعها أن تفعل ذلك بطريقة غاية فى البساطة، لكنها لم تفعل، كان فى وسعه أن يلمسها أيضًا، لكنه لم يفعل، لأنه خلف عتمة المصباح الزيتى، كانت هنالك، فى الظلال مقاعد معدنية من تلك التى تطوى، مرصوصة فى حلقة، وعلى المقاعد كان هنالك أناس يرتدون نظارات شمسية مائلة بها ماسات زائفة، كانوا جميعًا يحملون كمانات تحت ذقونهم وقد اتزنت

الأقواس عند زوايا متماثلة، كانت أرجلهم جميعًا متقاطعة، اليسرى فوق اليمنى، وكانت الأرجل اليسرى تهتز مرتعشة .

كانت مع البعض منهم صحف، والبعض الآخر ليس معه، كان البعض منهم ينفخ فقاعات لعاب، والبعض الآخر لا ينفخ، غير أن رفرفات مصباح الزيت كانت تنعكس على عدسات عيونهم .

كان هنالك خلف حلقة المقاعد التى تُطْوى شاطئ تتناثر عليه قارورات زجاجية زرقاء محطمة، الأمواج الصامتة جاءت بقارورات جديدة لتتكسر وتتهشم، وتُسحب القديمة بعيدًا فى التيار التحتى، كانت هنالك أصوات زجاج مسنن فوق زجاج، وكان هنالك، على الصخر، خارجًا فى البحر، فى بصيص ضوء أرجوانى، مقعد هزاز من الخشب «الكابلى» والخيرزان المضفور محطمًا .

كان البحر أسود، والزبد يتقيّأ خضرة .

الأسماك تتغذى على فتات زجاج .

الليل يستند بمرفقيه إلى الماء، والنجوم الهاوية تطلق شقشقاتها الهشة .

الفراشات تضىء السماء، لم يكن هنالك قمر .

كان فى وسعه أن يسبح بذراعه الواحدة، وكانت هى تسبح بذراعيها الاثنتين .

كان جلده مملحًا، وهى أيضًا .

لم يترك أية آثار أقدام فوق الرمال، ولا تموجات خفيفة فى الماء، ولا صورة فى المرايا، كان فى وسعها أن تلمسه بأصابعها، غير أنها لم تفعل، فقط وقفا معًا .

ساكنين .

الجلد على الجلد .

نسمة ترابية، ملوثة، رفعت شعرها ونفخته مثل شال متموج حول كتفه الذى بلا ذراع، والذى ينتهى فجأة، مثله مثل جرف .

بقرة حمراء نحيلة ذات عظام حوض ناتئة ظهرت وسبحت مباشرة فى البحر دون أن تبل قرنيها، ودون أن تنظر إلى الوراء .

طارت آمو عبر حلمها على جناحين ثقيلين، مرتجفين، وتوقفت تستريح، تحت جلده تماماً .

كانت قد ضغطت، على وجنتيها، ورودا من الغطاء الأزرق ذى الغرز المتقاطعة.

أحست بوجهى طفليها معلقين فوق حلمها، مثل قمرين مظلمين، قلقين، ينتظران السماح لهما بالدخول.

« هل تعتقد أنت أنها تموت؟» سمعت راهيل تهمس لإستا.

«إنه كابوس ما بعد الظهيرة» : أجاب إستا المدقق ، «إنها تحلم كثيراً».

إنْ هو لمسها، فإنه لا يستطيع الحديث إليها. وإنْ هو أحبها فإنه لا يستطيع المغادرة، وإنْ هو تحدث فإنه لا يستطيع الاستماع، وإنْ هو حارب فإنه لن يستطيع الفوز.

من كان الرجل ذو الذراع الواحدة؟ ما الذى يمكن أن يكونه ؟ "رب الضياع" ؟ «رب الأشياء الصغيرة؟» «رب لحم الأوز» و«الابتسامات الفجائية؟» رب روائح المعدن الحمضية - مثل قضبان سيارة الركاب المصنوعة من الصلب ورائحة يدى كمسارى السيارة من إمساكه بها" ؟

«هل يجب علينا إيقاظها ؟ » : قال إستا.

خصاصات ضوء ما بعد الظهيرة المتأخر تسللت إلى الحجرة عبر الستائر ووقعت فوق راديو آمو الترانسيستور الأشبه بيوسفية والذى تأخذه دوماً معها إلى النهر. (كان يشبه «اليوسفية» أيضاً ، ذلك «الشيء» الذى حمله إستا فى «صوت الموسيقى» فى «يده الأخرى» اللزجة).

قضبان لامعة من ضوء الشمس أنارت شعر آمو المعقود. وانتظرت تحت جلد حلمها، غير راغبة فى إدخال طفليها إليه.

«إنها تقول : إنه لا يجب عليك إيقاظ من يحلمون فجأة ألبتة»، قالت راهيل : « إنها تقول بإمكان إصابتهم بسهولة بأزمة قلبية».

وقررا فيما بينهما أنه من الأفضل إقلاقها بطريقة فطنة، بدلاً من إيقاظها فجأة ، ولذا قاما بفتح الأدراج، وتسليك حلقهما، وهَمَسَا بصوت مرتفع. دندنا نغمة قصيرة. حركا الأحذية ، ووجدا باب دولاب يزيق.

أمو وهى تستريح تحت جلد حلمها، راقبتهما وهى تتوجع من حبها لهما.

أطفأ الرجل وحيد الذراع مصباحه وسار عبر الشاطئ المسن، بعيداً فى الظلال التى يستطيع هو فقط رؤيتها .

لم يترك آثار أقدام على الشاطئ.

المقاعد التى تُطوى طويت، البحر الأسود غدا ناعمًا، الأمواج المتغضنة كُوّيت، الزبد أُعيد وضعه فى قارورات، ووُضعت للقارورات سدادات .

تأجل الليل لحين إشعار آخر .

فتحت أمو عينيها .

كانت رحلة طويلة تلك التى قطعتها، من عناق الرجل وحيد الذراع إلى توأمها غير المتماثل من بويضتين .

« كنت تعانين من كابوس بعد الظهيرة» : أخبرتها ابنتها .

« لم يكن كابوساً» : قالت أمو، «كان حلمًا» .

« لقد اعتقد إستا أنك تموتين» .

« كنت تبدين حزينة للغاية» : قال إستا .

«كنت سعيدة» : قالت أمو، وأدركت أنها كانت كذلك .

« إن كنت سعيدة فى حلم ما، فهل لذلك قيمة؟» : سأل إستا .

«ما الذى له قيمة؟»

«السعادة – هل لها قيمة؟»

عرفت بالضبط ماذا يعنى ابنها، بلغة شعره التالفة .

حيث إن الحقيقة هى : « ماله قيمة فقط هو الذى له قيمة » .

الحكمة البسيطة المستقيمة للأطفال .

إن أنت أكلت سمكًا فى حلم ما، فهل لذلك قيمة؟ هل يعنى ذلك أنك أكلت سمكا؟

الرجل المرح دون آثار أقدام – هل له قيمة؟

تحسست آمو بحثًا عن ترانسيستورها الذى يشبه اليوسفية، وأدارته، غنى أغنية من فيلم يدعى «شيمين».

كانت قصة فتاة فقيرة أُجبرت على الزواج من صياد سمك من شاطئ مجاور، رغم أنها كانت تحب شخصًا آخر، وعندما يكتشف الزوج ذلك الحبيب القديم لزوجته الجديدة، يبحر فى البحر بقاربه الصغير رغم علمه أن عاصفة تغلى، كانت الدنيا ظلامًا وهبت الرياح، دوامة تدور كالمغزل فى قاع المحيط، هنالك موسيقى العاصفة، ويغرق الصياد، يُمتص إلى قاع البحر فى تيار الدوامة الجارف .

عقد المحبان عهد انتحار، ووُجدا صباح اليوم التالى، مغسولان على الشاطئ وذراعا كل منهما حول الآخر، وهكذا يموت الجميع، الصياد وزوجته وحبيبها، وقرش ليس له دور فى القصة، لكنه يموت على أى حال، طلبهم البحر جميعًا .

فى الظلام الأزرق بغرزه المتقاطعة، المزركش بحواشى ضوء مع ورود فى غرز متقاطعة فوق خدها النائم، غنت آمو وتوأمها (كل واحد منهما على جانب من جانبيها) غنت بنعومة مع الراديو اليوسفية، الأغنية التى غنتها نسوة صيادى السمك للعروس الشابة الحزينة وهن يضفرن شعرها ويعدّنها لعُرْسِها من رجل لا تحبه .

«ياندورو موكوڤان موينو بويى»

(ذهب صياد سمك إلى البحر ذات مرة)

«باد يخجاران كاتاثو مونجى بويى»

(هبت الريح الغربية وابتلعت قاربه)

فستان جنية المطار انتصب فوق الأرضية، يدعمه زيده الخاص وتصلبه، هنالك فى الخارج، فى «الميتام » (١٤٨)، « سوارى » (١٤٩) مجعدة ترقد فى صفوف وقد تكرمشت فى الشمس، رمادية وذهبية، حصوات صغيرة استقرت فى ثنياتها المنشاة، حصوات يجب هزها قبل طى السوارى وأخذها لكيِّها .

«أرايائى بينو بيزهاشو بويى»

(حادت زوجته على الشاطئ عن الطريق القويم) .

الفيل الذى أُعدم بالكهرباء (ليس كوشو ثومبان) ، فى «إيتامانور» حُرقت جثته، أقيمت محرقة هائلة على الطريق العمومى، قام مهندسو البلدية المعنية بنشر النابين واقتسامهما معا بطريقة غير رسمية، وبطريقة غير متساوية، صُب فوق الفيل ثمانون صفيحة من «الغى »[١٥٠] لتغذية النيران، ارتفع الدخان فى أبخرة كثيفة نظمت نفسها، فى مواجهة السماء، فى أنماط مركبة، وتجمهر الناس من حوله، على بعد آمن، يقرأون معانى ودلالات تلك الأنماط المركبة .

كانت هنالك أكوام من الذباب .

« أقانى كادالاما كوندو بويى »

(ومن ثم نهضت الأم " البحر " وأخذته بعيداً)

هبطت حدآت «البارياه »[١٥١] على أشجار الجوار، لتراقب الإشراف على الطقوس الأخيرة الخاصة بالفيل الميت، كانت تأمل، ليس بدون سبب، فى قطاف أحشائه العملاقة، مثانة ضخمة، ربما، أو طحال عملاق متفحم .

لم يخب أملها، ولم تشبع شبعًا كليًا .

لاحظت آمو أن كلاً من طفليها مغطىً بتراب ناعم، مثل قطعتين من سكر مترب قليلاً، كعكة غير متماثلة، كان لدى راهيل خصلة شقراء مستقرة بين خصلاتها السوداء، خصلة من حوش ڤيلوتا الخلفى، التقطتها آمو .

«لقد قلت لكما من قبل» : قالت : «إننى لا أود أن تذهبا إلى منزله – إن ذلك لن يؤدى إلاّ إلى المتاعب» .

أية متاعب، لم تقل، لم تكن تعرف .

لقد عرفت بصورة ما، أنها بعدم ذكر اسمه، قد جرته إلى داخل المودة المشوشة لبعد الظهيرة ذاك بغرزه المتقاطعة والأغنية المذاعة فى الترانسيستور الذى يشبه اليوسفية، أحست أنها بعدم ذكر اسمه قد صنعت ميثاقا بين «حلمها » و«العالم»، وأن القابلتين اللتين وُلد هذا الميثاق على أيديهما كانتا، أو يجب أن تكونا، توءمتيها، توءمتى البيضتين اللتين تغطيهما النشارة .

كانت تعرف من هو – رب الضياع، رب الأشياء الصغيرة، بالطبع كانت تعرفه .

أقفلت الراديو اليوسفية، في صمت ما بعد الظهيرة (وقد زركشته حواش من ضوء) تكور طفلاها في دفئها، غطيا رأسيهما بشعرها، أحسا، على نحو ما، أنها رحلت في نومها بعيداً عنهما، لقد استعاداها الآن وراحتي يديهما الصغيرتين منبسطتين فوق جلد الحجاب الحاجز العارى ما بين تنورتها وبلوزتها، أحبا حقيقة أن لون ظهر يديهما البنى هو بالضبط اللون البنى لجلد بطن أمهما .

«انظر، إستا» : قالت راهيل وهى تنقر الخط الناعم المتجه إلى أسفل جنوبا من سرة آمو،

«هنا، حيث ركلناك»، وتابع إستا بأصبعه أثراً فضياً ممتداً هائماً،

«هل حدث ذلك فى سيارة الركاب، آمو»

«على طريق العزبة المتعرج»،

«عندما كان يتوجب على بابا أن يُمسك ببطنك»

«هل كان يتوجب عليك أن تشترى تذاكراً؟»

«هل تسببنا لك فى ضرر ما؟»

ثم جاء سؤال راهيل، فى صوت يتسم باللامبالاة، «هل تعتقدين أنه ربما يكون قد فقد عنواننا؟»

مجرد لمحة سكون فى إيقاع تنفس راهيل جعل إستا يلمس أصبعها الأوسط بأصبعه، والأصبع الأوسط مع الأصبع الأوسط على حجاب أمها الحاجز الجميل، تخليا عن هذا الاتجاه من الأسئلة .

«تلك ركلة إستا، وتلك ركلتى» : قالت راهيل ، « ... وتلك من إستا ، وتلك منى» .

قسما فيما بينهما العلامات السبعة الفضية الممتدة، ثم وضعت راهيل فمها على بطن أمها ومصتها، جاذبة اللحم الطرى فى فمها ، ثم دفعت برأسها إلى الوراء لتعجب ببصقتها البيضاوية اللامعة، والآثار الحمراء الباهتة لأسنانها على أمها .

كانت آمو تتعجب من شفافية تلك القبلة، كانت رائعة مثل الزجاج، لا تكدرها عاطفة أو رغبة . هذان الكلبان الراقدان باستغراق تام داخل الطفلين، ينتظران نموهما، كانت قبلة لا تطالب بقبلة مقابلة .

إنها ليست قبلة غائمة مليئة بالأسئلة التى تريد أجوبة، إنها أشبه بالقبلات المرحِّلة للرجال ذوى الذراع الواحدة فى الأحلام .

ازداد ضجر آمو من تصرفهما فيها تصرف من يمتلكها، أرادت أن تستعيد جسدها، إنه جسدها هى، نفضت طفليها كما تنفض الكلبة جراءها عندما تضيق بهم، جلست وعقصت شعرها فى قفا رقبتها، طوحت رجليها من على السرير، سارت إلى النافذة وسحبت الستائر .

ضوء ما بعد الظهيرة المائل غمر الحجرة، وأنار طفلان فوق الفراش .

سمع التوأمان القفل يدار فى باب حمام آمو .

تَكَّة .

نظرت آمو إلى نفسها فى المرآة الطويلة على باب الحمام وقد ظهر فيها طيف مستقبلها يسخر منها، مخللة، رمادية، عيون راشحة، ورود فى غرز متقاطعة فوق خد مطفأ غائر، نهدان ذابلان مثل جوربين ثقيلين، الشعر الخفيف الأبيض ما بين ساقيها جاف مثل عظمة، نحيفة هزيلة، هشة مثل سرخس مضغوط .

جلد يتقشر، يتناثر مثل الثلج .

وانتفضت آمو .

أصابها ذلك الشعور البارد فيما بعد ظهر حار، شعور بأن «الحياة» قد تم عيشها، كان كأسها مليئًا بالتراب، والهواء، والسماء، والأشجار، والشمس، والمطر، والضوء، والظلام كلها تتحول فى بطء إلى رمال، والرمال سوف تملؤ منخريها ورئتيها وفمها، سوف تجذبها إلى أسفل تاركة على السطح دوامة تدور كالمغزل، مثل أبو جلمبو وهو يغادر عندما يحفر أسفل على الشاطئ .

خلعت آمو ملابسها ووضعت فرشاة أسنان حمراء تحت ثديها لترى إن كانت ستظل باقية، لكنها لم تظل باقية، عندما لمست نفسها كان جلدها مشدودًا أملس، تجعدت حلمتاها تحت يديها، وتصلبتا مثل بندقتين سوداوين تشدان عند الجزء الطّرى من ثدييها، الخط الرفيع الهابط إلى أسفل من سرتها والذى يسير على المنحنى الرقيق لأسفل بطنها، إلى مثلثها المعتم، مثل سهم يرشد مسافرًا ضالاً، محبًا بلا خبرة.

حلت شعرها واستدارت لترى كم طال ونما، تساقط فى موجات وخصلات وكتل صغيرة هشة متجعدة نافرة - ناعمًا فى الداخل، خشنًا فى الخارج - تمامًا أسفل بداية منحنى وسطها القوى نحو ردفيها، كان الحمام ساخنا، خرزات عرق صغيرة

تناثرت على جلدها مثل الماس، ثم انكسرت وسالت إلى أسفل، العرق يجرى أسفل عمودها الفقرى المرتد المتراجع، وتلفتت بنظرة نقدية محدودة إلى استدارتها، ثقيلة إلى الخلف، لم تكن كبيرة فى ذاتها، لم تكن كبيرة من الناحية الجوهرية (كما كان يمكن دون شك أن يقول شاكو - أوكسفورد) كبيرة فقط لأن باقيها كان نحيلاً كان ينتمى إلى جسم آخر أكثر حسية وشهوانية.

كان عليها أن تقر وتعترف بأنهم سوف يؤيدون فى سعادة أن يكون لكل فرد فرشاةإ أسنان، ربما فرشاتان، وضحكت عالية لفكرة السير عارية عبر أيمينم وقد وضعت صفا من فرش الأسنان الملونة بارزة فى كل جانب من مؤخرتها، وأوقفت نفسها سريعًا، رأت قبضة جنون تفر من قارورتها تقفز منتصرة حول الحمام .

وأحست آمو بالقلق من الجنون .

لقد قالت ماماشى أنه يتواصل فى أسرتهم، إنه يحل بالناس فجأة ويمسك بهم وهم فى غفلة، كانت هنالك «باثيل أماى»، والتى بدأت فى سن الخامسة والستين فى خلع ملابسها والجرى عارية على امتداد النهر، تغنى للأسماك، وكان هنالك «ثامبى شاشين»، ما الذى كان يبحث فى برازه كل صباح بإبرة حياكة عن سن ذهبية ابتلعها منذ أعوام مضت، « ود . موثاشين» والذى كان يجب إزاحته من عرسه فى جوال، هل ستقول الأجيال القادمة : «كانت «هنالك آمو - آمو إيب»، تزوجت من بنغالى، جنت جنونا مطبقًا، ماتت شابة، فى مأوى رخيص فى مكان ما» ؟ .

قال شاكو : إن الإصابة بالجنون بين المسيحيين السريان كانت هى الثمن الذى دفعوه لتوالدهم من بعضهم ، وقالت ماماشى إن الأمر لم يكن كذلك .

جمعت آمو شعرها الكثيف ولفته حول وجهها وحدقت أسفل الطريق إلى «العمر» و«الموت» عبر ضفائرها المفروقة، مثل جلاد من العصور الوسطى يحدق عبر الشق الطولى المائل للعين الموجودة فى غطاء الرأس المدبب الأسود ساعة تنفيذ الإعدام، جلادة نحيلة عارية لها حلمتان قاتمتان وغمازتان عميقتان عندما تضحك، لديها سبع علامات ممتدة فضية من توءميها اللذين ينتمى كل منهما إلى بيضة منفصلة، واللذين ولدا فى ظل ضوء شمعة وسط أنباء عن حرب خاسرة .

لم يكن ما يخيف آمو هو ما ينتظرها فى نهاية طريقها، لكنه طبيعة الطريق ذاته، ليس هنالك من أحجار رحى تحدد علامات تقدمها، ولا أشجار تنمو على امتداده،

ولا ظلال مرقطة تظلله، ولا ضباب يتدحرج فوقه ، ولا طيور تحوّم فيها ، ولا التواءات، لا لفات، لا ليات أو دبوس شعر، يلوى فى غموض، ولو للحظة واحدة، رؤيتها الواضحة للنهاية، كان هذا يملؤ آمو برعب فظيع، لأنها لم تكن من نوع النساء اللاتى يردن معرفة مستقبلهن، كان ذلك يرعبها أشد الرعب، لذا فإنها لو منحت رغبة صغيرة فربما كانت هذه الرغبة هى فقط «ألا تعرف» ألا تعرف ما الذى يخبئه لها كل يوم. ألا تعرف أين يمكن أن يكون، الشهر القادم، العام القادم، عشر سنوات قادمة ؟ ألا تعرف فى أى اتجاه يمكن أن يلف طريقها، وما الذى يكمن وراء المنعطف ؟ كانت آمو تعرف، أو «اعتقدت» أنها تعرف، والذى كان فى الواقع أمرًا سيئًا (لأنك لو أكلت سمكًا فى حلم ما، فإن ذلك يعنى أنك قد أكلت سمكا)، والذى عرفته آمو (أو اعتقدت أنها عرفته) كان رائحة الخل الغثة التى تصعد من دنان مخللات الفردوس الأسمنتية، أبخرة جعدت الشباب وخللت المستقبل .

استدارات آمو على نفسها فى مرآة الحمام، وقد جعلت من شعرها غطاءً لرأسها، وحاولت البكاء .

من أجل نفسها .

من أجل رب الأشياء الصغيرة .

من أجل القابلتين التوءمتين المعفرتين بالسكر فى حلمها .

تآمرت الأقدار، فيما بعد تلك الظهيرة، بينما كانت فى الحمام، تآمرت لتغيير مجرى طريق أمهما الغامض بطريقة رهيبة، بينما انتظرهما القارب العجوز فى الحوش الخلفى لڤيلوتا، وبينما كان وطواط صغير ينتظر أن يُولد فى الكنيسة الصفراء - وقف إستا فى حجرة نوم أمهما على مؤخرة راهيل .

حجرة النوم ذات الستائر الزرقاء والدبابير الصفراء التى أثارت قلق ألواح زجاج النوافذ، حجرة النوم التى سوف تعلم جدرانها سريعًا أسرارهم التى تحمل معها العذاب .

حجرة النوم التى أُغلقت أولاً على آمو ثم قامت هى بعد ذلك بإغلاقها على نفسها، حجرة النوم التى قام شاكو، وقد جُن حزنا، بعد جنازة صوفى مول بأربعة أيام، بتحطيم بابها .

«أخرجى من منزلى قبل أن أحطم كل عظمة فى جسدك !» .

منزلى، أناناسى، مخللاتى .

وظلت راهيل لسنوات بعد ذلك اليوم تحلم هذا الحلم: رجل بدين، بلا ملامح، يركع إلى جانب جثة امرأة، يقطع شعرها بخشونة، يكسر كل عظمة فى جسدها، يقصف حتى الصغيرة منها : الأصابع، عظام الأذن طرقعت مثل غصن، طقة طقة، كان الصوت الناعم للعظام المتكسرة، لاعب بيان يقتل مفاتيح البيان، حتى السوداء منها، وراهيل (رغم أنها، بعد سنوات، فى المحرقة الكهربائية، سوف تستخدم العَرقَ الزَلِق لتزحلق يدها من قبضة شاكو) تحب كليهما اللاعب والبيان .

القاتل والجثة .

أخذت، بينما الباب يتهشم فى بطء، فى تقييد شرائط راهيل، التى لم تكن تحتاج إلى تقييد، حتى تتحكم فى راحتيها المرتعشتين .

«اوعدانى أن يُحِبَّ كل منكما الآخر دوما » : قالت وهى تجذب طفليها إليها .

«نعدك » : قال إستا وراهيل، لم يجدا الكلمات التى يخبرانها بها أنه لا يوجد فيما يخصهما، «كل منكما» أو «الآخر» .

عبئان ثقيلان توءمان وأمهما، عبئان ثقيلان مخدران، إن ما فعلاه سوف يرتد إليهما يجردهما، إلا أن ذلك سوف يحدث فيما بعد .

فيما بعد، ناقوس عميق الرنين فى بئر طحلبية، مرتعش يعلوه الفرو مثل قدمى فراشة .

لن يكون هنالك، فى الوقت الحالى، غير التفكك وعدم الترابط، وكأن المعنى المراد قد انسل خلسة من الأشياء وتركها متشظية، منفصلة غير متصلة، ومضة إبرة آمو، لون شريط، نسيج غطاء متقاطع الغرزة، باب يتكسر فى بطء أشياء منعزلة لا تعنى أى شىء، وكأن الذكاء الذى يحل شفرة أنماط الحياة الخفية – الذى يربط الانعكاسات بالصور، الومضات بالضوء، النسيج بالقماش، الإبر بالخيط، الحوائط بالحجرات، الحب بالخوف بالغضب بالندم – قد فُقد فجأة وانعدم .

«احزمى أشياءك وغادرى » : قال شاكو، وهو يخط فوق الحطام، يبدو فوقه ضخماً غير واضح، ومقبض باب مطلى بالكروم فى يده، فجأة يهدأ هدوءاً غريباً، مندهشاً لقوته، لضخامته، لسطوته المستأسدة، لفداحة حزنه الرهيب .

أحمر كان لون خشب الباب المزق .

آمو، هادئة من الخارج، تنتفض من الداخل لا ترفع رأسها عن تقييدها الذى لا داعى له، علبة الشرائط الملونة ترقد مفتوحة على حجرها، فى الحجرة التى فقدت فيها مرتكزها الأساسى،

إنها ذات الحجرة التى سوف تعد فيها آمو (بعد أن أرسل التوءمان الخبيران بردهما من حيدر آباد) صندوق ثياب إستا الصغير وحقيبة السفر القماشية الكاكية: ١٢ صدرة قطنية بلا أكمام، ١٢ صدرة قطنية نصف كم، «إستا ها هو ذا اسمك مكتوب بالحبر عليها». جواربه القصيرة، سراويله الأشبه بأنابيب الصرف، قمصانه ذات الياقات المدببة، حذاءه البيج المدبب (والذى تجىء منه المشاعر الغاضبة)، تسجيلاته لألفيس، حبوب الكالسيوم وشراب الفيدالين الخاص به، زرافته المجانية (والتى جاءت مع الفيدالين)، أجزاء كتبه عن المعرفة من الجزء الأول إلى الرابع، «كلاً يا حبيبتى، لن يكون هناك نهر لاصطياد السمك منه»، إنجيله الأبيض الجلدى الذى يمكن أن ينفتح وينغلق بزمام منزلق له حلقة من الأميثيست [١٥٢] مملوكة لعالم حشرات جليل، كوزه الخزفى، صابونته، هدية عيد ميلاده مقدمًا والتى يجب ألا يفتحها، أربعون خطابًا أخضر للإرسال الداخلى، «انظر إستا، لقد كتبت عنواننا عليها، كل ما عليك أن تفعله هو أن تطويها، انظر إذا ما كنت تستطيع طيها بنفسك»، كان فى وسع إستا أن يطوى الخطاب الداخلى الأخضر بعناية على امتداد الخطوط المنقطة التى تقول «الطى هنا»، ونظر إلى أعلى إلى آمو بابتسامة حطمت قلبها، .

« أتعدنى بأنك ستكتب ، حتى عندما لا تكون لديك أية أخبار ؟ »

«أعدك»، يقول إستا، غير عالم كلية بحالته، الطرف الحاد لإدراكه بهذه الثروة المفاجئة من الممتلكات الدنيوية، أصبح كليلاً، تلك الثروة التى كانت له، وكان اسمه بالحبر عليها، سوف تحزم فى صندوق ملابسه الذى يرقد مفتوحا على أرضية حجرة النوم (واسمه عليه) .

الحجرة التى ستعود إليها، بعد سنوات، راهيل وتراقب غريبًا صامتًا يستحم، وتغسل ملابسه بصابونة زرقاء متألقة متفتته .

إنه مسطح العضلات، بلون الشهد، أسرار البحر فى عينيه، قطرة مطر فضية فوق أذنه .

«إستا بابيشاشن كوتابن بيتر مون» .

الفصل الثانى عشر

كوشو ثومبان

صوت الشسندا[١٥٣] يحوم فوق المعبد مثل عش الغراب، مبرزًا صمت الليل الذى يكتنف المكان، فوق الطريق المبتل الموحش، والأشجار الساهرة اليقظة، خطت راهيل لاهثة، تحمل جوزة هند، إلى داخل باحة المعبد عبر المدخل الخشبى فى الحائط الأبيض المرتفع الذى يشكل حداً .

فى الداخل كانت كل الجدران بيضاء، يغطيها طحلب كالقرميد، وضوء القمر، لكل شىء رائحة مطر حديث، القس النحيل كان نائمًا على حصيرة فى الشرفة المبنية بالأحجار، طبق عملات نحاس كبير يرقد قرب وسادته مثل شريط قرميدى يصور أحلامه، كانت الباحة مفروشة بالأقمار، واحد فى كل بركة طين صغيرة للغاية، كان «كوشو ثومبان» قد أنهى جولاته الشعائرية، ورقد مقيداً إلى وتد خشبى إلى جوار كومة من روثه يتصاعد البخار منها، كان نائمًا، أدى واجبه، أحشاؤه فارغة، وواحد من نابيه يرقد على الأرض، والآخر يتجه إلى النجوم، واقتربت راهيل فى هدوء، رأت أن جلده كان أكثر ارتخاء مما تذكره، لم يعد «كوشو ثومبان» لقد نما ناباه،إنه الآن «فيليا ثومبان»، صاحب الأنياب الكبيرة، وضعت جوزة الهند على الأرض إلى جواره، افترقت تجعيدة جلدية لتكشف عن البريق المائى لعين الفيل، ثم أغلقت واستدعت أهداب العين الطويلة المتدة النوم مرة أخرى، وناب يتجه نحو النجوم .

يونيو موسم متدن لا تنتعش فيه رقصة الكاثاكالى [١٥٤]، غير أن هنالك بعض المعابد لا تمر فرقة إلى جوارها دون أن تقدم بها عرضا، لم يكن معبد أيمينم واحداً منها، لكن الأمور فى تلك الأيام، شكراً لجغرافيته، كانت قد تغيرت .

كانوا يرقصون من أيمينم ليلقوا بأحمال مذلتهم إلى «قلب الظلام»، إنهم يقدمون عروضهم، عروض حوض السباحة المبتورة المقتضبة، لقد تحولوا إلى السياحة درءًا للموت جوعًا .

عند عودتهم من «قلب الظلام»، كانوا يقفون عند المعبد يطلبون المغفرة من آلهتهم، يعتذرون عن إفساد حكاياتهم، من أجل الحصول على نقد مقابل هويتهم، مما جعلهم يستخدمون حياتهم لغرض غير الغرض منها .

فى مثل تلك المناسبات، كان هنالك ترحيب بالنظارة من البشر، غير أن ذلك كان أمرًا عرضيًا تمامًا، فى الممر العريض، المغطى - كان صف «الكوثامبالام» ملاصقًا لقلب المعبد، حيث عاش الرب الأزرق بمزماره، الطبّالون يطبلون والراقصون يرقصون، وألوانهم تتحول فى بطء خلال الليل . جلست راهيل متقاطعة الساقين، وقد أراحت ظهرها إلى استدارة عمود أبيض، علبة طويلة بها زيت جوز الهند ومضت فى الضوء الرجراج للمصباح النحاسى، أعادت الزيت تغذية الضوء، أنار الضوء العلبة .

لم يكن مهمًا أن الحكاية قد بدأت، لأن الكاثاكالى اكتشفت منذ زمن طويل مضى أن سر «القصص العظيمة» أنها بلا أسرار، القصص العظيمة هى تلك التى سمعتها والتى تريد سماعها ثانية، هى تلك التى يمكنك إدخالها فى أى مكان وإسكانها هنالك مستريحة، إنها لا تخدعك بما هو مثير أو بالنهايات القائمة على الغش والاحتيال، إنها لا تدهشك بما لم يكن فى الحسبان، إنها مألوفة مثل المنزل الذى تعيش فيه، أو رائحة جلد حبيبتك، إنك تعرف نهايتها، ومع ذلك تنصت تسمعها وكأنك لا تعرف النهاية، تمامًا كما تعيش وكأنك لن تموت رغم أنك تعرف أنك ستموت يومًا ما، فى القصص العظيمة أنت تعرف من يعيش، من يموت، من يجد الحب، ومن لا يجده، ومع ذلك فأنت تود أن تعرف ثانية .

ذلك هو سرها وسحرها .

إن قصص رجل الكاثاكالى تلك هى أطفاله وطفولته، لقد نما وكبر فى داخلها، إنها الدار التى شب فيها، والمروج التى لعب فيها، إنها نوافذه ووسيلته للرؤية، ولذا فإنه عندما يروى قصة ما فإنه يعاملها كما يعامل طفله : يتحرش بها، يعاقبها، يرسلها إلى أعلى مثل فقاعة، يدفع بها إلى الأرض ثم يتركها تذهب مرة أخرى، هو يضحك منها لأنه يحبها، إن فى مقدروه الطيران بك عبر العالم كله فى دقائق، وفى مقدروه أن

يتوقف ساعات ليفحص ورقة شجر ذابلة، أو يلهو مع ذيل قرد نائم، إن فى مقدروه أن يتحول بلا جهد من مَقْتَلة عظيمة لحرب ما إلى نعيم وهناء امرأة تغسل شعرها فى جدول جبلى، من الفوران الماكر «للراكشاسا» [١٥٥] بفكرة جديدة إلى الثرثرة المالايالية بفضيحة سوف تنتشر، من حسية امرأة معها طفل على صدرها إلى داخل الأذى المغرى لابتسامة «كريشنا» [١٥٦]، فى مقدروه أن يكشف كتلة الأسى الذى تحتويه السعادة، أسماك الخجل الخفية فى بحر المجد والجلال .

إنه يروى قصصاً عن الآلهة، غير أن حكايته الملفقة مغزولة من القلب البشرى غير الإلهى .

رَجُل الكاثاكالى هو أجمل الرجال، جسمه هو روحه – أداته الوحيدة، من سن الثالثة ، تم تخطيطه، صقله وتشذيبه، إعداده كلية لمهمة حكى القصص، هذا الرجل يمتلك سحراً ، وهو داخل قناعه المرسوم بالألوان وتنوراته التى تدور كالدومة .

لكنه غدا فى تلك الأيام غير قادر على العيش أو الحياة، ذلك أمر لا يمكن احتماله، سلع محرمة، أطفال يسخرون منه، إنهم يتوقون لأن يكونوا كل شىء لم يكنه، لقد راقبهم وهم يشبون ليصبحوا كتبة وكمساريِّى سيارات ركاب ، وموظفين من الدرجة الرابعة لا ينشر عنهم شىء لهم اتحاداتهم الخاصة بهم .

غير أنه هو قد تُرك معلقًا فى مكان ما بين السمـــاء والأرض، عاجـــزاً عن فعل ما يفعلون، عاجزًا عن الانزلاق فى ممرات سيارات الركاب، يعد الفكة ويبيع التذاكر، عاجزاً عن الانحناء وراء صوانى الشاى وبسكوتات مارى .

لقد تحول فى يأس إلى السياحة، إنه يدخل السوق، بائعًا مجولاً يبيع الشىء الذى يمتلكه، القصص التى يستطيع جسده أن يرويها .

ويغدو مذاقًا إقليمياً .

(إنهم يسخرون منه فى «قلب الظلام» بعريهم المتهدل وأوقات انتباههم المستوردة، إنه يتحقق فى عمره ويرقص لهم، إنه يجمع أتعابه، يمثل، أو يدخن : « الجونيت » ، عشب كيرالا الطيب، الذى يجعله يضحك ، ثم يتوقف إلى جوار معبد أيمينم، هو والآخرون الذين معه، ويرقصون، ويطلبون عفو الآلهة .

راهيل (بلا خطط ولا مرتكز أساسى) ظهرها إلى العامود تراقب «كارنا» وهو يصلى على ضفاف «الجانجا» وقد غُمد فى درعه الضوئى، كان الابن المكتئب «لسوريا

رب النهار»، «كارنا» الكريم، كارنا الطفل المهجور، كارنا المحارب الأكثر تبجيلاً من الجميع .

فى تلك الليلة كان كارنا متحجراً، وقد رتقت تنورته الممزقة، كانت هنالك ثقوب فى تاجه فى المواضع التى عادة ما كانت توجد بها الجواهر، كانت بلوزته المخملية رثة من كثرة الاستعمال، وكان كعباه مشققين خشنين، وقد استئصل مفصليه منهما .

ولكن إن كانت لديه مجموعة من الرجال المزوقين ينتظرون في الأجنحة، عميلاً ، أو عقداً، أو نسبة من الأرباح – فماذا يكون هو إذن؟ دَجَّالاً؟ مُدَّعيًا ثرى؟ ممثلاً يلعب دوراً، هل يمكن أن يكون هو كارنا؟ أم هل سيكون آمنا للغاية داخل بِركة ثروته ؟ هل ستنمو أمواله مثل لحاء أو قشرة بين نفسه وقصته؟ هل فى وسعه أن يلمس قلبها، أسرارها الخفية بالطريقة التى يفعل بها ذلك الآن؟

هذا الرجل الليلة خَطِرُ، بأسه كامل تام، قصته هى شبكة الأمان التى يهوى ويغطس فوقها مثل مهرج لامع فى سيرك مفلس، إنها كل ماديه للحفاظ عليه من التهشم عبر العالم مثل حجر يسقط من علٍ، إنها لونه وضياؤه، إنها الإناء الذى يصب فيه لنفسه، إنها التى تعطيه شكله، تكوينه، تلبسه عدته، إنها تحتويه، هى حبه – جنونه، أمله، طرحه اللانهائى، وبشكل تهكمى فإن نضاله هو عكس نضال ممثل ما – إنه يكافح لا ليدخل دوراً ولكن ليهرب منه، غير أن هذا هو مالا يستطيع فعله، إن انتصاره الأسمى يكمن فى هزيمته الذليلة، إنه كارنا الذى هجره العالم، كارنا وحيداً، سلع محرمة، أمير نشأ فى الفقر، وُلِدَ ليموت ميتة ظالمة، أعزلَ، وحيداً بين يدىّ أخيه، لكى فى يأسه الكلى، يصلى على ضفاف الجانجا، وقد تحجر ما بعد جُمجمته .

ثم ظهرت «كونتى» [١٥٧]، هى أيضا كانت رجلا، لكنها رجل نما طريًا أنثويًا رجل له تهدان لقيامه بدور النساء لسنوات، كانت حركاتها مائعة، مليئة بالأنوثة، كانت كونتى، أيضًا متحجرة ، مرتفعة على ذات المفاصل المشتركة، لقد جاءت لتحكى قصة لكارنا .

أمال كارنا رأسه الجميل وأصغى .

رقصت له كونتى جمراء العينين ، أخبرته بامرأة شابة مُنحت نعمة وبركة، نصيحة مقدسة يمكنها استخدامها لاختيار حبيب من بين الأرباب ، وكيف قررت المرأة –

يحكمها تهور الشباب - اختبارها لترى إن كانت تعمل حقًا، كيف وقفت وحدها فى حقل خالٍ، وأدارت وجهها نحو السماوات وتلت النصيحة، ما إن غادرت الكلمات شفتيها الحمقاوين، قالت كونتى، حتى ظهر «سوريا رب النهار»، أمامها، وفتن جمال الرب الشاب المضىء المرأة الشابة، فأسلمت نفسها إليه، وولدت بعد تسعة أشهر ابنًا، كان الطفل قد وُلد مُغَلَّفًا بالضوء، له أقراط ذهبية فى أذنيه، ودرع من ذهب على صدره، وقد نقش عليه رمز الشمس .

وأحبت الأم الشابة مولودها الأول بعمق، وقالت كونتى ، لكنها لم تكن متزوجة ولم تستطع الاحتفاظ به، وضعته فى سلة من بوص وألقت به فى النهر، وعثر «أوهيراتا» على الطفل أسفل النهر، وأسماه كارنا .

نظر كارنا إلى أعلى، إلى كونتى، «من كانت هى؟» «من كانت أمى؟» «أخبرينى أين هى، خذينى إليها» .

وأحنت كونتى رأسها، قالت : «إنها هنا، تقف أمامك» .

أحس كارنا بالزهو والغضب لحظة الوحى والإلهام، ورقصته رقصة الارتباك واليأس، سألها: «أين كنتِ عندما كنتُ فى أمَسِّ الحاجة إليك؟ هل حملتينى فى ذراعيك، فى يومٍ ما؟ هل غذيتينى؟ هل بحثت عنى فى وقت ما؟ هل تساءلت أين يمكن أن أكون؟»

وردت كونتى على ذلك بأخذها الوجه الملكى فى يديها، كان الوجه أخضرًا، والعينان حمراوين ، وقبلته على جبينه، ارتجف كارنا فرحا، عاد المقاتل إلى الطفولة، نشوة هذه القبلة، أرسل بها إلى أطراف جسده، إلى أصابع قدميه، أطراف أصابعه، قبلة أمه العذبة البديعة، «هل تعرفين كم افتقدتك؟» كان فى وسع راهيل أن ترى القبلة منطلقة عبر أوردته، واضحة مثل بيضة راحلة إلى أسفل فى عنق نعامة،

قبلة مسافرة قطع الهلع رحلتها عندما أدرك كارنا أن أمه قد كشفت له عن نفسها فقط حتى تضمن سلامة أبنائها الخمسة الآخرين والذين تحبهم أكثر منه - «الباندافاس» - الذين يرفرفون على حافة معركتهم الملحمية مع أبناء عمومتهم المائة، إنهم هم من تبحث كونتى عن حمايتهم بإعلانها لكارنا أنها أمه، كانت تود أن تنتزع منه وعداً،

استغاثت بقوانين الحب .

«إنهم إخوتك، لحمك ودمك، عدنى أنك لن تذهب إلى الحرب ضدهم، عدنى بذلك»،

لم يكن فى وسع كارنا المقاتل أن يقدم هذا الوعد ؛ لأنه إن فعل ذلك، كان عليه أن يبطل وعداً آخر ، غدا عليه أن يذهب إلى الحرب، وسوف يكون الباناداڤاس هم أعداؤه، إنهم هم، وخاصة «أرجونا»، الذى سبه ولعنه علناً لأنه ابن سائق مركبة وضيع، وكان «دوريودهانا»، الأكبر فى المائة «الكاوراڤاس» هو الذى هبَّ لنجدته بمنحه مملكة من عنده، وقد أخذ كارنا على نفسه، ردا على ذلك، عهد ولاء أبدى لدوريودهانا .

غير أن كارنا الكريم ما كان يستطيع رفض ما طلبته منه أمه، ومن ثم حَوَّر الوعد، جعله مبهما، قام بتعديل بسيط، أقسم قسماً متغيراً بعض الشيء .

«أعدك بهذا» : قال كارنا لكونتى : « سوف يكون لك دوماً خمسة أبناء «يورهيشتيرها» لن أوقع به أذى، «بهيما» لن يموت بيدى، التوءمان - «ناكولا وساهاريف» - سوف يذهبان دون أن أمسهما، لكن «أرجونا» - لن أقدم وعوداً تخصه، سوف أقتله أو يقتلنى، أحدنا سوف يموت» .

تغير شيء ما فى الجو، أدركت راهيل أن إستا قد جاء .

لم تدر رأسها، غير أن وهجاً انتشر داخلها، لقد جاء هكذا فكرت، إنه هنا، معى،

واستقر إستا مستنداً إلى عمود على مسافة منها، وجلسا عبر العرض هكذا، يفصلهما اتساع «الكوثامبالام»، لكن تربطهما قصة، وذكرى أُم أخرى .

غدا الجو أكثر دفئاً، وأقل رطوبة .

ربما كان هذا المساء، على وجه الخصوص، مساءً رديئاً فى «قلب الظلام»، رقص الرجال فى أيمينم وكأنهم لا يستطيعون التوقف، مثل أطفال يحتمون بمنزل دافئ من عاصفة، رافضين الخروج والقبول بالجو، بالريح والرعد، الفئران تتسابق عبر مساحة الأرض الخراب ، وعلامة الدوار فى عيونهم، العالم يتحطم حولهم .

إنهم يخرجون فقط فى قصة لينقبون عميقاً فى أخرى، من «كارناشابادام» - من قسم كارنا - إلى «دوريودهانا فادهام» - إلى موت دوريودهانا وأخيه دوشاسانا .

كادت الساعة تكون الرابعة صباحاً عندما اصطاد بهيما دوشاسانا الوغد الخسيس، الرجل الذى حاول علناً أن يعرى زوجة الباندافاس، دراوپادى، بعد أن

ربحها الكاورافاس فى لعبة النرد، وقد أقسمت دراوبادى (والتى كانت ، للغرابة ، غاضبة فقط من الرجال الذين ربحوها ، وليس من هؤلاء الذين راهنوا بها) أنها لن تعقد شعرها إلى أعلى حتى يُغسل فى دم دوشاسانا ، وقد تعهد بهيما أن ينتقم لشرفها .

وضع بهيما دوشاسانا فى وضع حرج فى معركة تناثرت فيها الجثث بالفعل، ظلا مدة ساعة وقد حاصر كل منهما الآخر، تبادلا الإهانات، عددا كل الأخطاء التى ارتكبها كل منهما فى حق الآخر، وعندما بدأ ضوء المصباح النحاسى فى الخفقان والتلاشى، دعيا إلى هدنة، صب بهيما الزيت، نظف دوشاسانا الفتيل المحترق، ثم عادا إلى الحرب، المعركة اللاهثة انطلقت من الكوثمبالام وأخذت تلف كالمغزل حول المعبد، طارد الواحد منهما الآخر عبر الباحة، وهما يلفان دبوس الحرب المصنوع من ورق مضغوط، رجلان فى تنورتين منتفختين وبلوزتين مخملتين يثبان فوق أقمار مشوهة وأكوام الروث، يدوران حول فيل نائم ضخم ثقيل الحركة، كان دوشاسانا يمتلئ بالتبجح دقيقة، ويتذلل فى الدقيقة التالية، وبهيما يعبث معه، وقد تحجر كلاهما .

كانت السماء طاسة وردية، الثقب الرمادى فى الكون والأشبه بفيل اهتز قلقا فى نومه، ثم نام ثانية، كان الفجر ينبلج عندما استثيرت الوحشية فى بهيما، دقت الطبول أعلى وأعلى لكن الجو غدا أهدأ مليئًا بالوعيد والتهديد .

فى ضوء الصباح الباكر، راقب إستابن وراهيل بهيما وهو يفى بوعده «لدراوبادى»: ألقى بدوشاسانا إلى الأرض، لاحق كل رجفة واهنة فى الجسد الذى يموت بدبوسه الحربى، يطرقها حتى تسكن، مثل حداد يبسط ملاءة من معدن مقاوم، يمهد بانتظام كل حفرة أو نتوء، ظل يقتله طويلاً بعد أن مات، ثم مزق الجسد، فتحه بيديه العاريتين، أخرج أحشاءه ومزقها، وانحنى ليلعق دمه مباشرة من بطن الجثة الممزقة، وعيناه المجفولتان تختلسان النظر عبر الإطار الخارجى، تبرقان بالغضب والكراهية والوفاء المجنون بما وعد، فقاعات دم حمراء وردية باهتة تبقبق بين أسنانه، تتساقط قطرة قطرة من وجهه المصبوغ، من رقبته وذقنه، انتصب واقفًا عندما ارتوى، وقد كست الأمعاء الدموية ما حول رقبته مثل وشاح ، وذهب يبحث عن دراوبادى

ليغسل شعرها بالدم الطازج، كان مايزال يشعر برعدة الغضب التى لا يستطيع - حتى القتل - كظمها وإخمادها .

كان هنالك جنون في ذاك الصباح، تحت الطاسة الوردية، لم يكن ذلك استعراضا، لقد عرفه إستا وراهيل، رأياه يعمل من قبل، فى صباح آخر، فى مسرح آخر، نوعًا آخر من الخبال (له ألف رجل على بطن حذائه)، الإفراط الوحشى لهذا يناظره الاقتصاد الوحشي لذاك .

جلسا هناك، حيث «السكون» و«الفراغ»، بيضتين حفريتين متجمدتين، لهما نتوءات كالقرون لم تتمْ بعد إلى قرون، يفصلهما اتساع «الكاوثامبالام»، تأسرهما حمأة قصة كانت ولم تكن قصتهما، لقد بدءا ولهما بنية ونظامٌ متماثلٌ ، ثم انطلقا فى فوضى مثل حصان خائف .

استيقظ كوشوثومبان وفتح جوزة هند الصباح بكسرها فى رقة .

أزال رجال الكاثاكالى زواتهم وذهبوا إلى بيوتهم كى يضربوا نساءهم، حتى كونتى الطرى المخنث بثدييه .

نشطت المدينة الصغيرة المتنكرة من الخارج وما حولها، مثل قرية وقد عادت إلى الحياة، استيقظ رجل عجوز وترنح حتى الموقد ليدفئ زيته زيت جوز الهند المبتل بالفلفل .

الرفيق بيلاى محطم البيض فى أيمينم وصانع «الأومليت » (١٥٨) المحترف .

إن ما يدعو للغرابة - بحق - أنه هو كان من عَرَّف التوءمين بالكاثاكالى، كان هو خلافا لأفضل أحكام بيبى كوشاما، من أخذهما مع لينين، لعروض طوال الليل فى المعبد، وجلس معهما حتى الفجر، يشرح لهما لغة وإيماءات الكاثاكالى، كانا فى السادسة من عمرهما، فجلسا معه خلال هذه القصة بالذات، كان هو الذى عرفهما «براودرا بهيما» - بهيما المخبول المتعطش للدماء بحثًا عن الموت والانتقام، «إنه يبحث عن الوحش الذى يعيش فى داخله»، قال الرفيق بيلاى لهما - للطفلين الفزعين المشدوهين - عندما بدأ بهيما الودود عادة فى النباح والزمجرة،

لم يقل الرفيق بيلاى أى وحش يقصده بصورة خاصة، ربما كان ما يقصده حقًا هو البحث عن «الرجل» الذى فى داخله، إذ مما لاشك فيه أن أى وحش لم يجرب ذلك

الفن المبدع بلا حدود، بلا نهاية، للكراهية البشرية، لا يوجد وحش يستطيع أن يكون صنوا لنسقه وسطوته .

الطاسة الوردية غدت غائمة معتمة ترسل إلى أسفل رذاذًا رماديًا حارًا، كان الرفيق ك،ن،م، بيلاى قد دخل من بوابة المعبد فى الوقت الذى كان فيه إستا وراهيل يخطوان عبرها، وقد صقله حمامه الزيتى، كانت لديه عجينه من خشب الصندل فوق جبهته، وقفت قطرات مطر على جسده المدهون بالزيت مثل أزرار القميص، وقد حمل فى راحتيه اللتين تشبهان الكوب كومة صغيرة من الياسمين الطازج .

«أوهو !» : قال فى صوته الأشبه بالصفير ، « أنتما هنا ! إذن مازلتما تهتمان بثقافتكما الهندية؟ يا إلهى، هذا حسن للغاية؟» .

ولما كان التوءمان غير وقحين، وغير مؤدبين، فإنهما لم يقولا شيئًا، سارا معًا إلى المنزل، هو وهى، نحن ونا (١٥٩) .

الفصل الثالث عشر

المتشائم والمتفائل

انتقل شاكو من حجرته لينام فى مكتبة باباشى حتى يمكن لصوفى مول ومرجريت كوشاما الإقامة فى غرفته ، كانت غرفة صغيرة، ذات نافذة تطل على زراعة المطاط التى كانت تتضاءل وتلقى الإهمال، بصورة ما، والتى كان المبجل ا، جون إيب قد اشتراها من جارٍ له، كان هنالك باب واحد يربطها بالمنزل الرئيسى ويقود الباب الآخر (المدخل المنفصل الذى أقامته ماماشى لشاكو ليتابع ما يلزمه من حاجيات الرجال بطريقة متحفظة) يقود مباشرة إلى الخارج فى الباحة الجانبية .

رقدت صوفى مول نائمة على سرير من سرر المعسكرات يشبه سرير الطفل والذى كان قد أُعدّ لها إلى جوار السرير الكبير، كان طنين مروحة السقف البطيئة قد ملأ رأسها، العينان الزرقاوان الرماديتان انفتحتا بطريقة خاطفة .

يقظة

حيّة

منتبهة

كان الصيف يطرد النوم

كانت هذه هى المرة الأولى، منذ وفاة جو، التى لا يكون هو فيها أول شىء تفكر فيه عندما تستيقظ .

نظرت إلى الحجرة حولها، لا تتحرك، فقط تدور بمقلتيها، مثل جاسوس أسير فى أرض العدو، يدبر خطة لهروب رائع .

كانت هنالك فازة بها زهور خطمية بشعة الترتيب تتدلى بالفعل على منضدة شاكو، وكانت الحوائط مكسوة بالكتب .

دولاب زجاجي الأوجه محشو بطائرات تالفة من البلزا (١٦٠)، فراشات محطمة ذات عيون مبتهلة، نساء ملك شريرات خشبيات زاويات تحت تعويذة شريرة خشبية،

لقد وقعن في المصيدة

فقط واحدة، هي أمها، مرجريت، هربت إلى إنجلترا،

دارت الحجرة في مركز مروحة السقف الفضية، المركز الهادئ المصنوع من الكروم، برص بيج، في لون بسكويت لم ينضج بعد، ينظر إليها بعينين مهتمتين، فكرت في جو، انتفض شيء في داخلها، أغلقت عينيها،

مركز مروحة السقف الفضية، المركز الهادئ المصنوع من الكروم، أخذ يدور في رأسها،

كان في استطاعة جو أن يسير على يديه، وكان في وسعه، عندما كان يركب دراجة إلى أسفل التل أن يملأ قميصه بالريح،

كانت مرجريت كوشاما ماتزال نائمة على السرير التالي، كانت ترقد على ظهرها وقد تشابكت يداها معًا أسفل قفصها الصدري تمامًا، كانت أصابعها منتفخة وقد بدا رباط عرسها مشدودًا بطريقة غير مريحة، تهدل لحم خديها على جانبي وجهها، مما جعل عظمتي وجنتيها تبدوان عاليتين ناتئتين وقد شد الفم إلى أسفل بابتسامة كئيبة لا تتسع إلا لأسنان واهنة البريق، كانت قد نتفت، ذات مرة، حاجبيها الكثيفين مجاراة للموضة السائدة، جعلتهما قوسين رفيعين مثل القلم مما أضفى عليها، حتى وهي نائمة، تعبيرًا مدهشًا، كانت بقية تعبيراتها تنمو ثانية كأعقاب زرع آخذة في الحياة بعد حصاد، كان وجهها متوردًا، جبهتها متألقة، وتحت التورد كان هنالك شحوب، حزن صدته ودفعته،

المادة الرقيقة لردائها البوليستر - القطني المزين بزهور زرقاء قاتمة وبيضاء قد ذبلت والتصقت مترهلة باستدارات جسدها، وارتفعت فوق ثدييها، وغطست على امتداد الخط الموجود بين ساقيها الطويلتين القويتين، وكأن تلك المادة أيضًا غير معتادة على الحرارة وفي حاجة إلى إغفاءة،

كان على المنضدة الموجودة إلى جوار السرير صورة عريس بيضاء سوداء داخل إطار فضي لشاكو ومرجريت كوشاما مأخوذة خارج الكنيسة في أوكسفورد، كان

هنالك قليل من الثلج، وكانت الرقائق الأولى لثلج طازج ترقد على الطريق والطوار، كان شاكو مرتدياً مثل نهرو، كان يرتدى « شورديار » (١٦١) أبيض و«شيرفانى» (١٦٢) أسود، كان الثلج يعفر كتفيه، وكانت هنالك وردة فى جيب صدره، كان يرتدى فى قدميه حذاءً أوكسفورد (١٦٣) أسود مصقول، بدا وكأنه يضحك من نفسه ومن الطريقة التى ارتدى بها ملابسه، مثل شخص فى حفل تنكرى .

ارتدت مرجريت كوشاما ثوبًا طويلاً خفيفًا وإكليلاً رخيصاً فوق شعرها المقطوع المجعد، كان برقعها مرفوعًا عن رأسها، كانت طويلة بقدر طوله، بدا أنهما فرحان، نحيلان وشابان، عيناهما تحمل عبوسهما من الشمس، كان حاجباها الداكنان الكثيفان ملتحمين معًا فصنعا، إلى حد ما، تناقضاً طريفًا مع أبيض العرس الواهن، سحابة عابسة ذات حاجبين، وقد وقفت وراءهما امرأة كبيرة وقورة ذات كاحلين سميكين، وقد زررت كل أزرار معطفها الطويل، إنها أم مرجريت كوشاما، كانت حفيدتاها الصغيرتان تقفان إلى جوارها كل واحدة من ناحية، وقد ارتديا تنورتين صوفيتين مقلمتين ذات طيّات، وجوارب وحاشيتين متماثلتين، كانت كلتاهما تقهقهان وقد وضعتا راحتيهما على فميهما، كانت أم مرجريت كوشاما تنتظر بعيداً، خارج الصورة، وكأنها ما كان يجب أن تكون هناك .

رفض والد مرجريت كوشاما حضور العرس، إنه يكره الهنود، يفكر فيهم باعتبارهم خبثاء غير أمناء، لم يكن فى وسعه تصديق أن ابنته قد تزوجت واحداً منهم .

كان هنالك، فى ركن الصورة الأيمن، رجل يدير دراجته على امتداد الطوار وقد استدار ليحملق فى الزوجين .

كانت مرجريت كوشاما تعمل كنادلة فى مقهى فى أوكسفورد عندما قابلت شاكو لأول مرة، كانت عائلتها تعيش فى لندن، وكان والدها يمتلك مخبزاً، وكانت والدتها تعمل مساعدة لبائعة قبعات وتوابعها للسيدات، كانت مرجريت كوشاما قد تركت منزل والديها منذ عام مضى، لا لسبب له قيمة أكثر من إثبات الشباب لاستقلالهم، كانت قد انتوت العمل وتوفير ما يكفى من النقود كى تتمكن من الحصول على دراسات تدريبية كمدرسة، ثم تبحث عن وظيفة مدرسة، كانت تتشارك فى أوكسفورد شقة صغيرة مع صديقة : نادلة أخرى تعمل فى مقهى آخر .

ما إن غادرت منزلها، حتى وجدت مرجريت كوشاما أنها ذات الفتاة التى كان والداها يرغبان فى أن تكونها تحديداً، ما إن واجهت العالم الحقيقى، حتى تشبثت بعصبية بالقواعد القديمة التى تتذكرها، ولم يعد أمامها أحد تتمرد عليه غير ذاتها، لذا فإنها حتى فى أوكسفورد واصلت، باستثناء رفع صوت الجراموفون أعلى قليلاً مما كان مسموحاً لها به فى المنزل، واصلت ذات الحياة المحدودة المشدودة التى تصورت أنها قد هربت منها .

حتى دخل شاكو المقهى ذات صباح .

كان صيف السنة النهائية له فى أوكسفورد، كان وحيداً وقد زرر قميصه اللامع بطريقة خاطئة، رباط حذائه سائب محلول، شعره مفرش بعناية مصقول ينسدل إلى أمام، وقد انتصب واقفاً فى الخلف فى هالة متيبسة من الشوك الطويل، بدا مثل قنفذ جميلٍ قليل العناية بثيابه ونظافته، كان طويلاً، وكان فى وسع مرجريت كوشاما أن ترى تحت فوضى الملابس (رباط عنق غير مناسب، ومعطفاً زرى المنظر) أنه كان جيد البنيان، كان يحيط به جو مسلٍ فكه، وله طريقة يُضيّق بها عينيه كأنه يحاول قراءة علامة بعيدة للغاية وقد نسى أن يحضر معه نظارته، كانت أذناه تبرزان على جانبى رأسه مثل مقبضى إناء الشاى، كان هنالك تناقض ما بين بنيانه القوى كمصارع ومظهره الأشعث، كانت العلامة الوحيدة الدالة على وجود رجل بدين يكمن فى داخله هى خداه السعيدان اللامعان .

لم يكن لديه أىّ من الغموض أو ارتباك المعتذر الذى يربطه المرء عادة بالرجال غير المهندمين شاردى الفكر، كان يبدو مرحاً، وكأنه كان مع صديق خيالى استمتع بصحبته، أخذ مقعداً إلى جانب النافذة وجلس مسنداً كوعه إلى المنضدة، واضعاً وجهه فى راحة يده كما يوضع الشىء فى كوب، يبتسم لفراغ المقهى حوله وكأنه يفكر فى أن يبدأ مناقشة مع الأثاث، طلب قهوة بذات الابتسامة الودودة، ولكن دون أن يبدو حقاً أنه قد لاحظ النادلة الطويلة كثيفة الحاجبين، التى تلقت طلبه،

جفلت عندما وضع معلقتين مليئتين للغاية من السكر فى قهوته الغنية باللبن تماماً، ثم طلب بيضاً مقلياً بالسمن وخبزاً محمراً والمزيد من القهوة، ومربى الفراولة، قال عندما عادت بما طلب، وكأنه يواصل حديثاً قديماً : «هل سمعت عن الرجل الذى لديه ابنان توءمان؟»،

«كلاّ » : قالت، وهى تضع إفطاره،لم تُبْدِ، لسبب ما (ربما حذراً طبيعيّاً أو تكتماً غريزيّاً مع الأجانب) اهتماماً شديداً، كان يتوقعه منها، كما يبدو، بخصوص الرجل وابنيه التوءمين، ولم يَبْدُ على شاكو أنه قد انتبه إلى ذلك .

«رجل كان له ولدان توءمان»، قال لمرجريت كوشاما، «بيت وستوارت، كان بيت متفائلاً وكان ستوارت متشائماً » .

فرز الفراولة من المربى ووضعها على جانب من طبقه ، ونشر بقية المربى التي فى طبقه سميكة فوق خبزه المحمر المدهون بالزبدة .

«فى عيد ميلادهما الثالث عشر أعطى الوالد ستوارت – المتشائم – ساعة ثمينة، وعدة نجارة ودراجة» .

نظر شاكو إلى أعلى إلى مرجريت كوشاما ليرى إن كانت تستمع إليه.

«وملأ حجرة بِيت – المتفائل – بروث حصان» .

وضع شاكو البيض المقلى فوق الخبز المحمر، شق البيض المتألق الرَجراج وفرشه فوق مربى الفراولة بظهر ملعقة الشاى،

«عندما فتح ستوارت هداياه أخذ يتظلم طوال الصباح، لم يكن يريد عدة نجارة، كما أنه لم يحب الساعة، وكان إطارا الدراجة غير ملائمين»،

توقفت مرجريت كوشاما عن الاستماع فقد استحوذ عليها البسط والنشر الشعائرى الغريب الذى يجرى فوق طبقه، فقد قطع الخبز المحمر بالمربى والبيض المقلى إلى مربعات صغيرة متقنة، وتناول الفراولة التى فرزها من المربى واحدة واحدة، وقام بتقطيعها إلى شرائح رقيقة،

«عندما ذهب الأب إلى حجرة بيت – المتفائل – لم يستطع رؤيته، لكنه كان فى وسعه أن يسمع صوت الجرف المتحمس والتنفس الثقيل، كان الروث يتطاير فى كل الحجرة » ،

كان شاكو قد بدأ يهتز بضحك صامت سابقًا نهاية دعابته، ووضع براحتين ضاحكتين فراولة كالفضة فوق كل مربع خبز محمر أصفر أحمر زاه، جاعلاً الشىء يبدو مثل وجبة طعام خفيفة جذابة، يمكن أن تقدمها امرأة عجوز فى حفلة «بريدج»،

«ماذا تفعل بحق السماء؟» صرخ الأب فى بيت،

نثر ملحًا وفلفًا فوق مربعات الخبز المحمر، توقف شاكو قبل جملة النهاية، يضحك ناظرًا إلى أعلى إلى مرجريت كوشاما، التى كانت تبتسم لما يجرى فى طبقه.

جاء صوت من عمق الروث، «حسنًا، ياوالدى » : قال بيت : « إن كان هنالك هذا القدر من الروث حولنا، فلابد من وجود فرس صغير فى مكان ما».

استند شاكو وقد أمسك بسكين فى يد وشوكة فى اليد الأخرى، إلى الوراء فى كرسيه فى المقهى الخالى، وضحك ضحكته العالية التى يصاحبها الفواق، ضحكته المعدية، ضحكة رجل بدين حتى انثالت الدموع على خديه .

وابتسمت مرجريت كوشاما التى كان قد فاتها الجزء الأكبر من الدعابة، ثم بدأت تضحك لضحكه، كان ضحك كل منهما يغذى ضحك الآخر حتى صعد إلى ذروة هيستيرية، عندما ظهر صاحب المقهى رأى زبونًا (ليس مرغوبًا فيه تحديدًا) ونادلة (مرغوبة فى المتوسط فقط) ملتحمين فى ضحك صاعد هابط لا حيلة فى وقفه مثل نقيق البوم.

فى تلك الأثناء، جاء زبون آخر (منتظم) دون أن يلحظه أحد، وانتظر من يقوم على خدمته .

ونظف المالك بعض الأكواب النظيفة بالفعل، جاعلاً إياها تصدر صليلاً كثير الضوضاء وقرع أوانى فخارية على طاولة الخدمة لينقل إلى مرجريت كوشاما سخطه وغضبه، حاولت أن تهدئ نفسها قبل أن تذهب لتلقى الطلب الجديد، غير أنه كانت هنالك دموع فى عينيها، وكان عليها أن تكتم كمية طازجة من الهاهآت مما جعل الرجل الجائع، الذى كانت تتلقى طلبه، ينظر من قائمة ألوان الطعام إلى أعلى، وقد تغضنت شفتاه الرقيقتان فى استهجان صامت.

أرسلت بنظرة متلصصة إلى شاكو، الذى نظر إليها وابتسم، وكانت ابتسامته ابتسامة ودودة.

أنهى إفطاره، دفع، وغادر.

لقيت مرجريت كوشاما التأنيب من مستخدمها كما ألقى عليها محاضرة فى أخلاقيات المقهى، اعتذرت له، كانت آسفة حقًا من الطريقة التى تصرفت بها.

فى ذلك المساء، بعد العمل، فكرت فيما حدث وأحست بالقلق مع نفسها، لم تكن فى العادة طائشة، لم تكن ترى أنه من الصواب مشاركة غريب تمامًا مثل ذلك الضحك المنفلت، بدا أن ما فعلته يتجاوز ما هو مألوف، ما هو حميمى، عجبت مما جعلها تضحك كثيراً هكذا، عرفت أن الدعابة لم تكن هى السبب،

فكرت فى ضحكة شاكو، وظلت ابتسامة ما طويلاً فى عينيها.

وبدأ شاكو يزور المطعم كثيراً .

كان يأتى دائمًا مع صديقه غير المرئى وابتسامته الودودة، حتى عندما لم تكن مرجريت كوشاما هى التى تقوم بخدمته، كان يبحث عنها بعينيه، ويتبادلان ابتسامات سرية تستدعى الذكرى المشتركة لضحكهما .

ووجدت مرجريت كوشاما نفسها تتطلع لزيارات القنفذ المجعد، دون قلق، ولكن بنوع من المحبة التى تتسللها، عرفت أنه كان حاصلاً على «منحة رودس الدراسية» من الهند، وأنه يقرأ الكلاسيكيات، ويشارك فى سباقات الباليول للتجديف .

لم تكن تؤمن، حتى يوم زواجها منه، أنها يمكن أن تكون، بأى حال من الأحوال، زوجة له .

بدأ بعد شهور قليلة من خروجهما معًا، بدأ فى تهريبها إلى حجراته، حيث يعيش مثل أمير منفى لا حول له ولا طول، كانت حجرته على الدوام قذرة، رغم أفضل جهود السيدة التى تقوم بالتنظيف، كتب، زجاجات نبيذ فارغة، ملابس داخلية قذرة وأعقاب سجائر تغطى الأرضية، كان فتح الدواليب مخاطرة حيث أن الملابس والكتب والأحذية يمكن أن تسقط كالشلال، وكانت بعض كتبه ثقيلة بما يكفى لتوقع ضرراً حقيقيًا، وتركت حياة مرجريت كوشاما الدقيقة المنظمة، تركت نفسها لهذا الجنون المشوه حقًا، بذات الشهقة الهادئة لجسد دافئ يدخل بحراً بارداً قارساً .

اكتشفت أن هنالك تحت مظهر القنفذ المجعد، يوجد ماركسىٌ مُعذَّبٌ فى حرب مع آخر رومانسى يستحيل شفاؤه – نسى الشموع، وحطم زجاجات النبيذ، وفقد الخاتم، مارس الحب معها بطريقة انتزعت أنفاسها، كانت تفكر دوما فى نفسها باعتبار أنها فتاة لا تثير الاهتمام إلى حد ما، ممتلئة الوسط، ممتلئة الرسغين، لم تكن قبيحة ، ولم تكن متميزة، لكنها عندما تكون مع شاكو، كان يُدفع بالحدود القديمة إلى وراء وتتسع الآفاق .

لم تكن قد التقت من قبل برجل يتحدث عن العالم ألبتة، عما كانه، وعما يجب أن يكون عليه، أو يفكر فيما يجب أن يصبح عليه هذا العالم - بالطريقة نفسها التى يتحدث بها الرجال الآخرون الذين عرفتهم - عن وظائفهم، أو أصدقائهم أو نزهات آخر الأسبوع عند الشاطئ .

إن وجود مرجريت كوشاما مع شاكو جعلها تحس وكأن روحها قد هربت من الحدود الضيقة لبلدها الجزيرة إلى أماكنه الواسعة التى تتجاوز الحدود، جعلها تحس وكأن العالم قد غدا عالمهما - كأنه يرقد أمامها مثل ضفدعة مفتوحة على منضدة تشريح، فى بداية فحصها .

لقد اكتشفت، خلال العام الذى عرفته فيه، قبل أن يتزوجها، بعض السحر فى نفسها، وللحظة أحست بإحساس جنية فرحة أطلق سراحها من مصباحها، ربما كانت صغيرة للغاية لتدرك أن ما افترضته حباً لشاكو، كان بالفعل قبولاً تجريبياً هياباً لنفسها .

كانت مرجريت كوشاما، بالنسبة لشاكو، أول أنثى صديقة على الإطلاق، لم تكن فقط أول امرأة نام معها، لكنها كانت أيضاً أول رفيقة حقيقية له، إن أكثر ما أحبه شاكو فيها كان اكتفاؤها الذاتى، ربما لم يكن ذلك شيئاً جديراً بالاعتبار فى المرأة الإنجليزية متوسطة المستوى، لكنه كان شيئاً جديراً بالاعتبار بالنسبة لشاكو .

أحب حقيقة أن مرجريت كوشاما لم تلتصق به، لم تكن متيقنة من أحاسيسها نحوه، لم يعرف حتى آخر يوم إن كانت ستتزوجه أم لا ! ، أحب الطريقة التى تجلس بها على سريره عارية، بظهرها الطويل الأبيض وهو يدور بعيداً عنه، تنظر فى ساعتها بطريقة عملية، «أُوبس، يجب أن أغادر»، أحب الطريقة التى كانت تتمايل بها وهى ذاهبة إلى عملها كل صباح فوق دراجتها، شجع اختلافها فى الرأى وابتهج فى داخله لانفجاراتها الحانقة من حين لآخر بسبب انحطاطه .

كان ممتنا لها لأنها لم تكن راغبة فى رعايته، فى أنها لم تفرض عليه ترتيب حجرته، فى أنها لا تقوم بدور أمه المتخمة، لقد أخذ يعتمد على مرجريت كوشاما لأنها لم تكن تعتمد عليه، لقد هام بها لأنها لم تكن تهيم به .

لم تعرف مرجريت كوشاما غير القليل عن أفراد عائلته، نادراً ما كان يتحدث عنهم،

إن شاكو، فى الحقيقة، نادراً ما فكر فيهم خلال سنواته فى أوكسفورد، كان الكثير للغاية يقع فى حياته وبدت أيمينم بعيدة للغاية، والنهر صغيراً للغاية، والأسماك قليلة للغاية .

لم تكن هنالك أسباب ضاغطة حتى يظل على علاقة بوالديه، كانت منحة رودس الدراسية كريمة، لم يكن فى حاجة إلى نقود، كان يحب بعمق حبه لمرجريت كوشاما، ولم يكن هنالك مكان فى قلبه لأى أحد آخر .

كتبت له ماماشى بانتظام، مع وصف تفصيلى لشاحناتها الدنيئة مع زوجها وما يثير قلقها ارتباطًا بمستقبل آمو، لم يقرأ خطابًا كاملاً ألبتة ، وفى أحيان أخرى لم يكلف نفسه عناء فتحها ألبتة ، ولم يكتب ردًا على خطاباتها ألبتة .

وحتى فى المرة الوحيدة التى عاد فيها (عندما أوقف باباشى عن ضرب ماماشى بالفازة النحاسية، واغتيل كرسي هزاز فى ضوء القمر) فإنه كان بالكاد واعيًا بالقدر الذى كان أبوه به موجعًا، أو هيام أمه المضاعف به، أو جمال أخته الصغرى المفاجئ، جاء وذهب وهو فى غيبوبة، فى شوق منذ لحظة وصوله إلى لحظة عودته إلى الفتاة ذات الظهر الطويل الأبيض والتى تنتظره .

تزوجت مرجريت كوشاما وشاكو فى الشتاء الذى هبط فيه من باليول (وكان قد أجاب إجابات رديئة فى امتحاناته)، دون رضا أسرتها، ودون معرفة أسرته .

قررا ضرورة أن ينتقلا إلى شقة مرجريت كوشاما (ليحل هو محل النادلة الأخرى التى تعمل فى المقهى الآخر) حتى يعثر لنفسه على عمل .

لم يكن هنالك توقيت أسوأ من هذا التوقيت لعقد الزواج .

وجاء الفقر والحاجة بالإضافة إلى ضغوط الحياة، لم تعد هنالك أية نقود من نقود المنحة الدراسية، وأصبح عليهما دفع القيمة الكاملة لإيجار الشقة .

وجاء بانتهاء ما كان يقوم به من تجديف، نضج مبكر ومفاجئ، وتفشى مرحلة متوسطى العمر، غدا شاكو رجلاً بدينًا، له جسد يناظر ضحكته .

مضى عام على الزواج، وزوال سحر تكاسله الطلابى عن مرجريت كوشاما، لم يعد يطربها أن تذهب هى إلى العمل، وتظل الشقة فى ذات فوضى القذارة التى تركتها عليها، كان من المستحيل بالنسبة إليه ترتيب الفراش أو غسل الملابس والأطباق ، إنه لا يعتذر عما تحرقه السجائر فى الأريكة الجديدة، وبدا عاجزًا عن وضع أزرار فى قميصه، عاجزًا عن عقد رباط عنقه وربط رباط حذائه قبل تقديم نفسه فى لقاء اختبارى لوظيفة ما، وأصبحت، فى غضون عام، على استعداد لمبادلة الضفدعة الراقدة على منضدة التشريح بتنازلات صغيرة وعملية، مثل وظيفة لزوجها ومنزل نظيف .

وأخيراً حصل شاكو على توكيل قصير متدنى الأجر مع «إدارة المبيعات فيما وراء البحار لمجلس شاى الهند»، وانتقل شاكو ومرجريت إلى لندن بأمل أن تفتح هذه الوظيفة الطريق إلى أشياء أخرى، انتقلا إلى حجرات أصغر وأكثر كآبة، ورفض والدا مرجريت كوشاما رؤيتها .

كانت قد اكتشفت أنها حبلى عندما التقت «بجو»، كان صديق دراسة قديم لأخيها، عندما التقيا كانت مرجريت كوشاما فى أكثر أحوالها البدنية جاذبية، كان الحمل قد لون وجنتيها، وجعل شعرها الكثيف الداكن يلمع، ورغم متاعبها الزوجية، كان يحيط بها جو من ذلك التيه الغامض، تلك العاطفة نحو جسدها والتى غالبا ما تكون لدى النساء الحوامل .

كان جو عالم أحياء، كان يجدد الطبعة الثالثة من قاموس لعلم الأحياء لدار نشر صغيرة، كان جو كل شىء لم يكنه شاكو .

راسخ، مقتدر، نحيل .

وجدت مرجريت كوشاما نفسها منجذبة إليه كما ينجذب نبات غرفة مظلمة إلى شعاع من ضوء .

عندما أنهى شاكو توكيله ولم يستطع العثور على وظيفة أخرى، كتب إلى ماماشى يخبرها بزواجه ويطلب منها مالاً، كان الخراب قد حل بماماشى، لكنها رهنت مجوهراتها سراً، وأعدت النقود لإرسالها إليه فى إنجلترا، ولم تكن كافية، لم تكن كافية ألبتة .

كانت مرجريت كوشاما قد أدركت، فى الوقت الذى ولدت فيه صوفى مول، أنه من أجلها ومن أجل صالح ابنتها، يجب عليها ترك شاكو، فطلبت منه الطلاق،

عاد شاكو إلى الهند، حيث عثر بسهولة على عمل ما، أخذ يُدرِس لسنوات قليلة فى «كلية مدراس المسيحية»، وعاد بعد موت باباشى إلى أيمينم ومعه ماكينة «بهارات» لختم وبرشمة القوارير، ومجداف باليول، وقلبه المكسور،

ورحبت ماماشى بعودته إلى حياتها فرحة، أطعمته، وخاطت له، وحرصت على وجود ورود غضة فى حجرته كل يوم، كان شاكو فى حاجة إلى ولّه أمه وهيامها، كان هو، فى الحقيقة، من طلبه، ومع ذلك فإنه احتقرها عندما قدمته له، وعاقبها بطرق

خفية، وبدأ في العناية ببدانته وتداعيه البدني العام، ارتدى قُمْصَان «البوش» التيرلين الرخيصة ذات الرسوم المطبوعة فوق أردية الموندو البيضاء، والصنادل البلاستيك القبيحة الوافرة في السوق، فإن جاء لماماشي ضيوف أو أقارب أو ربما صديقة قديمة لزيارتها من دلهي، ظهر شاكو عند مائدة الطعام المبسوطة بطريقة تتسم بالذوق، والمزخرفة بالأوركيديا الفاخرة وأفضل الصيني - ليثير القلق حول قشرة قرحة قديمة، أو يحك ويهرش الأماكن غليظة الجلد الكبيرة السوداء المستطيلة التي يرعاها على مرفقيه.

كانت أهدافه الخاصة هي ضيوف بيبي كوشاما - الأساقفة الكاثوليك أو الإكليروس الذين يقومون بالزيارة - والذين غالبا ما كانوا يجيئون من أجل وجبة خفيفة سريعة.

كان شاكو يخلع في وجودهم صندله ويكشف عن دمل في قدمه بسبب مرض السكر، دمل مقزز مليء بالصديد.

ويقول، «ليرحم الله المجذوم البائس»، بينما تحاول بيبي كوشاما، في يأس، صرف انتباههم عن هذا المنظر بالتقاط فتات البسكويت وقطع الموز المتناثرة في ذقونهم.

غير أن أكثر العقوبات الخفية إذلالاً وأشدها سوءاً، والتي كان شاكو يعذب بها ماماشي كانت عندما يعيد ذكرى مرجريت كوشاما، كان يتحدث عنها غالبا، وبنوع خاص من الافتخار، وكأنها أعجبته لأنها طلقته.

«لقد بادلتني برجل أفضل»، كان يقول لماماشي، فكانت تجفل وكأن مرجريت قد هتكت سمعتها وحقرتها هي بدلا منه هو.

كانت مرجريت كوشاما تكتب إلى شاكو بانتظام، ترسل إليه بأخبار صوفي مول، وقد أكدت له أن جو كان أبًا رائعًا راعيًا لها، وأن صوفي مول تحبه بإعزاز - حقائق كانت تبعث في شاكو السعادة والحزن بذات القدر.

كانت مرجريت كوشاما سعيدة مع جو، ربما كانت أسعد لو أنها لم تمر بتلك السنوات الهمجية غير المأمونة مع شاكو، كانت تفكر في شاكو بإعزاز، ولكن دون ندم، إنها في بساطة لم تفكر في أنها قد آذته بعمق، لأنها مازالت تفكر في نفسها باعتبارها امرأة عادية وهو باعتباره رجلاً غير عادي، ولأن شاكو لم يُظهِر حينذاك، أو منذ ذاك الحين أيًا من العلامات المعتادة الدالة على الحزن أو انكسار القلب، فإن

مرجريت كوشاما قد افترضت فقط أنه قد اعتبر ما حدث خطأ بالنسبة إليه بقدر ما هو خطأ بالنسبة إليها، لقد تركها عندما أخبرته بأمر جو، تركها حزيناً، ولكن فى هدوء، مع رفيقه غير المرئى وابتسامته الودودة.

كتبا لبعضهما كثيراً، ونضجت علاقتهما عبر السنين، غدت بالنسبة لمرجريت صداقة مريحة تقوم على الالتزام، وكانت بالنسبة لشاكو وسيلته الوحيدة، للبقاء على علاقة بأم طفلته والمرأة الوحيدة التى أحبها على الإطلاق .

عندما بلغت صوفى مول السن المناسبة للذهاب إلى المدرسة، أدرجت مرجريت كوشاما نفسها فى دراسات تدريبية كى تكون مدرسة، وحصلت على وظيفة مدرسة مبتدئة فى مدرسة فى «كلافام»، كانت فى حجرة المدرسة عندما أخبروها بحادثة جو، حمل الأخبار شرطى شاب كان يكسو وجهه تعبير حزين وقد حمل خوذته فى يديه، بدا مضحكا بصورة غريبة، مثل ممثل ردىء يجرب دوراً وقوراً فى تمثيلية ما، تذكرت مرجريت كوشاما أن رد فعلها الغريزى عندما رأته كان ابتسامة منها .

وادت مرجريت كوشاما، من أجل صوفى مول إن لم يكن من أجلها هى، أفضل أداء لها لمواجهة المأساة برباطة جأش واتزان، وللتظاهر بمواجهتها للمأساة برباطة جأش، فإنها لم تطلب مغادرة عملها، راعت أن يظل روتين مدرسة صوفى مول كما هو دون تغيير - «انهى واجبك المنزلى، كُلى بيضك، كلاّ، لا يمكننا عدم الذهاب إلى المدرسة» .

أخفت كربها تحت قناع المدرسة العملى النشيط الرشيق، حفرة فى الكون أشبه بمدرسة المدرسة الصارمة (والتى تصفع أحيانًا).

غير أنه عندما كتب شاكو إليها يدعوها إلى أيمينم، تنهد فى داخلها شىء ما ثم استقر وجلس، ورغم كل ما حدث بينها وبين شاكو، فإنه لم يكن هنالك فى الواقع أحد فى العالم تقضى معه «الكريسماس»، وكانت كلما أمعنت التفكير فى الأمر كلما زاد إغراؤها، وأقنعت نفسها بأن رحلة إلى الهند سوف تكون هى الشىء الذى تحتاجه «صوفى مول» تحديداً.

وأخيراً، ورغم أنها كانت تعرف أن أصدقاءها وزملاءها فى المدرسة سوف يرون ذلك أمراً غريبًا - أن تهرع عائدة إلى زوجها الأول بمجرد موت رجلها الثانى، فإن

مرجريت كوشاما حلت وديعة فصلية واشترت تذكرتين على خط طيران، لندن – بمباى – كوشين،

وقد لازمها هذا القرار طوال حياتها، لقد حملت معها إلى قبرها صورة جسد ابنتها الصغيرة ممدداً على «شيزلونج» فى قاعة الاستقبال فى منزل أيمينم، كان واضحًا ، حتى عن بعد، أنها قد ماتت، لم تكن مريضة أو نائمة، شىء ما له علاقة بالطريقة التى ترقد بها، زاوية أطرافها، شىء ما له علاقة بسلطان الموت، صمته الرهيب .

العشب الأخضر وسخام النهر كان منسوجًا فى شعرها الأحمر البنى الجميل، كانت جفونها الغارقة مسلوخة، قضتهما الأسماك (أوه نعم لقد فعلت ذلك، الأسماك التى تسبح فى العمق، إنها تأخذ عينة من كل شىء)، كانت هنالك على مئزرها البنفسجى الزاهى المصنوع من القطيفة المضلعة كلمة «هوليداى» فى حروف مائلة مرحة، كانت مجعدة مثل إبهام عامل المغسلة بسبب وجوده طويلاً فى الماء .

حورية إسفنجية نسيت كيف تعوم .

كستبان فضى أمسكت به بإحكام فى قبضتها الصغيرة جلبًا للحظ .

كستبان – السكير .

تابوت – صانع دولاب عربة النقل .

إن مرجريت كوشاما لم تغفر لنفسها قط، أخذها صوفى مول إلى أيمينم، وتركها هنالك وحدها خلال عطلة آخر الأسبوع بينما ذهبت هى وشاكو إلى كوشين لتأكيد تذاكر عودتهما .

* * *

كان الوقت حوالى التاسعة صباحًا عندما تلقت ماماشى وبيبى كوشاما أخبارًا عن العثور على جسد طفلة بيضاء طافيًا أسفل النهر حيث يتسع الميناشال وهو يقترب من المياة المرتدة، كان إستا وراهيل مازالا مفقودين .

لم يظهر الأطفال – الثلاثة جميعًا – فى هذا الصباح الباكر لتناول كوب لبن الصباح، اعتقدت بيبى كوشاما وماماشى أنهم ربما ذهبوا إلى النهر للاستحمام، الأمر المثير للقلق إذ أمطرت السماء ثقيلا خلال اليوم السابق وجزء كبير من الليل،

كانا يعرفان أن النهر يمكن أن يكون خطراً، أرسلت بيبى كوشاما كوشوماريا للبحث عنهم، غير أنها عادت بدونهم، خلال الهرج والمرج الذى تلا زيارة فيليابن، لم يستطع أحد تذكر متى رأى الأطفال لآخر مرة، لم يكونوا الموضع الأساسى لاهتمام أى أحد - ربما كانوا مفقودين طوال الليل .

كانت آمو ماتزال محبوسة فى غرفة نومها، كانت المفاتيح مع بيبى كوشاما، نادت من خلال الباب تسأل آمو إن كان لديها أية فكرة عن المكان الذى يمكن أن يكون الأطفال به، حاولت أن تبعد نبرة الذعر عن صوتها، جعلته يبدو كتساؤل عرضى، وتَحَطَم شىء على الباب، كانت آمو مشوشة، غاضبة وغير مصدقة لما يجرى لها حيث أُغلق الباب عليها مثل مجنون الأسرة فى عائلة من العصور الوسطى، أخيراً فقط، إنهار العالم حولهم عندما جىء بجسد صوفى مول إلى أيمينم، وفتحت بيبى كوشاما الباب لها، حتى أن آمو فكرت بإمعان، خلال غضبها، فى محاولة لفهم ما جرى، فرض الخوف وتوقع الشر عليها أن تفكر فى وضوح، وحينئذ فقط، تذكرت ما قالته لتوءميها عندما جاءا إلى باب حجرة نومها وسألاها لماذا أُغلق الباب عليها، والكلمات غير المبالية التى قالتها دون أن تعنيها .

«بسببكم أنتم !» صرخت آمو : «إن لم يكن بسببكم، ما كنت أكون هنا ! كنت أغدو حُرّة!، كان علىّ أن أُلقى بكما فى ملجأ للأيتام يوم ولدتما ! أنتما حجران ثقيلان حول عنقى!» .

لم يكن فى وسعها أن تراهما وهما يقبعان فى مواجهة الباب، لفَّة شعر مندهشة ونافورة من الحب فى طوكيو، توءمان مرتبكان سفيران لما يعرفه الله، صاحبا الفخامة السفيران أ . ألفيس ، وس . إنسكت .

«فقط اذهبا بعيداً !» : قالت آمو، «لماذا لا تستطيعان فقط الذهاب بعيداً وتركى بمفردى؟!»

وهذا ما فعلاه .

غادرت بيبى كوشاما المكان عندما جاءها الرد الوحيد على سؤالها عن الأطفال والذى كان يحطم شيئاً ما على باب حجرة نوم آمو، بدأ ينمو فى داخلها خوف بطىء عندما بدأت تضع أمامها الارتباطات الواضحة والمنطقية بين أحداث الليلة واختفاء الأطفال والتى فُهمت بطريقة خاطئة تماما .

كان المطر قد بدأ مبكراً فيما بعد ظهر الأمس، فجأة أظلم اليوم الحار وأخذت السماء ترعد وتدمدم، كانت كوشوماريا سيئة المزاج دون سبب معين، تقف في المطبخ على كرسيها المنخفض الذي بلا مسند تنظف بعنف سمكة كبيرة، مما أثار عاصفة لها رائحة قشور السمك، كان قرطاها الذهبيان يتأرجحان في وحشية، وكانت قشور السمك الفضية تتطاير في جو المطبخ، وتهبط على الأباريق والجدران، وأدوات تقشير الخضراوات ومقبض الثلاجة، تجاهلت فيليابابن عندما ظهر على باب المطبخ مبللاً منتفضاً، كانت عينه الحقيقية حمراء قانية، بدا وكأنه كان ثملاً، وقف هنالك لعشر دقائق في انتظار أن تلحظه، عندما انهت كوشوماريا السمكة وبدأت في تقطيع البصل، سلك زوره وسأل عن ماماشي، حاولت كوشوماريا أن تبعده، غير أنه لم يغادر، كلما حاول فتح فمه للكلام، كانت رائحة «العرقي» التي تفوح من أنفاسه تصدم كوشوماريا مثل المطرقة، لم تكن قد رأته ألبتة هكذا من قبل، كان خائفاً بعض الشيء، كان لديها فكرة جيدة عن سبب كل ذلك، لهذا فإنها قررت أخيراً أنه من الأفضل استدعاء ماماشي، أغلقت باب المطبخ، تاركة فيليابابن في الباحة الخلفية يترنح سكرانا في وابل المطر، أمطرت وكأن الشهر كان يونيو في حين أنه كان ديسمبر، وقد سمّته الصحافة في اليوم التالي « اضطراب إعصاري»، غير أنه لم يكن هنالك حينذاك أحد في حالة تسمح له بقراءة الجرائد .

ربما كان هذا المطر هو الذي دفع فيليابابن إلى باب المطبخ، بدا هذا الانهمار الغزير القاسي للمطر في غير موسمه، بدا لرجلٍ متطيرٍ وكأنه نذير نحس من رب غاضب، كان يمكن أن يبدو لسكران متطير، بدايةً لنهاية العالم، والذي كان هكذا بالفعل، بصورة ما .

عندما وصلت ماماشي إلى المطبخ، في تنورتها وروبها القرنفلي الفاتح، والحاشية المتعرجة، تسلق فيليابابن درجات المطبخ وقدم عينه المرهونة - وضعها على راحة يده، قال إنه لا يستحقها، وإنه يريد منها أن تستردها، تدلى جفنه الأيسر فوق محجره الخالي من غمزة ثابتة شديدة البشاعة، وكأن كل شيء أوشك أن يقوله كان جزءاً من مزحة مدروسة بإتقان .

«ما الأمر؟» : سألت ماماشي، مادةً يدها، معتقدة أن فيليابابن، كان يعيد إليها، ربما لسبب ما، كيلو الأرز الأحمر الذي أعطته له في الصباح .

« إنها عَيْنه » : قالت كوشوماريا بصوت مرتفع لماماشى، كانت عيناها تبرقان بدموع البصل، وكانت ماماشى، فى ذلك الوقت، قد لمست بالفعل العين الزجاجية وتراجعت من ملمسها الزلق، من رخاميتها اللزجة .

«هل أنت سكران؟» قالت ماماشى فى غضب إلى صوت المطر، «كيف تجرؤ على الحضور إلى هنا فى مثل هذه الحالة؟» .

تلمست طريقها إلى الحوض، وغسلت عصائر عين الباراقان المخضلة، شمت راحتُها عندما انتهت، أعطت كوشوماريا لفيلياباين قطعة قماش مطبخ قديمة ليمسح نفسه فيها، ولم تقل شيئًا عندما وقف على أعلى درجة، يكاد يكون داخل مطبخها غير المنبوذ، يجفف نفسه ويحتمى من المطر تحت الجزء الناتئ المائل من السقف .

أعاد فيلياباين عينه إلى محجرها الصحيح، عندما غدا أهدأ، وبدأ الكلام، بدأ يعدد من جديد لماماشى كيف فعلت عائلتها الكثير من أجل عائلته، جيلاً بعد جيل، كيف منح المبجل أ . چون إيب أباه، «كيلان»، سند ملكية الأرض التى يقف عليها كوخهم الآن، قبل أن يفكر الشيوعيون فى ذلك بزمن طويل، وكيف دفعت ماماشى من أجل عينه، وكيف دبرت تعليم ڤيلوتا ومنحته عملا .

ورغم أن ماماشى كانت تحس بالضيق، من شكره، غير أنها لم تكن تكره سماع قصص المآثر التى تدور حولها وحول سخاء عائلتها المسيحى، لم يكن هنالك فيما يقال ما يعدها لما توشك أن تسمعه .

بدأ فيلياباين الصراخ – كان نصفه يبكى، الدموع تدفقت من عينه الحقيقية، ولمعت فوق خده الأسود، كان يحلق بصورة حجرية أمامه بعينه الأخرى، باراقان عجوز، رأى الأيام الماضية فى مسيرتها، يتمزق بين الولاء والحب .

ثم أمسك الذعر بتلابيبه ودفع بالكلمات إلى خارجه، أخبر ماماشى بما كان قد رأى، قصة القارب الصغير الذى يعبر النهر ليلة بعد أخرى، ومن كان بداخله، قصة رجل وامرأة، يقفان معًا فى ضوء القمر، والجلد على الجلد .

لقد ذهبا إلى منزل كارى سايبو، قال فيلياباين، لقد دخلهما شيطان الرجل الأبيض، لقد كان ذلك هو انتقام كارى سايبو منه، لما فعله هو، فيلياباين به، القارب (الذى جلس عليه إستا ووجدته راهيل) مربوطًا إلى بقية جذع شجرة إلى جوار الممر

شديد الانحدار الذى يقود عبر المستنقع إلى عزبة المطاط المهجورة، لقد رآه هنالك، كل ليلة يهتز فوق المياه، فارغًا، منتظراً عودة المحبين، منتظراً لساعات، إنهما يظهران أحيانًا وقت الفجر فقط عبر الحشائش الطويلة، لقد رآهما فيليابابن بعينيه هو، وقد رآهما آخرون أيضًا، إن القرية كلها تعرف، كانت المسألة مسألة وقت لتكتشف ماماشى الأمر، ولذلك جاء فيليابابن ليخبر ماماشى بنفسه، إنه كباراڤان ورجل، لديه أجزاء مرهونة من جسده، يعتبر أن ذلك واجبه .

المحبان، انحدرا من صلبه وصلبها، إنه ابنه وهى ابنتها، لقد جعلا ما لا يمكن تصوره ممكنًا، والمستحيل يحدث بالفعل .

ظل فيليابابن يتكلم، يبكى، يتقيأ، يحرك فمه، لم تستطع ماماشى سماع ما كان يقول، ارتفع صوت المطر أكثر وانفجر فى رأسها، لم تسمع نفسها وهى تصرخ .

فجأة خطت المرأة الضريرة فى روبها المتعرج، وشعرها الرمادى الخفيف المضفور فى شكل ذيل فأر، خطت إلى الأمام، ودفعت فيليابابن بكل قوتها، تعثر إلى الوراء، أسفل درجات المطبخ ورقد ممدداً فى الطين المبتل، لقد أخذته المفاجأة تماما، إن المنبوذ، باعتبار ما هو محظور، لا يتوقع أن يلمسه أحد، على الأقل لا يلمسه فى مثل تلك الحالات، التى يكون هو فيها مقفولاً عليه فى شرنقة منيعة مادياً .

كانت بيبى كوشاما تسير عبر المطبخ فسمعت الهياج، ووجدت ماماشى تبصق فى المطر، ثو ! ثو ! ثو ! وفيليابابن راقداً فى الوحل، مبللاً، باكيًا، يعفر وجهه بالتراب، يعرض أن يقتل ابنه، يمزقه إربًا إربًا .

كانت ماماشى تصرخ : « كلب سكير ! باراڤان سكير كذاب !» .

وصرخت كوشوماريا بقصة فيليابابن، بصوت أعلى من الجلبة والضجيج، لتصل إلى بيبى كوشاما، وأدركت بيبى كوشاما للتو الاحتمال الكامن الهائل للحالة، غير أنها دهنت أفكارها بدهون ملساء، كانت متوردة، رأت فى ذلك وسيلة من وسائل الرب لعقاب آمو عن آثامها والثأر لها فى ذات الوقت لإهانتها (بيبى كوشاما) على يدىّ ڤيلوتا ورجال المسيرة، السخرية المهينة لمودالالى (١٦٤) ماريا كوتى، والتلويح الإجبارى بالعلم، وبدأت للحال إبحارها، سفينة الصلاح والفضيلة تبحر عبر بحر الرذيلة .

وضعت بيبى كوشاما يدها الثقيلة حول ذراع ماماشى .

«لابد أن هذا حق» : قالت فى صوت هادئ : «إنها قادرة تماما على فعل ذلك، وهو أيضاً، إن فيليابابن لا يمكن أن يكذب فى أمر كهذا» .

طلبت من كوشوماريا أن تحضر كوب ماء لماماشى، ومقعداً لتجلس عليه، وجعلت فيليابان يعيد حكى قصته، حيث كانت توقفه هنا وهناك للحصول على التفاصيل - قارب من؟ كم مرة؟ منذ متى بدأ حدوث ذلك؟

عندما أنهى فيليابابن، استدارات، بيبى كوشاما إلى ماماشى وقالت، «يجب أن يغادر، الليلة، قبل أن يتفاقم الأمر أكثر من ذلك، قبل أن نُدمر تماماً» .

ثم ارتجفت رجفتها التى كانت ترتجفها وهى تلميذة فى المدرسة، حدث ذلك عندما قالت : « كيف استطعت تحمل الرائحة؟ ألم تلاحظى؟ إن لهم رائحة خاصة، هؤلاء الباراڤان»، بهذه الملحوظة الشمية، هذه التفصيلة الصغيرة المعينة ، أخذ الرعب فى الانتشار،

تحول غضب ماماشى من العجوز الباراڤان، الأعور الواقف فى المطر، سكران، يرشح قطرة قطرة، وقد تغطى بالطين إلى احتقار بارد لابنتها وما فعلته، فكرت فيها عارية مقترنة فى الطين برجل لم يكن شيئًا غير كولى (١٦٥) قذر، تصورتها فى تفصيلات حية: راحة باراڤان خشنة سوداء على نهد ابنتها، فمه على فمها، ردفاه السوداوان يهتزان بين ساقيها المفترقين، صوت تنفسهما، رائحة الباراڤان المميزة، «مثل الحيوانات»، فكرت ماماشى وكادت تتقيأ، «مثل كلب وأنثاه على نار»، إن تسامحها مع «حاجات الرجل»، الذى كان يخص ابنها، غدا وقود غضبها الشديد من ابنتها، لقد لوثت ودنست أجيال من المواليد (المبارك الصغير، الذى باركه بطريرك انتيوك شخصياً، وعالم الحشرات الجليل، وكذا الحاصل على منحة رودس الدراسية من أوكسفورد)، ودفعت بالعائلة إلى ركبتيها، فلأجيال قادمة، وللأبد منذ الآن، سوف يشير الناس إليهم فى أعراسهم وجنازاتهم، فى حفلات عمادهم وميلادهم، سوف يتغامزون عليهم ويتهامسون، لقد انتهى الآن كل شيء،

لقد فقدت ماماشى سيطرتها على الأمور،

وفعلت السيدتان العجوزتان، ما يجب عليهما أن يفعلاه، قدمت ماماشى فورة الغضب، وقدمت بيبى كوشاما الخطة، وكانت كوشوماريا هى الملازم الأول القزم الذى تحت إمرتهما، قامتا بسجن اَمو (غدرا بها فى حجرة نومها) قبل أن ترسلا فى

استدعاء ڤيلوتا، كانتا تدركان أنه يجب عليهما أن يجعلاه يغادر أيميتم قبل عودة شاكو، إنهما لا تستطيعان أن تثقا أو تتكهنا بالمنحى الذى سيتخذه شاكو.

لم يكن الخطأ خطأهما كلية، رغم أن الأمر كله قد خرج عن السيطرة مثل رأس أصابه الخلل، حتى أنه يركل كل من يعترض طريقه، فى الوقت الذى عاد فيه شاكو ومرجريت كوشاما من كوشين، كان الوقت قد تأخر كثيراً.

كان صياد السمك قد عثر على صوفى مول بالفعل.

تصوروا ما حدث له.

فى قاربه فى الفجر، عند فم النهر الذى عرفه طوال حياته، النهر الذى مايزال سريعًا منتفخًا بأمطار الليلة الماضية، شىء ما يتأرجح عبره فى المياه، وتشد الألوان انتباهه، بنفسجى زاهٍ، بنى مائل للحمرة فى لون رمال الشاطئ، يتحرك مع الموجة، سريعًا نحو البحر، دفع العمود البامبو لإيقاف هذا الشىء وجذبه نحوه، كان حورية مجعدة، طفلة حورية، مجرد طفلة حورية، ذات شعر بنى مائل للحمرة لها أنف عالم حشرات جليل، وكستبان فضى تمسك به فى قبضتها جلبًا للحظ، يسحبها خارج الماء إلى قاربه، يضع بشكيره القطنى الرقيق أسفلها، ترقد فى قاع القارب مع طرحة شبك فضية من الأسماك الصغيرة، إنه يجدف نحو البيت - «ثايى ثايى تا كا ثايى ثايى ثوم»، مفكراً فى مدى الخطأ الذى يقع فيه صياد السمك عندما يعتقد أنه يعرف نهره حق المعرفة، إن أحداً لا يعرف الميناشال، لا أحد يعرف ما الذى يمكن أن يختطفه أو يقدمه فجأة، ذلك هو ما يجعل صيادى السمك يُصلُّون.

أُدخلت بيبى كوشاما إلى حجرة ضابط مركز الشرطة، فى مركز شرطة كوتايام، وهى تنتفض، أخبرت المفتش «توماس ماثيو» بالأوضاع التى أدت إلى الطرد المفاجئ لعامل فى مصنع، باراڤان، لقد حاول منذ بضعة أيام مضت أن، أن ... أن يفرض نفسه على ابنة أخيها، هكذا قالت، مطلقة ومعها طفلان.

قدمت بيبى كوشاما العلاقة بين آمو وڤيلوتا بشكل خاطئ، ليس حرصًا على آمو، ولكن لاحتواء الفضيحة وإنقاذ سمعة العائلة فى عينى المفتش توماس ماثيو، لم تتصور أن آمو سوف تلقى فيما بعد بالفضيحة على نفسها، وأنها سوف تذهب إلى الشرطة وتحاول تسجيل المحضر رأسًا، وبدأت بيبى كوشاما، بينما كانت تروى قصتها، بدأت هى نفسها فى تصديقها.

لماذا لم يَجْرِ إخطار الشرطة منذ البداية، أراد المفتش أن يعرف،

«نحن عائلة عريقة » : قالت بيبى كوشاما: « وتلك أشياء لا نحب الخوض فيها»،

المفتش توماس ماثيو، وقد مال إلى الخلف وراء شارب طيران الهند الممتد، يفهم ذلك جيداً، إن له زوجة من غير المنبوذات، وابنتين من غير المنبوذات - وهنالك أجيال كاملة من غير المنبوذين - تنتظر فى أرحامهن غير المنبوذة،

«أين هذا الذى تحرش بها الآن؟»

«فى منزله، إنها لا تعرف أننى جئت إلى هنا، ما كانت تسمح لى بذلك، بالطبع - إنها مهووسة قلقًا على طفليها - إنها فى حالة هيستيرية» .

فيما بعد، عندما وصلت القصة الحقيقية إلى المفتش توماس ماثيو، حقيقة أن ما أخذه الباراڤان، من مملكة غير المنبوذين، لم يأخذه خطفًا، لكنه مُنح له، أثار هذا الأمر اهتمامه بعمق، ولذا، فإنه بعد جنازة صوفى مول، عندما ذهبت آمو إليه ومعها التوءمان لإخباره أن هنالك خطأ قد وقع، ونقر هو على ثدييها بهراوته، فإن ذلك لم يكن من جانبه، بهيمية شرطية عفوية، إذ كان يعرف تمامًا ماذا يفعل، كانت تلك إيماءة متعمدة محسوبة لإذلالها وإرهابها، محاولة منه لغرس النظام فى عالم ضل السبيل .

وفيما بعد عندما استقر الغبار، ورُوجع التقرير، هنأ المفتش توماس ماثيو نفسه للطريقة التى انتهى الأمر عليها .

غير أنه كان يستمع الآن بعناية ودماثة بينما كانت بيبى كوشاما تبنى وتشكل قصتها .

قالت له «كان الظلام، فى الليلة الماضية - حوالى الساعة السابعة مساء يزداد كثافة، عندما جاء إلى المنزل يهددنا، كانت السماء تمطر مطرًا ثقيلاً للغاية، كانت الأضواء قد انطفأت وكنا نشعل المصابيح عندما جاء، كان يعرف أن رجل المنزل، ابن أخى، شاكو إيب كان بعيداً فى كوشين، كنا ثلاث نساء بمفردنا فى المنزل»، توقفت حتى تدع المفتش يتصور الرعب والفزع الذى يمكن أن يصيب ثلاث نساء بمفردهن فى منزل ما من باراڤان مخبول جنسيًا .

«أخبرناه بأنه إن لم يغادر أيمينم فى هدوء فإننا سوف نستدعى الشرطة، بدأ يقول إن ابنه أخى قد وافقت، هل تتخيل ذلك؟ وسألنا أى دليل معنا نثبت به اتهامنا له، قال أنه طبقًا لقوانين العمل فإنه لا يوجد لدينا أى أساس لطرده، كان هادئًا للغاية، قال لنا : «لقد مضت الأيام التى كان يمكنكم فيها ركلنا مثل الكلاب»، كانت بيبى كوشاما حتى الآن، مُقنعة للغاية، مجروحة الكبرياء، تبدو غير مصدقة لما حدث .

ثم ساد خيالها تماما، لم تصف كيف فقدت ماماشى التحكم والسيطرة، كيف ذهبت إلى ڤيلوتا وبصقت مباشرة فى وجهه، الأشياء التى قالتها له، والسباب الذى وجهته إليه .

إنها بدلاً من ذلك وصفت للمفتش توماس ماثيو كيف أن الكلمات التى قالها ڤيلوتا لم تكن هى فقط ما جعلها تجىء إلى الشرطة، لكنها أيضًا الطريقة التى قالها بها، افتقاده الكامل للندم، الأمر الذى صدمها أكثر من غيره، وكأنه كان من الناحية العملية فخوراً بما فعل، لقد ربطت، دون أن تدرك ذلك، ربطت بشدة ما تقول بسلوك الرجل الذى أذلها أثناء المسيرة الخاصة بڤيلوتا، وصفت الغضب الساخر فى وجهه، العجرفة النحاسية فى صوته الذى أثار فزعها بشدة، مما جعلها متيقنة أن فصله واختفاء الأطفال لم يكونا، على الأرجح، أمرين منفصلين،

لقد عرفت الباراڤان منذ كان طفلاً، قالت بيبى كوشاما، لقد قامت أسرتها بتعليمه، فى مدرسة غير المنبوذين التى بدأها والدها، «بونيان كونجو» (إن مستر توماس ماثيو لابد من أنه يعرف بالتأكيد، من كان والدها)،،، كما قامت أسرتها بتدريبه ليصبح نجاراً، ومنحت عائلتها لجده المنزل الذى يعيش فيه، إنه مدين لأسرتها بكل شىء،

«أنتم أيها الناس » : قال المفتش توماس ماثيو : « أفسدتم هؤلاء أولاً، حملتموهم على رؤوسكم مثل نصبت ذكارية، ثم تأتون جريا إلينا طالبين العون، عندما يسيئون التصرف» .

خفضت بيبى كوشاما عينيها مثل طفل معاقب، ثم أكملت قصتها، أخبرت المفتش توماس ماثيو كيف أنها لاحظت فى الأسابيع القليلة الأخيرة علامات منذرة، بعض العجرفة، بعض الوقاحة، ذكرت رؤيته فى المسيرة وهم فى طريقهم إلى كوشين والإشاعات التى تقول بأنه كان ناكساليا، لم تلاحظ تقطيبة القلق الخفيفة التى رسمتها تلك المعلومة على جبينه،

لقد حذرت ابنة أخيها منه، قالت بيبى كوشاما، لكنها لم تفكر فى أشد أحلامها بربرية أن الأمر يمكن أن يصل إلى هذا الحد، فقد ماتت طفلة جميلة، وهنالك طفلان مفقودان،

بدت بيبى كوشاما معتلة،

أعطاها المفتش توماس ماثيو كوب شاى من شاى الشرطة، وعندما أحست أنها أفضل حالا، ساعدها كى تسجل كل ما قالته له فى بلاغها، وأكد لبيبى كوشاما التعاون الكلى لشرطة «كوتايام»، قال إنه لابد من أن يقبض على الداعر قبل أن ينقضى اليوم، باراڤان معه توءمان من بيضتين ، يطارده التاريخ - كان يعلم أنه لا توجد أماكن كثيرة يمكنه الاختفاء فيها .

كان المفتش ماثيو رجلاً حذراً، اتخذ احتياطًا واحدًا، أرسل سيارة چيب لإحضار الرفيق ك.ن.م. بيلاى، كانت معرفته وجود أى دعم سياسى للباراڤان أم أنه يفعل ما يفعله بمفرده مسألة حاسمة بالنسبة إليه، ورغم أنه نفسه كان رجل حزب المؤتمر، غير أنه لم يكن ينوى خوض أية مخاطرة مع الحكومة الماركسية، عندما وصل الرفيق بيلاى أُقتيد إلى المقعد الذى كانت بيبى كوشاما قد احتلته لتوها فقط، أطلعه المفتش توماس ماثيو على بلاغ بيبى كوشاما، وتبادل الرجلان حديثًا، قصيراً، مستتراً، فى الموضوع، كأنهما يتبادلان الأرقام وليس الكلمات، بدا أنه ليس هنالك ضرورة للايضاحات، لم يكونا صديقين، الرفيق بيلاى والمفتش توماس ماثيو، ولم يكن الواحد منهما يثق بالآخر، غير أنهما كانا يفهمان بعضهما جيداً، كان كل منهما رجلاً هجر طفولته دون أثر لها، رجلان بلا فضول، بلا شكوك، إن كُلاً منهما، بطريقته الخاصة، رجل راشد مرعب بحق، إنهما ينظران إلى العالم ولا يتساءلان كيف يعمل ألبتة؛ لأنهما يعرفان، هما يديرانه، إنهما ميكانيكيان يعملان فى أجزاء مختلفة من ذات الماكينة .

أخبر الرفيق بيلاى المفتش توماس ماثيو أنه على معرفة بڤيلوتا، لكنه أسقط ذكر أن ڤيلوتا كان عضواً فى الحزب الشيوعى، أو أن ڤيلوتا قد طرق بابه فى ساعة متأخرة من الليلة الماضية، مما جعل الرفيق بيلاى هو آخر شخص رأى ڤيلوتا قبل اختفائه، ولم يدحض الرفيق بيلاى الادعاء بمحاولة الاغتصاب التى جاءت فى بلاغ بيبى كوشاما، رغم علمه أن ذلك غير حقيقى، لقد أكّد فقط للمفتش توماس ماثيو ،

ماله هو من علاقة بالأمر، أكد أن ڤيلوتا لم يكن يتمتع برعاية أو حماية الحزب الشيوعى، وأن ما كان يفعله إنما فعله على مسئوليته .

بعد أن غادر الرفيق بيلاى، راجع المفتش توماس ماثيو ذهنيا محادثتهما، يدقق فيها، يختبر منطقها، يبحث عما فيها من ثغرات، وعندما أحس بالرضا أصدر أوامره لرجاله .

فى تلك الأثناء، عادت بيبى كوشاما إلى أيمينم، كانت البليموث تقف فى الطريق الخاص، كانت مرجريت كوشاما وشاكو قد عادا من كوشين .

وكانت صوفى مول ترقد على الشيزلونج،

عندما رأت مرجريت كوشاما جسد ابنتها الصغيرة، فاضت الصدمة داخلها مثل تصفيق شبحى فى قاعة عمومية خالية، انسابت بإفراط فى موجة من القيء تركتها خرساء خاوية العينين، أخذت تندب ميتتين، لاميتة واحدة، إذ بفقدها صوفى مول، مات جو ثانية، وليس هنالك، فى هذه المرة، واجب مدرسى يجب الانتهاء منه أو بيض لأكله، لقد جاءت إلى أيمينم لتضمد عالمها المجروح، فخسرته كله بدلا من ذلك، لقد تهشمت مثلما يتهشم الزجاج،

كانت ذاكرتها عن الأيام التى تلت مشوشة، ساعات طويلة معتمة من الهدوء والسكون الكثيف المشحون بالتوبيخ الغاضب (والذى عالجه طبياً د . فرغيز فرغيز)، والذى كانت تمزقه نوبات حادة عنيفة من هيستريا قاطعة قاسية مثل حد نصل موس حلاقة جديد،

كانت تحس بشاكو بصورة غائمة ضبابية - مهتم بها ورقيق الصوت عندما يكون بجانبها - أما خلاف ذلك فهو ثائر هائج مثل ريح غاضب عبر منزل أيمينم، مختلف تماما عن القنفذ المجعد المُسلى الذى قابلته منذ زمن طويل فى صباح «أوكسفوردى» فى المقهى،

تذكرت بصورة باهتة الجنازة فى الكنيسة الصفراء، والغناء الحزين، والخفاش الذى ضايق شخصًا ما، إنها تتذكر أصوات الأبواب وهى تتكسر، وأصوات النساء الخائفات، كما كان لصراصير الدغل فى الليل أصوات تشبه درجات سلم يزيق مضخمة الخوف الذى يحلق فوق أيمينم،

إنها لن تنسى أبداً غضبها غير المعقول، من الطفلين الآخرين الأصغر سناً، واللذين كانا قد بقيا على قيد الحياة لسبب ما، كان عقلها المحموم قد أُحكم إغلاقه، مثل حيوان صدفي، على فكرة أن إسثا كان، بصورة ما، مسئولاً عن موت صوفي مول، الغريب في الأمر أن مرجريت كوشاما لم تكن تعرف أن إسثا كان هو الساحر المثير الذى له لَفَّة شعر والذى جدف فى المربى وفكر «فكرتين» – إسثا الذى كسر القواعد وجدف «بصوفى مول وراهيل» عبر النهر فيما بعد الظهر فى قارب صغير، إسثا هو الذى أبطل رائحة مقززة عندما لوح بعلم ماركسى فى مواجهتها، إسثا هو الذى جعل الشرفة الخلفية من منزل التاريخ داراً لهم بعيداً عن دارهم وأسسها بحصيرة من العشب وغالبية لعبهم – نبْلَة، أوزة مطاطية، «كانتتاس كوالا» (١٦٦) له عينان كالزارير سائبتان، وأخيراً، فإن إسثا هو الذى قرر فى تلك الليلة المخيفة، حيث كانت هنالك أمطار وظلام، بأن الوقت قد حان لهما للفرار، لأن آمو لم تعد تريدهما .

لماذا وجهت مرجريت كوشاما اللوم إلى إسثا عما حدث، رغم أنها لم تكن تعرف شيئًا من كل هذا؟ ربما كانت تمتلك غريزة الأم .

ثلاث أو أربع مرات وهى تسبح عبر طبقات كثيفة من نوم حل بها بتأثير المخدر، كانت تبحث عن إسثا فعلياً، وتصفعه حتى يهدئها أحدهم ويبعدها عنه، وقد كتبت لآمو فيما بعد تعتذر، كان إسثا قد أُعيد وقت أن وصل الخطاب، وكان على آمو أن تحزم حقائبها وترحل، فقط راهيل هى التى بقيت فى أيمينم لتتقبل، نيابة عن إسثا، اعتذار مرجريت كوشاما، «إننى لا أستطيع تصور ما حل بى» كتبت : «إننى فقط أستطيع أن أعزو ذلك إلى تأثير المهدئات، لم يكن لى أى حق فى سلوك كما سلكت، وأود أن تعرفى أننى خجلة وآسفة أشد الآسف»،

من الغريب أن الشخص الوحيد الذى لم تفكر فيه مرجريت كوشاما كان ڤيلوتا، إنها لا تتذكره على الإطلاق، ولا حتى كيف كان يبدو .

ربما كان هذا، حقيقة ؛ لأنها لم تعرفه ألبتة، ولا سمعت عما حدث له ألبتة .

رب الضياع .

رب الأشياء الصغيرة .

إنه لم يترك أية آثار فى الرمال، ولا تموجات خفيفة فى المياه، ولا صورة فى المرايا .

ورغم ذلك، فإن مرجريت كوشاما لم تكن مع فريق الشرطة غير المنبوذين عندما عبروا النهر وقد فاض، كانت سراويلهم القصيرة الواسعة الكاكية متيبسة بالنشا والأصفاد المعدنية تتكتك فى جيب أحدهم الثقيل .

ليس من المعقول توقع أن تتذكر إنسانة أشياء لم تعرف بحدوثها .

* * *

كان الأسى على أى حال ما يزال بعيداً مدة أسبوعين .

حدث بعد الظهر ذاك، الأشبه بغرزة زرقاء متقاطعة، عندما كانت مرجريت ترقد متعبة، وماتزال نائمة، أن انحرف شاكو، وهو فى طريقة إلى الرفيق ك.ن.م، بيلاى، عابراً أمام نافذة حجرة النوم، مثل صوت قلق متلصص، ناوياً النظر خلسة ليرى إن كانت زوجته (زوجة شاكو السابقة) وابنته يقظتين، وإن كانتا تريدان شيئًا، وخانته شجاعته فى آخر دقيقة، فانساب بدينا دون أن ينظر، ورأته صوفى مول (اليقظة، الحية، المتنبهة) وهو يمضى،

جلست فوق سريرها ونظرت إلى الخارج إلى أشجار المطاط، كانت الشمس قد تحركت عبر السماء وألقت بظلال المنزل عميقة عبر الزراعة، مما أظلم الأشجار ذات الأوراق المظلمة بالفعل، كان الضوء فيما وراء الظل مسطحًا ورقيقًا، كان هنالك شق مائل عبر اللحاء المبرقش لكل شجرة، يرشح عبره مطاط لبنى مثل دم أبيض من جرح ينزل قطرة قطرة فى نصف قشرة جوز الهند المنتظرة والمربوطة إلى الشجرة،

نهضت صوفى مول من سريرها وفتشت كيس نقود أمها النائمة، وجدت ما كانت تبحث عنه، مفاتيح حقيبة السفر الكبيرة المغلقة الموجودة فوق الأرض وعليها ملصقات خط الطيران وبطاقات العفش، فتحتها ونبشت محتوياتها برقة كلب يحفر حوضًا من أحواض الزهور، قلبت أكوامًا من ملابس النساء الداخلية، تنورات وبلوزات مكوية، شامبوهات، كريمات، شكولاتة، سيلوتيب، مظلات، صابون (وقوارير أخرى تحمل روائح لندن) كينين، أسبرين، مضادات حيوية واسعة المدى، «خذى كل شىء»، كانت نصيحة زميلات مرجريت كوشاما بأصوات قلقة، «إنك لن تعرفى أبداً»، كانت تلك هى طريقتهم كى يقلن لزميلة مسافرة إلى «قلب الظلام» إن:

(ا) أى شىء يمكن أن يحدث لأى أحد .

ولذا

(ب) من الأفضل أن يكون المرء مستعداً .

أخيراً عثرت صوفى مول على ما كانت تبحث عنه، هدايا لابنة وابن عمتها، «أبراج مثلثة من شكولاتة توبليرون» (طرية وَمائلة من الحرارة)، جوارب قصيرة ذات أصابع أقدام منفصلة عديدة الألوان، وقلمان رأساهما كرويان - نصفاهما العلويان مليئان بمياه تسبح فيها مُعلّقة تركيبية فنية من مواد مختلفة تصور شارعًا فرعيًا فى لندن، قصر «بكينجهام» ، «وبيج بن» ، حوانيت وبشر، سيارة ركاب حمراء ذات طابقين تُسيّرها فقاعة هواء تطفو أعلى وأسفل الشارع الصامت، كان غياب الصوت من شارع الطرف الكروى شيئًا مشئوما ينذر بالشر .

وضعت صوفى مول هداياها فى حقيبتها الجو-جو وانطلقت إلى العالم ؛ لتقوم بمساومة صعبة، للتوصل بالتفاوض إلى صداقة ومودة .

صداقة سوف تُترك، لسوء الحظ، متدلية معلقة، ناقصة، تتخبط فى الهواء دون موطئ قدم، صداقة لم تكتمل دورتها فى قصة ألبتة ، الأمر الذى تسبب فى أن تصبح صوفى مول، وبأسرع مما كان يجب حدوثه، ذكرى، بينما يغدو «ضياع» صوفى مول شديداً وحياً ، مثل فاكهة فى موسمها ، فاكهة كل موسم .

الفصل الرابع عشر

العمل نضال

سلك شاكو الطريق المختصرة عبر أشجار المطاط المائلة حتى يسير فقط مسافة محدودة للغاية ، أسفل الطريق الرئيسي ، إلى منزل الرفيق ك من ،م ، بيلاى ، بدا سلوكه منافيًا للعقل ، إلى حد ما ، وهو يخطو فوق سجادة من أوراق الشجر الجافة ، في حلته المشدودة التي يرتديها عندما يذهب إلى المطار ، وكانت ياقته تتطاير فوق كتفه .

لم يكن الرفيق بيلاى هناك عندما وصل شاكو ، قدمت له زوجته ، «كاليانى» ، وعجينة طازجة من خشب الصندل فوق جبهتها ، مقعداً من الصلب الذى يطوى في حجرتهم الأمامية الصغيرة ، واختفت عبر المدخل بستارته النايلون الحمراء الوردية ذات الأربطة ، في حجرة مجاورة معتمة حيث كانت تضطرب شعلة مصباح نحاسى زيتى كبير ، كانت رائحة البخور الكثيفة تنجرف عبر المدخل ، الذى كانت توجد عليه لوحة خشبية صغيرة مكتوب عليها ، «العمل نضال ، النضال عمل».

كان شاكو كبيراً للغاية على الحجرة ، زاحمته الجدران الزرقاء ، نظر حوله متوتراً غير مرتاح إلى حد ما ، كانت هنالك فوطة تُجفف فوق قضبان النافذة الصغيرة الخضراء ، وكانت مائدة الطعام مغطاة بمفرش من البلاستيك المزين برسوم زهور نضرة ، ذباب صغير يطير حول سباطة موز صغير على طبق مصقول أبيض أزرق الحواف ، وكانت هنالك ، في أحد أركان الحجرة ، كومة من جوز الهند الأخضر غير المقشور ، ورقد شبشب طفل مطاطى وقد استدارت أطرافه الأمامية إلى الداخل ، في متوازى الأضلاع الزاهى الناجم عن ضوء الشمس النافذ عبر القضبان فوق الأرض ،

وقد انتصب إلى جوار المائدة صوان ذو ألواح زجاجية ، بداخله ستائر معلقة مطبوعة تخفى محتوياته .

والدة الرفيق بيلاى ، وهى سيدة عجوز ضئيلة للغاية تجلس فى بلوزة بنية وموندو أبيض رمادى ، على طرف سرير خشبى مرتفع ، وقد دُفعت نحو الحائط ، فتدلت قدماها عالية فوق الأرضية ، إنها ترتدى بشكيراً أبيض رقيقًا موضوعًا بطريقة مائلة فوق صدرها وقد عُلق على أحد كتفيها ، قمع من الناموس أشبه بغطاء رأس غبى مقلوب ، يطن فوق رأسها ، جلست وقد أراحت خدها فى راحة يدها التى جمعت كل تجاعيد ذلك الجانب من وجهها ، كل بوصة فيها ، حتى المعصمين والرسغين ، كانت مجعدة متغضنة ، فقط كان جلد رقبتها متوترًا ، ناعمًا ، مشدوداً فوق غدة درقية متضخمة بصورة هائلة ، إنها ينبوع شبابها ، إنها تحملق فى بلاهة فى الحائط المواجه لها ، تهز نفسها برفق ، تصدر بانتظام صوتًا إيقاعيًا محدوداً كقباع الخنزير ، مثلها مثل مسافر أصابه الملل خلال رحلة طويلة فى سيارة ركاب .

شهادات الرفيق بيلاى ، شهادة «الإس إس إل سى»[١٦٧] وبكالوريوس الآداب وماچستير الآداب كانت فى براويز معلقة على الجدار خلف رأسها .

وعلى الحائط الآخر كانت هنالك صورة ذات برواز للرفيق بيلاى يضع إكليلاً من الزهور على الرفيق ا ،م ،س ،نامبوديرَ يباد ، وكان هنالك مكبر للصوت فوق حامل ، يلمع فى صدر الصورة ولوحة تقول «أجانتا»[١٦٨] .

المروحة الدوارة على المنضدة إلى جوار السرير تقسم نسماتها الآلية فى دورات نموذجية ديمقراطية : إنها تقوم أولا برفع ما تبقى من شعر السيدة بيلاى العجوز ، ثم ما تبقى من شعر شاكو؛ فيتشتت الناموس ثم يحتشد بلا كلل أو ملل ،

كان فى وسع شاكو أن يرى عبر النافذة قمم سيارات الركاب ، والأمتعة فى أرفف الأمتعة ، بينما السيارات ترعد منطلقة ، سيارة چيب تحمل مكبر صوت عبرت أمامهم ، تدوى منها أغنية ماركسية من أغانى الحزب ، كانت تدور حول البطالة ، كانت اللازمة الغنائية تقال بالإنجليزية وبقية الأغنية بالمالايالامية .

لا بطالة ! لا بطالة !

أين العالم الذى يذهب إليه الرجل الفقير ،

لا لا لا لا لا بطالة !

كانت «نو»[١٦٩] تنطق على وزن «دور»[١٧٠] .

عادت كاليانى ومعها كوب قهوة مصفاة ، من صلب لا يصدأ ، وطبق ، من صلب لا يصدأ عليه قطع موز (صفراء زاهية بها نقط سوداء كالحبوب فى وسطها) لتقدم كل ذلك إلى شاكو .

«لقد ذهب إلى «أولاسا» ، وسوف يعود الآن فى أى وقت» : قالت : هى كانت تشير إلى زوجها باعتباره «آديهام» ، وهى تعنى الشكل الأكثر احتراما لـ «هو» ، بينما كان «هو» يدعوها «إيدى» ، والتى كانت تعنى على وجه التقريب ، «هاى ، أنت !».

كانت امرأة مورقة مزدهرة ذات جلد بنى ذهبى وعينين ضخمتين ، كان شعرها المتجعد الرطب ينسدل سائبًا أسفل ظهرها ، مضفوراً فقط عند نهايته ، كان قد بلل ظهر بلوزتها المشدودة الحمراء القانية فجعلها مشدودة أكثر وحمراء أغمق ، ويتضخم لحم مرفقها الطرى ، حيث ينتهى كماها ، ويتساقط فوق مرفقيها بغمازتيهما فى نتوء فاخر سمين ، كان الموندو والكاڤاتى الأبيضان الخاصان بها متغضنين ومكويين ، كانت لها رائحة خشب الصندل و«الجرام الأخضر» المسحوق الذى تستخدمه بدلا من الصابون ، ولأول مرة منذ سنوات ، يرقبها شاكو دون أدنى إثارة لرغبة جنسية ، إن لديه زوجة (زوجة شاكو ، السابقة) فى المنزل ، زوجة ذات نمش فى ذراعيها ونمش فى ظهرها ، وترتدى رداء أزرق أسفله ساقاها.

ظهر لينين الصغير عند الباب فى سراويل قصيرة حمراء ، يمكن تمطيطها ، وقـ وقف على ساق واحدة رفيعة مثل اللقلق[١٧١] ، ولوى الستارة الودية ذات الأربط فجعلها كالسارية ، محملقًا فى شاكو بعينى أمه ، كان فى ذلك الوقت فى السادسة من عمره وقد تجاوز ، منذ زمن ، سن دفع الأشياء داخل أنفه .

«مون ، ! اذهب وناد لاثا»: قالت له السيدة بيلاى .

ظل لينين حيث كان ، إنه مايزال يحملق فى شاكو ، يزعق بلا جهد بالطريقة التى يستطيعها الأطفال فقط.

«لاثا ! لاثا ! أنت مطلوبة».

«إنها ابنة أخينا من "كوتايام" ، انها ابنة أخينا الأكبر» ، أوضحت مسز بيلاى ، «لقد ربحت الجائزة الأولى فى فن الخطابة والإلقاء فى مهرجان الشباب فى "يريڤاندروم" الأسبوع الماضى».

ظهرت فتاة صغيرة ، عبر الستارة ذات الأحزمة ، كانت تبدو كالمحاربين ، فى حوالى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرها ، كانت ترتدى جونلة طويلة مطبوعة تصل حتى كاحليها ، وبلوزة بيضاء قصيرة تصل إلى الوسط ، ذات نتوءين يفسحان مكاناً لنهدى المستقبل ، كان شعرها المدهون بالزيت مفروقاً إلى نصفين ، وكانت كل ضفيرة مشدودة لامعة ، ملوية مربوطة بالأشرطة حتى يمكن تدليتها على جانبى وجهها مثل خطوط كبيرة محددة لأذنين متهدلتين لم يتم تلوينهما بعد.

«ألا تعرفين من هذا؟» : سألت السيدة بيلاى «لاثا» .

هزت لاثا رأسها .

«شاكو سار مودالالي مصنعنًا» .

حملقت فيه لاثا برباطة جأش ودون فضول ، الأمر غير المعتاد فيمن كانت سنها ثلاثة عشر عاماً .

«لقد درس فى أوكسفورد لندن»: قالت السيدة بيلاى ، «هل تقومين بالتلاوة أمامه؟» .

واستجابت لاثا دون تردد ، زرعت قدميها منفصلين بعض الشىء .

«الرئيس المحترم» ، انحنت لشاكو ، «أعزائى القضاة و ...» ، ونظرت حولها إلى المستمعين المتخيلين وقد تزاحموا فى الحجرة الصغيرة الحارة ، «الأصدقاء الأعزاء» ، ثم توقفت بطريقة مسرحية .

«أحب اليوم أن أتلو عليكم قصيدة للسير «والتر سكوت» عنوانها «اللوشينفار» ، وأمسكت بيديها معًا وراء ظهرها ، وسقطت غشاوة على عينيها ، كانت نظرتها مثبتة بطريقة غير مرئية فوق رأس شاكو تمامًا ، وتطوحت قليلاً وهى تتكلم ، اعتقد شاكو – فى البداية – أنه ترجمة مالايالامية «للوشينفار» ، جرت الكلمات متداخلة فى بعضها البعض ، ربط المقطع الأخير من الكلمة نفسه بالمقطع الأول من الكلمة اللاحقة ، كانت تقدمها بسرعة عجيبة .

تناثرت فى القصيدة هنا وهناك أصوات قباع صادرة عن السيدة العجوز فى الفراش ، أصوات لم يلحظها أحد ، كما بدا ، غير شاكو .

وصل الرفيق بيلاى فى منتصف القصيدة ، عرق لامع يصقل جلده ، والموندو الخاص مطوياً فوق ركبتيه ، بقع عرق غامقة انتشرت تحت إبطيه «التيريلين» ، كان فى نهاية الثلاثينات ، رجل غير رياضى ، شاحب اللون ضئيلاً ، كانت ساقاه بالفعل مثل المغزل ، وكرشه المشدود المنتفخ ، والأشبه بالتضخم الدقيق للغدة الدرقية عند والدته ، يبدو غريبًا تمامًا مع باقى جسده النحيل الضيق ووجهه اليقظ ، وكأن شيئًا ما فى جينات أسرتهم منحهم أورامًا ونتوءات إجبارية تبدو بطريقة اعتباطية فى أجزاء مختلفة من أجسادهم .

كان شاربه الأنيق الأشبه بقلم يقسم شفته العليا أفقيًا إلى نصفين وينتهى بالضبط فى خط واحد مع نهايتى فمه ، لقد بدأ خط شعره فى التراجع ولم يقدم هو على أية محاولة لإخفائه ، كان شعره مدهونًا بالزيت وقد مشّطه إلى الوراء بعيداً عن جبهته ، لم يكن الشباب بوضوح هو الأمر الذى يستهدفه ، كان لديه السلطة السهلة لرجل البيت ، ابتسم وأومأ برأسه محييًا شاكو ، غير أنه لم يعترف بوجود زوجته أو أمه .

رفرفت عينا لاثا وهى تنظر نحوه طلبًا للإذن بمواصلة إلقاء القصيدة ، سُمح لها بذلك ، خلع الرفيق بيلاى قميصه ، لفه ككرة ومسح به إبطيه ، وعندما انتهى ، أخذته كاليانى منه وحملته أشبه بهدية ، باقة من الزهور ، جلس الرفيق بيلاى ، فى صدريته التى بلا أكمام ، على كرسى يُطوى وسحب قدمه اليسرى إلى أعلى فوق فخده الأيمن ، جلس طوال باقى إلقاء ابنة أخيه يحملق إلى أسفل متأملاً الأرضية ، وقد وضع ذقنه

فى راحة يده ، يدق قدمه اليمنى فى ذات الوقت مع وزن القصيدة وإيقاعها ، وكان يدلك مشط قدمه اليسرى المقنطر بطريقة أنيقة بيده الأخرى .

عندما أنهت لاثا إلقاءها صفق لها شاكو بحنان حقيقى ، ولم ترد هى على تصفيقه ولو بخفقة ابتسامة ، كانت أشبه بسبَّاحة من ألمانيا الشرقية فى منافسة محلية ، كانت عيناها مثبتتين بقوة على الذهبية الأولمبية ، أى إنجاز دون ذلك كانت تنظر إليه باعتباره مسئولية تقع عليها ، نظرت إلى عمها تطلب الإذن بمغادرة الغرفة .

أومأ إليها الرفيق بيلاى وهمس فى أذنها ، «اذهبى وأخبرى «بوثاشن» و«ماثوكوتى» أنهما إن أرادا رؤيتى ، فعليهما المجىء فى الحال» .

«كلا ، أيها الرفيق ، حقيقة ... إننى لا أود المزيد من أى شىء » : قال شاكو معتقدًا أن الرفيق بيلاى يريد إرسال لاثا لإحضار المزيد من الوجبات الخفيفة ، وأحس الرفيق بيلاى بالامتنان لهذا الفهم الخاطئ الذى عمد إلى تأكيده .

«كلا ، كلا ، كلا ، ها ه ! ما هذا؟ ... إيدى كاليانى ، أحضرى لنا طبقًا من هذه «الأفالوس أونداس» .

كان أساسيًا بالنسبة للرفيق بيلاى ، باعتباره سياسيًا ملهمًا ، أن يُرى فى دائرته الانتخابية المختارة كرجل له نفوذ ، كان يود استخدام زيارة شاكو لإحداث أثر فى نفوس أصحاب الحاجات وعمال الحزب ، كان بوثاشن وماثوكوتى ، الرجلان اللذان أرسل فى طلبهما ، فلاحين سألاه أن يستخدم علاقاته بمستشفى كوتايام لضمان وظائف تمريض لابنتيهما ، كان الرفيق بيلاى حريصًا على أن يُريا خارج منزله فى انتظار موعدهما معه ، إذ كلما ازداد عدد الناس الذين تتم رؤيتهم فى انتظار لقائه ، كلما بدا أكثر انشغالاً ، وترك انطباعًا أفضل ، وإن رأى الناس الذين فى الانتظار أن مودالالى المصنع نفسه قد جاء لرؤيته فى مرتعه ، فإن ذلك ، بالنسبة إليه ، سوف يبعث بكل أنواع الإشارات والدلالات المفيدة .

«إذن ! يا رفيق !» قال الرفيق بيلاى بعد أن أُرسلت لاثا فى مهمة ووصل الأفالوس أونداس ، «ما الأخبار؟ وكيف تتكيف ابنتكم؟» أصر على أن يتحدث إلى شاكو بالإنجليزية .

«أوه ، الأخبار جيدة ، لقد نامت الآن نومًا سريعًا» .

«أو هو ، الإرهاق الذى تسببه الطائرة النفاثة ، كما اعتقد» ، قال الرفيق بيلاى ، سعيدًا بذاته لأنه عرف شيئًا أو شيئين عن السفر الدولى .

«ما الذى يحدث فى أولاسا؟ هل هو اجتماع حزبى؟» : تساءل شاكو .

«أوه ، لا شىء من هذا القبيل ، إن أختى "سودها" أصابها تمزق منذ فترة»: قال الرفيق بيلاى وكأن التمزق كان زائرًا رفيع المقام ؛ «لذا أخذتها إلى «أولاساموس» لعلاجها ببعض الزيوت ومثل تلك الأشياء كلها ، إن زوجها فى «باما» ؛ لذا فهى بمفردها حيث يعيش الأنسباء» ، غادر لينين مكانه فى المدخل ، ووضع نفسه بين ركبتى والده ونتش أنفه .

«ماذا عن قصيدة تلقيها علينا أيها الشاب؟» : قال شاكوله : «ألم يعلمك والدك واحدة منها؟» .

حملق لينين فى شاكو ، دون أن يبدو عليه ما يدل على أنه قد سمع أو فهم ما قاله شاكو .

«إنه يعرف كل شىء»: قال الرفيق بيلاى ، إنه عبقرى غير أنه يلزم الصمت فقط أمام الزوار» ، وهزهز الرفيق بيلاى لينين بركبتيه .

«لينين مول ، قل للرفيق العم القصيدة التى علمها لك بابا ، الأصدقاء والرومان القرويون ...» .

واصل لينين صيده الأنفى النفيس .

«هيا ، مون ، إنه ليس إلا الرفيق العم ...» .

حاول الرفيق بيلاى أن يستنفره كى يبدأ «شكسبير» : « الأصدقاء الرومان ، القرويون ، أعيرونى ...؟»«.

ظلت نظرة لينين ، التى لا تطرف ، على شاكو كما هى ، حاول الرفيق بيلاى مرة أخرى .

«.... أعيرونى .....؟»

كبش لينين من قطع الموز ، وخرج من الباب الأمامى وأوصده وراءه ، بدأ يقطع الشريط الموجود فى الباحة الأمامية بين المنزل والطريق ، جريا ، جيئةً وذهابًا ، وهو يقول منفعلاً بصوت منكر أشياء لا يمكنه فهمها ، وعندما استطاع التغلب على ذلك تحول ركضه إلى عدو لاهث ، يرفع فيه ركبتيه عاليا .

«أعيرونى آذانكم؟»

صرخ لينين من الباحة ، بصوت يعلو فوق صوت سيارة الركاب العابرة .

«لقد جئت لأدفن قيصر ، لا لأمدحه

إن الشر الذى يفعله الرجال يحيا من بعدهم ،

ويدفن الطيب فى الغالب مع عظامهم »

صرخها فى صوت يتدفق طلاقة دون أن يتلعثم ولو لمرة واحدة ، كان ملفتا للأنظار إذا وضعنا فى الاعتبار أنه كان فى السادسة فقط من عمره ، وأنه لا يفهم كلمة واحدة مما يقوله ، وابتسم الرفيق بيلاى فخوراً وهو جالس بالداخل ينظر إلى الخارج ، إلى الشيطان الصغير المغبر الدائر فى سرعة فى باحته (مقاول خدمات فى المستقبل مع طفل ودراجة باجاج) .

«إنه يحتل مقدمة الفصل ، وسوف ينتقل هذا العام صفين مرة واحدة» .

كان هنالك قدر كبير من الطموح محشوداً فى تلك الحجرة الحارة الصغيرة .

وأيًا كان ما يختزنه الرفيق فى صوانه الذى تغطيه الستائر ، فإن ذلك المخزون لم يكن طائرات «بالزا» المحطمة .

كان شاكو ، من الناحية الأخرى ، يعانى منذ لحظة دخوله المنزل ، أو ربما منذ لحظة وصول الرفيق بيلاى ، حالة غريبة من الوهن ، حالة حَدَّت من ابتسامته مثل جنرال جرد من نجومه ، إن أى امرئ يلتقى به هنالك لأول مرة قد يعتقد أنه إنسان كتوم ، يكاد يكون وجلاً خجلاً .

إن الرفيق بيلاى يعرف بغرائز مقاتل الشارع التى لا تخطئ ، إن أحواله المضغوطة ومنزله الصغير الحار ، ووالدته التى تتخر كالخنزير ، وقربه الواضح من الكتل الكادحة ، تمنحه سلطة على شاكو لا يعادلها فى تلك الأزمنة الثورية أى قدر من تعليم أوكسفورد .

لقد أمسك بفقْرة كبندقية مصوبة إلى رأس شاكو .

أخرج شاكو قطعة ورق حاول أن يضع عليها رسمًا تخطيطيًا لتصميم أولى لبطاقة جديدة يود أن يقوم الرفيق ك ،ن ،م ، بيلاى بطباعتها ، كانت لمنتجٍ جديد يخطط «مصنع مخللات ومربات الفردوس» إنزاله إلى السوق فى الربيع ، الخل المُصنع للطبيخ ، لم يكن الرسم أحد قدرات شاكو ومهاراته ، غير أن الرفيق بيلاى كان يحصل على لب الفكرة بشكل عام ، كان ملمًا بشعار راقص الكاثاكالى ، الشعار أسفل التنورة والذى يقول : «أباطرة المذاق» (وكانت تلك فكرته) وحروف الطباعة التى اختارها «لمخللات ومربات الفردوس» .

« التصميم نفسه ، التغيير فقط فى النص ، كما أعتقد» ، قال الرفيق بيلاى .

«ولون الحافة»: قال شاكو: «لون الخردل بدلا من الأحمر» .

دفع الرفيق بيلاى بنظارته إلى أعلى فى شعره ، حتى يقرأ النص بصوت مرتفع ، وللحال جعل زيت الشعر النظارة ضَبَابِية .

«الخل المُصنع للطبيخ»، قال : أعتقد أنها كلها سوف تكون فى حروف كبيرة .

«أزرق بروسى»: قال شاكو .

«يعد من حامض الخليك؟»

«أزرق أرجوانى»: قال شاكو: «مثل ذلك الذى استخدمناه للفلفل الأخضر فى الماء شديد الملوحة .

«المحتويات الخالصة ، رقم الفئة ، تاريخ الإنتاج ، نهاية الصلاحية ... الأزرق الأرجوانى نفسه ؟» وأومأ شاكو .

«نشهد أن الخل الموجود فى الزجاجة مضمون طبقًا لمحتواه الطبيعى ومقداره ، المكونات: ماء وحامض الخليك ، هذه سوف تكون باللون الأحمر كما أعتقد» .

يستخدم الرفيق بيلاى التعبير «كما أعتقد» ، ليقدم أسئلته متخفية فى صورة عبارات ، كان يكره تقديم الأسئلة ما لم تكن أسئلة شخصية ، الأسئلة تفصح عن إعلان فظ بالجهالة .

فى الوقت الذى أنهيا فيه مناقشة بطاقة الخل أصبح لكل من شاكو والرفيق بيلاى قمعه الخاص به من الناموس .

اتفقا على يوم التسليم .

«إذن كانت مسيرة الأمس ناجحة؟» قال شاكو ، متناولاً فى النهاية الغرض الحقيقى من زيارته .

«ما لم تتحقق المطالب أو حتى تتحقق المطالب ، أيها الرفيق ، فإننا لا نستطيع القول إنها كانت ناجحة أو غير ناجحة» ، وزحفت نغمة كئيبة فى صوت الرفيق بيلاى ، «وحتى حينذاك ، يجب أن يستمر النضال» .

«غير أن رد الفعل كان طيبًا» ، استحثه شاكو محاولاً الحديث باللغة ذاتها .

«حدث ذلك بالفعل» : قال الرفيق بيلاى : «لقد قدم الرفاق مذكرة إلى قيادة الحزب العليا ، والآن علينا أن نرى ، علينا فقط أن ننتظر ونراقب» .

«لقد مررنا بهم على الطريق بالأمس»: قال شاكو: «بالموكب» .

«فى الطريق إلى كوشين ، كما أعتقد» : قال الرفيق بيلاى : «غير أنه طبقًا لمصادر الحزب فإن رد فعل تريفاندروم كان أفضل بكثير» .

«كان هنالك الآلاف من الرفاق فى كوشين أيضًا»: قال شاكو: «وقد رأت ، فى الحقيقة ، ابنة أختى ، رأت ڤيلوتا الشاب بينهم» .

«أو هو ، هكذا» ، بوغت الرفيق بيلاى ، كان ڤيلوتا موضوعًا يخطط لتناوله مع شاكو ، يومًا ما ، فى النهاية ، ولكن ليس بهذه الصراحة ، وطن عقله مثلما تطن

مروحة المنضدة ، واحتار إن كان عليه الاستفادة من هذه الافتتاحية التي قدمت له أو أن يتركها ليوم آخر ، وقرر أن يستفيد منها الآن .

«نعم إنه عامل جيد»: قال مفكراً : «إنه ذكي للغاية» .

«إنه كذلك»: قال «شاكو»: « إنه نجَّارٌ رائع له عقلية مهندس ، ما لم يكن ذلك من أجل ...» .

«ليس ذلك العامل أيها الرفيق» ، قال الرفيق بيلاى : «إنه حامل بطاقة عضوية الحزب» .

واصلت والدة الرفيق بيلاى الاهتزاز وإصدار صوتٍ كقباع الخنزير ، كان هنالك شيء مؤكد في إيقاع القباع ، شيء مثل تكتكة الساعة ، صوت لا تكاد تلحظه ، غير أنك تفتقده إن توقف .

«آه ، هكذا ، إذن هو حامل لبطاقة الحزب؟»

«أوه ، نعم»: قال الرفيق بيلاى برقة : «أوه نعم» ،

رشح العرق عبر شعر شاكو ، أحس كأن جماعة من النمل تجول في فروة رأسه ، فأخذ يحكها ، بيديه كلتيهما ، مدة طويلة ، يحرك كل فروة رأسه إلى أعلى وإلى أسفل .

«أورو كاريام بارایاتی؟»[١٧٢] تحول الرفيق بيلاى إلى الحديث باللغة المالايالامية ، وتحول صوته إلى صوت تآمري يستودع سراً: «إنني أتحدث كصديق ، «كيتو» ، بعيداً عن الرسميات» .

وقبل أن يكمل ، عمد الرفيق بيلاى إلى دراسة شاكو ، محاولاً تقدير رد فعله ، كان شاكو يفحص العجينة الرمادية من العرق وقشر الرأس الموجود أسفل أظفاره .

«إن ذاك الباراڤان سيجُر المتاعب عليك»: قال: «خذها مني ... ابحث له عن عمل في مكان آخر ، أرسله بعيداً» .

ارتبك شاكو من الطريقة التي تحولت بها المناقشة ، كان ينوى فقط معرفة ما يجرى ، والمدى الذى وصلت الأمور إليه ، كان يتوقع الاختلاف ، بل حتى المواجهة ، غير أنه قدمت إليه بدلاً من ذلك مؤامرة ماكرة مضللة .

«أرسله بعيداً؟ ولكن لماذا؟ ليست لدى اعتراضات على حمله بطاقة الحزب ، كنت فضوليًا ، هذا كل ما فى الأمر . . . اعتقدت أنك ربما تكون قد تحدثت إليه»: قال شاكو: « غير أننى على يقين من أنه فقط «يختبر أجنحته ، يمتحنها ، إنه زميل عامل ، أيها الرفيق ، وأنا أثق به ...» .

«ليس الأمر كذلك» : قال الرفيق بيلاى : «ربما يكون جيداً للغاية كشخص ، غير أن العمال الآخرين لا يسعدون بوجوده ، إنهم يجيئون إلىّ بالفعل ويشتكون .. كما ترى ، أيها الرفيق ، فإن قضايا الطائفية تلك ، من وجهة النظر المحلية ، عميقة الجذور للغاية» .

وضعت كاليانى لزوجها قدحاً من صلب به قهوة يتصاعد بخارها على المنضدة .

«انظر لها ، مثلا ، سيدة المنزل ، حتى هى لا تسمح أبداً للباراڤان ومن على شاكلتهم بالدخول إلى منزلها ، أبداً ، حتى أننى لا أستطيع حثها على ذلك ، زوجتى أنا ، بالطبع ، هى الرئيس داخل المنزل» ، وابتسم لها ابتسامة عاطفية خبيثة ، «إلاى إيدى(١٧٣) كاليانى؟» .

نظرت كاليانى إلى أسفل وابتسمت ، تقر فى حياء وخفر بتعصبها الأعمى ، «هل ترى؟» قال الرفيق «بيلاى» ظافراً ، إنها تفهم الإنجليزية جيد جدا ، غير أنها لا تتحدث بها» .

ابتسم شاكو ابتسامة فاترة .

«أنت تقول : إن عمالى يجيئون إليك ومعهم شكاواهم ..» .

«أوه نعم ، هذا صحيح»: قال الرفيق بيلاى .

«هل هناك شىء محدد؟» .

« ليس هنالك شىء محدد بنوع خاص » : قال الرفيق ك .ن .م ، بيلاى» ، ولكن انظر أيها الرفيق ، إن أية فوائد تعطيها له يستاء الآخرون- بالطبع - بسببها ، إنهم يرونها محاباةً وتحيزاً ، وعلى كل حال ، فأيًا كان العمل الذى يقوم به نجاراً أو كهربائيًا ، أو أى شىء آخر ، فإنه بالنسبة إليهم مجرد «باراڤان» ، إنها حالة يعيشونها منذ

مولدهم ، لقد أخبرتهم ، أنا نفسى ، أن ذلك خطأ ، لكن عندما نتحدث بصراحة ، أيها الرفيق ، فإن التغيير شىء ، والقبول به شىء آخر ، يجب أن تكون حذرًا ، من الأفضل له أن ترسله بعيداً» .

«زميلى العزيز»: قال شاكو: «ذاك مستحيل ، إنه لا يقدر بثمن ... إنه عملياً من يدير المصنع ... ونحن لا نستطيع حل المشكلة بإبعاد كل الباراڤان ، يجب بالتأكيد تعلُم كيف نتعامل مع هذا الهراء» .

الرفيق بيلاى لا يحب أن يخاطبه أحد بـ«زميلى العزيز» ، بدت له أشبه بإهانة مغلفة بإنجليزية جيدة ، مما جعلها إهانة مضاعفة - الإهانة ذاتها وحقيقة أن شاكو تصور أنه لن يفهمها ، وأفسد ذلك مزاجه كلية .

«قد يكون الأمر كذلك» : قال بطريقة لاذعة : «غير أن روما لم تُبْنَ فى يوم ، انتبه لذلك جيداً أيها الرفيق ، ليست هذه كليتك كلية أوكسفورد ، إن ما هو هراء بالنسبة لك ، إنما هو شىء مختلف بالنسبة للجماهير» .

لينين ، بنحافة أبيه وعينى أمه ، ظهر لاهثًا عند الباب ، لقد أنهى الإلقاء الصارخ بكل حديث «مارك أنطونيو» وغالبية «لوشينفار» قبل أن يدرك أنه قد فقد جمهور المستمعين إليه ، فأعاد وضع نفسه بين ركبتى الرفيق بيلاى المفترقتين عن بعضهما .

صفق براحتيه فوق رأس أبيه مما شوه قمع الناموس ، أحصى أجساد الذبائح المنسحقة على راحتيه ، كان بعضها مايزال منتفخًا بالدماء الطازجة ، أراها لأبيه ، الذى ناوله لأمه لتقوم بتنظيفه .

مرة أخرى ، اخترق قباع الأم الصمت الذى كان بينهما ، وصلت لاثا ومعها بوثاشن وماثوكوتى ، أُوقف الرجلان خارجًا فى الانتظار ، ترك الباب مواربًا ، عندما تكلم الرفيق بيلاى ، فيما بعد ذلك ، تكلم باللغة المالايالامية ، متحدثًا بصوت عال بما يكفى ، صوت عال كان هو على يقين من أنه لابد من أن يبلغ سامعيه فى الخارج .

«يقينًا: إن المكان المناسب لما يَحلُّ بعمال الطيران من مظالم هو النقابة ، وفى مثل هذه الحالة ، عندما يكون المالك رفيقًا ، فإنه من العار عليهم ألا يكونوا نقابيين ويلحقوا بالنضال الحزبى» .

«لقد فكرتُ فى ذلك» : قال شاكو ، : «وسأقوم أنا بتنظيمهم رسميًا فى نقابة حيث يقومون بانتخاب ممثليهم بأنفسهم» .

«لكنك يا رفيق ، لا تستطيع أن تعد لهم ثورتهم ، أنت تستطيع فقط خلق اليقظة ، أن تعلمهم ، يجب عليهم أن يُسَيِّروا صراعهم ، يجب عليهم أن يتغلبوا على مخاوفهم» .

«مِن مَن؟» : ابتسم شاكو : «منى أنا» .

«كلا ، ليس أنت ، يا عزيزى الرفيق ، من قرونٍ من القهر» .

ثم قال الرفيق بيلاى ، اقتباسًا من الرئيس «ماو» ، فى صوت عنترىّ ، باللغة المالايالامية ، بدا تعبيره أشبه بتعبير ابنة أخيه بصورة غريبة .

«الثورة ليست حفل عشاء ، الثورة خروج على السلطة القائمة ، عمل من أعمال العنف تقوم فيها طبقة بالإطاحة بطبقة أخرى» .

وهكذا ، فإنه وقد اصطاد عقد بطاقات «الخل المُصنع للطبيخ» ، أبعد شاكو برشاقة من الصفوف المقاتلة لمن يطيحون إلى الصفوف الخائنة لمن سيطاح بهم .

لقد جلسا ، الواحد منهم إلى جوار الآخر ، على مقاعد من صلب تطوى ، فيما بعد ظهر ذلك اليوم الذى جاءت فيه صوفى مول ، يحتسون القهوة ويمضغون ، بصوت ، قطع الموز ، ويزيحان بألسنتهما الطبقة الصفراء المعجونة الملتصقة بسقف حلقيهما .

الرجل الصغير النحيل والرجل الكبير البدين ، كتاب عداوات كوميدى من حرب لم تبدأ بعد .

وقد حدث أنها أصبحت حربًا تكاد ، للأسف ، تكون قد انتهت بالنسبة للرفيق بيلاى قبل أن تبدأ ، قُدم النصر إليه ملفوفًا فى شرائط ، على صينية من فضة ، وأدرك الرفيق بيلاى ، فقط حينذاك ، عندما كان الوقت قد فات ، وسقطت مخللات الفردوس برفق على الأرض دون كثير من الهمهمة ، أو حتى التظاهر بالمقاومة ، أدرك

أنه يحتاج حقيقة ، إلى عملية الحرب أكثر من احتياجه لناتج النصر ، كان يمكن للحرب أن تكون الحصان الفحل الذى يمتطيه ، جزءًا من الطريق ، إن لم يكن كل الطريق حتى الجمعية التشريعية ، حيث لم يتركه النصر بحال أفضل مما بدأ به .

لقد كَسَر البيض لكنه حرق «الأومليت» .

لم يعرف أحد طبيعة الدور المحدد الدقيق الذى لعبه الرفيق بيلاى فى الأحداث التى تلت ألبتة ، وحتى شاكو – الذى يعرف أن الخطب المتوهجة العنيفة للغاية حول حقوق المنبوذين «الطائفة طبقة أيها الرفاق» والتى يلقيها الرفيق بيلاى أثناء حصار الحزب الماركسى كانت رياءً كرياء الفريسيين(١٧٤) – لم يعرف الحكاية كاملة ، لم تكن المسألة هى اهتمامه بمعرفة الأمر ، كان يبحث فى كل شىء حينذاك وقد خَدَّره فقدان صوفى مول ، برؤية لطخها الحزن ، تخلص شاكو من لُعبِه مثل طفل مسته المأساة ، طفل نما فجأة وهجر دُمَاه ، لقد لحقت أحلام «مخللات البارون» و«حرب الشعب» بقايا الطائرات المحطمة فى صوانه المغطى بألواح الزجاج ، وبيعت بعض حقول الأرز (بيعت برهوناتها) بعد إغلاق مخللات الفردوس سدادًا لقروض البنك ، وبيع المزيد منها لتوفير الطعام والملبس للأسرة ، وبمرور بعض الوقت هاجر شاكو إلى كندا ، وأصبح مصدر الدخل الوحيد لأسرته من عزبة المطاط المجاورة لمنزل أيمينم وأشجار جوز الهند القليلة فى الباحة ، وكان هذا ما ظلت تعيش عليه عائلة بيبى كوشاما وكوشوماريا بعد أن مات الجميع ، أو غادروا ، أو أعيدوا .

وحتى نكون منصفين للرفيق بيلاى ، فإنه لم يخطط مجرى الأحداث التى جاءت فيما بعد ، لقد أدخل فقط أصابعه الجاهزة فى قفاز التاريخ الذى كان فى الانتظار .

لم يكن الخطأ خطأه هو كلية لأنه عاش فى مجتمع يمكن أن يكون موت إنسان فيه أكثر ربحًا من حياته كما كانت دومًا .

إن زيارة ڤيلوتا الأخيرة للرفيق بيلاى – بعد مواجهته لماماشى وبيبى كوشاما – ومادار بينهما ، ظلت سرًا ، إن الخيانة الأخيرة التى أرسلت ڤيلوتا عبر النهر يسبح ضد التيار ، فى الظلام والمطر ، اتفقت والوقت المحدد لأول موعد له مع التاريخ .

* * *

لحق ڤيلوتا بآخر سيارة ركاب عائدة من كوتايام حيث كان يصلح ماكينة التعليب ، اصطدم بأحد عمال المصنع فى موقف سيارة الركاب ، الذى أخبره بابتسامة متكلفة أن ماماشى ترغب فى رؤيته ، لم يكن لدى ڤيلوتا أدنى فكرة عما حدث ، ولم يكن دارياً كلية بزيارة والده الثمل لمنزل أيمينم ، كما أنه لم يكن يعرف أن فيليابابن كان يجلس منذ ساعات عند باب كوخهم ، وهو مايزال ثملاً ، وعينه الزجاجية وطرف فأسه يلمعان فى ضوء المصباح ، فى انتظار عودة ڤيلوتا ، كما لم يكن يعرف أن كوتابن المشلول المسكين ، وقد فقد إحساسه وتخدر عندما فهم وأدرك ، كان يتحدث إلى والده بصورة متصلة مدة ساعتين ، محاولاً تهدئته ، وهو يشد أذنيه لسماع صوت خطى أو حفيف الشجيرات والحشائش والأعشاب حتى يصرخ صرخة تحذير لأخيه الذى لا يرتاب فى شىء .

لم يذهب ڤيلوتا إلى المنزل ، ذهب مباشرة إلى منزل أيمينم ، ورغم أن المفاجأة أخذته ، من ناحية ، فإنه كان ، من الناحية الأخرى يعرف ، بغريزة قديمة ، أن دجاجات التاريخ الملفوفات سوف تأتين ذات يوم إلى المنزل بحثًا عن وكر أو مأوى ، ظل طوال انفجار ماماشى كابحًا نفسه رابط الجأش بصورة غريبة ، كان مصدر هدوئه هو ذلك الاستفزاز الذى بلغ ذروته ، إنه ينبع من بعد نظر يكمن فيما وراء الغضب .

عندما وصل ڤيلوتا ، فقدت ماماشى صوابها وتقيأت حقدها الأعمى ، وإهاناتها الشديدة التى لا تحتمل على لوح زجاجى من ألواح الباب المنزلق الذى يطوى ، حتى أدارتها بيبى كوشاما بلباقة ووجهت غضبها فى الاتجاه الصحيح ، إلى ڤيلوتا الواقف ساكنا دون حراك فى العتمة ، وواصلت ماماشى تقريعها المطول ، بعينيها الفارغتين ، ووجهها الملتوى القبيح ، وغضبها الذى يدفعها نحو ڤيلوتا حتى أصبحت تصرخ فى وجهه مباشرة ، فكان فى وسعه أن يحس رذاذ لعابها ويشم الشاى الأشبه ببول البهيمة فى أنفاسها ، ظلت بيبى كوشاما قريبة من ماماشى ، لم تقل شيئًا ، لكنها استخدمت يديها لتصعيد غضب ماماشى من نغمة إلى أخرى إشعالاً للنيران فيها من جديد ، ربتت مشجعة على الظهر ، ذراع يعيد الطمأنينة فوق الكتفين ، لم تكن ماماشى واعية لعملية المناورة والتلاعب تلك ألبتة .

أين تعلمت سيدة عجوز مثلها – ترتدى ساريًا مجعدًا مكويًا ، وتلعب لحن كسارة البندق على الكمان فى الأمسيات – أين تعلمت هذه اللغة البذيئة التى استخدمتها ماماشى ذلك اليوم ؟! كانت تلك مسألة غامضية بالنسبة لكل من سمعوها (لبيبى كوشاما ، كوشوماريا ، آمو المغلق عليها فى حجرتها) .

«إلى الخارج» ، أخيرًا صرخت ، «إن وجدتك غدًا فى أملاكى فإننى سوف أجعلهم يخصونك مثل الكلب المنبوذ الذى هو أنت ! سوف أجعلهم يقتلونك !» .

«سوف نتدبر ذلك الأمر» ، قال ڤيلوتا فى هدوء .

كان ذلك هو كل ما قاله ، وكان هذا ما تناولته مؤكدة بيبى كوشاما فى مكتب المفتش توماس ماثيو ونسجته فى صورة تهديدات بالقتل والخطف .

بصقت ماماشى فى وجه ڤيلوتا ، بصقة كثيفة ، تناثرت عبر جلده ، وعبر عينيه وفمه .

فقط وقف هنالك ، ذاهلاً ومصعوقًا ، ثم استدار وغادر .

عندما سار بعيدًا عن المنزل ، أحس بمشاعره وقد ازدادت وقويت وشحذت ، وكأن كل شىء حوله قد تسطح فى صورة متقنة محكمة ، رسم ماكينة معه كتيب تعليمات يخبره بما يتوجب عليه فعله ، عقله يتوق فى يأس إلى أن يرسو بصورة ما ، أن يقبض بقوة على التفاصيل ، ويصنف كل شىء يصادفه .

البوابة ، فكر وهو يخرج من البوابة ، البوابة ، الطريق ، الأحجار ، السماء ، المطر ،

البوابة .

الطريق .

الأحجار .

السماء .

المطر .

المطر على جلده كان دافئًا ، الأحجار الحمراء الطوبية أسفل قدميه كانت مسننة ، كان يعرف إلى أين هو ذاهب ، لاحظ كل شىء ، كل ورقة شجر ، كل سحابة فى السماء الخالية من النجوم ، كل خطوة خطاها ،

«كو-كو كوكوم ثيڤاندى»

«كوكى بادوم ثيڤاندى»

«راباكال أودوم ثيڤاندى»

«ثالانو نيلكوم ثيڤاندى»

كان ذلك هو الدرس الأول الذى تعلمه فى المدرسة : قصيدة عن المطر .

بدأ يحصى شيئًا ما ، أى شىء واحد ، اثنين ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة، ستة ، سبعة، ثمانية ، تسعة ، عشرة ، أحد عشر ، اثنى عشر ، ثلاثة عشر ، أربعة عشر ، خمسة عشر ، ستة عشر ، سبعة عشر ، ثمانية عشر، تسعة عشر ، عشرين ، واحد وعشرين ، اثنين وعشرين ، ثلاثة وعشرين ، أربعة وعشرين ، خمسة وعشرين ، ستة وعشرين ، سبعة وعشرين ، ثمانية وعشرين ، تسعة وعشرين ...

بدأت الآلة التى ترسم تلطيخها، الخطوط الواضحة تلوثت ، لم يعد للتعليمات معنى، الطريق قد صعد ليلقاه ، وغدا الظلام أكثر كثافة ، لزج غروى ، الاندفاع عبره غدا جهداً ، كالسباحة تحت الماء .

قال له صوت ما: الآن تقع الأحداث ، لقد بدأت .

غدا عقله فجأة عجوزًا بطريقة مستحيلة طفا خارج جسده ، وحوّم عاليًا فوقه فى الهواء ، حيث ثرثرت تحذيرات لاجدوى منها .

نظر إلى أسفل وراقب جسد رجل شاب يسير عبر الظلام والمطر يسوقه ويدفعه ، كان ذلك الجسد يبغى النوم ، أكثر من أى شىء آخر ، النوم والاستيقاظ فى عالم آخر، ورائحة جسدها فى الهواء الذى يتنفسه ، جسدها على جسده ، إنه قد لا يراها مرة أخرى ألبتة ، أين هى الآن؟ ماذا فعلوا بها؟ هل قاموا بإيذائها ؟

ظل يسير ووجهه لا يرتفع نحو المطر أو يميل بعيداً عنه ، إنه لم يرحب به أو يدرأه عنه .

غسل المطر ، بصقة ماماشى من على وجهه ، غير أنه رغم ذلك لم يوقف شعوراً بأن أحداً قد نزع رأسه وتقيأ فى جسده ، قيئاً غليظاً يقطر أسفل فى أحشائه ، فوق قلبه ، رئتيه ، قطرة غليظة بطيئة فى بؤرة معدته ، أعضاؤه كلها غمرها القىء - لاشىء يستطيع المطر فعله حيال ذلك .

كان يعرف ماذا عليه أن يفعل ، التعليمات الإرشادية وَجّهته ، عليه الذهاب إلى الرفيق بيلالى ، لم يعد يدرى لماذا؟ حملته قدماه إلى «لكى برس» التى كانت مغلقة ، فعبر الباحة الصغيرة للغاية إلى منزل الرفيق بيلاى .

كان الرفيق بيلاى ، عندما طرق ڤيلوتا الباب ، قد أنهى وجبته ، وكان يعصر موزه ، دافعا العصير كالوحل عبر قبضته المغلقة فى طبق اللبن الرائب ، أرسل زوجته لتفتح الباب ، عادت وقد بدت متجهمة ، وأحس الرفيق بيلاى أنها قد غدت فجأة مرغوبة جنسياً ، أراد أن يلمس على الفور نهدها ، غير أنه كان هنالك لبن رائب على أصابعه وهنالك شخص ما عند الباب .

جلست كاليانى على السرير تربت وهى شاردة : لينين الذى كان نائمًا إلى جوار جدته الصغيرة الحجم للغاية ،يمتص إبهامه .

«من الطارق؟»

«إنه ابن بابن الباراڤان ، إنه يقول إن الأمر عاجل» .

أنهى الرفيق بيلاى اللبن الرائب دون عجلة ، حرك أصابعه فى الطبق من جانب إلى آخر فى سرعة ، أحضرت كاليانى ماءً فى وعاء صغير من صلب لا يصدأ وصبته له ، القطع المتبقية من الطعام فى طبقه (فلفل أحمر جاف ، شعيرات صلبة حادة من دبابيس الدجاج التى تم مصها أو بصقها) ، صعدت وطفت ، أحضرت له فوطة يد ، مسح يديه ، عبر عن تقديره وإعجابه وذهب إلى الباب .

«إندا؟[١٧٥]، فى هذا الوقت من الليل؟»

عندما رد ڤيلوتا سمع صوته يضرب عائداً إليه كأنما اصطدم بحائط ، حاول شرح ما حدث ، غير أنه سمع نفسه ينزلق إلى كلام متقطع غير متناسق ، الرجل الذى يتحدث إليه كان رجلاً صغيراً وبعيداً للغاية ، خلف حائط زجاجى .

كان الرفيق بيلاى يقول : « هذه قرية صغيرة ، الناس تتكلم ، وأنا أسمع إلى ما يقولون ، ليس الأمر وكأننى لا أعرف ماذا يجرى» .

مرة أخرى سمع ڤيلوتا يقول شيئًا ما لا معنى له بالنسبة للرجل الذى يتحدث إليه ، كان صوته يلتف حوله مثل حية .

«ربما» ، قال الرفيق بيلاى : « ولكن يا رفيق يجب أن تعرف أن الحزب لم يؤسس لدعم عدم انضباط العمال فى حياتهم الخاصة » .

راقب ڤيلوتا جسد الرفيق بيلاى وهو يبهت ويتلاشى من الباب ، ظل صوته الذى بلا جسد ، الزاعق كالصفير متصلاً يلقى بالشعارات ، رايات مستطيلة ترفرف فى مدخل فارغ .

ليس من مهام الحزب أن يأخذ على عاتقه مثل تلك الأمور .

مصالح الأفراد خاضعة لمصلحة التنظيم .

انتهاك النظام الحزبى يعنى انتهاك وحدة الحزب .

وتواصل الصوت ، وتحللت الجُمل إلى شبه جمل ، إلى كلمات .

تقدم الثورة .

إبادة العدو الطبقى .

رأسمالى «كومبرادورى» .

رعد - الربيع .

مرة أخرى ، ديانة أخرى تنقلب على نفسها ، صرح آخر شيده العقل البشرى ، تهلك الطبيعة الجزء الأعظم منه .

أغلق الرفيق بيلاى الباب ، وعاد لزوجته والعشاء ، قرر أن يأكل موزة أخرى .

«ماذا يريد؟» سألته زوجته ، وهى تناوله موزه .

«لقد اكتشفوا الأمر ، لابد من أن أحداً قد أخبرهم ، لقد فصلوه من العمل» .

«هل هذا هو كل ما فى الأمر؟ إنه محظوظ لأنهم لم يشنقوه على أقرب شجرة» .

«لقد لاحظت شيئًا غريبًا ...»: قال الرفيق بيلاى وهو يقشر موزته: «هنالك طلاء أحمر على أظفار الزميل ...» .

تغلب النوم فجأة على ڤيلوتا ، وهو واقف فى الخارج فى المطر ، فى البرد ، فى الضوء المبتل الصادر عن المصباح الوحيد بالشارع ، كان عليه أن يجبر جفنيه حتى يظلا مفتوحين .

غداً ، غداً قال لنفسه ، غداً عندما تتوقف الأمطار .

حملته قدماه إلى النهر ، كأنهما كانا المقود ، وكأنه كان الكلب .

التاريخ يُسيِّر الكلب .

الفصل الخامس عشر

العبور

كان منتصف الليل قد مضى ، ارتفع النهر ، سعت مياهه السريعة السوداء ، كالحية نحو البحر ، تحمل معها سماوات ليلة مليئة بالسحب ، وسعف نخلة كاملة ، وجزءاً من سياج مصنوع من قش ، وعطايا أخرى منحتها له الرياح .

فى لحظة أبطأت الأمطار إلى رذاذ ثم توقفت ، هز النسيم الماء من الأشجار ، وللحظة أمطرت فقط تحت الأشجار ، حيث كان الملاذ ذات مرة .

قمر واهن دامع رشح عبر السحب كشف عن شاب يجلس على أعلى جزء من الدرجات الحجرية الثلاث عشرة التى تقود إلى الماء ، كان ساكناً للغاية ، مبتلاً للغاية ، صغيراً للغاية ، وفى لحظة نهض ، خلع الموندو الأبيض الذى يرتديه ، عصر منه الماء ولفه حول رأسه مثل عمامة ، هبط ، وهو عار الآن ، الدرجات الحجرية الثلاث عشرة وغاص فى الماء أبعد منها حتى بلغ الماء ارتفاع صدره ، ثم بدأ السباحة بضربات سهلة قوية ، متجها إلى حيث كانت الموجة سريعة وأكيدة ، حيث يبدأ "العمق الحقيقى"، النهر الذى يضيئه القمر يسقط من فوق ذراعيه السابحين مثل أكمام من فضة ، لم يستغرق غير دقائق قليلة فقط حتى يعبر ، عندما بلغ الجانب الآخر خرج يومض وشد نفسه إلى الشاطئ ، أسود مثل الليل الذى يحيط به ، أسود مثل الماء الذى عبره .

جلس فوق الممر الذى يقود عبر الأرض السبخة إلى "منزل التاريخ" .

لم يترك أية تموجات فى الماء .

ولا آثار أقدام على الشاطئ .

حمل الموندو الخاص به فوق رأسه ليجف ، طيّرته الريح مثل شراع ، فجأة غدا سعيداً ، الأمور تسوء ، فكر بينه وبين نفسه ، ثم تصبح أفضل ، كان يسير الآن سريعاً إلى "قلب الظلام" ، وحيداً مثل ذئب .

رب الضياع .

رب الأشياء الصغيرة .

عار إلا من طلاء أظفاره .

الفصل السادس عشر

بضع ساعات فيما بعد

ثلاثة أطفال على ضفة النهر، توءمان وأخرى، مئزرها قطني مضلع بنفسجي زَاهٍ مكتوب عليه بحروف مائلة مرحة «هوليداى» .

أوراق الشجر المبتلة تومض فوق الأشجار مثل معدن مطروق ، أجمات كثيفة من بامبو أصفر تتدلى فى النهر وكأنها تعانى الحزن مقدمًا لما تعرف أنه سوف يكون، النهر ذاته كان مظلمًا وساكنًا، إن عدم التواجد الذى يفوق التواجد، يستر أية علامة يمكن أن تكشف كم كان النهر ـ حقًا ـ عاليًا وقويًا.

جر إستا وراهيل القارب من بين الشجيرات التى عادة ما يخفونه فيها، كان المجدافان اللذان صنعهما ڤيلوتا مُخبّأَن فى شجرة مجوّفة، وضعاه فى الماء وأمسكا به فى ثبات حتى تتسلقه صوفى مول، بدا أنهما يثقان بالظلام ويتحركان إلى أعلى وإلى أسفل الدرجات الحجرية المتلألئة راسخى الأقدام مثل ماعز صغير.

كانت صوفى مول أكثر ترددًا . خائفة قليلا مما يكمن فى الظلام حولها، كان معها حقيبة من قماش بها طعام اختلسته من الثلاجة وخبأته عبر صدرها: خبز، كعك، بسكويت، كان التوءمان يحسان الكآبة من كلمات أمهما ، «لولاكما لكنت الآن حرة، كان علىّ أن ألقى بكما فى ملجأ أيتام ساعة ولادتكما ، أنتما رحى طاحون حول رقبتى ... دون عائد» ، شكرًا لما فعله رجل مشروب البرتقال ومشروب الليمون لإستا ، إن «منزلهما» البعيد عن «المنزل» قد تأثث بالفعل، لقد خزّنا ، خلال الأسبوعين منذ جدف إستا فى المربى القرمزية وفكر فى فكرتين، خزّنا مثل السناجب مؤنًا أساسية: كبريتًا، بطاطس، قِدرًا صغيرًا معطوبًا له مقبض، أوزة قابلة للنفخ، جوارب ذات أصابع أقدام

متعددة الألوان، أقلامًا ذات أطراف كروية بها سيارات ركاب لندن والكونتاس كوالا بعينين سائبتين مثل الأزرار .

«ماذا لو عثرت علينا آمو وتضرعت أن نعود؟»

«سنعود حينذاك، لكن فقط إن تضرعت».

إسثا الرحيم الشفوق.

لقد أقنعت صوفى مول التوءمين بأهمية ذهابها معهما، إن غياب الأطفال، كل الأطفال سوف يزيد من ندم البالغين، سوف يجعلهم آسفين بحق، مثل الراشدين فى «هاملين» بعد أن أخذ عازف المزمار الأرقط كل أطفالهم، سوف يبحثون فى كل مكان، وعندما يتيقنون من أن ثلاثتهم قد ماتوا جميعًا، فإنهم سوف يعودون إلى المنزل منتصرين، ويكونون موضع تقدير واحترام، محبوبين، مرغوبين أكثر من أى وقت مضى، كانت حجتها الفاصلة هى أنها لو تُركت وراءهم ولم تذهب معهم، فإنها يمكن أن تتعرض للتعذيب وتجبر على الكشف عن مخبئهم .

انتظر إسثا حتى دخلت راهيل، ثم اتخذ مكانه جالسًا منفرج الساقين فى القارب وكأنه زحلوقة[١٧٦]، استخدم قدميه فى دفع القارب بعيداً عن الشاطئ، وعندما مالوا فى المياه العميقة بدءا التجديف فى خط منحرف إلى أعلى النهر، ضد التيار، بالطريقة التى علمها لهما ڤيلوتا : «إن أردتما الوصول إلى هنالك، عليكما التوجه إلى هنالك» .

لم يستطيعوا أن يروا فى الظلام، أنهم قد دخلوا الدرب الخطأ الواقع على طريق عمومية صامتة مليئة بالمرور خفيض الصوت، كانت فروع وكتل وأجزاء من أشجار، تتحرك نحوهم بسرعة ما، كانوا قد عبروا الموضع العميق حقًا، على بعد ياردات فقط من الجانب الآخر، عندما اصطدموا بكتلة طافية وانقلب القارب الصغير، لقد حدث لهما ذلك مرات عديدة فى رحلات سابقة عبر النهر، وكانا يسبحان وراء القارب وقد استخدماه كشىء طافٍ يتعلقان به حتى الشاطئ ، لم يستطيعا فى هذه المرة، أن يروا القارب فى الظلام ؛ كانت الموجة قد جرفته ، فاتجها صوب الشاطئ ، مندهشين للجهد الذى استلزمته هذه العملية لقطع تلك المسافة القصيرة .

أمسك إسثا بفرع شجرة منخفض الارتفاع كان مقوساً داخل المـاء ، وتفـرس في اتجاه التيار عبر الظلام ليرى إن كان في وسعه رؤية القارب بأي حال من الأحوال .

«إنني لا أستطيع رؤية أي شيء، لقد اختفى» .

تسلقت راهيل الشاطئ وقد غطاها الوحل، ومدت يدها تساعد إسثا كي يجذب نفسه خارج الماء ، احتاجا إلى دقائق قليلة ليستردا أنفاسهما ويسجلا ضياع القارب ، ويندبا فقدانه.

«لقد فسد كل طعامنا» : قالت راهيل لصوفي مول غير أنها لم تتلقَ غير الصمت، صَمْتٌ، مندفع مضطرب أشبه بالسمك السابح .

«صوفي مول؟» : همست للنهر المندفع ، «إننا هنا قرب شجرة "الإيليمبا"!»

لا شيء .

وانتفضت فراشة باباشي فوق قلب راهيل، وفتحت جناحيها الكالحين .

إلى الخارج .

إلى الداخل .

ورفعت رجليها .

إلى أعلى .

إلى أسفل .

جريًا على امتداد الشاطئ يناديان عليها، غير أنها قد ذهبت، حُملت بعيداً فوق الطريق العمومي المنخفض الصوت ، الأخضر الرمادي، والذي توجد أسماك بداخله، والسماء ، والأشجار، والليل والقمر الأصفر وقد تكسر .

لم تكن هنالك موسيقى – العاصفة، ولا دوامة تدور صاعدة إلى أعلى من أعماق الميناشال السوداء كالحبر، لم تشرف سمكة قرش واحدة على المأساة .

مجرد احتفال تسليم هادئ، قارب يطرح حمولته، ونهر يتقبل التقدمة، حياة صغيرة واحدة، شعاع شمس مختصر، يقبض على كستبان فضى فى قبضته جلبًا للحظ .

كانت الساعة الرابعة صباحًا، والوقت مايزال ظلامًا، عندما اتخذ التوءمان ، المرهقان وقد غطاهما الطين، طريقهما عبر المستنقع، واقتربا من «منزل التاريخ » ، «هانسل» و«جريتل» فى حكاية حورية شاحبة اللون حيث يمكن الإمساك بأحلامهما والحلم بها مرة أخرى، رقدا فى الشرفة الخلفية فوق حصيرة من عشب ومعهما أوزة يمكن نفخها ودب الكوانتاس كولا، زوج قزعات مبللان مخدران من الخوف، فى انتظار أن ينتهى العالم .

«هل تعتقد أنها ماتت الآن؟»

لم يجب إستا .

«ما الذى سيحدث؟»

«سوف نذهب إلى السجن» .

إنه يعرف كل المعرفة، ذلك الرجل الصغير، الذى عاش فى «كارا-ڤان»، «دوم دوم»،

لم يريا شخصًا آخر كان يرقد نائمًا فى الظلام، وحيدًا مثل ذئب، وورقة شجر بنية فوق ظهره الأسود، ورقة تجىء بالرياح الموسمية فى موعدها .

الفصل السابع عشر

نهاية خط ميناء كوشين

جلس إستا (ليس عجوزًا وليس شابًا) فى حجرته النظيفة فى منزل أيمينم القذر، على سريره فى الظلام، جلس منتصبًا، كتفاه مرفوعان، يداه فى حجره، وكأنه التالى فى طابور استعدادًا لنوع ما من التفتيش - أو فى انظار القبض عليه .

تمت عملية الكى، واستقرت الملابس فى كومة مرتبة فوق لوح الكى، وقد قام بكى ملابس راهيل أيضا .

كانت تمطر مبكرة، أمطار الليل، قارع الطبول الوحيد ذاك الذى يمارس دوره بعد أن تذهب بقية الفرقة إلى الفراش بزمن طويل .

فى الباحة الجانبية إلى جوار المدخل المنفصل الخاص «بحاجيات الرجال»، كانت زعانف ذيل السمك المصنوعة من الكروم، والخاصة بالبليموث العتيقة تومض كل لحظة فى البرق. كانت بيبى كوشاما تحافظ على السيارة مغسولة لسنوات بعد أن غادر شاكوا إلى كندا، كان يمكن لزوج أُخت كوشوماريا، الذى يسوق عربة البلدية الصفراء التى تحمل النفايات فى كوتايام، أن يسوق فى أيمينم (تعلن عنه الرائحة النتنة لنفاية كوتايام، والتى تظل طويلاً بعد مغادرته) ليسلب راتب شقيقة زوجته ويسوق البليموث مرتين فى الأسبوع مقابل أجر صغير، يسوقها فيما حولهم للإبقاء على البطارية مشحونة، وعندما انشغلت بالتلفاز، أسقطت السيارة والحديقة من حسبانها فى آن واحد، «توتى فروتى»(١٧٧) .

السيارة العجوز استقرت أكثر ثباتًا، فى الأرض، مع كل ريح موسمية، إنها تجثم أكثر تيبسًا مثل دجاجة نحيلة مصابة بداء النقرس ترقد فوق حضنة بيض، دون أن

يكون لديها نية النهوض ألبتة . نما العشب حول إطاراتها المفلطحة، وقد تعطنت لافتة مخللات ومربات الفردوس وسقطت إلى الداخل مثل تاج منهار .

اختلس نبات متسلق نظرة إلى نفسه في النصف المرقط المتبقى من مرآة السائق التى انكسرت وتشققت .

رقد عصفور ميتاً في المقعد الخلفي، لقد وجد طريقه إلى الداخل عبر ثقب في اللوح الزجاجى الذى يقى السائق من الريح، وقد أغراه أسفنج المقعد ليتخذ بعضه عشاً له. غير أنه لم يجد طريقه إلى الخارج ألبتة – ولم يلحظ أحد نداءاته المذعورة من نافذة السيارة، مات على المقعد الخلفي، وساقاه في الهواء، مثله مثل دعابة .

كانت كوشوماريا نائمة على أرضية حجرة الاستقبال ، متكورة في صورة شولة [١٧٨] في ضوء التلفاز الخفاق والذى كان مايزال يعمل، كان رجال الشرطة الأمريكيون يدسون صبياً مراهقاً مقيد المعصمين في سيارة شرطة، وكانت هنالك دماء متناثرة فوق الرصيف، توهجت أضواء سيارة الشرطة، ونفير يولول منذراً، امرأة هزيلة ناحلة ربما هى أم الصبى تراقب في الظلام خائفة، الصبى يعارك، كانوا قد استخدموا لطخة فسيفسائية على الجزء الأعلى من وجهه حتى لا يستطيع مقاضاتهم، وكان هنالك دم متجمد حول فمه وأسفل الجزء الأمامى من التى شيرت الذى يرتديه وكأنه مريلة حمراء، كانت شفتاه الورديتان كشفاه الأطفال مرفوعتين عن أسنانه مكشراً عن أنيابه، بدا أشبه بشخص انقلب ذئباً ، صرخ عبر نافذة السيارة في آلة التصوير .

«إننى في الخامسة عشرة من عمرى، وأتمنى أن أكون أفضل مما أنا عليه ، غير أننى لست كذلك، هل تودون سماع قصتى المحزنة الشجية؟» .

بصق على آلة التصوير، وتناثرت قذيفة البصاق على العدسات، وتساقطت في نقط إلى أسفل .

كانت بيبى كوشاما في حجرتها، جالسة فوق السرير، تملؤ كوبون «الليسترين» لتخفيض الأسعار والذى يقدم روبيتين خصماً على قارورتهم الجديدة سعة ٥٠٠ مليمتر، ومستندات ألفى روبية هدية «للرابح المحظوظ» للوتارية الخاصة بهم .

ظلال عملاقة لحشرات صغيرة اجتاحت الحوائط والسقف ، وأطفأت بيبى كوشاما الأنوار حتى تتخلص منها، وأضاءت شمعة كبيرة فى دلو ماء، كانت المياه غليظة بالفعل بالجثث الطنانة، وأبرز ضوء الشمعة خديها المحمرين وفمها المطلى، وتلطخت المواد الملونة لأهدابها وحاجبيها، وتوهجت مجوهراتها.

مالت بالكوبون نحو الشمعة.

ما نوع منظف الأسنان الذى عادة ما تستخدمه؟

«ليسترين»، كتبت بيبى كوشاما بيد غدت عنكبوتية بفعل السن.

أذكر أسباب تفضيلك له:

لم تتردد: «طعمه خاص وأنفاسه حلوة»، لقد تعلمت لغة إعلانات التلفاز التجارية الحاذقة الخاطفة.

كتبت اسمها وكذبت فى عمرها .

تحت المهنة كتبت (دبلوم) فى زراعة حدائق الزينة، روك، الولايات المتحدة الأمريكية.

وضعت الكوبون فى مظروف عليه علامة طبية موثوق بها، كوتايام.

سوف يذهب فى الصباح مع كوشوماريا عندما تذهب فى رحلتها إلى «بست بيكرى» لشراء «الكريم - بون»(١٧٩).

التقطت بيبى كوشاما دفتر يومياتها القرمزى المائل للسواد والذى جاء ومعه قلمه الخاص به، قلبت صفحاته حتى ١٩ يونيو وكتبت مدخلاً جديداً، كان أسلوبها روتينياً، كتبت : أحبك أحبك.

كان لكل صفحة فى اليوميات مدخلا بعينه، كان لديها صندوق ملىء بدفاتر اليوميات ذات المداخل المتماثلة، وكان بعضها يقول أكثر من ذلك، وكان بعضها يحتوى حسابات اليوم، وكتابة قوائم، ونتف حوارات أثيرة من أقوال مفضلة، غير أن كل تلك المداخل كانت تبدأ بالكلمات نفسها : أحبك أحبك .

كان الأب موليجان قد توفى منذ أربع سنوات مصاباً بالتهاب كبدى فيروسى، فى معزل دينى لحكماء الهندوس شمال «ريشيكش» ، كانت سنوات تأمله فى الكتب

الهندوسية المقدسة قد قادته أساساً إلى فضول لاهوتى ، غير أنها أدت به فى النهاية إلى تغيير عقيدته، وغدا الأب موليجان، منذ خمسة عشر عاماً ، «فايشناڤا»[١٨٠] ناسكا من نساك «المولى ڤيشنو»، وظل على علاقة ببيبى كوشاما حتى بعد التحاقه بالمعزل الدينى، كان يكتب إليها كل ديوالى[١٨١]، ويرسل إليها بطاقة تحية كل عام جديد ، وقد أرسل لها منذ سنوات قليلة صورة فوتوغرافية لنفسه يخاطب حشداً من الأرامل البنجابيات من الطبقة الوسطى فى معسكر روحى ، كانت كل النساء يرتدين الأبيض وقد سُحبت حواف السارى فوق رؤوسهن ، وكان الأب موليجان يرتدى الزعفران ، كان أشبه بمح[١٨٢] يخاطب بحراً من البيض المسلوق ، كانت لحيته طويلة وكذا شعره ، لكنهما كانا ممشطين مهندمين ، قديس زعفرانى له رماد نذور فوق جبهته ، لم تستطع بيبى كوشاما تصديق ذلك ، كانت تلك هى الشىء الوحيد الذى أرسله إليها ولم تحتفظ به، كانت تحس بجرح مشاعرها، إذ أنه قد ارتد أخيراً، وبصورة فعلية ، عن عهوده، لم يرتد من أجل عهودها، ولكن من أجل عهود آخرين، كان ذلك مثل الترحيب بشخص ما وقد فتح المرء له ذراعيه، ليمر فقط ذلك الشخص مباشرة إلى شخص آخر .

لم يغير موت الأب موليجان نص مداخل يوميات بيبى كوشاما، كان ذلك ببساطة، لأن هذا الموت ، بقدر ما كان ذاك الأمر يخصها، لم يغير من إمكانية نيله أو تيسير الحصول عليه ، إن كان قد حدث أى شىء، فهو أنها قد امتلكته حقًا بطريقة لم تحدث من قبل عندما كان حيًا ألبتة ، كانت ذكراها عنه، على الأقل ، ملكًا لها بضراوة وشراسة ، لا تشاركها فيه العقيدة ، ولا الراهبات المنافسات اللاتى معه ، ولا السادهوس[١٨٣] الذين معه ، أو أى اسم كانوا يطلقونه على أنفسهم ، ولا السوامى[١٨٤] الذين معه، والذين على ذات الدرجة .

إن رفضه لها، أثناء حياته (رغم أنه كان رقيقًا وعاطفيًا) قد حيّده الموت وأبطل تأثيره ، كان فى ذاكرتها، يعانقها - هى فقط - بالطريقة التى يعانق بها الرجل امرأة، ما إن مات حتى جردته بيبى كوشاما من ملابسه الزعفرانية السخيفة وأعادت إلباسه الكاكولا، ثوب الكاهن الذى أحبته كثيراً (تمتعت حواسها، فيما بين التعبيرات، بذلك الجسد الذى يشبه جسد المسيح المتكئ المقعر) انتزعت طاسة تسوله، اعتنت بباطن قدميه الهندوسين المتصلبين، فأعادت له صنادله المريحة.

وضعت القلم مرة أخرى فى عروة القلم وأغلقت اليوميات، خلعت نظارتها، أزاحت طقم أسنانها بلسانها، وهى تقطع خيوط لعابها التى تربطها بلثتها، مثل أوتار قيثار مرتخية وأسقطتها فى كوب ليسترين، هبطت أسنانها إلى القاع وأرسلت إلى أعلى فقاقيع صغيرة، مثل صلوات، غطاء رأسها الليلى، ابتسامة قابضة كالصودا، أسنان ذات رائحة مميزة فى الصباح.

استقرت بيبى كوشاما إلى الوراء على وسادتها، وانتظرت أن تسمع راهيل وهى عائدة من حجرة إستا، لقد جعلاها تحس بالقلق. كانت منذ أيام مضت قد فتحت نافذتها فى الصباح (من أجل نسمة هواء نقى) وضبطتهما متلبسين وهما عائدان من مكان ما، كان واضحًا أنهما قد قضيا الليلة بالخارج - معًا - إلى أين يمكن أن يكونا قد ذهبا؟ ماذا يتذكران، وما قدر ما يتذكران؟ متى يغادران؟ ماذا يفعلان، وهما جالسان معًا فى الظلام مدة طويلة؟ وسقطت نائمة فوق وسائدها، وهى تفكر فى أنها ربما لم تسمع باب إستا عندما أُغلق بسبب صوت الأمطار والتلفاز، وأن راهيل ربما قد نامت منذ زمن طويل.

لكنها لم تكن قد نامت .

كانت راهيل ترقد فى سرير إستا، بدت أنحف وهى راقدة. أصغر سنًا، أصغر حجمًا، كان وجهها مستديرًا ناحية النافذة إلى جوار السرير، الأمطار المائلة بشدة تضرب قضبان النافذة وتتبعثر فى رذاذ دقيق على وجهها وذراعها النائم العارى، كان تى شيرتها الأملس الذى بلا أكمام يتوهج أصفر اللون فى العتمة، وذاب نصفها الأسفل، بالجينز الذى ترتديه، فى الظلام .

كان باردًا بعض الشىء، مبتلاً بعض الشىء، ساكنًا بعض الشىء ، الهواء .

ولكن ماذا كان هناك ليقال ؟

كان فى وسع إستا، أن يراها، من حيث كان جالسًا، عند نهاية الفراش، ودون أن يدير رأسه، كانت محددة بصورة باهتة، الخط الحاد لفكها، عظمتا الترقوة مثل جناحين يبدآن الانتشار من أسفل الحلقوم حتى نهايات كتفيها، طائر مثبت إلى أسفل من جلده .

أدارت رأسها ونظرت إليه، كان يجلس منتصبًا تماما، في انتظار التفتيش، كان قد انتهى من عملية الكي .

كانت محببة إلى نفسه، شعرها، وجنتاها، يداها الصغيرتان اللتان تبدوان رشيقتين حاذقتين .

إنها شقيقته .

بدأ صوت ما ينق في رأسه، صوت قطارات عابرة الضوء والظل، الضوء والظل اللذان يسقطان عليك إن كان مقعدك إلى جوار النافذة .

جلس، منتصبًا أكثر مما كان، مايزال، في وسعه أن يراها، تكبر على شاكلة أمها، وومضة عينيها الصافيتين في الظلام، أنفها الصغير المستقيم، فمها، ممتلئ الشفتين، يبدو كشيء ما مجروح، كأنه يجفل من شيء ما، وكأن شخصًا ما - رجل يضع خواتما في أصابعه، قد ضربها عليه منذ زمن طويل مضى، فم جميل، مصاب.

فم أمها الجميل، فكر إستا، فم آمو .

ذلك الذي قبّل راحته عبر قضبان نافذة القطار، في الدرجة الأولى، في قطار بريد مدراس المتجه إلى مدراس .

«مع السلامة إستا، وليباركك الرب»: قال فم آمو، وآمو تحاول إلا يكون فمها باكيًا.

آخر مرة رآها فيها .

كانت تقف على رصيف نهاية خط ميناء كوشين، وقد استدار وجهها إلى أعلى ، إلى نافذة القطار، كان جلدها رماديًا شاحبًا، سلبه ضوء نيون المحطة بريقه المضيء، أوقفت القطارات ضوء النهار على الجانبين، سدادات فلينية طويلة أبقت الظلام معبأً ، قطار «بريد مدراس»، «الراني[١٨٥] الطائرة» .

أمسكت آمو راهيل براحتيها، بعوضة في مقود، «حشرة لاجئة ملتصقة بصندل من باتا»، جنية مطار في محطة للسكك الحديدية. تطبع قدميها على الرصيف، تزيح سحابات من قذارة المحطة المستقرة، حتى هزتها آمو وطلبت منها أن توقف ما تفعل، فأوقفت ما كانت تفعل، وحولها كان الحشد الذي يشق طريقه بمنكبيه .

أناس يعدون ، يسرعون ، يشترون ، يبيعون ، حمال حقائب ، يتدحرج أطفال ، يدفعون ،يتبرزون ، أناس يبصقون ، يجيئون ، يذهبون ، يتسولون ، يساومون ، يراجعون الحجز .

أصوات محطات تدوى .

الباعة المتجولون يبيعون القهوة والشاى .

أطفال هزيلون، أبيضت بشرتهم من سوء التغذية، يبيعون مجلات ملوثة بالسخام وطعام هم أنفسهم لم يستطيعوا أكله .

مشروب البرتقال .

مشروب الليمون .

كوكاكولا ، فانتا ، آيس كريم ، روز ميلك

عرائس وردية الجلود، خشخيشات، الحب فى طوكيو.

ببغاوات بلاستيكية مجوفة مليئة بالحلوى لها رؤوس يمكنك فكها وحلها .

نظارات شمسية حمراء ذات حواف صفراء

ساعات لعب مكتوب عليها الوقت بالألوان .

عربة مليئة بفرش أسنان بها عيوب .

نهاية ميناء كوشين .

رمادى فى ضوء المحطة، أناس مجوفون. متشردون، جائعون، مازالت مجاعة العام الماضى تؤثر فيهم، أجّل ثورتهم، فى الوقت الراهن، الرفيق ا.م.س. نامبوديريبان (العميل السوفيتى، الكلب الذى يجرى خلف سيده)، والذى كان حدقة عين بكين سابقًا.

كان الجو كثيفًا بما فيه من ذباب .

رجل ضرير بلا جفون وعينان زرقاوان مثل جينز باهت، جلده ملىء بنقر ندوب الجدرى، يتحدث إلى مجذوم بلا أصابع، يدخن أنفاسًا رشيقة من أعقاب سجائر جمعت من كنس الشوارع وقد رقدت إلى جانبه فى كومة .

«ماذا عنك؟ متى انتقلت إلى هنا؟»

وكأنهم يمتلكون حق الاختيار، وكأنهما اختارا هذا المكان منزلاً لهما من بين عدد كبير من مقاطعات إسكان أنيقه ممتازة يُعلن عنها في كتيب لامع مصقول .

رجل يجلس فوق ميزان كبير أحمر وقد نزع أربطة ساقه الصناعية (من الركبة إلى أسفل) بحذائها الأسود والجورب الطريف الأبيض المدهون فوقها، كانت سمانة الساق المجوفة وردية مثلها مثلما يجب أن تكون عليه سمانات السيقان الحقيقية (عندما تعيد خلق صورة الإنسان، لماذا تعيد أخطاء الرب ؟؟ كان يحتفظ في داخلها بتذكرته، بمنشفته، بقدحه المصنوع من صلب لا يصدأ، بروائحه، بأسراره، بحبه، بجنونه، بأمله، بمرضه الذي لا ينتهي، وكانت قدمه الحقيقية عارية .

اشترى بعض الشاي في قدحه .

تقيأت سيدة عجوز، بركة ثقيلة، ثم سارت في طريقها .

عالم محطة السكك الحديدية، سيرك المجتمع، حيث جاء اليأس إلى المنزل، مع زحمة التجارة، ليجد مأوى ويخشوشن في بطء إلى اعتزال .

غير أنه لم تكن هنالك، في هذه المرة، بالنسبة لآمو وتوأميها اللذين من بيضتين، نافذة سيارة بليموث ليراقبوا المحطة عبرها، ولا شبكة تنقذهم مثلما حدث عندما وثبوا عبر هواء السيرك.

لقد قال شاكو: احزمي حاجياتك وارحلي، وهو يخطو فوق باب مكسور ، ومقبض في يده ، وآمو رغم أن راحتيها كانتا ترتعشان ، لم ترفع رأسها عن حياكة حاشية لا لزوم لها، وهنالك في حجرها كانت ترقد علبة أشرطة مفتوحة .

غير أن راهيل فعلت، نظرت إلى أعلى ، ورأت أن شاكو قد اختفى وترك مكانه مسخًا بشعًا.

رجل لا مبالٍ ممتلئ الشفتين يرتدي خواتم في أصابعه ، ورداء أبيض ، اشترى سجائر «سيزورس» من بائع على الرصيف ، ثلاث علب ، ليدخنها في طرقة القطار .

" لرجال الأفعال إرضاء فعّال "

كان هو مرافق إستا، كان صديقًا للعائلة تصادف ذهابه إلى مدراس، «مستر كورين ماثن» .

حيث أنه كان من الضرورى وجود راشد مع إستا، على أى حال، لذا قالت ماماشى : إنه لا حاجة لإضاعة النقود على تذكرة أخرى، كان على «بابا» أن يشترى تذكرة «مدراس – كلكتا». وكانت آمو تشترى الوقت – كان عليها أن تحزم حاجياتها وتغادر، لتبدأ حياة جديدة، تستطيع فيها الحفاظ على طفليها، وحتى حينذاك، فقد تقرر أنه يمكن إبقاء أحد التوءمين فى أيمينم، وليس كلاهما، كانا يشكلان معًا مشكلة «ن ا ط ى ش ل ا يف ا م هـ ى ن ى ع»[186]، كان من الضرورى فصلهما .

«ربما يكونون على صواب»، همست آمو بينما كانت تحزم صندوق الثياب وحقيبة السفر القماشية «ربما احتاج الصبى بالفعل إلى أب» .

كان الرجل ممتلئ الشفتين يجلس فى الكوبيه[187] التالى لكوبيه إستا، قال إنه سوف يحاول تغيير المقاعد مع آخر ما إن يبدأ القطار السير .

لقد ترك العائلة الصغيرة الآن بمفردها .

كان يعلم أن ملاكًا جهنميًا يحوم فوقهما. يذهب إلى حيث يذهبان. يتوقف حيث يتوقفان. ينقط شمعًا من شمعة مائلة .

الجميع يعرفون .

كانت الأخبار فى الصحف : أخبار موت صوفى مول، واصطدام الشرطة بباراڤان متهم بالخطف والقتل، بحصار الحزب الشيوعى، الذى تبع ذلك، لمخللات ومربات الفردوس، والذى يقوده جندى أيمينم الصليبى من أجل العدالة ، والمتحدث الرسمى باسم المضطهدين ، الرفيق ك.ن.م. بيلاى الذى ادعى أن الإدارة قد ورطت الباراڤان فى قضية شرطة باطلة ؛ لأنه كان عضوًا نشطًا فى الحزب الشيوعى، إنهم يودون اقتلاعه لانغماسه فى «نشاطات النقابة القانونية» .

كل ذلك كان مذكوراً فى الصحف ، إنها الصورة الرسمية .

بالطبع لم يكن لدى الرجل ملىء الشفتين ذى الخواتم ، أية فكرة عن الصورة الأخرى .

الصورة التى عبر فيها جماعة من الشرطة غير المنبوذين نهر الميناشال، البطىء الذى يفيض بالأمطار الحديثة ، واتخذوا طريقهم خلال الشجيرات والأعشاب المبتلة ، متجمعين متكتلين فى «قلب الظلام» .

الفصل الثامن عشر

منزل التاريخ

عَبَر جماعة من رجال الشرطة غير المنبوذين نهر الميناشال، البطىء الذى يفيض بالأمطار الحديثة، واتخذوا طريقهم خلال الشجيرات والأعشاب المبتلة وصليل الأطفاد التى تثقل جيب أحدهم .

كانت سراويلهم القصيرة الكاكية المنشاة تهتز فوق العشب الطويل مثل صف من الجونلات المتيبسة، المستقلة تماماً عن الأطراف التى تتحرك داخلها .

كان هنالك ستة منهم. ستة خدم للدولة .

الأدب

الطاعة

الإخلاص

الذكاء

اللطف

الفاعلية .

شرطة كوتايام، فصيلة من كرتون، أمراء الزمن الجديد فى خوذات مدببة مضحكة، ورق مقوى محشو بالقطن، تيجانهم الرثة الكاكية ملطخة بزيت الشعر .

قتامة القلب

مأربها الردى .

كانوا يرفعون سيقانهم عاليا، يسيرون بخطى ثقيلة مضطربة عبر العشب الطويل، الزواحف الأرضية تكمن فى شعر سيقانهم المبلل بالندى، الحسك الشائك وأزهار العشب علقت بجواربهم القصيرة الكئيبة، الديدان ذات الألف رجل نامت فى نعل أحذيتهم غير المنبوذة ذات الأطراف المصنوعة من الصلب، سلخ العشب الخشن جلد سيقانهم وملأه بالجراح المتقاطعة، الطين الرطب يصدر أصواتًا كالظراط والفساء تحت أقدامهم عندما يسحقونه عبر المستنقع، ساروا متثاقلين عبر طيور الزقق[١٨٨] على قمم الأشجار، وهى تجفف أجنحتها المشربة بالماء المنشورة مثل الغسيل فى مواجهة السماء، عبر البلشون الأبيض، عبر طيور غراب البحر، عبر طائر اللقلق المساعد، عبر طيور الكركى التى تبحث عن مكان ترقص فيه، عبر مالك الحزين الأرجوانى بعيونه القاسية، يطلق صرخات ، كرارك ، كرارك ، كرارك ، التى تصيب الآخرين بالصمم، عبر الطيور الأمهات وبيضها.

حرارة الصباح المبكر تنبئ بمجىء الأسوأ.

ساروا وراء المستنقع الذى تفوح منه رائحة الماء الراكد، عبر أشجار قديمة تحجبها الكروم، عبر نباتات «المانى»[١٨٩] العملاقة، عبر الفلفل البرى، عبر «الأكيومينوس» الأرجوانى الذى يتدفق كشلالِ صغير.

عبر خنفسة زرقاء غامقة تقف متوازنة على نصل عشبى لا ينثنى.

عبر أنسجة عنكبوت عملاقة قاومت المطر وانتشرت مثل إشاعة هامسة من شجرة إلى شجرة.

زهرة موز تقبع فى غمد من أوراق زهرية حمراء أرجوانية تتدلى عالقة من شجرة لا قيمة لها ممزقة الأوراق مثل حجر كريم يعرضه تلميذ قذر، جوهرة فى الغابة المخملية، اليعاسيب القرمزية تتزاوج فى الهواء، تغدو مثل سيارة ركاب ذات طابقين، رشيقة، رجل شرطة معجب يراقب مندهشًا، لفترة قصيرة، ديناميكات الجنس عند اليعاسيب، وأى شىء يدخل فى أى شىء، ثم بدأ عقله يطقطق منتبهًا وقد عادت إليه أفكاره الشرطية.

قدمًا إلى الأمام.

عبر نمل الجبل الطويل وقد تخثر فى المطر، سقط فجأة مثل حراس مخدرين ينامون عند بوابات الفردوس.

عبر فراشات تطير خلال الهواء مثلها مثل رسائل سعيدة.

عبر سراخس ضخمة.

عبر حرباء.

عبر زهور الكركديه الفزعة.

ودجاجة غابة رمادية تمرق تجرى بحثًا عن غطاء.

وشجرة جوز الطيب التى لم يعثر عليها فيليابابن.

وقناة متشعبة ساكنة تغص بطحالب تطفو على سطح المياه، مثل حية خضراء ميتة، وقد سقط جذع شجرة فوقها، وتبختر رجال الشرطة غير المنبوذين عبرها، يديرون فى سرعة عصيهم المصقولة المصنوعة من البامبو.

جنيات ذات شعور معهن صولجانات قاتلة.

ثم ضوء الشمس وقد شقته جذوع أشجار رفيعة مائلة، و«الظلام القلبى» يدب على أطراف أصابع القدم فى «قلب الظلام»، صوت صرير الصراصير وقد تضخم.

سناجب مخططة تسير مسرعة أسفل جذوع أشجار المطاط المبرقشة، المنحدرة نحو الشمس، ندوب قديمة تقطع لحاءها، وقد خُتمت، والتأمت، بلا استخراج .

فدادين من هذه، ثم أرض خلاء عشبية، ومنزل .

«منزل التاريخ».

الذى كانت أبوابه مغلقة ونوافذه مفتوحة .

بأرضيات حجرية باردة، وظلال هائجة مائجة تشبه السفن على الجدران.

حيث الأسلاف الأشبه بالشموع، بأظفار أقدامهم الخشنة، يتنفسون رائحة الخرائط الصفراء ويهمسون همسات فى رقة الورق .

حيث تعيش السحالى الشفافة خلف صور زيتية قديمة.

وحيث يُمسك بالأحلام ليعاد الحلم بها.

وحيث أبطل توءمان فى بيضتين تثبيت شبح إنجليزى قديم بمنجل إلى شجرة - جمهورية متحركة لصاحبها لفة شعر وقد زرع علماً ماركسيًا فى الأرض إلى جواره، وعندما عبرته فصيلة رجال شرطة متبخترة لم يسمعه أحد منها وهو يتوسل، فى صوته التبشيرى الحنون، «اعذرونى، هل يمكنكم أوم ... لا يمكن أن يكون قد حدث لكم أوم ... إننى لا أفترض أن يكون معكم سيجار؟ كلاًّ... كلاًّ ، إننى لا أعتقد ذلك».

«منزل التاريخ».

حيث يمكن للفزع (الذى سوف يجىء) فى السنوات التالية، أن يكون مدفونًا فى قبر ضحل، مخفيًا تحت الطنين السعيد لطباخى الفندق، تحت إذلال الشيوعيين القدامى، تحت الموت البطىء للراقصين، تحت قصص التاريخ التى على هيئة دمى والتى جاء السياح الأثرياء للعب بها.

كان منزلاً جميلاً.

أبيض الجدران ذات يوم، أحمر السَّقف، غير أنه مطلى الآن بألوان الطقس، بفرش غمست فى ألوان الطبيعة، أخضر طحلبى، بنى أرضى، أسود بالٍ، مما جعله يبدو أكبر سنًا مما هو فى الحقيقة، مثل كنز غارق يُسحب من قاع المحيط، حوت لُثم وإلصق بالصخر مثل قوقع، لُف بالقماط فى صمت، يتنفس فقاعات عبر نوافذه المحطمة.

شرفة عميقة تمتد حوله، الحجرات ذاتها كانت معزولة مدفونة فى الظل، السقف المصنوع من القرميد جُرف إلى أسفل مثل جانبى قارب ضخم مقلوب رأسًا على عقب، دعامات عطنة تعتمد على ما كان يوما ما أعمدة بيضاء، اعوجت من الوسط، تاركة تجويفًا فاغراً فاهه على اتساعه، تجويف التاريخ، أشبه بتجويف التاريخ فى الكون والذى يمكن أن تندفع منه عند الشفق، سحابات كثيفة من خفافيش صامتة مثل دخان مصنع مندفع فى الظلام .

إنها تعود عند الفجر ومعها أخبار العالم، ضباب رمادى فى البعد الوردى الذى يلتئم فجأة ويغدو سواداً فوق المنزل قبل أن يمرق عبر تجويف التاريخ مثل دخان فى فيلم يتتابع إلى الوراء.

إنها تنام طوال النهار، الخفافيش، تبطن السقف مثل الفرو، تلوث الأرضيات بالفضلات، توقف رجال الشرطة ثم تفرقوا، لم يكونوا حقًا فى حاجة إلى ذلك، لكنهم كانوا يحبون مثل تلك الألعاب غير المنبوذة.

حددوا وضعهم إستراتيچياً، قبع الجدار الحدودى الحجرى الواطئ المحطم حولهم،

بول سريع.

رغوة حارة على حجر دافئ، إنه بول الشرطة.

نمل غريق فى فقاقيع صفراء.

أنفاس عميقة.

ثم زحفوا معًا، على ركبهم ومرافقهم نحو المنزل، مثل أفلام الشرطة، بنعومة، بنعومة عبر العشب، هراواتهم فى أيديهم، البنادق الآلية فى عقولهم، المسئولية قِبل غير المنبوذين على عواتقهم النحيلة غير أنها عواتق قادرة.

وجدوا طريدتهم فى الشرفة الخلفية، لفة شعر أُتلفت، نافورة من «الحب فى طوكيو» وفى ركن آخر نجار أظفاره حمراء فى لون الدم (وحيداً مثل ذئب) .

نائماً، لا يبالى لكل ذلك المكر غير المنبوذ.

بالانقضاض المفاجئ.

العناوين الرئيسة فى رؤوسهم.

الإمساك بالمجرم المستهتر فى شبكة صيد الشرطة.

يجب على طريدتهم، بسبب هذه الوقاحة ، وهذا الإفساد للمتعة ، أن يدفع الثمن ، أوه نعم .

أيقظوا ڤيلوتا بأحذيتهم .

استيقظ إستابن وراهيل على صراخ النائم ، وقد فاجأه تهشم صابونتا الركبتين.

ماتت الصرخات فى أعماقهما وطفت ببطنيها إلى أعلى مثل أسماك ميتة، أدركا وهما منحنيان على الأرض، يتأرجحان بين الرعب وعدم التصديق، أن الرجل الذى يُضرب كان ڤيلوتا، من أين جاء؟! ماذا فعل؟! لماذا أحضره رجال الشرطة إلى هنا؟!

سمعا خبط الخشب على اللحم، الحذاء على العظم، على الأسنان، القباع المكتوم عند توجيه ركلة إلى المعدة، القرقشة الخرساء للجمجمة على الأسمنت، بقبقة الدم فى أنفاس إنسان، عندما تمزق النهاية المسننة لضلع مكسور رئته.

راقبا شفتين زرقاوين وعينين مثل طبق عشاء، وقد نومهما تنويمًا مغناطيسيًا شىء ما يحسانه لكنهما لا يفهمانه: غياب الهوى والنزوة فيما يفعله رجال الشرطة، العمق الروحى حيثما كان يجب وجود الغضب، الوحشية الرزينة الراسخة والاقتصاد فى الأمر كله.

كانوا يفتحون قارورة.

أو يغلقون صنبوراً.

يأسرون بيضة ليصنعوا أومليت.

كان التوءمان صغيرين للغاية، أصغر من إدراك أن هؤلاء لم يكونوا غير خدم التاريخ، وقد أرسلوا لمطابقة الكتب وجمع الديون المستحقة من هؤلاء الذين حطموا قوانينه، تحركهم مشاعر كونهم أصليين أساسيين، ومع ذلك، فإنهم، وهذا تناقض ظاهرى، مجهولون كلية، مشاعر احتقار وازدراء وُلِدت من خوف بدائى غير معترف به - خوف التحضر من الطبيعة ، خوف الرجال من النساء ، خوف القوى من العجز والوهن .

الوعى الناقص للرجل والذى يحثه على تحطيم مالم يستطع إخضاعه أو تأليهه.

حاجات الرجال.

إن ما شاهده إستابن وراهيل ذلك الصباح، رغم أنهما لم يُدركاه حينذاك، كان إثباتًا إكلينيكيًا عمليًا ، فى ظل ظروف محكومة (لم تكن حربًا على أى حال ،

ولا تحطيماً منظماً متعمداً لمجموعة عرقية) لسعى الطبيعة البشرية للاستعلاء والسطوة، للبنيان والكيان، للنظام، للاستئثار الكلى، كان ما شاهداه هو تاريخ البشرية متنكراً فى صورة القصد الإلهى، يكشف عن نفسه لمستمع قاصر دون سن البلوغ .

لم يكن هنالك أى شىء عرضى فيما حدث هذا الصباح، لا شىء حدث مصادفة،

لم تكن المسألة مسألة فاقد عقل ضال ضائع أو شخص يسدد ما عليه من ديون، كانت هذه حقبة تطبع أثرها على هؤلاء الذين عاشوا خلالها.

التاريخ فى حالة أداء حى.

إنهم إن أصابوا ڤيلوتا بالضرر، أكثر مما أنْتَوَوْا إيقاعه به، فإن ذلك فقط، لأن أية قرابة، أو أى ارتباط بينهم وبينه، أو أية علاقة، إن لم يكن هنالك شىء آخر، علاقة بيولوچية على الأقل حيث كان كائنا زميلاً لهم قد فصمت منذ أمد طويل ، إنهم لم يكونوا يقبضون على رجل، كانوا يطردون الخوف كما تطرد الأرواح الشريرة، ليس لديهم أداة لقياس قدر الضرب الذى يمكن أن يتحمله، ليس هنالك من وسائل لقياس قدر ما أصابوه به من ضرر أو مدى دوام هذا الضرر.

إن جماعة من رجال الشرطة غير المنبوذين قد تعاملت، على غير مثال مع ما يفعله الغوغاء المتدنون الهائجون عادة أو الجيوش القاهرة التى تثير شغباً، تعاملت ذلك الصباح مع الاقتصاد، وليس مع الحنق ، والجنون، مع الفاعلية، وليس مع الفوضوية، مع المسئولية وليس مع الهوس والهيستيريا، إنهم لم يجتثوا شعره أو يحرقوه حياً، إنهم لم يبتروا أعضاءه التناسلية ويحشو بها فمه، إنهم لم يغتصبوه أو يضربوا عنقه.

إنهم، مع ذلك، لم يكونوا يحاربون وباءً، لقد كانوا فقط يحصنون مجتمعاً باللقاح حماية له من أعمال الشغب والاضطراب.

فى الشرفة الخلفية «لمنزل التاريخ » ، وقد حُطم الرجل الذى أحباه ، تعلمت « مسز إيبن » و« مسز راجاجو بالان » ، السفيران التومان لمكان لا يعرفه غير الله ، تعلما درسين جديدين .

الدرس رقم واحد :

نادراً ما يظهر الدم على رجل أسود (دوم دوم) .

والدرس رقم اثنين :

ومع ذلك فإن له رائحة.

رائحة حلوى تثير الغثيان.

مثل زهور عتيقة ذهبت رائحتها فلا يحملها النسيم (دوم دوم).

«ماديو؟»[١٩٠] سأل أحد علماء التاريخ.

«مادى أيريكوم»[١٩١]: أجاب آخر.

يكفى؟

يكفى.

ابتعدوا عنه يثمنون عملهم كالحرفيين، يبحثون عن بعد جمالى.

عملهم، الذى لا يدعمه «الله» و«التاريخ»، و«ماركس»، و«الرجل»، و«المرأة» و«الأطفال» (فى الساعات القادمة) يرقد مطوياً على الأرض، كان شبه صاح فايق، لكنه كان ساكناً لا يتحرك.

كانت جمجمته قد شحبت فى مواضع ثلاث، وسُحِقَتْ أنفه ووجنتاه، مما جعل وجهه كالعجينة غير محدد المعالم، كانت اللطمة فى فمه قد شقت شفته العليا وحطمت ست أسنان، طُمرت ثلاث منها فى شفته السفلى، مما جعل ابتسامته الجميلة ابتسامة مخيفة، كانت أربعة من ضلوعه قد تشظيت، واخترقت إحداها رئته اليسرى، مما جعله يدمى من فمه، الدم فى تنفسه أحمر صاف، طازج، مزبد، أمعاؤه السفلى تقطعت ونزفت، وتجمع الدم فى تجويفه البطنى، أصيب نخاعه الشوكى بالتلف فى موضعين، أصابه الارتجاج المخى بشلل فى ذراعه اليمنى، ونتج عنه فقدان التحكم فى مثانته والمستقيم، وتهشمت صابونتا الركبتين.

ومع ذلك أخرجوا قيد المعصمين.

بارداً.

يحمل رائحة المعدن الحمضية. مثل قضبان سيارة الركاب المصنوعة من الصلب، ورائحة كمسارى سيارة الركاب بسبب إمساكه بالقضبان، حدث ذلك عندما لاحظوا أظفاره المطلية، رفعها أحدهم ملوحًا بها نحو الآخرين فى دلال، ضحكوا، «ماهذا؟» فى صوت عال مصطنع.

«إيه سى - دى سى؟»[(١٩٢)]

نقر أحدهم قضيبه بعصاه، «هيًّا»، أرنا سرك غير العادى، أرنا كم هو كبير عندما ينتصب، ثم رفع حذاءه (مع الديدان ذات الألف رجل وقد تكورت فى نعله) ثم نزل به إلى أسفل فى ضربة لينة.

ثبتوا ذراعيه على ظهره.

طقطقة.

وطقطقة.

هنالك أسفل ورقة شجر تجلب الحظ، ورقة شجر خريفية فى المساء، تجعل الرياح الموسمية تجىء فى أوانها.

اقشعر حيثما لمس القيد جلده.

«إنه ليس هو»، همست راهيل لإستا، «يمكننى معرفة ذلك. إنه أخوه التوأم. أوروميان، من كوشى».

ولم يقل إستا شيئًا، غير راغب فى البحث عن ملجأ من القصص الخيالية.

كان أحدهم يتحدث إليهما، رجل شرطة رقيق غير منبوذ، رقيق مع نوعه.

«مون، مول، هل أنتما بخير؟ هل أوقع بكما ضررا؟»

ولم يجب التوأمان معا، وإن كادا يفعلان ذلك همسًا.

«نعم. كلاَّ».

«لا تقلقا، أنتما الآن فى مأمن معنا».

ثم نظر رجال الشرطة حولهم ورأوا حصيرة العشب.

القدور والأوعية.

الأوزة التى يمكن نفخها.

الكوانتس كولا بعينين كالأزرار السائبة.

الأقلام ذات الطرف الكروى بشوارع لندن فى داخلها.

الجوارب القصيرة وأصابع أقدام ملونة .

نظارة شمس حمراء ذات حواف صفراء.

ساعة طلى الوقت عليها.

«حاجات مَنْ تلك؟ من أين جاءت؟ ومن الذى أحضرها؟» رنة قلق فى الصوت .

حملق إستا وراهيل فيها وهما ممتلئان سَمَكًا .

نظر رجال الشرطة إلى بعضهم ، كانوا يعرفون ماذا عليهم أن يفعلوا .

أخذوا الكوانتس كولا لأطفالهم .

والأقلام والجوارب، أطفال الشرطة يرتدون أصابع أقدام عديدة الألوان .

فرقعوا الأوزة بسيجارة، بانج، ودفنوا بقاياها المطاطية .

الفصل التاسع عشر

إنقاذ آمو

طلب المفتش توماس ماثيو، في مركز الشرطة، زجاجتي كوكاكولا، مع مصاصتين، أحضرهما كونستابل خانع على صينية بلاستيكية وقدمهما إلى الطفلين الغارقين في الطين والجالسين إلى المنضدة قبالة المفتش، لا تبين منهما غير رأسيهما أعلى قليلاً من خليط الملفات والأوراق الموجودة عليها .

وهكذا مرة أخرى، خلال مدة أسبوعين ، كان الخوف معبّأً جاهزاً لإستا، اقشعر بدنه، أزّ كما يئزّ القدر، سارت الأمور مع الكوكاكولا إلى الأسوأ.

ارتفع الأز إلى أنفه ، تجشأ ، ضحكت راهيل بفتور ، نفخت عبر مصاصتها حتى بقبق الشراب وتدفق على ردائها ، على كل الأرض ، قرأ إستا بصوت عال من لوحة على الحائط .

«ب د أ ل ا»، قال «ب د أ ل ا، هـ ع ا ط ل ا»[١٩٣].

«ص ا ل خ ا ل ا، ء ا ك ذ ل ا»[١٩٣]، قالت راهيل.

«ف ط ل ل ا»[١٩٣].

« هـ ى ل ع ا ف ل ا»[١٩٣].

ظل المفتش ماثيو هادئًا، مما يحسب له، أحس بالتفكك المتزايد الذى يعانيه الطفلان، لاحظ حدقات العيون تتمدد متسعة، لقد رأى كل ذلك من قبل ... هروب صمام العقل البشرية، طريقة العقل عند معالجة إصابة ما، لقد سمح بذلك، وألقى أسئلته في ذكاء، دون ضرر أو أذى، ما بين: «متى عيد ميلادك مون؟»، و «ما لونك المفضل، مول؟».

بدأت الأشياء تدريجيًا، وبطريقة متناثرة، غير مترابطة، تعود إلى موضعها، كان رجاله قد قدموا له ملخصًا عن القدور والأوعية، عن حصيرة العشب، عن اللعب التى يستحيل نسيانها، والتى بدأ يصبح لها الآن معنى، لم يجد المفتش توماس ماثيو فى ذلك ما يدعو إلى التسلية، أرسل سيارة چيب لإحضار بيبى كوشاما، تأكد من أن الطفلين لن يكونا موجودين فى الحجرة عند وصولها، لم يحيِّها.

«اجلسى»: قال .

أحست بيبى كوشاما أن هنالك خللاً ما جسيمًا .

«هل وجدتهما؟ هل كل شىء على مايرام؟»

«لاشىء على مايرام»: أكد لها المفتش .

أدركت بيبى كوشاما من نظرة عينيه ونغمة صوته، أنها تتعامل مع شخص مختلف هذه المرة، ليس ضابط الشرطة المجامل الذى كان فى لقائهما السابق، حطت نفسها فى مقعد، لم ينطق توماس ماثيو كلماته بطريقة متكلفة.

لقد قامت شرطة كوتايام بالتصرف طبقًا لما جاء فى بلاغ تقدمت هى به، وقبض على الباراڤان، ولسوء الحظ فإنه أُصيب إصابات سيئة أثناء الصدام معه، إنه لن يعيش بناء على كل الاحتمالات القوية، غير الليلة، لكن الطفلين قالا إنهما ذهبا بملئ إرادتهما، وإن قاربهما انقلب وغرقت الطفلة الإنجليزية مصادفة، مما يحمل الشرطة فنيًا مسئولية موت رجل برىء ، حقًا كان باراڤانًا، حقًا كان سيئ السلوك، إلا أن تلك الأيام كانت أيام قلق واضطراب ، لقد كان رجلاً بريئًا من الناحية الفنية طبقًا للقانون ، لم تكن هنالك قضية .

«محاولة اغتصاب؟» اقترحت بيبى كوشاما فى ضعف .

«أين شكوى الضحية المغتصبة؟ هل تم التقدم بها؟ هل قَدَّمت بلاغًا؟ هل جئت بها معك؟» اتسمت لهجة المفتش بالخصام، بل كادت تكون عدائية .

بدت بيبى كوشاما وكأنها قد تقلصت وتضاءلت .

أكياس لحم تتدلى من عينيها وخديها، تخمر الخوف فيها وثار وغدا اللعاب مُرًا فى فمها، دفع المفتش بكوب ماء نحوها.

«الأمر غاية فى البساطة، إمّا أن تتقدم الضحية - المغتصبة بشكواها، أو يجب أن يتعرف الطفلان على الباراڤان باعتباره من قام باختطافهما وذلك فى وجود شاهد من الشرطة، أو»، وانتظر حتى نظرت بيبى كوشاما إليه، «أو يجب أن اتهمك أنت بتقديم بلاغ كاذب، إزعاج إجرامى».

صبغ العرق بلوزة بيبى كوشاما الزرقاء الفاتحة ببقع زرقاء داكنة، لم يدفعها المفتش توماس ماثيو، كان يعرف أنه لو وضع المناخ السياسى فى الحسبان، فإنه هو ذاته يمكن أن يواجه مصاعب خطرة، كان يعى أن الرفيق ك،ن،م بيلاى لن يدع هذه الفرصة تفلت منه .

كان يؤنب نفسه لتصرفه بهذا النزق، استخدم منشفته اليدوية المنقوشة ليصل إلى داخل قميصه ويجفف صدره وإبطيه، كان الوضع هادئًا فى مكتبه، أصوات نشاط مركز الشرطة، الخطى الثقيلة للأحذية، الولولة الأشبه بالنباح التى تصدر أحيانًا عندما يستجوب إنسانًا ما، تبدو بعيدة، كأنما تجىء من مكان آخر .

«سوف يفعل الطفلان مثلما يقال لهما»: قالت بيبى كوشاما، «لو كان فى إمكانى الانفراد بهما لبضع لحظات؟» .

«كما ترغبين»، نهض المفتش ليغادر المكتب .

«أرجو أن تمنحنى خمس دقائق قبل إدخالهما إلى هنا» .

أومأ المفتش توماس ماثيو موافقًا وغادر .

مسحت بيى كوشاما وجهها اللامع الناضح بالعرق، مدت عنقها ناظرة إلى السقف حتى تمسح العرق من الشقوق ما بين طياتهما وشحم رقبتها بطرف الثوب الذى ترتديه، لثمت صليبها .

سلام لك مريم الممتلئة نعمة ...

هجرتها كلمات الصلاة، فُتح الباب، أُدخل إستا وراهيل، وقد تحجر الطين عليهما، ويللتهما الكوكاكولا .

منظر بيبى كوشاما جعلهما يفيقان فجأة، الفراشة ذات النؤابات الظهرية الكثيفة بصورة غير عادية نشرت جناحيها فوق قلبيهما، لماذا جاءت؟ أين آمو؟ هل مازالت محبوسة؟ .

نظرت إليهما بيبى كوشاما فى جفاء، لم تقل شيئًا لمدة طويلة، عندما تكلمت كان صوتها خشنًا غير مألوف .

« من كان صاحب هذا القارب؟ من أين جئتما به؟» .

«قاربنا، عثرنا عليه، قام ڤيلوتا بإصلاحه لنا»، همست راهيل .

«منذ متى وهو معكما؟»

«لقد عثرنا عليه يوم مجىء صوفى مول» .

«وسرقتما أشياء من المنزل، وأخذتماها فيه عبر النهر؟!»

«كنا نلعب فقط ... »

«تلعبان؟ هل هذا ما تطلقانه على ما حدث؟!»

نظرت بيبى كوشاما إليهما طويلاً قبل أن تعاود الكلام .

«إن جسد ابنة خالكم المحبوبة الصغيرة يرقد فى حجرة الاستقبال، لقد أكل السمك عينيها، أمها لا تستطيع التوقف عن البكاء، هل ذلك ما تسمونه لهوًا ولعبًا؟!»

نسمة مفاجئة جعلت ستارة النافذة المزينة بنقوش الزهور تهتز، كان فى وسع راهيل أن ترى خارج النافذة سيارات چيب واقفة، وأناس يسيرون، كان أحد الرجال يحاول إدارة دراجته البخارية، وكانت خوذته تنزلق إلى جانب فى كل مرة يقفز فيها على ذراع مفتاح الحركة بقدمه .

داخل حجرة المفتش، كانت فراشة باباشى لا تثبت فى مكان .

قالت بيبى كوشاما: «إنه لأمر رهيب أن تأخذ حياة إنسان، إنه أسوأ شيء يمكن أن يفعله أى امرئ على الإطلاق ، حتى الله لا يغفر ذلك، أنتما تعرفان، أليس كذلك؟»

أومأ رأسان مرتين .

«ومع ذلك،...» ، ونظرت إليهما فى حزن، «فإنكما قد فعلتما ذلك»، نظرت إليهما فى عينيهما، «أنتما قاتلان»، وانتظرت حتى يرسخ ما قالته فى نفسيهما،

«أنتما تعرفان أننى أعرف أن الأمر لم يكن مصادفة، إننى أعرف كم كنتما غيورين منهـا ، وإن سألنى القاضى فى المحكمة ، فإننى يجب أن أخبره بذلك ، أليس كذلك ؟ لا يمكننى أن أكـذب عليـه ، هـل أسـتطيـع ذلك ؟ » ربتت على المقـعـد إلى جـوارها ، «تعاليا هنا ، واجلسا » .

أربعة أرداف لمؤخرتين مطيعتين انحشرت فى المقعد .

«سوف يتحتم علىّ أن أخبرهم كيف أن ذهابكما إلى النهر بمفرديكما أمر مخالف تماماً للقواعد ، وكيف أنكما أجبرتماها على الذهاب معكما ، رغم معرفتكما أنها لا تستطيع السباحة ، وكيف أنكما دفعتما بها خارج القارب إلى منتصف النهر ، لم يكن ما حدث مصادفة، هل كان كذلك؟» .

حملقت فيها أربع عيون مثل صحون الفناجين، وقد أسرتهما القصة التى كانت تقولها لهما، ثم ماذا حدث؟

«ولذا فإنكما سوف تذهبان إلى السجن»:قالت بيبى كوشاما برقة، «وسوف تذهب أمكما إلى السجن بسببكما، هل تحبان ذلك؟»

العيون الخائفة ونافورة نظرت إليها .

«ثلاثتكم فى ثلاثة سجون مختلفة، هل تعرفان شكل السجون فى الهند؟»

اهتز رأسان مرتين .

شيدت بيبى كوشاما بناء قضيتها ، سحبت (من خيالها) صوراً مفعمة بالحيوية عن حياة السجن، طعام الصرصار الهش المتغضن، «الشى الشى»(١٩٤)

المكوم فى المراحيض مثل جبال بنية طرية، البق، عمليات المص، أسهبت فى مسألة السنوات الطويلة التى سوف توضع فيها آمو بعيداً بسببهما، كيف ستصبح عجوزاً مريضة والقمل فى شعرها عندما يحين موعد خروجها - إن لم تمت فى السجن، استحضرت بطريقة منظمة، بصوتها الحنون القلق المهتم بالمستقبل الرهيب المروع الذى ينتظرهم، وعندما سحقت شعاع كل أمل، وحطمت حياتهما كلية، قدمت لهما الحل مثل جِنية عرابة، الرب لن يغفر لهما ما فعلاه ألبتة، غير أنه هنا على الأرض توجد طريقة لإبطال بعض الضرر، طريقة لإنقاذ أمهما من الإذلال والمعاناة بسببهما، شريطة أن يكونا عمليين .

«لحسن الحظ»، قالت بيبى كوشاما: «لحسن حظكما ارتكبت الشرطة خطأ ما، خطأ ما يجلب حسن الحظ، وصمتت، «هل تعرفان ما هو؟ ألا تعرفان ما هو؟» .

كان هنالك، فى ثقالة الورق الزجاجية فوق مكتب الشرطى شخصان محبوسان، كان فى وسع إستا أن يراهما، رجل يرقص الفالس وامرأة ترقص الفالس، كانت ترتدى رداءً أبيض تحته ساقاها .

«ألا تعرفان ما هو؟»

كانت هنالك ثقالة ورق موسيقى الفالس، وكانت ماماشى تعزف اللحن على كمانها،

را - را - را - را - روم .

باروم - باروم .

«المسألة هى»: قال صوت بيبى كوشاما: «إن ما حدث قد حدث، وإنه، كما يقول المفتش، سوف يموت على أى حال من الأحوال، وبالتالى فإن ما تفكر فيه الشرطة أمر لا يعنيه حقًا، إن ما يعنى هو هل ترغبان أنتما فى الذهاب إلى السجن، وتكونان السبب فى ذهاب آمو إلى السجن؟! إن الأمر يعود إليكما لتتخذا فيه قرارًا» .

كانت هنالك فقاعات فى ثقالة الورق مما جعل الرجل والمرأة يبدوان وكأنهما يرقصان الفالس تحت الماء، كانا يبدوان سعيدين، ربما هما متزوجان، هى فى ثوبها الأبيض، وهو فى حلته السوداء ورباط عنقه المقوس، كان ينظر كل منهما بعمق فى عين الآخر .

« إن كنتما تودان إنقاذها ، فكل ما عليكما فعله هو الذهاب مع العم ذى الشارب الكبير ، إنه سيسألكما سؤالاً، سؤالاً واحداً، وكل ما عليكما فعله هو أن تقولا «نعم » ، ثم يصبح فى وسعنا جميعًا أن نذهب إلى المنزل، إنه ثمن زهيد ذلك الذى عليكما دفعه » .

تابعت بيبى كوشاما نظرة إستا المحملقة، كان ذلك هو كل ما استطاعت فعله لمنع نفسها من أخذ ثقالة الورق وقذفها بقوة خارج النافذة، كان قلبها يدق كالمطرقة .

« إذن » ، قالت بابتسامة ، مشرقة زالت سريعًا، وقد بدأ صوتها يفشى ما تعانيه من توتر، «ما الذى سأقوله للعم المفتش؟ ماذا قررنا؟ هل تودان إنقاذ آمو أم نرسل بها إلى السجن ؟ » .

كأنما كانت تقدم لهما اختياراً بين متعتين، صيد السمك أو إعطاء الخنازير حمّاماً؟ إعطاء الخنازير حمّاماً أو صيد السمك؟

نظر التوءمان إلى أعلى إليها، ليس معا (ولكن يكادا أن يكونا معًا)، همس صوتان خائفان، «ننقذ آمو» .

سوف يعيدان فى السنوات القادمة تمثيل هذا المشهد فى رأسيهما، كأطفال - كمراهقين - كبالغين - هل خُدعا ليفعلا ما فعلا؟ هل خُدعا فى عملية الإدانة؟

نعم، خُدعا بشكل ما، لكن الأمر لم يكن بسيطًا هكذا، إن كليهما يعرف أنهما قد منحا اختياراً، وما مدى السرعة التى اختارا بها ! لم يعطيا أكثر من ثانية واحدة للتفكير عندما نظرا إلى أعلى وقالا (ليس معًا، لكنهما كادا أن يكونا معا) «ننقذ آمو»، ننقذ أنفسنا، ننقذ أمنا .

ابتسمت بيبى كوشاما مبتهجة، الارتياح يعمل مثل مسهل لطيف للأمعاء، احتاجت للذهاب إلى الحمام، فى سرعة، فتحت الباب وطلبت المفتش .

قالت له عندما جاء: «إنهما طفلان صغيران طيبان، سوف يذهبان معك» .

قال المفتش توماس ماثيو: «لا ضرورة للاثنين، واحد يفى بالغرض، أى واحد، مون، مول، من الذى يريد المجىء معى؟» .

«إسثا»، اختارت بيبى كوشاما، إنها تعرف أنه الأكثر عملية فى الاثنين، الأسلس قيادا، الأكثر بُعداً فى رؤيته، والأكثر مسئولية، «اذهب أنت، مع السلامة» .

رجل صغير، عاش فى كاراڤان، دوم دوم .

ذهب إسثا .

السفير ا، بلفيس، بعينين مثل طبقى فنجانين، ولفة شعر تالفة، سفير قصير إلى جانب رجال شرطة طوال، فى بعثة بشعة عميقا داخل تجويف مركز شرطة كوتايام، خطى أقدامهم تدوى فوق الأرض الحجرية .

ظلت راهيل فى الخلف، فى مكتب المفتش، واستمعت إلى الأصوات الفظة، التى تقطر إلى أسفل على جانبى سلطانية مرحاض المفتش الملحق بمكتبه، أصوات تعلن عن ارتياح بيبى كوشاما، التى قالت عندما خرجت: «الخجل لا يجدى، إن ذاك أمر مثير للقلق»، كانت مرتبكة تخشى أن يرى المفتش لون وشكل برازها، كانت غرفة الحجز فى قسم الشرطة مظلمة كالقار، لم يستطع إسثا أن يرى فيها شيئًا، غير أنه استطاع سماع صوت التنفس الثقيل الخشن المثير للأعصاب .

تجشأ من رائحة البراز دون أن يتقيأ، أضاء أحدهم النور، صافيًا، يعمى البصر، ظهر ڤيلوتا على الأرضية الرغوية الزلقة، جِنى ممزق، يُستحضر بمصباح حديث، كان عاريًا، وقد انحل الموندو الملوث الخاص به، الدم ينسكب من جمجمته مثل شىء خفى، وقد تورم وجهه، وبدت رأسه مثل قرعة عسلية، كبيرة ثقيلة للغاية على العنق النحيل الذى نبتت فيه، قرعة عسلية تعلوها ضحكة بشعة مقلوبة، رأسًا على عقب، أحذية شرطة خطت عائدة من حافة بركة بول تبدأ انتشارها منه، وقد انعكست فيها اللمبة الكهربائية مجردة .

طفت سمكة ميتة داخل إسثا ، نخس أحد رجال الشرطة ڤيلوتا بقدمه ، غير أنه لم يكن هنالك أى رد فعل، أقعى المفتش توماس ماثيو على ردفيه ومر بمفتاح سيارته

الچيب عبر بطن قدم ڤيلوتا، انفتحت العينان المتورمتان، مندهشتان، ثم تركزت، عبر غشاء الدم، على طفل محبوب، تصور إستا أن شيئًا ما بداخله قد ابتسم، ليس فمه، ولكن جزءًا آخر منه لم تصبه الجراح، ربما كان كوعه أو كتفه .

سأل المفتش سؤاله، وأجاب فم إستا بنعم .

الطفولة خرجت على أطراف أصابع أقدامها .

انزلق الصمت إلى الداخل مثل سهم قصير ثقيل .

أطفأ أحدهم النور فاختفى ڤيلوتا .

توقفت بيبى كوشاما عند «ريليابل ميديكوس»[١٩٥]، فى طريقهم إلى المنزل فى سيارة الشرطة الچيب، لشراء بعض الكالمبوز[١٩٦]، وأعطت اثنين منه لكل منهما، وبدأت عيونهما فى الانغلاق عندما بلغا كوبرى شونجام، همس إستا شيئًا ما فى أذن راهيل .

«لقد كنت على صواب، لم يكن هو، كان أورمبان» .

«شقرا[١٩٧] للرب» : همست راهيل ردًا عليه .

«أين هو كما تعتقدين؟»

«هرب إلى إفريقيا» .

سُلما إلى والدتهما حيث ناما سريعًا، وهما سابحان فى هذه القصة الخيالية .

حتى الصباح التالى، عندما استخرجتها آمو منهما، غير أن الأمر حينذاك كان قد فات أوانه .

كان المفتش توماس ماثيو، وهو رجل خبير بمثل تلك الأمور، على حق، فإن ڤيلوتا لم يكمل الليل حيًا .

جاءه الموت، بعد منتصف الليل بنصف ساعة .

أما فيما يتعلق بالعائلة الصغيرة المتكورة النائمة على غطاء أزرق متقاطع الغرز، فماذا حل بهم؟

لم يكن الموت، مجرد نهاية للحياة .

بعد جنازة صوفى مول، عندما أخذتهما آمو مرة أخرى إلى مركز الشرطة واختار المفتش المانجو الخاص به (بنقره نقراً خفيفًا) كان الجسد قد أزيح بالفعل، أُلقى به كالنفاية فى «ثيمادى كوزهى» – حفرة شديدى الفقر – حيث تلقى الشرطة بطريقة روتينية بموتاها .

عندما سمعت بيبى كوشاما بزيارة آمو لمركز الشرطة ، أحست بالرعب، إن كل ما فعلته بيبى كوشاما قد قام على افتراض وحيد، لقد راهنت على حقيقة أن آمو، مهما كان ما فعلته غير ذلك، ومهما كانت غاضبة، فإنها لن تعترف علنًا بعلاقتها بڤيلوتا ألبتة؛ لأن ذلك، طبقًا لرؤية بيبى كوشاما، يصل إلى مستوى تدميرها لذاتها ولأطفالها، للأبد، غير أن بيبى كوشاما لم تضع فى حسبانها «الحد غير الآمن عند آمو»، «الزواج المختلط الخالص» – الرقة اللانهائية للأمومة ، الغضب المقهور الذى لا يبالى لقاذف قنابل انتحارى .

لقد أصابها رد فعل آمو بالذهول، تهاوت الأرض تحت قدميها، كانت تعرف أن لها فى المفتش توماس ماثيو حليفا، ولكن إلى متى يدوم ذلك؟ ماذا لو نُقل وأُعيد فتح القضية؟ كان ذلك ممكنا – إذا وضعنا فى الاعتبار صراخ وشعارات حشد عمال الحزب الذى عمل الرفيق ك،ن،م، بيلاى على جمعهم خارج البوابة، وقد منع ذلك العمال من الذهاب إلى العمل، وتركوا كميات كبيرة من المانجو والموز والأناناس والثوم والخل تتعطن ببطء فى الأراضى التابعة لمخللات الفردوس .

لقد أدركت بيبى كوشاما أنه يتوجب عليها إخراج آمو من أيمينم فى أقرب وقت ممكن .

عالجت هذا الأمر بأفضل أداء لديها : بِرَىِّ حقولها ، وتغذية محاصيلها بعواطف الآخرين .

كانت تحفر مثل فأر فى مستودع أحزان شاكو، لقد زرعت داخل جدرانه هدفا لغضبه المجنون، هدفًا هينًا سهل المنال، لم يكن صعبًا عليها تصوير آمو كالمسئول الفعلى عن موت صوفى مول، آمو وتوءمها، المولود من بيضتين .

كان شاكو وهو يحطم الأبواب مجرد الثور الحزين يضرب عند نهاية مقود تُمسك به بيبى كوشاما ، كانت هى صاحبة فكرة أن تحزم آمو حقائبها وترحل ، وفكرة إعادة إستا .

الفصل العشرون

قطار بريد مدراس

كان إستا هنالك بمفرده، عند نافذة القطار ذات القضبان فى نهاية خط ميناء كوشين، السفير ا. بلفيس حجر طاحون له لفة شعر، وشعور أخضر - متموج، غليظ، مائى، كتلى، مثل عشب البحر، طاف بلا قرار - عميق الغور، اسمه على صندوق ثيابه تحت مقعده، صندوق حذائه به سندوتشات طماطم، وقارورة النسر التى عليها نسر، على المنضدة التى يمكن طيها أمامه .

قدمت له سيدة، كانت تجلس إلى جواره تأكل، وقد ارتدت ساريًا كانجيفاراميا[١٩٨]، أخضر اللون أرجوانيًا، وماسات عنقودية مثل نحل تتألق على منخاريها، قدمت له لادوس[١٩٩] أصفر فى صندوق، وهز إستا رأسه، فابتسمت ولاطفته، اختفت عيناها الحانيتان فى شقين وراء نظارتها، أصدرت من فمها أصوات قبلات .

«جرب واحدة، إنها حلوة للغاية» : قالت بالتاميلية : «رومبو ما دورام»[٢٠٠] .

«حلوة»: قالت ابنتها الكبرى، والتى كان عمرها يناهز عمر إستا، بالإنجليزية .

هز إستا رأسه مرة أخرى، جعدت السيدة شعره فأفسدت لفته، كانت أسرتها (زوجها وأطفال ثلاث) يأكلون بالفعل، كسرات «لادو» كبيرة مستديرة صفراء كانت فوق المقعد، وكانت قعقعة القطار تحت أقدامهم، لم يكن ضوء الليل الأزرق قد أُضىء بعد.

أشعله الابن الأصغر للسيدة الآكلة، وأطفأته السيدة الآكلة، شرحت للطفل أنه ضوء للنوم، وليس ضوء لليقظة .

كل أشياء الدرجة الأولى بالقطار خضراء : المقاعد خضراء، المضاجع خضراء، الأرضية خضراء، السلاسل خضراء، أخضر غامق، أخضر فاتح .

«من أجل إيقاف القطار شد السلسلة»، مكتوبة باللون الأخضر .

ن م ل ج ا ف ا ق ى ا ر ا ط ق ل ا د ش هــ ل س ل س ل ا[٢٠١]، فــكــر إسثا بالأخضر .

«احتفظ بتذكرتك بعناية» : قال فم آمو، وهـى تحاول ألا يبكى فمـهـا : «سـوف يأتون ويتأكدون من وجود التذكرة».

أومأ إستا لوجه آمو المائل إلى أعلى نـحو نافذة القطار، ولراهيل الصـغيرة الملطخة بقذارة المحطة، ثلاثتهم كانوا مقيدين بالمعرفة المحددة المستقلة : أنهم قد أحبوا رجلاً حتى الموت.

لم يكن ذلك موجوداً فى الصحف والجرائد.

اقتضى الأمـر سنوات ليدرك التوءمـان دور آمـو فيمـا حـدث، لقد رأيا، فى جنازة صـوفى مـول، وفى الأيام السـابقـة على إعادة إسـثـا، رأيا عينيـهـا المنتـفـختين ، وطبـقًا للتركيز الذاتى للأطفال على أنفسهم، اعتبرا نفسيهما ملومين على ما هـى فيه من حزن.

«كُلْ السندوتشات قبل أن تصبح ندية مشبعة بالماء»:قالت آمو: «ولا تنسَ الكتابة».

أمـعنت النظر فى أظفار أصابـع اليد الصـغيرة التى تمسك بهـا، وأزالت قذارة فى شكل منجل أسود، من تحت ظفر الإبهام.

«واعتن بمحبوبى من أجلى، حتى أجىء وآخذه».

«متى آمو؟ متى تجيئين من أجله؟»

«قريبًا».

«ولكن متى؟ متى تحديداً؟»

« قريبًا يا محبوبى ، بأسرع ما أستطيع » .

«شهر وراء آخر؟ آمو؟» : قالها متعمداً جعلها مدة من الزمن طويلة حتى تقول آمو، قبل ذلك: إستا، ماذا عن دراستك ؟

قالت آمو: «سأجيء بمجرد الحصول على عمل، بمجرد استطاعتى البعد عن هنا والحصول على عمل».

«غير أن ذلك لن يحدث مطلقًا !» موجة من الفزع، شعور بلا قرارعميق الغور.

السيدة التى تأكل كانت منهمكة فى التنصت تسترق السمع .

«انظروا كيف يتحدث الإنجليزية برشاقة !» : قالت لأطفالها بالتاميلية.

«غير أن ذلك لن يحدث مطلقًا »:قالت ابنتها الكبرى وهى متنمرة «م ط ل ق ا، مطلقًا» .

كان إستا يعنى بكلمة «مطلقًا»، أن مجيئها سوف يكون بعيداً للغاية، إنه لن يكون الآن، ولن يكون قريباً .

إنه بقوله «مطلقًا»، لم يكن يعنى «أبداً»، (not ever نوتفر)

ولكن تلك هى الطريقة التى خرجت بها الكلمات .

«غير أن ذلك لن يحدث مطلقًا» (never) (نفر)

إنهم حتى يحصلوا على كلمة (never) أخذوا الحرفين T,Oمن NOT EVER

هم؟

الحكومة

إلى حيث كان يرسل الناس إلى «السلوك الطيب المرح» .

وتلك هى الكيفية التى تحول بها كل شىء .

«نفر»، «نوتفر»

كان خطؤه أن الرجل البعيد فى صدر آمو قد كف عن الصراخ، إنها ماتت وحيدة فى مأوى دون أن يكون هنالك أحد يرقد عند ظهرها ويتحدث إليها ؛ لأنه كان من قال : «غير أن ذلك لن يحدث مطلقًا !»

«لا تكن أحمق يا إستا، سوف أجيء قريبًا»: قال فم آمو: «سوف أكون مدرسة، سوف أنشئ مدرسة، وسوف تكون أنت وراهيل فيها» .

«وسوف تكون في حدود قدراتنا، لأنها سوف تكون مدرستنا !» قال إستا ببراجماتيته الدائمة، عينه على الفرصة الأساسية، ركوب سيارة ركاب مجانية، جنازات مجانية، تعليم مجان»، الرجل الصغير، عاش في كاراڤان، دوم دوم .

«سوف يكون لنا منزلنا الخاص بنا»: قالت آمو .

«منزل صغير»: قالت راهيل .

«وسوف تكون لدينا فصول وسبورات في مدرستنا»: قال إستا .

«وطباشير» .

«ومدرسون حقيقيون يدرسون» .

«وعقوبات ملائمة» : قالت راهيل،

كانت هذه هي المادة التي صُنعت منها أحلامهم يوم إعادة إستا: الطباشير والسبورات، وعقوبات ملائمة .

إنهم لم يطلبوا بطيش أو نزق أن يخلي سبيلهم، لقد طلبوا فقط أن يعاقبوا العقوبة التي تتناسب وجرائمهم، لا العقوبات التي جاءت مثل دواليب يُنبت في داخلها حجرات نوم، لا دواليب تقضي فيها حياتك كلها، تهيم في تيه أرففها .

دون إنذار بدأ القطار يتحرك، بطيئًا للغاية .

تمددت حدقتا عيني إستا، وانغرست أظفاره في يد آمو وهي تسير على امتداد الرصيف، تتحول مشيتها إلى جري عندما يستجمع قطار بريد مدارس سرعته .

«فليبارك الرب طفلي، محبوبي، سوف آتي إليك قريبًا» .

«آمو!» : قال إستا وهو يفلت راحتها، يحرر أصبعًا صغيرًا وراء آخر: «آمو! أحس أنني أتقيأ !» ارتفع صوت إستا في نحيب وعويل .

ألفيس البلفيس الصغير بلفة شعره التالفة، الظاهرة بشكل خاص، وحذائه البيج المدبب، ترك صوته وراءه .

وفعلت راهيل المثل على رصيف المحطة، صرخت وصرخت،

غادر القطار، وأُطفئ الضوء .

* * *

مضى ثلاثة وعشرون عاماً وراهيل تستدير لإستا فى الظلام، امرأة سمراء ترتدى « تى شيرتاً » أصفر اللون .

«إستا بابيشاشن كوتابن بيتر مون»: تقول هى .

هامسة .

تحرك فمها .

فم أمها الجميل .

إستا، يجلس منتصباً للغاية، فى انتظار أن يقبض عليه، يمد أصابعه إلى الفم؛ ليلمس الكلمات التى يتفوه بها؛ ليُبقى على الهمس، أصابعه تتابع هيئته، ملمس الأسنان يُمسك بيده وتُقَبلَ .

تضغط على برودة وجنة بللها المطر .

ثم تجلس وتضع ذراعها حوله، تجذبه إلى أسفل إلى جوارها .

رقداً هكذاً زمناً طويلاً ، يقظان فى الظلام، هدوء وفراغ .

ليسا عجوزين، ليسا شابين .

لكنهما فى السن التى يمكن أن يموت فيها الإنسان .

كانا غريبين التقيا مصادفة عن غير قصد .

لقد عرفَ الواحد منهما الآخر قبل أن تبدأ «الحياة» .

هنالك القليل للغاية الذى يمكن لأى امرئ أن يقوله توضيحًا وإجلاءً لما حدث فيما بعد، لاشىء (فى كتاب ماماشى) يفصل «الجنس عن الحب»، أو «الحاجات عن المشاعر» .

ربما، ما عدا، أنه لم يكن هنالك مراقب ينظر عبر عينى راهيل، لا أحد حملق من نافذة تطل على البحر، أو قارب فى النهر، أو مار عابر يرتدى قبعة فى الضباب .

ربما، ما عدا، أن الهواء كان باردًا بعض الشىء ، مبتلاً بعض الشىء، غير أنه كان هادئًا للغاية .

لكن ماذا كان هناك ليقال؟

فقط إن دموعًا كانت هناك، فقط أم الهدوء والفراغ تلاءما معًا مثل ملعقتين ملتصقتين، فقط إنه كان هنالك تنفس بصوت مسموع فى التجاويف عند قاعدة حلقوم جميل، فقط إن كتفًا قويًا فى لون العسل عليه دائرة غير مكتملة من علامات الأسنان، فقط إنهما ضما الواحد منهما الآخر، بعد انتهاء الأمر بزمن طويل، إن ما تشاركاه فى تلك الليلة لم يكن السعادة، لكنه كان حزنًا بشعًا .

فقط إنهما، مرة أخرى، حطما «قوانين الحب»، التى تفرض ضرورة تحديد من الذى يجب أن يُحَب؟ وكيف؟ وإلى أى مدى ؟ .

قرع الطبال الوحيد الطبول، فوق سطح المصنع المهجور. أُقفل بعنف باب من لدائن منسوجة، اندفع فأر عبر أرضية المصنع، نسيج العنكبوت سد أوعية وأوانى المخلل الضخمة، كلها فارغة ماعدا واحدة، بها كومة صغيرة من طبقة تراب أبيض متحجر، تراب عظام بومة مخزن الحبوب، ماتت منذ زمن، بومة مخللة .

إجابة على سؤال صوفى مول: شاكو، أين تذهب الطيور العجوزة كى تموت؟ ولماذا لا تسقط الميتة منها من السماء مثل الحجارة؟ السؤال الذى سألته مساء اليوم الذى وصلت فيه، كانت تقف عند حافة بركة زينة بيبى كوشاما، تنظر إلى أعلى إلى الحدآت الدائرة فى السماء .

صوفى مول، مكروهة، مزودة بقبعة وسروال متوهج المقعدة ومحبوبة منذ البداية .

نادت عليها مرجريت كوشاما: « لأنها كانت تعرف أنه عند سفرك إلى «قلب الظلام» فإن أى شيء يمكن أن يحدث لأى أحد» نادت عليها لتتناول حبات الدواء المقررة لها، للفيلاريا[٢٠٢]، للملاريا، للإسهال لم يكن، لديها - للأسف - علاج وقائى ضد الموت غرقًا.

ثم جاء وقت وجبة المساء.

«العشاء يا أحمق»: قالت صوفي مول عندما أُرسل إستا لاستدعائها.

جلس الأطفال وقت «العشاء يا أحمق»، إلى منضدة منفصلة أصغر حجمًا، أخذت صوفى مول، وقد أعطت ظهرها لمن هم أكبر سنًا، أخذت تشكل وجهها بقسمات بشعة أثناء الطعام، بدا كل ملء فم أكلته، لابن وابنة عمتها الأصغر والمعجبين بها، بدا نصف ممضوغ، أشبه بالنشارة، راقدًا فوق لسانها مثل قيء طازج.

عندما فعلت راهيل مثلها، رأتها آمو فأخذتها إلى الفراش.

أدخلت آمو ابنتها الشقية وأطفأت النور، لم تترك قبلة مساء الخير التى قبلتها لراهيل لعابًا على وجنتها، وكان فى وسع راهيل القول بأنها لم تكن غاضبة حقًا.

«أنت لست غاضبة، آمو» : قالت فى همسة سعيدة، إن أمها تحبها أكثر قليلاً.

«كلا»، قبلتها آمو مرة أخرى، «مساء الخير محبوبتى، ليباركك الرب».

«مساء الخير، آمو، أرسلى إستا سريعًا».

وعندما سارت آمو مبتعدة سمعت ابنتها تهمس: «آمو!».

«ماذا تريدين؟»

«إننا من دم واحد، أنت وأنا».

استندت آمو إلى باب حجرة النوم فى الظلام، غير راغبة فى العودة إلى منضدة العشاء حيث كانت المناقشة تدور مثل فراشة حول الطفلة البيضاء وأمها، وكأنهما مصدر الضوء الوحيد، أحست آمو أنها سوف تموت، تذبل وتموت، إن هى سمعت كلمة أخرى، إن كان عليها أن تتحمل، لدقيقة أخرى، شاكو وغطرسته، وابتسامته وكأنه قد فاز بكأس لعبة التنس، أو التيار التحتى للغيرة الجنسية الذى انبثق من ماماشى،

أو حديث بيبى كوشاما الذى يخطط لاستبعاد آمو وطفليها، وتعريفهم بموضعهم فى نسق الأشياء .

أحست وهى تستند إلى الباب فى الظلام بحلمها، بكابوس ما بعد الظهيرة يتحرك داخلها مثل ضلع ماء يصعد من المحيط يتجمع فى موجه، الرجل المرح وحيد الذراع بجلده المملح وكتفه الذى ينتهى فجأة مثل جرف صخرى بزغ من ظلال الشاطئ المسننة وسار متجهًا نحوها .

من كان هو؟

من يمكن أن يكون؟

رب الضياع .

رب الأشياء الصغيرة .

رب القشعريرة والابتسامات المفاجئة .

والذى فى وسعه أن يفعل شيئًا واحدًا فى المرة الواحدة .

«إنه إن لمسها لايستطيع الكلام معها، وإن أحبها لا يستطيع المغادرة ، وإن تحدث لا يستطيع الاستماع، وإن حارب لا يستطيع الانتصار» .

وآمو تشتاق إليه، تتحرق إليه شوقًا بكل كيانها البيولوچى .

وعادت إلى مائدة العشاء،

الفصل الحادى والعشرون

تكاليف الحياة

عندما أغلق المنزل العتيق عينيه العمشاوين واستغرق فى النوم، سارت آمو، وقد ارتدت واحدا من قمصان شاكو القديمة فوق جونلة طويلة بيضاء، سارت إلى الخارج فوق الشرفة الأمامية، سارت الهوينا، جيئة وذهاباً مدة من الزمن، قلقة ضجرة، برية متوحشة، ثم جلست على الكرسى المصنوع من أغصان مجدولة أسفل رأس الثور الأمريكى العتيق والذى تشبه عيناه الأزرار، وصورتا «المبارك الصغير» و«الأليوتى أماشى» المعلقتان على جانبيها، كان التوأمان ينامان بالطريقة نفسها التى ينامان بها عندما يكونان مرهقان : بعيونهما نصف مفتوحة ، مسخان صغيران ، لقد ورثا ذلك عن أبيهما .

أدارت آمو الترانسيستور الذى يشبه يوسفيه بلونه البرتقالى المائل للصفرة، طقطق صوت رجل عبره، أغنية إنجليزية لم تسمعها من قبل .

جلست هنالك فى الظلام، امرأة وحيدة رقيقة تنظر إلى حديقة عمتها، حديقة الزينة، التى تثير الغيظ، تستمع إلى يوسفية، إلى صوت من بُعْد ناء، ينطلق عبر الليل، يبحر فوق البرك والأنهار، فوق رؤوس الأشجار الكثيفة، عبر الكنيسة الصفراء، عبر المدرسة، يضرب الطريق القذر، يصعد درجات فى الشرفة إليها .

لاحظت – وهى بالكاد تسمع الموسيقى – الحشرات المجنونة ترفرف فى سرعة حول الضوء تتنافس فى قتل نفسها .

انفجرت كلمات الأغنية فى رأسها .

ليس هنالك وقت للضياع

لقد سَمِعْتها تقول :

ادفع ثمن أحلامك مقدماً

إنها تنساب بعيداً

تموت طوال الوقت

ضيِّع أحلامك

فتضيِّع عقلك

شدت آمو ركبتيها إلى أعلى واحتضنتهما، لم تستطع تصديق ما تسمع، التطابق الرخيص لتلك الكلمات، حملقت بحدة خارجًا في الحديقة، طارت "أوسا : بومة مخزن الغلال" عبرها في دورية ليلية صامتة ، الأنثوريومات[٢٠٣] السمينة توهجت مثل معدن البنادق ،

ظلت جالسة مدة من الوقت، طويلة بعد انتهاء الأغنية، ثم نهضت فجأة من مقعدها وسارت إلى خارج عالمها مثل ساحرة، إلى مكان أفضل وأكثر سعادة،

تحركت في سرعة عبر الظلام، مثل حشرة تقتفي أثر رائحة كيميائية، كانت تعرف الطريق إلى النهر كما عرفه طفلاها، وفي وسعها أن تجد طريقها هنالك معصوبة العينين، لم تعرف ما الذي جعلها تسرع عبر الشجيرات مما حول سيرها إلى عَدْوٍ، حتى وصلت إلى نهر الميناشال لاهثة، منتحبة، كأنها قد تأخرت عن شيء ما، كأنما توقفت حياتها على الوصول إلى هنالك في وقت محدد، وكأنها تعرف أنه سوف يكون هنالك، ينتظر، وكأنه يعرف أنها قادمة .

كان يعرف .

حقًا .

هذه المعرفة انسابت داخله بعد الظهر ذاك صافية، مثل طرف سكين حاد، عندما انزلق التاريخ إلى أعلى، عندما أمسك بابنتها الصغيرة، بين ذراعيه، عندما أخبرته

عيناها أنه ليس وحده مانح الهبات والعطايا، هى أيضاً لديها هبات وعطايا تعطيها له، فى مقابل قواربه، طواحين الهواء الصغيرة التى يصنعها، وهى فى وسعها استغلال غمازيتها عندما تبتسم، جلدها الناعم البنى، كتفيها المتوهجتين، عينيها اللتين كانتا دوما فى مكان آخر .

لم يكن هو هنالك .

جلست آمو على الدرجات الحجرية التى تؤدى إلى الماء، دفنت رأسها فى ذراعيها، تحس بحمقها لأنها كانت متيقنة إلى هذا الحد، متأكدة إلى هذا الحد .

كان ڤيلوتا طافيًا على ظهره فى اتجاه التيار وسط النهر، ينظر إلى أعلى إلى النجوم، لقد تناول أخوه المشلول ووالده ذو العين الواحدة العشاء الذى أعده لهما وناما، ومن ثم كان حراً فى الرقاد فى النهر ينجرف بطيئًا مع الموجة مع كتلة خشب مع تمساح هادئ رصين، أشجار جوز الهند مالت فى النهر تراقبه وهو يعبرها طافيًا، أشجار البامبو الصفراء بكت، الأسماك الصغيرة تداعبه بدلال فى حرية، تنقره .

شد نفسه وبدأ السباحة ، أعلى المجرى ، ضد التيار ، اتجه نحو الشاطئ من أجل نظرة واحدة أخيرة ، يدوس الماء ، يحس بالحمق ؛ لتيقنه إلى هذا الحد ؛ لتأكده إلى هذا الحد .

عندما رآها كادت الفرقعات تغرقه، احتاج إلى كل جهده حتى يظل طافيا، داس الماء واقفاً وسط النهر المظلم .

لم ترَ كدمة رأسه تظهر فوق النهر المظلم، كان يمكن أن تكون أى شىء جوزة هند طافية، لم تكن على أى حال تنظر، كانت رأسها مدفونة فى ذراعيها .

راقبها، فى تأنٍ .

هل لو كان عرف أنه يوشك دخول نفق مخرجه الوحيد هو فناؤه ، لاستدار وانصرف بعيداً ؟

ربما .

ربما لا .

من ذا الذى يستطيع قول ذلك؟

بدأ السباحة نحوها، فى هدوء، يقطع طريقه عبر الماء دون ضجة، كان يوشك على بلوغ الشاطئ عندما نظرت إلى أعلى ورأته، لمست قدماه قاع النهر الطينى، بينما ينهض من ظلام النهر ويصعد الدرجات الحجرية، رأت أن العالم الذى يقفان فيه هو عالمه، إنه ينتمى إلى هذا العالم، وهذا العالم ينتمى إليه، المياه، الطين، الأشجار، الأسماك، النجوم، إنه يتحرك فى يسر عبرها، أدركت وهى تراقبه قدر جماله، كيف قام عمله بتشكيله ! كيف أن الخشب الذى قام بتسويته قد سواه هو أيضاً ! كل لوح خشب مسحه وكل مسمار دقه، كل شيء فعله، قد صاغه وشكله، قد ترك بصمته عليه، قد منحه قوته، ورشاقته اللدنة .

كان يرتدى قطعة ملابس بيضاء رقيقة حول حقويه، ملوية فى عروة ما بين رجليه السمراوين، نفض الماء من شعره، كان فى وسعها أن ترى ابتسامته فى الظلام، ابتسامته البيضاء المباغتة والتى حملها معه منذ طفولته إلى رجولته : متاعه الوحيد .

نظرا إلى بعضهما ، لم يعودا يفكران، زمن ذاك قد جاء ورحل، ابتسامات مهشمة ترقد أمامها، لكن ماذا سيكون بعد ؟

فيما بعد .

وقف أمامها والنهر يسيل منه نقطاً وقطرات، ظلت تراقبه جالسة على الدرجات، وجهها شاحب فى ضوء القمر، زحفت قشعريرة مفاجئة عليه، قلبه دق كالمطرقة، كان الأمر كله خطأً رهيبًا، لقد أخطأ فهمها، الأمر كله كان من اختلاق خياله، كان هذا فخًا، كان هنالك فى الأدغال، من يراقبون، وكانت هى الطعم اللذيذ، كيف كان يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك؟ لقد رأوه فى المسيرة، حاول جعل صوته بلا اكتراث، خرج كنعيب الغراب .

«أمو كوتى... ما الأمر؟»

ذهبت إليه، وضعت طول جسدها على جسده، فقط وقف هنالك لم يلمسها، كان ينتفض، من البرد – إلى حد ما – من الرعب – إلى حد ما – من الرغبة – إلى حد ما –

ورغم الخوف فإن جسده كان على استعداد لتناول الطعم، كان يرغبها، بَلَّلَها بَلَّله، وضعت ذراعيها حوله .

حاول أن يكون عقلانيًا، ما أسوأ شيء يمكن حدوثه؟ يمكن أن أفقد كل شيء : وظيفتي، عائلتي، معاشي، كل شيء .

كان في وسعها سماع دقات قلبه الوحشية .

أمسكت به حتى هدأت، نوعًا ما .

فكت أزرار قميصها، ووقفا هنالك الجلد على الجلد، لونها البني على لونه الأسود، ليونتها على صلابته، ثدييها البنيين بلون الجوز(واللذين لا يمكن أن يحملا فرشة أسنان) على صدره الناعم الأبنوسي، شمت رائحة البحر عليه، رائحة البارافان الخاصة والتي كثيراً ما أثارت تقزز بيبى كوشاما، أخرجت آمو لسانها وتذوقتها، في تجويف نحره، على حلمة أذنه، جذبت رأسه إلى أسفل نحوها وقبلت فمه، قبلة كالغمام، قبلة تطلب قبلة مقابلة، قبلها ردا على قبلتها، بحذر في البداية، ثم في عجلة، ارتفع ذراعاه وراءها، مسد ظهرها برقة شديدة، كان في وسعها أن تحس بالجلد على راحتيه الخشنتين، الغليظتين، الأشبه بورق السنفرة، كان حريصًا على ألا يؤذيها . كان في وسعها أن تشعر بمدى إحساسه بنعومتها، كان في وسعها أن تحس بنفسها من خلاله، كان كل ما تبقى منها دخان، أحست به يرتعد قبالتها، كانت راحتاه فوق ردفيها (اللذين كانِ فى إمكانهما أن يحملا صفًا من فرش الأسنان)، شد ردفيها إليه، حتى تدرك كم يرغبها .

البيولوچيا صممت الرقصة، الرعب وقّتها، أعلى الإيقاع الذى يستجيب به جسداهما الواحد منهما للآخر، وكأنهما قد عرفا بالفعل أن كل رعشة هى متعة عليهما أن يدفعا معها قدراً مساويا من الألم، وكأنهما قد عرفا أن المدى الذى سيذهبان إليه سوف يكون هو المدى المضاد الذى سيساقان إليه، ومن ثم أحجما، عذب الواحد منهما الآخر، انفصل الواحد منهما عن الآخر فى بطء، غير أن ذلك جعل الأمر فقط أشد سوءا، فقط أثار الرغبة فى المجازفة، فقط زاد ما عليهما من تكلفة؛ لأن ذلك مسد الغضون، والتردد واندفاع الحب غير المألوف، وحملهما إلى ذروة محمومة .

خلفهما، كان النهر ينبض فى الظلام، يتلألأ مثل حرير برى، وقد بكى البامبو الأصفر .

اتكأ الليل بمرفقيه على الماء يرقبهما .

رقدا تحت شجرة المنجستين، حيث اقْتُلِعت، منذ قريب فقط، جمهورية متحركة، نبتة قارب رمادية عتيقة بها زهور قارب وثمار قارب، دبور، وعلم، لفة شعر مندهشة، ونافورة فى « الحب فى طوكيو » .

عالم القارب المنطلق فى سرعة، فى عجلة، قد مضى بالفعل .

النمل الأبيض فى طريقه إلى العمل .

إناث الطير البيضاء فى طريقها إلى أوكارها .

الخفافيش البيضاء تحفر جحوراً بعيداً عن الضوء .

الجنادب البيضاء مع كمانات من خشب أبيض .

الموسيقى البيضاء الحزينة .

كل ذلك ذهب ومضى .

تاركًا رقعة عارية من أرض جافة على شكل قارب، رقعة خلصت وغدت معدة للحب، كأن إستا وراهيل أعدا الأرض لهما، راغبين فى حدوث هذا الذى يحدث، القابلتان التوأم فى حلم آمو .

آمو عارية الآن، جثمت فوق ڤيلوتا، فمها أعلى فمه، جذب شعرها حولهما مثل خيمة، مثل طفليها عندما كانا يرغبان فى حجب العالم الخارجى، انزلقت أكثر إلى أسفل، مقدمة ذاتها إلى باقيه : رقبته، حلمتاه، كرشه الذى فى لون الشكولاتة، رشفت آخر ما تبقى من النهر من تجويفه السُرى، ضغطت حرارة تصلبه على جفنيها، تذوقته، مالحًا، فى فمها، جلس وشدها إليه، أحست ببطنه مشدودة تحتها، صلبة مثل لوح من خشب، أحست ببللها ينزلق على جلده، أخذ حلمتها فى فمه، وهدهد ثديها الآخر براحته الخشنة، قطيفة فى قفاز من ورق السنفرة .

فى اللحظة التى قادته فيها إلى داخلها، أمسكت بلمحة عابرة من شبابه، من حداثته، الدهشة فى عينيه للسر الذى اكتشفه، وابتسمت له كأنه طفلها .

ما إن غدا داخلها، حتى خرج الخوف من المسار، وأمسكت البيولوچيا بناصية الأمر، وصعدت تكلفة الحياة إلى مستويات لا تطاق، رغم أن بيبى كوشاما كان يمكن أن تقول فيما بعد، إن الثمن الذى يجب دفعه كان ثمنًا بسيطًا .

هل كان كذلك؟

حياتان، وطفولة طفلين .

ودرس تاريخى لمنتهكى المستقبل .

عينان غائمتان أمسكتا بعينين غائمتين فى نظرة ثابتة، وفتحت امرأة متوهجة نفسها لرجل متوهج، كانت رحيبة وعميقة مثل نهر دافق، وأبحر هو فوق مياهها، كان فى وسعها أن تحس به يتحرك فيها أعمق وأعمق، متحمسًا، هائجًا، مسعورًا، طالبًا الغوص أكثر، وأكثر، أوقف فقط بسبب قالبها، قالبه، وعندما رُفض، وقد بلغ أعمق أعماقها، غرق وهو يزفر تنهيدة متقطعة مرتعشة .

رقدت فى مواجهته، جسداهما زلقان بالعرق، أحست أن جسده يسقط بعيداً عنها، وغدا تنفسه أكثر انتظامًا، رأت عينيه بوضوح، مسد شعرها، وهو يحس أن العقدة التى تراخت وسكنت فى داخله ما زالت مشدودة ترتجف فى داخلها، أدارها برقة على ظهرها، مسح العرق والحبيبات الرملية الخشنة من عليها بملابسه المبللة، رقد فوقها، حريصًا على ألا يضع ثقله عليها، أحجار صغيرة انضغطت فى جلد ساعديه، قَبَّل عينيها، أذنيها، نهديها، بطنها، العلامات الفضية السبع من توءميها، الخط المنحور الذى يقود من سرتها إلى مثلثها الداكن، والذى يدله على المكان الذى تريد هى منه الذهاب إليه، داخل ساقيها، حتى جلدها أنعم ما يكون، ثم راحتى نجار ترفع ردفيها ولسان منبوذ يلمس أكثر أجزائها عمقًا، ينهل طويلاً وعميقًا من طاستها،

رقصت له، على تلك القطعة من الأرض الأشبه بقارب، عاشت حياتها .

أمسكها فى مواجهته، مسنداً ظهره إلى شجرة المنجستين، بينما صرخت وضحكت فى الحال، ثم نامت فى مواجهته، ظهرها فى مواجهة صدره، نامت نومًا أشبه بالأبدية، نومًا لم يكن فى الواقع أكثر من خمس دقائق، سبع سنوات من النسيان رُفعت عنها ورفرفت فى الظلال على أجنحة ثقيلة مرتجفة، مثل أنثى طاووس فولاذية بطيئة، وعلى طريق آمو (فيما يتعلق بالعمر والموت) ظهر مرج مشمس صغير، عشب نحاسى ترصعه فراشات زرقاء، ومن ورائه الهاوية .

فى بطء تسرب الرعب عائداً إليه ، لما فعله ، ولما أدرك أنه فاعله مرة أخرى ، ومرة أخرى .

استيقظت على صوت قلبه يدق صدره، كأنما يبحث عن مخرج، لهذا الضلع المتحرك، لوح خفى ينزلق – مطويًا، كان ذراعاه ما يزالان حولها، وكان فى وسعها أن تحس عضلاته تتحرك بينما راحتاه تلعبان بسعفة نخيل جافة، ابتسمت آمو لنفسها فى الظلام، وهى تفكر كم تحب ذراعيه – شكلهما وقوتهما، كم تحس بالأمان وهى هاجعة فيهما بينما هى حقًا فى أكثر الأماكن خطورة عليها .

طوى خوفه فى وردة متقنة، قدمها فى راحة يده، أخذتها منه ووضعتها فى شعرها،

اقتربت أكثر، تود لو تكون داخله، تلمس المزيد منه، جمعها فى تجويف جسده، نسمة صعدت من النهر ورطبت جسديهما الدافئين .

كان الهواء بارداً بعض الشىء ، مبللاً بعض الشىء، ساكنًا بعض الشىء .

ولكن ماذا كان هنالك ليقال؟

بعد ساعة فصلت نفسها عنه فى رقة .

«يجب أن أذهب» .

لم يقل شيئًا، لم يتحرك، راقب رداءها .

شىء واحد كان يهم الآن، لقد أدركا أن ذلك هو كل ما يمكن أن يطلبه الواحد منهما من الآخر، الشىء الوحيد، دومًا، لقد أدرك كلاهما ذلك .

وحتى فيما بعد، خلال الثلاث عشرة ليلة التالية لهذه الليلة، التصق كلاهما غريزيًا بالأشياء الصغيرة ، الأشياء الكبيرة كانت دومًا كامنة فى الداخل ، كانا لا يعرفان أنه لا مكان آخر أمامهما يذهبان إليه ، لم يكن لديهما أى شيء ، أى مستقبل ٣٧٦، فتعلقا بالأشياء الصغيرة .

ضحكا على عضات النمل فى مقعدة كل منهما، على اليرقات الخرقاء وهى تنزلق عند نهايات أوراق الشجر، على الخنافس التى تنقلب ولا تستطيع أن تعيد نفسها إلى الوضع الصحيح، على زوج السمك الصغير الذى يبحث دومًا عن ڤيلوتا فى النهر ويعضه، على فرس النبى المصلى الورع بصورة خاصة، على العنكبوت الصغير للغاية والذى يعيش فى شق جدار الشرفة السوداء لمنزل التاريخ، والذى يظهر نفسه بمظهر كاذب خداع بتغطية جسده بقطع صغيرة من القمامة، بشظية من جناح دبور، بجزء من بيت العنكبوت، بالتراب، بورقة شجر متعفنة، بزور فارغ لنحلة ميتة، والذى أسماه ڤيلوتا "شابوثا مبوران"، اللورد القمامة، وقد أضافا ذات ليلة إلى ملابسه – رقاقة من قشر الثوم – وغضبا بعمق عندما رفضها مع باقى خزانة ملابسه التى خرج منها – ساخطا مستاءً، عريانًا ، فى لون مخاط الأنف، كأنما يستهجن ذوقهما فى الملابس، وظل أيام قليلة فى هذه الحالة الانتحارية من العرى الذى اتسم بالإباء والشمم .

وظلت قوقعة القمامة المرفوضة واقفة، مثل وجهة نظر دولية مهجورة، فلسفة عتيقة، ثم انهارت وقد تفتت، وحصل شابو ثامبوران على ثوب جديد مؤلف من أجزاء عدة .

ربطا مصيريهما، مستقبلهما :(حبهما، جنونهما، أملهما، ومرحهما اللانهائى) بمصيره ومستقبله، دون أن يعترف الواحد منهما بذلك للآخر أو لنفسه، كانا يتابعان حالته كل ليلة (بذعر متنام مع مرور الوقت) لرؤية إن كان ما يزال اليوم حيًا، كانا يضطربان خشية ضعفه، خشية صغره، لياقة تَنَكُّرِه، تباهيه بذاته الذى يبدو مدمرًا، كان يزداد حبًا لذوقه الانتقائى، لعزة نفسه المسترخية .

لقد اختاراه لإدراكهما أنه يجب عليهما أن يضعا ثقتهما بالهشاشة، أن يلتصقا بالضآلة، كانا فى كل مرة يفترقان فيها يستخرج الواحد منهما من الآخر وعدًا صغيرًا فقط .

«غداً؟»

«غداً» .

كانا يدركان أن الأمور يمكن أن تتغير فى يوم، وكانا محقين فى ذلك .

غير أنهما كانا مخطئين فيما يتعلق بشابوثامبوران، فقد ظل حياً بعد ڤيلوتا، غدا أباً لأجيال المستقبل .

ومات لأسباب طبيعية .

فى تلك الليلة الأولى، يوم أن جاءت صوفى مول، راقب ڤيلوتا رداء محبوبته، كانت عندما تغدو مستعدة تقرفص فى مواجهته، تلمسه لمساً خفيفاً بأصابعها وتترك أثر رعشة فوق جلده، مثل الطباشير على السبورة، مثل نسمة فى حقل أرز، مثل خطوط نفاثة فى سماء كنيسة زرقاء، كان يأخذ وجهها فى يده يشده نحو وجهه كان يغلق عينيه ويشم جلدها، فتضحك آمو .

وتفكر، نعم، يا مرجريت، إننا أيضاً نفعل ذلك، ببعضنا .

قبلت عينيه المغلقتين ووقفت ، وراقبها ڤيلوتا وهى تسير بعيداً وقد أسند ظهره إلى شجرة المنجستين .

كانت هنالك وردة جافة فى شعرها .

واستدارت لتقولها مرة أخرى: «نالى» .

غداً .

الهوامش

(١) نبات تصنع المهلبيات من جذوره (المترجم).
(٢) إدارة الأشغال العامة (المترجم).
(٣) US ضمير المتكلمين فى حالة النصب أو الجر (المترجم).
(٤) عاهرات (المترجم).
(٥) عاهرة (المترجم).
(٦) شجرة وثمرة كالبرتقال (المترجم).
(٧) استسقاء الجلد (المترجم).
(٨) للتعبير عن الاعتذار والمفاجأة والخوف (المترجم).
(٩) نبات استوائى له ساق بسيطة وأوراق عريضة وأزهار عنقودية (المترجم).
(١٠) زهرة الحائط : نبات أزهاره حمراء قرمزية، بيضاء ذات ألوان (المترجم).
(١١) طفل صغير جميل له جناحان (المترجم).
(١٢) نباتات قزمية تزرع فى أصص (المترجم).
(١٣) نبات خُصى الذئب أو الثعلب (المترجم).
(١٤) نبات يعيش أكثر من سنتين صغير ومركب، له وبرية بيضاء كثيفة صوفية ينمو فى مرتفعات جبال الألب (المترجم).
(١٥) أفضل مخبز (المترجم).
(١٦) فندق ملكة البحر (المترجم).
(١٧) لغة ولاية كيرالا الدرافيدانية، جنوب غرب الهند، وهى لغة وثيقة الارتباط بالتاميل (المترجم).
(١٨) تنس الريشة (المترجم).
(١٩) الابن (المترجم).
(٢٠) الأخ الأكبر (المترجم).
(٢١) أخو الزوجة (المترجم).
(٢٢) الخال (المترجم).
(٢٣) الخالة (المترجم).
(٢٤) واحدة من المنح الدراسية العديدة التى تُمنح طبقًا لوصية سيسيل ج. رودس التى يمكن استخدامها فى جامعة أوكسفورد مدة عامين أو ثلاثة ، وهى مفتوحة أمام طلاب مرشحين من الكومنولث البريطانى والولايات المتحدة (المترجم)...
(٢٥) جباة الرسوم المفروضة على الأرض خلال الحكم الإسلامى فى الهند، أو مالك إقطاعى فى الهند البريطانية أو فى أوائل عهد الهند بالاستقلال، يدفع للحكومة ضريبة محددة (المترجم).

(٢٦) Chhi Chhi Poach
(٢٧) المحب لإنجلترا ولكل ما هو إنجليزى حبًا شديدًا ، إنجليزى المشرب (المترجم).
(٢٨) زى (المترجم).
(٢٩) السادة (المترجم).
(٣٠) قراءة «قف» بالمقلوب (المترجم).
(٣١) كن هنديًا ، واشتر ما هو هندى، بالمقلوب (المترجم).
(٣٢) قرأها التوأمان مقلوبة، وهى تقرأ معدولة كالتالى: "مغامرات السنجاب سوزى ، ذات صباح ربيعى استيقظ السنجاب سوزى" (المترجم).
(٣٣) الإنشاد التعبدى (المترجم).
(٣٤) طعمية مصنوعة من العدس (المترجم).
(٣٥) نوع من الحلوى الهشة المرشوشة بالسكر(المترجم).
(٣٦) تجويف الحوض فى جسم الإنسان (المترجم).
(٣٧) سيجار مربع القطع من طرفيه (المترجم).
(٣٨) استمع (المترجم).
(٣٩) كثيرًا (المترجم).
(٤٠) هنا (المترجم).
(٤١) نبات المانيوق (المترجم).
(٤٢) شجرة تنمو فى أمريكا الاستوائية ذات بنور على شكل الكلوة – كاد هندى (المترجم).
(٤٣) مقعد طويل يضطجع عليه (المترجم).
(٤٤) ديسقوريا، نبات متسلق من نوع البطاطا الحلوة (المترجم).
(٤٥) إنشاد دينى جماعى (المترجم).
(٤٦) نسبة إلى بيهار (المترجم) .
(٤٧) الموالى (المترجم) .
(٤٨) اخرج يا قذر (المترجم) .
(٤٩) الكوالا : حيوان أسترالى من ذوات الجراب (المترجم) .
(٥٠) أفلام أبهيلاش الناطقة (المترجم).
(٥١) كوتى البطىء (المترجم).
(٥٢) فرغيز السريع (المترجم).
(٥٣) Bow .
(٥٤) Bow بالإنجليزية (المترجم).
(٥٥) Captain Von Clapp Trapp .
(٥٦) أوه : أوه، هذا الصبى (المترجم).
(٥٧) Sleeping Partner .
(٥٨) الرجل، الذكر، وهنا تعنى الصبى (المترجم).
(٥٩) سيدة، أنثى، وهنا تعنى صبية (المترجم).
(٦٠) لا تقولى هذا (المترجم).
(٦١) Bell bor .

(٦٢) اللحم المتدلى تحت الفك السفلى (المترجم).
(٦٣) خبز بلدى محلى على شكل مثلثات (المترجم).
(٦٤) سيجارة هندية (المترجم).
(٦٥) بهار هندى (المترجم).
(٦٦) ضمير المتكلمين (المترجم).
(٦٧) بناء له رفارف للزينة (المترجم).
(٦٨) مسكن للأجانب فى الهند، بيت أرضى خلوى (المترجم).
(٦٩) طراز إغريقى فى البناء (المترجم).
(٧٠) الميراث (المترجم).
(٧١) العشراوية ما بين الثالثة عشرة والتاسعة عشرة من عمرها(المترجم).
(٧٢) تعبير عن الدهشة (المترجم).
(٧٣) ألا تتذكرين (المترجم).
(٧٤) أوكى (المترجم).
(٧٥) نعم، نعم، نعم (المترجم).
(٧٦) Die - Vorced .
(٧٧) للتعبير عن الأسف (المترجم).
(٧٨) أنت تتذكرين؟ (المترجم).
(٧٩) قماش خشن للتبطين (المترجم).
(٨٠) كلمة تاميلية تعنى نبات فلفل متسلق، تمضغ أوراقه (المترجم).
(٨١) فاكهة استوائية (المترجم).
(٨٢) الأمهات (المترجم).
(٨٣) الآباء (المترجم).
(٨٤) الكيس الذى تضع فيه أنثى القنغر صغارها (المترجم)
(٨٥) شجرة تنمو فى أمريكا الاستوائية ، ولها حب على شكل الكلوة (المترجم).
(٨٦) التحية الهندية بضم اليدين إلى الصدر أو الوجه (المترجم).
(٨٧) «مرحباً بكم فى ساحل تايل الهند» مقلوبة الحروف (المترجم).
(٨٨) تابيوكا مغلية بالسمك (المترجم).
(٨٩) الزنجبيل (المترجم).
(٩٠) انحنِ Bow (المترجم)
(٩١) نصف «هالو» (المترجم).
(٩٢) يا إلهى ! كل تلك الأشياء (المترجم).
(٩٣) شجرة استوائية تنتج عن ثمرة تؤكل كالخبز (المترجم).
(٩٤) صوفى إحدى أفراد الأسرة (المترجم).
(٩٥) حلوى (المترجم).
(٩٦) عملة هندية قيمتها قرش صاغ واحد (المترجم).
(٩٧) Thang God.
(٩٨) Thank God.

(٩٩) كتبت فى الأصل كما تنطق هنا Prer Nunsea ayshun (Pronnunciation) .
(١٠٠) حشرات منزلية غير مجنحة، تشكل أحياناً خطراً على الأوراق والملابس (المترجم).
(١٠١) سراويلها، وهى مكتوبة فى الأصل gnichers بدلاً من knichers (المترجم) .
(١٠٢) نزل رخيص للغاية (المترجم).
(١٠٣) غطاءة أمريكية طويلة (المترجم).
(١٠٤) شجرة الساج وتصنع السفن من خشبها (المترجم) .
(١٠٥) تقصد النساء اللازمات لحاجيات الرجل (المترجم).
(١٠٦) الغسال (المترجم).
(١٠٧) نوع من النمل (المترجم).
(١٠٨) القميص (المترجم).
(١٠٩) السيد المبجل (المترجم).
(١١٠) شجرة ضخمة ظليلة تستخدم أوراقها طبياً (المترجم).
(١١١) لـ الحرف الأول من لا (المترجم).
(١١٢) الغمامات التى توضع على أعين الخيل (المترجم).
(١١٣) كلمة تصاحب الدغدغة (المترجم).
(١١٤) تعبير يقال توجساً من المصاعب والمتاعب (المترجم).
(١١٥) فى وسعى أن أرى (المترجم).
(١١٦) فتاة جميلة (المترجم).
(١١٧) اسم شخصية فى قصة عن الجن (المترجم).
(١١٨) *WITH WHO ?*
(١١٩) *WITH WHOM?*
(١٢٠) رأس السنة الكيرالية (المترجم).
(١٢١) فتاة غيورة (المترجم).
(١٢٢) خفاش ضخم آكل للفاكهة (المترجم).
(١٢٣) غشاء رقيق تحت الجفن السفلى فى عين الحيوان (المترجم).
(١٢٤) أعد الطرف الأمامى المزخرف للسارى حتى يراه الآخرون (المترجم).
(١٢٥) بقعة حمراء توضع على الجبهة دليلاً على أن صاحبتها متزوجة (المترجم).
(١٢٦) حيوان ثديى من أمريكا الشمالية (المترجم).
(١٢٧) AC alternate current موجة متعاقبة.
DC direct current موجة مباشرة.
(١٢٨) ثعبان كبير للغاية يبتلع ضحيته بعد هرسها (المترجم).
(١٢٩) صوت صليل أجراس الرقص الصغير (المترجم) .
(١٣٠) كزبرة الثعلب: عشبة ذات أزهار أرجوانية أو قرمزية أو بيضاء (المترجم).
(١٣١) مادة نشوية (المترجم).
(١٣٢) صمغ راتنجى يستخرج من جذور بعض النباتات (المترجم).
(١٣٣) قماش خشن (المترجم).
(١٣٤) صوت خوار البقرة (المترجم).

(١٣٥) قارب (المترجم).
(١٣٦) من فصيلة الخنافس الصغيرة مرقطة الجناحين (المترجم).
(١٣٧) أسماء أنواع من السمك (المترجم).
(١٣٨) منتج رسوبي من الصخر به نسبة عالية من أكاسيد الحديد وهيدروكسيد الألومنيوم (المترجم).
(١٣٩) فاكهة حمضية صغيرة (المترجم).
(١٤٠) تعبير عن المفاجأة والدهشة (المترجم).
(١٤١) السيد ! السيدة ! (المترجم) .
(١٤٢) زلعة (المترجم).
(١٤٣) هل جاءت فتاة السيد المحترم شاكو؟ (المترجم).
(١٤٤) أكلة تشبه الكنافة (المترجم) .
(١٤٥) شوربة أرز وسمك صغير (المترجم).
(١٤٦) شوربة خضار (المترجم).
(١٤٧) سعيد بلقاء السيد والسيدة "Mr and Mrs Please to meet you (المترجم).
(١٤٨) باحة جانبية (المترجم).
(١٤٩) جمع سارى (الرداء الهندى) (المترجم).
(١٥٠) زبدة مصفاة شبه سائلة تصنع بالتحديد فى الهند (المترجم).
(١٥١) حدأت ورقية تطير كجزء من شعائر الحريق (المترجم).
(١٥٢) حجر كريم أرجوانى أو بنفسجى (المترجم).
(١٥٣) صليل أجراس الرقص الصغيرة (المترجم).
(١٥٤) رقصة خاصة بكيرالا يقوم بها الرجال فقط فى المعبد وغيره (المترجم).
(١٥٥) الشيطان (المترجم).
(١٥٦) بطل اتخذ إلهًا من الهندوسية المتأخرة، وقد عُبد باعتباره تجسيدًا لفيشنو (الإله الحافظ للثلاثة الهندوس المقدسين) (المترجم).
(١٥٧) ربة : رجل يمثل دور النساء (المترجم).
(١٥٨) عجة البيض (المترجم).
(١٥٩) ضمير المتكلمين فى حالة النصب والجر (المترجم).
(١٦٠) شجر أمريكى استوائى ذو خشب خفيف قوى يستعمل فى صنع الأطراف والطائرات (المترجم).
(١٦١) سروال يمسك بالساق من أسفل (المترجم).
(١٦٢) قميص طويل دون ياقة ويقفل حتى أعلاه (المترجم).
(١٦٣) حذاء واطئ يُربط فوق مشط القدم (المترجم).
(١٦٤) صاحب أو مالك (المترجم).
(١٦٥) حمال أو فاعل هندى أو صينى (المترجم).
(١٦٦) حيوان أسترالى جرابى، يحمل صغاره فى جراب عند بطنه ويعيش على الأشجار (المترجم).
(١٦٧) شهادة نهاية الدراسة الثانوية Senior School Learning Certificate (المترجم) .
(١٦٨) اسم محل الكهربائى صاحب مكبر الصوت (المترجم) .
(١٦٩) «كلا» No (المترجم) .

(١٧٠) «باب» Door (المترجم) .
(١٧١) طائر طويل الساقين والعنق والمنقار (المترجم) .
(١٧٢) ما سبب مجيئك؟ (المترجم) .
(١٧٣) أليس كذلك؟ (المترجم) .
(١٧٤) جماعة من اليهود اشتهرت في زمن السيد المسيح بالرياء (المترجم) .
(١٧٥) لماذا؟ (المترجم) .
(١٧٦) لوح خشب يستند إلى وسطه إذا ارتفع أحد طرفيه انخفض الآخر، يستخدم كأرجوحة (المترجم).
(١٧٧) أيس كريم يحتوى عادة على شرائح فاكهة مسكرة (المترجم).
(١٧٨) علامة وقف قصيرة في الكتابة (،) (المترجم).
(١٧٩) قرصة تشبه القطايف أو لقمة القاضى أو نوع من الكعك بالقشدة (المترجم).
(١٨٠) عضو فى طائفة هندوسية كبرى تكرس نفسها لعبادة فيشنو الذى هو ثانى أقانيم الثالوث الهندوسى (المترجم).
(١٨١) عيد هندوسى (المترجم).
(١٨٢) الجزء الأصفر من البيضة (المترجم).
(١٨٣) على نفس درجة القداسة (المترجم)
(١٨٤) المعلمون الدينيون الهندوس (المترجم).
(١٨٥) ملكة هندوسية، زوجة الراجا (المترجم).
(١٨٦) «الشيطان فى عينيهما»، مقلوبة (المترجم).
(١٨٧) ديوان القطار (المترجم).
(١٨٨) طائر مائى (المترجم).
(١٨٩) نبات سريع النمو كبير الأوراق يعطى ظلالاً (المترجم).
(١٩٠) هل يكفى هذا؟ (المترجم).
(١٩١) إنه كافٍ (المترجم).
(١٩٢) موجة بديلة – موجات مباشرة (المترجم).
(١٩٣) الأدب، الطاعة، الإخلاص، الذكاء، اللطف، الفاعلية – قرأها مقلوبة (المترجم).
(١٩٤) أوراق التواليت المستعملة، وتستعمل أيضًا للتعبير عن الاشمئزاز (المترجم).
(١٩٥) المركز الطبى الذى يمكن الاعتماد عليه (المترجم).
(١٩٦) مهدئ مسكن (المترجم).
(١٩٧) Thang fod بدلاً من Thank god .
(١٩٨) مكان مشهور بصناعة السارى الذى ينسب إليه (المترجم) .
(١٩٩) حلوى هندية تشبه الكرات (المترجم) .
(٢٠٠) حلوة للغاية (المترجم) .
(٢٠١) من أجل إيقاف القطار شد السلسلة مقروءة بالمقلوب (المترجم) .
(٢٠٢) الخيطيات التى تسبب داء الفيل (المترجم) .
(٢٠٣) نوع من الزهور تماثل الأوكيد (المترجم) .

المؤلفة فى سطور :

ولدت أرونداتى روى فى نوفمبر ١٩٦١ من أم مسيحية من كيرالا (ولاية هندية) وأب بنغالى هندوسى يعمل مزارعا للشاى . وهى لم ترَ والدها غير مرتين طوال حياتها .

تقول والدتها " إن بعض الأحداث الواردة فى الكتاب تقوم على أشياء حدثت عندما كان عمر أرونداتى روى عامين " . وتقول أرونداتى روى " أنا لا أتذكرها . لكن من الواضح أنه قد تم اختزانها فى جزء ما من عقلى " .

وتقول المؤلفة " لقد نَمَوْت فى أحوال مماثلة للأطفال فى الكتاب . لقد طلقت أمى . وعشت على حافة المجتمع ، فى نمط للحياة هش للغاية . وعندما بلغت السادسة عشرة تركت المنزل وعشت على مسئوليتى . لم يكن الأمر بشعا ، لكنه كان يتسم بافتقاد الأمن والاستقرار . كنت أعيش فى مستعمرة تقوم على وضع اليد فى دلهى" .

وتقول " منذ طفولتى وأنا أعلم أنه على الناس أن تفعل أشياء عندما تكبر ، وكنت أعرف أننى أرغب فى أن أكون كاتبة " . إن الكثير من تجارب الأشياء الصغيرة يقوم على تجاربى التى ترعرعت فى كيرالا . ومن أكثر الأمور إثارة للاهتمام أن كيرالا هى المكان الوحيد فى العالم الذى تتوافق فيه الأديان . كانت المسيحية والهندوسية والماركسية والإسلام تعيش كلها معا . وعندما كبرت كانت الماركسية قوية ، وكأن الثورة سوف تهب الأسبوع القادم " .

استغرقت كتابة الرواية خمسة أعوام ، ولم يكن لها عنوان حتى آخر دقيقة . كانت هنالك عدة آراء واقتراحات ، لكنها كتبت الاسم وهى تطبع المخطوط .

تدربت أرونداتى روى كمهندسة ، وعملت مصممة إنتاج ، وكتبت سيناريو وحوار فيلمين . وهى تعيش الآن فى نيودلهى ، وهذا هو كتابها الأول . وقد حصلت عنه على جائزة البوكر البريطانية فى أكتوبر ١٩٩٧ .

المترجم فى سطور :

ولد فخرى لبيب فى فبراير ١٩٢٨ . وهو حاصل على درجة الدكتوراه فى الچيولوچيا من جامعة القاهرة .

ترجم حوالى ٢٠ كتابا منها رباعية الإسكندرية للورانس داريل ، وعريان بين ذئاب لبرونو أبيتز .

حرر حوالى ١٥ كتابا منها نهر النيل – الماضى والحاضر والمستقبل ، صراع الحضارات أم حوار الثقافات ، عولمة التجارة ومصالح شعوب الجنوب .

له كتاب من جزأين حول التحالف والمواجهة فى الفترة ما بين ١٩٥٨ – ١٩٦٥ .

نشر رواية " الجبل وأنا " ومجموعة قصص قصيرة " كنز الدخان " .

نشرت له العديد من المقالات السياسية ، وكذا المقالات المترجمة .

وله أيضا أوراق بحثية منشورة فى علم الچيولوچيا .

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	چيرار چينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ - مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ - خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحداثة	پول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ – نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ – واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ – نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ – الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ – قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ – ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢ – عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ – اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	ت : المهدى أخريف
٤٤ – بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
٤٥ – التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ – عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ١	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ – حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
٤٩ – الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ – ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١ – مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢ – العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ – الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ – المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥ – ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ – الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ – الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ – مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ – المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ – التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ – موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢ – لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ – تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٢	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ – برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ – فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ – خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ – مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨ – نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ – العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ – ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ – السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

٧٢ – السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
٧٣ – نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	ت : حسن بيومى
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦ – چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجيل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
٩٥ – مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (المجلد الأول)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
٩٨ – الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديڤيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
١٠١ – النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣ – قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرامتى	ت : أشرف على دعدور
١٠٧ – صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدى

١٠٨ – ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩ – حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ – النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ – المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ – الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ – راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ – مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥ – غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦ – امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ – المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ – النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩ – النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ – الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ – الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢ – نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣ – الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيتل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ – الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ – التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولى
١٢٦ – فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ – إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨ – الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ – الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ – الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١ – مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ – ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ – الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤ – تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ – المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ – فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ – مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	چوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨ – عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ – پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ – حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١ – اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ – الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣ – قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤ – صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ – موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ – الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف البمبى
١٤٧ – خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ – القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ – النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ – التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت: منيرة كروان
١٥١ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢ – عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ – غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ – مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ – الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ – المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧ – خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩ – الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ – آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ – من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ – تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ – موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
١٦٤ – شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ – حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ – العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ – فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ – دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ – إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ – الطريق	ميغيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ – وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ – حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابى
١٧٣ – معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ – صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ – التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ – نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ – أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت : حصة إبراهيم منيف
١٧٨ – مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ – حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ – قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ – النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت . ب . ليتش	ت : محمد يحيى

١٨٢ - العنف والنبوءة	و . ب . ييتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ - چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	ت : فتحى العشرى
١٨٤ - القاهرة .. حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	ت : دسوقى سعيد
١٨٥ - أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ - معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ - الأرضة	بُزُرْج علَوى	ت : علاء منصور
١٨٨ - موت الأدب	ألفين كرنان	ت : بدر الديب
١٨٩ - العمى والبصيرة	پول دى مان	ت : سعيد الغانمى
١٩٠ - محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت : محسن سيد فرجانى
١٩١ - الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت : مصطفى حجازى السيد
١٩٢ - ساحت نامه إبراهيم بك جـ١	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
١٩٣ - عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت : محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ - مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد
١٩٥ - شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
١٩٦ - المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
١٩٧ - الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ - الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ - تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ - ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت : فخرى لبيب
٢٠١ - الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٠٢ - تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ - الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ - تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت : أحمد محمود هويدى
٢٠٥ - الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى - سفورزا	ت : أحمد مستجير
٢٠٦ - الهيولية تصنع علمًا جديدًا	جيمس جلايك	ت : على يوسف على
٢٠٧ - ليل إفريقى	رامون خوتاسندير	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ - شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت : محمد أحمد صالح
٢٠٩ - السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٠ - مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ - فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	ت : محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢ - قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ - مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر	ريمون فلاور	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢١٤ - قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت : محمد محمود محى الدين
٢١٥ - سياحت نامه إبراهيم بك جـ٢	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢١٦ - جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٧ - مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت	ت : نادية البنهاوى
٢١٨ - رايولا	خوليو كورتازان	ت : على إبراهيم على منوفى

٢١٩ – بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ – الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت : على يوسف على
٢٢١ – شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ – فرانز كافكا	رونالد جراى	ت : نسيم مجلى
٢٢٣ – العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	ت : السيد محمد نفادى
٢٢٤ – دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ – حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ – أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت : طاهر محمد على البربرى
٢٢٧ – المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى مارديا ديف بوركى	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ – علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : مارى تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ – مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمان	ت : أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠ – عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١ – الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ – مابعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣ – فكرة الاضمحلال	أرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ – الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ – ديوان شمس تبريزى ج١	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦ – الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ – مصر أرض الوادى	روبين فيدين	ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ – العولمة والتحرير	الانكتاد	ت : ياسر محمد جاد الله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩ – العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارافر – رايوخ	ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ – الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت : صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ – فى انتظار البرابرة	ك. م كويتز	ت : ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ – سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت : صبرى محمد حسن عبد النبى
٢٤٣ – تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ١)	ليفى بروفنسال	ت : مجموعة من المترجمين
٢٤٤ – الغليان	لاورا إسكيبيل	ت : نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ – نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	ت : توفيق على منصور
٢٤٦ – قصص مختارة	جابرييل جرثيا ماركث	ت : على إبراهيم على منوفى
٢٤٧ – الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	وولتر أرمبرست	ت : محمد الشرقاوى
٢٤٨ – حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ – لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت : رفعت سلام
٢٥٠ – علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ت : ماجدة أباظة
٢٥١ – موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٥٢ – رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت : على بدران
٢٥٣ – تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوڤا	ت : حسن بيومى
٢٥٤ – الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ – أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٦ – ديكارت	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ – تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت : محمود سيد أحمد
٢٥٨ – الفجر	سير أنجوس فريزر	ت : عُبادة كُحيلة
٢٥٩ – مختارات من الشعر الأرمنى	نخبة	ت : ڤاروچان كازانچيان
٢٦٠ – موسوعة علم الاجتماع ج٣	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٦١ – رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ – مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ – الكشف عن حافة الزمن	چون جريبن	ت : على يوسف على
٢٦٤ – إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلى	ت : لويس عوض
٢٦٥ – روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	ت : لويس عوض
٢٦٦ – مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت : عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ – فن الرواية	ميلان كونديرا	ت : بدر الدين عرودكى
٢٦٨ – ديوان شمس تبريزى ج٢	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧٠ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧١ – الحضارة الغربية	توماس سى . باترسون	ت : شوقى جلال
٢٧٢ – الأديرة الأثرية فى مصر	س. س. والترز	ت : إبراهيم سلامة
٢٧٣ – الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان آر. لوك	ت : عنان الشهاوى
٢٧٤ – السيدة بربارا	رومولو جلاجوس	ت : محمود على مكى
٢٧٥ – ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	أقلام مختلفة	ت : ماهر شفيق فريد
٢٧٦ – فنون السينما	فرانك جوتيران	ت : عبد القادر التلمسانى
٢٧٧ – الچينات : الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت : أحمد فوزى
٢٧٨ – البدايات	إسحق عظيموف	ت : ظريف عبد الله
٢٧٩ – الحرب الباردة الثقافية	فرانسيس ستونر سوندرز	ت : طلعت الشايب
٢٨٠ – من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت : سمير عبد الحميد
٢٨١ – الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	ت : جلال الحفناوى
٢٨٢ – طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبيرت	ت : سمير حنا صادق
٢٨٣ – السهل يحترق	خوان رولفو	ت : على البمبى
٢٨٤ – هرقل مجنوناً	يوريبيدس	ت : أحمد عتمان
٢٨٥ – رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	ت : سمير عبد الحميد
٢٨٦ – سياحت نامه إبراهيم بك ج٣	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢٨٧ – الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كينج	ت : محمد يحيى وآخرون
٢٨٨ – الفن الروائى	ديفيد لودج	ت : ماهر البطوطى
٢٨٩ – ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	ت : محمد نور الدين
٢٩٠ – علم اللغة والترجمة	جورج مونان	ت : أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١ – المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج١	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر
٢٩٢ – المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج٢	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر

٢٩٣ – مقدمة للأدب العربى	روجر آلان	ت : نخبة من المترجمين
٢٩٤ – فن الشعر	بوالو	ت : رجاء ياقوت صالح
٢٩٥ – سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت : بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦ – مكبث	وليم شكسبير	ت : محمد مصطفى بدوى
٢٩٧ – فن النحو بين اليونانية والسوريانية	ديونيسيوس ثراكس – يوسف الأهوانى	ت : ماجدة محمد أنور
٢٩٨ – مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	ت : مصطفى حجازى السيد
٢٩٩ – ثورة التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	ت : هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠ – أسطورة بروميثيوس مج١	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى وبهاء چاهين
٣٠١ – أسطورة بروميثيوس مج٢	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى ومحمد الجندى
٣٠٢ – فتجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣ – بـوذا	جين هوب وبورن فان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤ – ماركس	ريـوس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥ – الجلد	كروزيو مالاپارته	ت : صلاح عبد الصبور
٣٠٦ – الحماسة – النقد الكانطى للتاريخ	چان – فرانسوا ليوتار	ت : نبيل سعد
٣٠٧ – الشعور	ديفيد بابينو	ت : محمود محمد أحمد
٣٠٨ – علم الوراثة	ستيف جونز	ت : ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩ – الذهن والمخ	انجوس چيلاتى	ت : جمال الجزيرى
٣١٠ – يونج	ناجى هيد	ت : محيى الدين محمد حسن
٣١١ – مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	ت : فاطمة إسماعيل
٣١٢ – روح الشعب الأسود	وليم دى بويز	ت : أسعد حليم
٣١٣ – أمثال فلسطينية	خايير بيان	ت : عبد الله الجعيدى
٣١٤ – الفن كعدم	جينس مينيك	ت : هويدا السباعى
٣١٥ – جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	ت :كاميليا صبحى
٣١٦ – محاكمة سقراط	أ. ف. ستون	ت : نسيم مجلى
٣١٧ – بلا غد	شير لايموفا – زنيكين	ت : أشرف الصباغ
٣١٨ – الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	ت : أشرف الصباغ
٣١٩ – صور دريدا	جايتر ياسبيفاك وكوستوفر نوريس	ت : حسام نايل
٣٢٠ – لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٢١ – تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج١)	ليفى برو فنسال	ت : نخبة من المترجمين
٣٢٢ – وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو. إيوجين كليتباور	ت : خالد مفلح حمزة
٣٢٣ – فن الساتورا	تراث يونانى قديم	ت : هانم سليمان
٣٢٤ – اللعب بالنار	أشرف أسدى	ت : محمود سلامة علاوى
٣٢٥ – عالم الآثار	فيليب بوسان	ت : كرستين يوسف
٣٢٦ – المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	ت : حسن صقر
٣٢٧ – مختارات شعرية مترجمة	نخبة	ت : توفيق على منصور
٣٢٨ – يوسف وزليخة	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٢٩ – رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	ت : محمد عيد إبراهيم

٣٣٠ - كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	ت : سامي صلاح
٣٣١ - عندما جاء السردين	ستيفن جراي	ت : سامية دياب
٣٣٢ - رحلة شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	ت : علي إبراهيم علي منوفي
٣٣٣ - الإسلام في بريطانيا	نبيل مطر	ت : بكر عباس
٣٣٤ - لقطات من المستقبل	آرثر س. كلارك	ت : مصطفى فهمي
٣٣٥ - عصر الشك	ناتالي ساروت	ت : فتحي العشري
٣٣٦ - متون الأهرام	نصوص قديمة	ت : حسن صابر
٣٣٧ - فلسفة الولاء	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصاري
٣٣٨ - نظرات حائرة وقصص أخرى من الهند	نخبة	ت : جلال السعيد الحفناوي
٣٣٩ - تاريخ الأدب في إيران جـ٣	علي أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٤٠ - اضطراب في الشرق الأوسط	بيرش بيربيروجلو	ت : فخري لبيب
٣٤١ - قصائد من رلكه	راينر ماريا رلكه	ت : حسن حلمي
٣٤٢ - سلامان وأبسال	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٤٣ - العالم البرجوازي الزائل	نادين جورديمر	ت : سمير عبد ربه
٣٤٤ - الموت في الشمس	بيتر بلانجوه	ت : سمير عبد ربه
٣٤٥ - الركض خلف الزمن	بونه ندائي	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦ - سحر مصر	رشاد رشدي	ت : جمال الجزيري
٣٤٧ - الصبية الطائشون	جان كوكتو	ت : بكر الحلو
٣٤٨ - المتصوفة الأولون في الأدب التركي جـ١	محمد فؤاد كوبريلي	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٣٤٩ - دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدرون وآخرين	ت : أحمد عمر شاهين
٣٥٠ - بانوراما الحياة السياحية	أقلام مختلفة	ت : عطية شحاتة
٣٥١ - مبادئ المنطق	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصاري
٣٥٢ - قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	ت : نعيم عطية
٣٥٣ - الفن الإسلامي في الأندلس (هندسية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت : علي إبراهيم علي منوفي
٣٥٤ - الفن الإسلامي في الأندلس (نباتية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت : علي إبراهيم علي منوفي
٣٥٥ - التيارات السياسية في إيران	حجت مرتضى	ت : محمود سلامة علاوي
٣٥٦ - الميراث المر	بول سالم	ت : بدر الرفاعي
٣٥٧ - متون هيرميس	نصوص قديمة	ت : عمر الفاروق عمر
٣٥٨ - أمثال الهوسا العامية	نخبة	ت : مصطفى حجازي السيد
٣٥٩ - محاورات بارمنيدس	أفلاطون	ت : حبيب الشاروني
٣٦٠ - أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ت : ليلى الشربيني
٣٦١ - التصحر : التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	ت : عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢ - تلميذ باينبرج	هاينرش شبورال	ت : سيد أحمد فتح الله
٣٦٣ - حركات التحرر الأفريقي	ريتشارد جيبسون	ت : صبري محمد حسن
٣٦٤ - حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	ت : نجلاء أبو عجاج
٣٦٥ - سأم باريس	شارل بودلير	ت : محمد أحمد حمد
٣٦٦ - نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	ت : مصطفى محمود محمد

٣٦٧ – القلم الجرىء	نخبة	ت : البرّاق عبد الهادى رضا
٣٦٨ – المصطلح السردى	جيرالد برنس	ت : عابد خزندار
٣٦٩ – المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	ت : فوزية العشماوى
٣٧٠ – الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	ت : فاطمة عبد الله محمود
٣٧١ – المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جـ٢	محمد فؤاد كوبريلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٣٧٢ – عاش الشباب	وانغ مينغ	ت : وحيد السعيد عبد الحميد
٣٧٣ – كيف تعد رسالة دكتوراه	أمبرتو إيكو	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٧٤ – اليوم السادس	أندريه شديد	ت : حمادة إبراهيم
٣٧٥ – الخلود	ميلان كونديرا	ت : خالد أبو اليزيد
٣٧٦ – الغضب وأحلام السنين	نخبة	ت : إدوار الخراط
٣٧٧ – تاريخ الأدب فى إيران جـ٤	على أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٧٨ – المسافر	محمد إقبال	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٧٩ – ملك فى الحديقة	سنيل باث	ت : جمال عبد الرحمن
٣٨٠ – حديث عن الخسارة	جونتر جراس	ت : شيرين عبد السلام
٣٨١ – أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	ت : رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢ – تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	ت : أحمد محمد نادى
٣٨٣ – هدية الحجاز	محمد إقبال	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٣٨٤ – القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	ت : إيزابيل كمال
٣٨٥ – مشترى العشق	محمد على بهزادراد	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٨٦ – دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ت : ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧ – أغنيات وسوناتات	چون دن	ت : بهاء چاهين
٣٨٨ – مواعظ سعدى الشيرازى	سعدى الشيرازى	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٨٩ – من الأدب الباكستانى المعاصر	نخبة	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٣٩٠ – الأرشيفات والمدن الكبرى	نخبة	ت : عثمان مصطفى عثمان
٣٩١ – الحافلة الليلكية	مايف بينشى	ت : منى الدروبى
٣٩٢ – مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دى لاجرانخا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٣٩٣ – فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	ت : زينب محمود الخضيرى
٣٩٤ – القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	ت : هاشم أحمد محمد
٣٩٥ – آلام سياوش	إسماعيل فصيح	ت : سليم حمدان
٣٩٦ – السافاك	تقى نجارى راد	ت :محمود سلامة علاوى
٣٩٧ – نيتشه	لورانس جين	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٣٩٨ – سارتر	فيليب تودى	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٣٩٩ – كامى	ديفيد ميروفتس	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٤٠٠ – مومو	مشيائيل إنده	ت : باهر الجوهرى
٤٠١ – الرياضيات	زيادون ساردر	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٠٢ – هوكنج	ج . ب . ماك ايفوى	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٠٣ – ربة المطر والملابس تصنع الناس	توبور شتورم	ت : عماد حسن بكر
٤٠٤ – تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ت : ظبية خميس
٤٠٥ – إيزابيل	أندريه جيد	ت : حمادة إبراهيم
٤٠٦ – المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٤٠٧ – الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	أقلام مختلفة	ت : طلعت شاهين
٤٠٨ – معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	ت : عنان الشهاوى

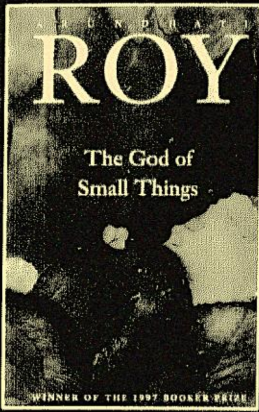
٤٠٩ - انتصار السعادة	برتراند راسل	ت : إلهامى عمارة
٤١٠- خلاصة القرن	كارل بوبر	ت : الزواوى بغورة
٤١١ - همس من الماضى	جينيفر آكرمان	ت : أحمد مستجير
٤١٢ - تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج٢)	ليفى بروفنسال	ت : نخبة
٤١٣ - أغنيات المنفى	ناظم حكمت	ت : محمد البخارى
٤١٤ - الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	ت : أمل الصبان
٤١٥ - صورة كوكب	فريدريش دورنيمات	ت : أحمد كامل عبد الرحيم
٤١٦ - مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	ت : مصطفى بدوى
٤١٧ - تاريخ النقد الأدبى الحديث ج٥	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤١٨ - سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	جين هاثواى	ت : عبد الرحمن الشيخ
٤١٩ - العصر الذهبى للإسكندرية	جون ماريو	ت : نسيم مجلى
٤٢٠ - مكرو ميجاس	فولتير	ت : الطيب بن رجب
٤٢١ - الولاء والقيادة فى المجتمع الإسلامى	روى متحدة	ت : أشرف محمد كيلانى
٤٢٢ - رحلة لاستكشاف أفريقيا جـ١	نخبة	ت : عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٢٣ - إسراءات الرجل الطيف	نخبة	ت : وحيد النقاش
٤٢٤ - لوائح الحق ولوامع العشق	نور الدين عبد الرحمن الجامى	ت : محمد علاء الدين منصور
٤٢٥ - من طاووس حتى فرح	محمود طلوعى	ت : محمود سلامة علاوى
٤٢٦ - الخفافيش وقصص أخرى من أفغانستان	نخبة	ت : محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧ - بانديراس الطاغية	باى إنكلان	ت : ثريا شلبى
٤٢٨ - الخزانة الخفية	محمد هوتك	ت : محمد أمان صافى
٤٢٩ - هيجل	ليود سبنسر وأندرزجى كروز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٠ - كانط	كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣١ - فوكو	كريس هيروكس وزوران جفتيك	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٢ - ماكياڤللى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٣ - جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	ت : حمدى الجابرى
٤٣٤ - الرومانسية	دونكان هيث وجودى بورهام	ت : عصام حجازى
٤٣٥ - توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ت : ناجى رشوان
٤٣٦ - تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٧ - رحالة هندى فى بلاد الشرق	شبلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٤٣٨ - بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	ت : عايدة سيف الدولة
٤٣٩ - موت المرابى	صدر الدين عينى	ت : محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠ - قواعد اللهجات العربية	كرستن بروستاد	ت : محمد الشرقاوى
٤٤١ - رب الأشياء الصغيرة	أروندهاتى روى	ت : فخرى لبيب

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٤٥٧٢ / ٢٠٠٢

أرونداتى روى

رب الأشياء الصغيرة




أرونداتى روى





المشروع القومى للترجمة

يتسم أسلوب الروائية بالذكاء الشديد والتكثيف العميق؛ إذ إنها تصوغ صورًا جديدة، مبهرة ورائعة. الرواية عامرة بالمتع الذهنية التى تمسك بالقارئ فيلتحم بالنص ليغدو جزءًا منه لا ينفصل عنه. إنها تعيد صناعة الطبيعة والناس والمشاعر، تطليها بألوان رؤاها، وتعيد تشكيلها؛ فتبدو متحركة صاخبة أو هادئة لكنها أبدًا لن تكون ساكنة.

الرواية تمتد لتشمل مساحة عريضة فى المجتمع الهندى فى ولاية كيرالا؛ حيث تبرز قضية مهمة، تلقى بظلالها على النسيج كله، إنها قضية النبذ والمنبوذين. المنبوذ هو ربُّ الضياع، ربُّ الأشياء الصغيرة، الموجود وغير الموجود، الذى لا يترك أثرًا فى الرمال، ولا تموجات خفيفة فى المياه، ولا صورة فى المرايا. إنه لا شىء.. كائن بلا كيان.

لوحة الغلاف : أسرار مشتركة للفنانة الهندية : روديتيا ريكا ■ تصميم الغلاف : أسامة العبد

